محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الثالث



محمد بن تاويت
الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى
الشركة الجديدة
دار الثقافة
الدار البيضاء

محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الثالث



محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى



محمد بن تاويت

الوافي بالأدب العربي في المغرب الأقصى

الجزء الثالث

نشر وتوزيع



دار الثقافة
34.32 شارع فيكتور هيكو
الدار البيضاء
الهاتف : 30·23·75

الطبعة الاولى 1404 هـ — 1984 م

الباب السادس

العصر السعدي

الفصل الأول

يعتبر هذا العصر عهد تجديد للمغرب فى كل شىء ، فى الحكم والسيادة الممتدة ، فى الدبلوماسية والعلاقات الدولية مع الشرق العربى والاسلامى والغرب المسيحى والاسلامى كذلك ، فى الشمال الافريقي والجنوب الشرقى الاوربى ، حيث الاتراك فيهما معا وفى الحضارة وتنظيم الجيش واحداث دواليب الصناعة ، وتسيير أساطيل التجارة ، وفى الآداب ، وهذا ما يعنينا فى دراستنا هذه .

لقد عهد المغرب فيما مضى ، أن موجهات النهضة الادبية تنطلق من الشمال ، حيث الاتصال بالاندلس دائما ، وتنتهى فى امتدادها عند الجنوب ، أما الآن فقد انعكس الوضع ، وتغير الاتجاه راسا على عقب ، فالاندلس ، أصبحت لا علاقة لها بالمغرب فى هذا الادب ولغته العربية ، والثغور المغربية نفسها ، وعلى راسها ما يقابل الجزيرة الايبيرية ، أصبحت تحت سيطرة الاسبان فى شرق البلاد والبرتغال فى شمالها وغربها ، والدولة وضعت حجرها الاساسى لبنائها فى أقصى الجنوب ، وفى داخلية البلاد فى قصر السوق ، واعتمدت الاعتماد الكلى على الجنوبين من اهل السوس فى المقدمة ، فكان لهؤلاء شأنهم فى النوض بالحركة الادبية والاعلان عن وجودهم النشيط فيها ، والعاصمة لم تعد فى الشمال ، فاس ، بل عادت الى الجنوب فى مراكش العتيقة .

حقيقة ان البلاد عرفت حاضرتها مراكش فى العهدين المرابطى والموحدى ولكن فى العهد الاول ، ما كان يعقل لها أن تنجب من المغاربة ، وحينما انجبت فى العهد الموحدى واواخر العهد المرابطى ، كان أولئك النجباء جميعا من

أصل أندلسى ، عملت فيهم الوراثة ، التى لم يكن لمراكش حظ منها لذلك العهد ، ولهذا وجدنا ابن سعيد ، يستغرب فى القرن السابع من كون هذه الحاضرة لم يظهر فيها أديب أو شاعر ، وأغفل أن العاصمة كانت حديثة عهد بالانشاء ثم بالعقيدة الادبية ، التى لم يكن فى مكنة أهلها أن يلقنوها أولادهم ، وهذا ما جعل الانصراف ، عن الانشاء الى الاعادة والتسجيل ، للتواريخ وللتراجم وما الى هذا ، مما يصدر عن مكنون الحفظ ولا يصدر عن مضمون الفكر .

أما الآن فالوضع تغير ، تغير بالقدم الذى مر على العاصمة العتيقة ، وهى تتلقى وفود الآداب ، وتربى الاجيال من قومها الاصليين أو أبنــاء واحفاد الوافدين ، فكانت أربعة قرون ونيف ، مرت على انشاء الحاضرة ، كافية لميلاد الأدب المنشىء ، الى جانب المعيد . ثم قوى هذا تركيز الجاليات الاندلسية فى هذه الحاضرة ، وقد كانت فيما قبل هذا تتكتل بعيداً عنها ، فى الرباط وفى تطوان وفى مكناس ، بل حتى فى نواحى هذه المدن ، ولكن السعديين لم يسمحوا لهم بانشاء « مستعمرات » خاصة بهم ، كما كان الامر فى أواخر العهد الموحدى والعهد المرينى ، بل استقطبوا هذه الجالية، وقرروا وجودها فى العاصمة ونواحيها ، مفكرة وعاملة فى أجهزة الدولة ، ومنهمكة فى المصانع السكرية والمزارع العديدة ، ومجمدة فى الفرق التى بفضلها كان افتتاح السودان الغربى وتدفق الذهب على الدولة ، فأنطق الشعراء والكتاب ، وبنى القصور الشاهقة ، وزينها بالفسيفساء والمرمر والديباج والستور الحريرية .

هذا ما لا بد أن يوخذ فى الاعتبار ، حينما نريد التعليل لهذه الحركة المباركة التى شاهدها المغرب فى العهد السعدى ، ولاول قيام الدولة فى مستهل النصف الثانى من القرن العاشر ، وكأنها على ميعاد مع الادب ، أو أنها قالت له ، انهض من جدثك ، فقد طال المكوث ، فقال لها : لبيك لبيك ها أناذا قويا كما تريدين سويا ، كما خلقت الخلقة الاولى .

وهكذا نجد الادب يتنفس نفسا قويا ، ويصدر عنه أصداء مجلجلة ، لعهودها الاولى ، فمن أوائل الاصداء ما كان منبعثا من جزولة ، اذ كانت

جزولة بحكم سابقتها فى العلم والادب ، منذ القرن السادس لها الذكر الحميد فى هذه الدولة ، فأستاذ محمد الشيخ فى الادب ، كان أبا على الحسن بن عثمان الجزولى ، ومن اواخرهم على بن محمد الجزولى ، الذى كان ممن سفر عن المنصور ، الى الخليفة العثمانى ، وكتب فى هذه السفارة ، رحلته « كتاب النفحة المسكية فى السفارة التركية » ، وكان ذلك اواخر القرن العاشر ، على اثر ما كانت رسل الخليفة العثمانى ، قد قدموا ، من لدنه بهدية عظيمة ، كما يقول هذا المؤلف فتوجه منهم وفد السلطان ، مع السيد الكامل الفقيه الفاضل ... سيدى محمد بن على الفشتالى كما يحيله بذلك على الجزولى المذكور .

وسنرى ما كان للفشتاليين من شفوف فى هذه الدولة أيضا بعدما كان السوسيون يمثلون الرعيل الاول ، للادباء والشعراء والكتاب منهم خاصة ، قبل أن يمارس ذلك غيرهم ، فكان من ذاك الرعيل الشاعر النابغة ، محمد بن على الهوزالى ، الذى شرح ديوان المتنبى . وبهذا كان أول المغاربة الذين قاموا بهذا العمل الشاق . وكان محمد الشيخ يحفظ هذا الديوان عن ظهر قلب . وقد أنسىء فى عمر الهوزالى ، فكان شاعر الدولة السعدية ، على عهد احمد المنصور ، أما فى عهد محمد الشيخ ، فمن شعره قوله فيه وفى جيشه العتيد ، هذه الابيات من قصيدة عامرة (ذكرت بسوس العالمة) :

ببيض السيوف وسمر العوال	توطد أركان اس المعال
يرى الخاضعون لغمرتها	دماء الجروح كبنت الدوال
وعثير معترك قاتم	خلوقا ومسكا ودهن الغوال
الذ معانقة عندهم	معانقة القرن عند النزال
فان يتمن اخو خور	منادمة الشرب تحت الظلال
تمنوا منادمة الحرب فى الـ	ـهواجر بين شداد الرجال

يقول فيه محمد ابن عيسى الصنهاجي ، فى مقامته التى تناول فيها معاصريه من الأدباء والعلماء : « أخو علقمة ولبيد ، وذو المقول المحى المبيد يوثر المذق والبيد ، على الرياض والنبيذ .. جزالته فى وصف المهامه والقفار ،

وذكر المرخ والعفار ، وعلى ذلك فرمحه فى المدح مقوم الانابيب ، لا يقصر فيه عن ابن الحسين وحبيب » وله فى المنصور عدة قصائد سنتعرض الى بعضها فيما بعد .

ومن الجزوليين أبو عثمان سعيد الحامدى الذى كانت له قصائد سائرة فى ركاب هذه الدولة ، أشاد فى أوائلها ، بفتوحات محمد الشيخ وانتصاراته على البرتغال ، وهذا مطلع احداها :

لله ما غضبة هاجت فما تركت ... للمسلمين بأرض الشرك من وطر

فعال منتقم للـه ملتزم ... فى اللـه معتصم باللـه مقتدر

روح الخلافة قطر تستدير بـه ... رحى المكارم بين البدو والحضر

زان الزمان بأخلاق لـه شهدت ... بـأن أيامـه للدهـر كالغـرر

وهذه قصيدة أخرى للجزولى المذكور فى رثاء الامير محمد الحران ابن محمد الشيخ وتعزية أبيه وقد سقط قتيلا وهو يحاول استرجاع تلمسان من الترك عام 955 :

أتروى الامانى والامانى سـراب ... وتغنـى المغانى والمغانى خـراب

الام التعامـى والتعلـل بالمنـى ... وقـد قربـت للظاعنـين ركـاب

خليلـى من سود الليالى أساود ... نعض بصـرف والمنايـا لعـاب

فمـن تكـن الايـام يوما سررنه ... فانـى بأيـام الزمـان مصـاب

نعـى أتانـى والنعـى محمـد ... رددت عليـه والدمـوع جـواب

بكـاء لمـن شدت عرى الملك كفه ... ومـن رأيه فى المعضلات صواب

مهيبا تلاقيـه القنابـل (1) والقنا ... فتغضى وأعمـار الكمـاة نهـاب

كريـم غذتـه المكرمـات وسيد ... نمتـه كرام الناس طاب وطابوا

أتتـه المنايـا خلسة حيث أيقنت ... بأن اختلاسا فى القلـوب غلاب

فتـى نيط حب المأثـرات بلحمه ... فهـن حلات والمـديـح ثيـاب

فيـاليت مـن نادى صداه يجيبه ... كمـا كـان من ناداه فهو يجاب

وان طلاب الناس للعرف بعـده ... وقـد غيبوه فى الثرى لعجـاب

---

1) جمع قنبلة بفتح القاف والباء طائفة من الخيل والناس .

لقد بث بث الحزن فى الارض هلكه	فكل عميد فى البلاد مصاب
نعته القوافى للعوافى فأعولت	بنات الفيافى انسر وذئاب
أظن صروف الدهر تحدث بعده	ستحلو وان الحادثات لصاب
كما حال حال الطيبات لفقده	عن العهد حولا فالعذاب عذاب
عظيم ألم فى عظيم بمثله	وبين الشكول فى القياس نساب
فيا طيبا طاب الثرى بعظامه	قضيت ولم يلمم بساحك عاب
سلام ورضوان عليك ورحمة	يوافيك منها فى الضريح رغاب
عليك أبا الحران صبرا فذق به	دواء لادواء الزمان يشاب
رزئت جليلا فاحتسبه فانه	وان جل خطب فالعزاء عصاب
لعل مساس الرزء يقدح ما به	تهد صلاد أو تفت صلاب
فكن هضبة نأوى اليها فانما الـ	ـخطوب سيول والملوك هضاب
على انه التمحيص والميز حاكم	بأنك تبر والملوك تراب
فان غاض منه جعفر الباس والندى	ففى البحر والخلج العظام حساب
وما ضاع مجد قط حف بقبة	فكيف وقد حف القباب قباب
رعى الله الاسلام فيك بدوره	واخصب منها للانام جناب

فهذه القصيدة نلاحظ عليها أن ماء الشعر يجرى فيها ، بالرغم من تلك الحواجز البديعية ، التى كثيرا ما تعترض سبيله ، لانها فى الواقع كانت قد أصبحت منذ زمن بعيد ، حلية الادباء ، لا يمكنهم أن يعطلوا جيد اشعارهم منها ، شأنهم فى ذلك شأن اخوانهم الكتاب ، ولكنه مع هذا طويل النفس ، قدير على التصرف فى العبارة ، مشع فيها نورا ، طالما خبا ضوؤه .

على كل فهذا شعر فيه كثير من الصنعة البديعية ، خصوصا ما يتصل منها بالالفاظ ، مثل ، تغنى المغانى وسود الليالى أساود ، نعى اتانى والنعى محمد والتنابل والقنا وبث بث الحزن والقوافى للعوافى مع الفيافى ، وحال حال الطيبات على العهد حولا فالعذاب عذاب ،وصلاد مع صلاب ، والميز حاكم بأنك تبر والملوك تراب .

وفى قصيدته نجد اقتباسا من المنطق فى قوله : وبين الشكول فى

القياس نساب ، على انه بالرغم من ذلك ، لا يمجه الذوق الشعرى ، كما مج تلك الامثلة السابقة لعهده هذا ، مما جعلنا نستبشر بأن ادبنا فى هذا العهد ، قد خلص من تلك النكسة ، التى كان قد أصيب بها .

واذا نظرنا اليها فاننا نجدها بادىء ذى بدء ، ناظرة الى قصيدة لابن خفاجة فى رثاء الوزير أبى محمد ابن ربيعة ومطلعها :

شراب الامانى لو علمت سراب   وعتبى الليالى لو فهمت عتاب

وكما انها محشوة جناسا ، لا يكاد بيت منها يخلو من ذلك ، فان هذا الجناس أيضا من تقليد القصيدة المذكورة ، التى ورد فيها مثل :

فها انا أبكى كل معهد راحة   تضاحك أحباب به وحباب
وكيف استلانت صولة الموت عوده   فلم ينب عنه للمنية ناب

وان كان ابن خفاجة مقتصدا فى الجناس ، أما الطباق فقد أفاض فيه ابن خفاجة ، وكاد لا يخلو منه بيت من قصيدته ، على حين اقتصد فيه صاحبنا ، ابو سعيد كما فى قوله :

أظن صروف الدهر تحدث بعده   ستحلو وان الحادثات لعاب
كما حال حال الطيبات لفقده   عن العهد حولا فالعذاب عذاب
على أنه التمحيص والميز حاكم   بأنك تبر والملوك تراب
فان غاض منه جعفر البأس والندى   ففى البحر والخلج العظام حساب

والغالب ، أيضا ، أنه نظر الى بائية ابن زيدون ، فى مدحه محمد بن جهور :

أما علمت أن الشفيع شباب   فيقصر عن لوم المحب عتاب

والقصيدة — كما قلنا — بادرة من بوادر النهوض لشعرنا ، بعد تلك الوكسة التى أصابته طيلة قرن من الزمان وأزيد ، ثم ان موضوع الرثاء فى شعرنا قليل جدا ، وقد مرت له نماذج قليلة ، تكلمنا عنها فيما مضى ، وكان على رأسها مراثى أبى الربيع الموحد ثم ابن رشيد واحمد الجزنائى وميمون الخطابى .

وقد كان أيضا من شعر أبى عثمان سعيد هذا قصيدة ، نالت عناية

السوسيين ـ كما قال المختار السوسى رحمه الله ـ فصاروا يتدارسونها ويتناولونها بالشرح ، وهى فى مدح محمد الشيخ أيضا مطلعها :

اذا ما عرضن المعرضين بفاغم   كحلن عيون الناظرين بفاحم

ومن غزلها قوله :

تبدت كلمح البرق ثم تبرقعت   واغرت دموعى بالشؤون الشوائم
فكم لوعة تنتابنى وكانما   يسامرنى منها سمير الاراقم
الام على حبى سعادى وليتنى   حشوت غضا صدرى صدور اللوائم

ومن مدحها :

امام امام عود الطعن بالقنا   وعلم حد السيف حز الصلاغم
اذا ما الكماة مات الطعن فى القفا   أمل عليهم ضربها بالصوارم
بكل فتى يعطى الشجاعة حقها   اذا اصطخت الاحشاء تحت الحيازم

الى أن يقول ، مدلا بنفسه :

وملحمة لقحت وهى وليدة   فغادرتها تدعى بأم الملاحم
عواصف لما أن عصفن علي العدا   عطفن على الارحام أرأف راحم
جناح جناب رفرفرت رأفة به   قديم التحفى فيه ريش القوادم
اذا انتظر المكروب للكرب فرجة   اتيت مع التفريج أول قادم
فقد حزت بين الناس غير مدافع   جمال قصى فى سلالة هاشم

ويختمها بقوله :

سأنصف حر الشعر منى بمجلس   حبيب ابن أوس فيه والى المظالم
ثناء كما هبت من المسك نفحة   يغادى بها الارواح روح النواسم
وان مكان الشعر من كل ماجد   مكان الفصوص من حلى الخواتم (1)

وهناك آخرون ذكروا أيام عبد الله الغالب وكانوا على مستوى عال فى أدبهم ، بل كان حتى الفقهاء من المغاربة قد نالوا حظا من الادب لا بأس

1) تنظر الى قصيدة لابى حمو يغمراسن ، يجيب بها أحد رؤساء القبائل ، ومطلعها :
تذكرت أطلال الربوع الطواسم   وما قد مضى من عهدها المتقادم

به ، وهذه قصة ، تطلعنا على ما كان لهؤلاء الفقهاء من يد فى الادب ، على ذلك الحين ، قالوا ان وزير عبد الله بن الشيخ ، وهو ابن أخيه محمد ابن عبد القادر ، قصد ذات يوم مدينة فاس ، وكان يرافقه من الفقهاء القاضى الحميدى والفقيه المنجور ، فلما أشرفوا على فاس قال الوزير

أخلاى هذا المستقى وربوعه وهذى نواعير البلاد تنوح
وذاك المصلى مطرح الشوق والاسى وتلك منازيل الديار تلوح

فذيل الحميدى بقوله :

وتلك القباب الخضر شبه زبرجد بهن غوان طرفهن جموح
يمسن كأملود من الروض يانع شذاهن من حول الديار يفوح

فذيل المنجور بقوله :

ويرفلن فى الحلات يختلن بالحلا وفيهن أنواع الجمال وضوح
يبادرن ترقيع الكوى بمحاجر لاقبال حب طال منه نزوح

فلما بلغت الابيات للفقيه الزمورى ، قال :

تأمل بسنى الحسناء تحت نقابها كشمس غدت تحت السحاب تلوح
تجلت ربوع المستقى بجمالها ووافت الى تلك القباب تروح (1)

وهذه قصة أخرى ، تقص أن الوزير المذكور ، كان يرافقه فى سفر ، الفقيه المفتى الكاتب على عهد أبى محمد عبد الله المذكور ، وهو عبد الواحد الشريف الفيلالى ، وقد أرسلت السماء غيثها ، فقال الوزير :

لله أشكو غداة السفح اذ ركضت أيدى المطايا وحادى الريح يحدونا

فذيل الشريف :

والغيم فى الافق قد ارخى ذوابله بأسهم الودق لا ينفك يرمينا

---

1) ذيلوا كلهم بديهة كما فى « نزهة الحادى » مع اختلاف بسيط فى كلمات بها وبما بعدها .

فقـــال الوزيـــر :

حتـــى استـــوى المـــاء والآكـــام واستتـــرت
معـــالـــم الـــرشـــد لا خـــريـــت يهـــدينـــا
فظلـــت الخيـــل فى الامـــــواج ســـابحـــــة
سبـــح الســـلاحـــف نحـــو الـــدار يهوينـــا

فقـــال الشـــريف :

والنفس فى قلق لبيـــن مألفهـــــا ــــ والشوق يحدو بنا والحال يقصينا

فقـــال الوزيـــر :

كأننـــا لم نبـــت والوصل ثالثنـــــا ــــ حتى غدا الطير فوق الصرح يفشينا

هكذا نجد الادب فى هذه المرحلة يستجيب لاصحابه ، وخصوصا الشعر ·

وقد ولد احمد الزموري المذكور، فيما قبل هذا، عام 930 وتوفى عام 1001·

وكذلك كان فى طبقته ، بل ربما فاقه فى المشاركة بشتى الفنـــون القاضى الحميدى المولود فى نفس السنة ، ثم عبد الواحد السجلماسى المولود عام 933 ·

وهذه نماذج من أدب هؤلاء ·

فمن شعر الشريف السجلماسى ، ما انشده فى احدى المولديات على عهد المنصور ، من قصيدة تربو على سبعين بيتا يقول فيها :

أرقت وشـاقتنـــى البروق اللوامع ــــ وذكرى خليط هيجتـــه المرابـــــع
مرابـــع فيهن الروامس والسمـــا ــــ تراق من الاشواق فيها المدامـــع
كأن لم تكن من قبل قدما أواهـــلا ــــ اذ السلك منظوم وشملى جامـــع
تذكرنـــى عهد الاجارع واللـــوى ــــ وايـــن اللوا منـــى واين الاجارع
سحبنـــا بها ذيل الصبابة برهـــة ــــ وجفن الردى عنا وحاشاه هاجـــع
وقفت بها بالركب والليـــل دامس ــــ أنازعهـــا الشكوى بهـــا وتنازع
اسائلهـــا عـــن جيرة بان حيهـــم ــــ وضمت هواهم بعد ذاك الاضالـــع
فهل قدموا نحو العقيق صدورهم ــــ ولاح لهم بـــرق من الجـــو لامع
يخبرن عن دار الرســـول وقربهـــا ــــ عراص بهـــا للوحى فاضت ينابع

بدار بها يحمى الحمى سيد الورى وهبت على الاشراك منها زعازع (1)

ومن شعره ما استجاز به عبد العزيز الفشتالى ، فقال :

« ابا فارس بان الخليط وودعوا »

فقــال الفشتــالى :

« وولوا وحسن الصبر منى شيعوا »

فقــال :

« وغرد حادى البين وانشقت العصا »

فأجاب الفشتالى :

« وكاد فؤادى للنوى يتقطع »

فقــال :

« الى الله اشكو فرقة منهم وقد »

فذيل الفشتالى :

« تجرعت من كاس النوى ما تجرعوا »

فقــال :

« لئن شرد السلوان عنى بعدهم »

فقال الفشتالى :

« ففى صحبة المنصور انسى اجمع »

فقــال :

« تدور علينا هالة لقبابه »

فقال الفشتالى :

« ومركزها قصر الخلافة يلمع »

1) ختمها بقوله فى المنصور :

بكم راس هــذا القرن جدد ديننــا وفاضت بحــور للعلــوم دوافــع

فقـــال :

« سياج به بحر الندى متموج »

فقال الفشتالى :

« ومن أفقه شمس الامامة تطلع »

فهذا مثال آخر من تلك الامثلة التى تدلنا على ان الشعر كان طـوع هؤلاء الادباء الكتاب الذين كان منهم صاحبنا الشريف السجلماسى ٠

اما نثره فليس بيدنا منه ألا فضل من رسالة أجاب بها محمد بن عيسى الكاتب ، وقد استهداه قصيدة كان قد نظمها ، لتنقش على احدى قباب المنصور ، بقصره البديع ، يقول فى أولها :

« قسمـا بفـالـق الحـب والنـوى ، وبرسـولـه الـذى لا ينطق عن الهوى ، ما وقع منى الى العجوز المخطوبة قط انعطاف ، ولا اويت على شأنها من حين جهرتها لبيت البناء بها ليلة الزفاف ، ولا علـق بحفظى منها مطلع ولا خاتمة الخ ٠

فهذه النماذج تصور أدب الشريف فى أخريات حياتـه ٠

أما الزموري ، فمن شعره ، ما خمس به أبياتا لمخدومه أبى عبد الله السلطان محمد بـن عبد الله الغالـب ، قال أبو عبد الله هذيـن البيتـين :

خليلى ما يخفى انحصارى عن الصبا   فحلا عقالى قد اضر بـى الربط
ولا تحفـلا من لام او مـن تلوما   فان بحور اللوم ليس لها شـط

فقـــال :

الا فاعجبوا من عاذل لى قد اغربا   فكم ذاد عن عينى كراها وأذنبـا
وفى شرعتى حـل الخلاعة مذهبا   «خليلى ما يخفى انحصارى عن الصبا
فحلا عقالى قـد اضر به الربـط »

الا فارعووا عـن عذل صب تظلما   وبالبين صار القلب منـه متيمـا
والحاظه تنهل مـن عبـرة دمـا   « ولا تحفلا من لام أو مـن تلومـا
فان بحـور اللوم ليس لها شـط »

وقال أبو عبد الله المذكور :

فقم بنا نصطبح صهباء صافية ... فى وجهها عسجد فى وجهه نقط
وانهض اليها على رغم العدا قلقا ... فان تأخير أوقات الصبا غلط

فقال الزمورى مخمسا :

كم شادن بسهام اللحظ آونة ... رمى فؤادى وكم حوراء سافكة
وفى العقار اغتنم دابا مسالمة ... فقم بنا نصطبح صهباء صافية
فى وجهها عسجد فى وجهه نقط

وخل عن عاذل باللوم قد نطقا ... ودع سبيل الذى عن مذهبى انطلقا
«لا يعرف الشوق الا» (1) والتزم ارقا ... وانهض اليها على رغم العدا قلقا
فان تأخير أوقات الصبا غلط

وقال السلطان المذكور :

ساروا فسار فؤادى اثر ظعنهم ... وخلفونى نحيل الجسم حيرانا
لا افتر ثغر الندى من بعد بينهم ... ولا سقى هاطل وردا وريحانا

فخمسهما الزمورى بقوله :

استخبروا خبرى بعد انفصالهم ... قد اضرمت فى الحشا نار ببعدهم
بصبوتى لا ترى نفسى لغيرهم ... ساروا فسار فؤادى اثر ظعنهم
وخلفونى نحيل الجسم حيرانا

قد كان صفو حياتى يوم قربهم ... ولوعتى فى اقتراب من بساطهم
والآن ابقيت فى فيفا غرامهم ... لا افتر ثغر الندى من بعد بينهم
ولا سقى هاطل وردا وريحانا

وله مخمسا بيتين للمنصور :

ورقيب يرد اللحظ ردا ... ليس يرضى سوى ازديادى بعدا

---

(1) فيه تضمين واكتفاء ، مع اختلاف أيضا فى كلمات من هذه والتى بعدها فى النزهة

ساءه الطرف مذ جنى الخد وردا ان يوما لناظرى قد تبدى
فتملى من حسنه تكحيلا

وتصدى من فحشه فى استباق يمنع اللحظ من جنى واعتناق
ايأس العين من لحاظ ائتلاق قال جفنى لصنوه لا تلاقى
ان بينى وبين لقياك ميلا

واما احمد المنجور (1) العالم المشارك (واستاذ جيله) فان شعره شعر فقيه ، كما قال تلميذه ابن القاضى · واجمل ما نعرفه له البيان المتقدمان ، وان كان استعان فيهما بقول العتبى :

راين(2)الغوانىالشيب لاح بعارضى فأعرضن عنى بالخدود النواضر
وكن متى أبصرننى أو سمعن بى سعين فرقعن الكوى بالمحاجر

وكل ما فعله ابداله الاغراض بالاقبال ، والخدود النواضر بالجمال الواضحة انواعه .

واما عبد الواحد الحميدى فقد وجدنا له شعرا ، يتسم بسمة خاصة له ، وهو الفكاهة والمداعبة ، التى قليلا ما نجدها بأدبنا ، فمن ذلك قوله فى طالب أسمه عثمان كان يكثر من المجادلة ، ويعرف بلقب الدبدوى:

وصوت عثمان لدى المجالس كصوت بلبال من العتارس
ليس له فهم ولا له نظر جزاؤه الضرب بأذناب البقر

وقوله فى آخر يدعى بالحمام ، وقد سرقت ثيابه فى الحمام :

فلو رايت مشية الحمام خرج عريانا من الحمام
بصلعة بيضاء كالثغامة يشبه فى مشيته أسامة

ومن هذا القبيل قوله مداعبا عبد الرحمن بن محمد العنابى ، وقد بعث اليه بكبش وعسل :

ايا كاتب السر يامن بدت محاسنه فى الورى باهره

1) انظر ترجمته فى محاضراتنا « تاريخ التشريع الاسلامى » .
2) على لغة أكلونى البراغيث .

منحت الشفاء لنا صلة ... فأكرم بها منحة ظاهره
وكبشا سمينا له كلوة ... تفوق الكلا نعمة زاهره
فلا زلت تثبت كتب الامام ... رسوما لاعدائه قاهره

وقد فتحت هذه الابيات ابوابا من الشعر على عروضها وقافيتها ، فكان من قائليه عبد العزيز الفشتالى ، وبلديه محمد بن على ، ومحمد ابن عامر الشاوى ، والحسن بن عبد الكريم ، من كتاب المنصور ، والنابغة الهوزالى المذكور ، وعلى الشيظمى ، مما يدل على ان هؤلاء الادباء كانوا يجودون بثمار قرائحهم لادنى مناسبة ، فى جدهم وفى هزلهم.

وممن قال فى تلك المناسبة شعرا ، عبد الواحد السجلماسى :

اشيخ الجماعة يا قطبها ... ومن فى العلا مركز الدائرة
شننت بابياتكم غارة ... واحييت لى همة غابرة
وذكرتنى مربعا لم تزل ... مقيما به مقلتى ساهرة
وحركت فكرى بعلم غدت ... بصدرى مراسمه داثره
فهذا جواب لابياتكم ... الى ابن بدور العلا السافره
سليل الافاضل حقا ومن ... محاسنه فى الورى ظاهره

وان كان هذا الشعر لا يمثل تلك المداعبة ، بقدر ما يشيد بالشاعر وصاحبه الكاتب المهدى اليه (1) .

ومن شعر عبد الواحد سوى ما تقدم قصيدة مولدية :

ذكرت فى مناهل الصفا ، افتتحها بقوله :

الا حى نجدا والمعاهد من نجد ... وسائل بها من حل اكنافها بعدى

وبعد بضعة عشر بيتا اتصل بمدح الرسول فى قوله :

ولكن الى الاخرى سموت بهمة ... تبارى نجائبا لخير الورى تخدن

وبعد انتهائه من مدح الرسول تخلص الى مدح المنصور : بقوله :

وفيهم ومنهم من يلاذ بظله ... سميكم المنصور كالاسد الورد

1) انظر ما قيل من ابيات فى هذه المناسبة كتاب « نزهة الحادى » .

الى آخر القصيدة التى تربو على ستين بيتا .

وقد اثبت المقرى فى كتابه « روضة الآس » له مولدية اخرى طويلة ، تقع فى سبعة وسبعين بيتا ، استهلها بقوله :

حـــدث حديث اصيحابى وسمارى	وجيرتـــى حالتى يسرى واعسارى
القادحيـــن بزنـــد البين نار اسى	بيـــن الجوانح من شوق وتذكـــار
ركب سرى وظلام الليل معتكـــر	يـــؤم بيـــداء لا يرى بهـــا السارى

وهكذا يستمر فى افتتاحه بهذا النسيب التقليدى كما سبق له الى ان يتخلص الى مدح النبى فيقول :

لكـــن ترامت بهم أيدى المعالى الى	خير الورى من بنى عدنان مختار

ويتفرغ لمدحه عليه الصلاة والسلام فى ثلاثين بيتا من القصيدة ، وينتقل من ذلك الى مدح المنصور فيقول :

انـــى بكـــم وبآلكـــم لمغتبـــط	ومدحهـــم خيـــر أورادى واذكارى
قـــوم على غيرهم بالاحمديـــن لهم	فخر واى فخـــار فى الورى جارى
ذاك الرسول وهـــذا من خلائفه	للـــه مـــن شرف جـــم ومقـــدار
خيـــر الخلائف فى خلق وفى خلق	عديم شبـــه وامثـــال وانظـــار
جـــرى له لقب المنصور منفـــردا	فالنصر عادتـــه من غير أنصـــار

الى آخر الابيات السبعة والعشرين التى خصصها لمدح المنصور . وتكرر ذكر « الورى » فى هذه ، كما تقدم « خير الورى » فى الدالية ايضا ...

والمولديات كانت من اهم ما زخر به شعر الشعراء فى العهد المنصورى كما زخر ايضا قصر البديع الهائل الناطق ببديع الشعر ، الذى لم يقصر فيه شاعر من شعراء المنصور ، ومنهم عبد الواحد هذا ، الذى كتب اليه الوزير محمد ابن عيسى ، طالبا منه قصيدة ، لتكتب فى قبة الزجاج، بقصر البديع ، فامتثل الامر ، ووجه اليه بالقصيدة التى أصحبها رسالة تقدمت فقر منها مع الاشارة الى القصيدة المذكورة هنا .

نعم ان المولديات وقصر البديع الى جانب الفتوحات المنصوريةكانت

الميدان الخصب للشعراء ، وكان جميعها ينتهى بذكر المنصور العظيم ذلك الملك الذى كان واسطة عقد السعديين ، وكان يوثر فى مدحه تلك الاساليب من المبالغة التى سبــق لنا أن لاحظناها على جل القصائد التى كانــت تنظم للخلفاء الموحدين ورجال دولتهم . فالمنصور من السعديين — خاصة — كان يعجبه من القصائد التى تقال فى مدحه بهذه المبالغة التى قد تصل فى بعض الاحيان الى اغراق بالغ . وهى صنيع أغرم به خلفاء الفاطميين الذين أحلوا ابن هانىء الاندلسى من ساحتهم محلا مرموقا ، وصار المعز لدين الله يفخر به (ويأسف كل الاسف لمقتله) وهى كذلك قد أحلت الشاعر ابن حبوس محلا رفيعا من عبد المومن . ومن أتى بعده من خلفاء الموحدين وهى نفسها التى جعلت عبد المومن يباهى بالجراوى وجعلت بعدهمــا المنصور السعدى يفخر بالفشتالى كما ياتى .

وقد كان المنصور يدعى له ما كان يدعى لهؤلاء فى خلافتهم من أنها تنحدر فى صلبهم وأن الخليفة هو الامام والمهدى المنتظر الى آخــر تلك الاوصاف التى نجدها فى أدب السعديين . ولو أن هذه لا تغلو فى تلك الاوصاف غلو الادب الموحدى — خصوصا فى عهودهم الاولى — وانما نجد من ذلك ما سبق ان لمسناه فى تلك النماذج الشعرية وسنلمسه لعبد العزيز الفشتالى وغيره .

وكــانت هــذه المهدويــة قــد نجمت حينمــا لقب محمــد الشيخ نفسه بالمهدى ، وامتدت الفكرة الى الوصاية فلما كان عهد ابنه أحمد المنصور ، تقوت النزعة الشيعية بــه ، وصار شعراؤه ، كما نــرى ، يضربون على هذه النغمة ، وحاول المنصور أن يدعو لها فى الشرق ، وتحمس لها وأجاز على تنشيطها ، وهذا ما يفسر كون المنصور ، أثاب الماغوسى بألف دينار ، على شرحه لكتاب ابن الابار « درر السمط فى خير السبط » وهو كتاب تطغى عليه اللهجة المتشيعة ، واستمرت الفكرة ، حتى أوائل القرن الحادى عشر حيث وجدنا قاضى فاس ، أبا القاسم محمد بن أبى النعيم الغسانى الغرناطى الاصل والمتوفى سنة 1032 يقول :

توهم الشيعة اكتحــالــى   اذ عاينــوه بمقلتيــن

تزيـن الطرف فى زمـان   فيه شـوى السبط بالردين
فقلت كـلا سواد قلبـى   صعـده وقـده لعينـى
فكـان مـا خاتموه زينـا   وهـو حـداد على الحسين

وكأن قوله هذا تذييل لقول ابن الجوزى :

ولائـم لام فـى اكتحـالى   يـوم استباحوا دم الحسين
فقلت دعنـى أعـز عضو   يحظى بابس السواد عينى(1)

ومن الادباء الذين ظهروا قبل المنصور ، ولم تكن لهم شهرة فى الدولة، كما كانت لاولئك ابو عبد الله محمد بن على الخطيب القصيرى العكبرى وهذا الاديب ، من تلاميذ محمد بن غازى ، ولد ابن غازى المذكور . ومن شعره بعض الابيات التى نجدها فى درة الحجال ، كقوله :

اذا اتاك الخميس اجعل توابلـه   مـن الخميس واتيـان الدواليب

وهذا شعر لا ينم عن شاعرية فى صاحبه ، الذى كان من عدول فاس، كما يقول ابن القاضى ، لكننا نجد له الى جانبه مولدية جميلة كما يبدو

وهكذا فاننا اذا انتصفنا القرن العاشر ، وجدنا جمهـرة مـن الادبـاء والشعراء ، يبدو على فنها رونق الادب والشعر منه خاصة ، وكان منهم شاعرنا المذكور محمد بن على الخطيب العكبرى القصرى ثم الفاسى المتوفى عام 955 ، وهذا مطلع تلك المولدية المذكورة فى الدرة :

تجلـى مـولـد الهـادى   باقـبـال واسـعـاد
اشهـر دمـت مـن شهـر   وقـد خصصـت بالفخـر

وهى كما نرى على طريقة الازدواج ، المعروف غالبا فى الرجز والتوشيح.

ومن هؤلاء المغمورين داود الدغوغى الذى نجد له قصيدة فريدة فى موضوعها ، قالها بمناسبة الظفر العظيم الذى أحرزه المغاربة فى موقعة

1) كنا قد نشرنا مقالا تحت عنوان « التشيع فى الأدب السعدى » أتينا فيه بشواهـد كثيرة على هذه القضية التى قلنا بها بادىء ذى بدء ، وبعد ما نشرنا مقالا آخر فى التشيع بالأدب الوحدى . والمقصود بالزمان واليوم هو يوم عاشوراء .

وادى المخازن والغالب انه كان كسابقه من القصر الكبير حيث لهـذه العائلـة شهـرة بـه وهى قوله :

جنى النصر ما بين الظبى والكنائن — علـى سابقات المذكيات الصوافن
فبين المعالى والمآثر فى الوغـى — يجول الذى يبغى اقتحام المدائـن
هى السور من يجتزه حل بساحها — فحـل له منها امتلاك المخـازن
ومن لم يخض بحر الحروب فلايرى — لحوزته دون العدى خير صائـن
ومن لم يخضها بالثبات فرأيـه — يفيل ويمسى حظه جـد حائـن
وماذا يفيد الجيش ان كان ربه — كسيبسطيـان عند وادى المخازن
يقود لها ما يحجب الشمس نقعه — ميـاسـره لا تلتقـى بميـامـن
اتـى سادرا يختـال فى غلوائـه — وفى صدره للديـن غلى الضغائن
بسـرب نحـو المغربين جنـوده — كمثل الدبا عن ماخرات السفائن
ومـا قصده الا انتهاك حريمـه — ودك صيـاصيه وبعث الدفائـن
وقـود أسارى المسامين لارضه — يقـدمهم للصلب مثـل القرابـن
ولهـو بأبكـار الخـدور بناتنـا — فيصبحـن من خدامـه والسوادن
غدا مكـره والله يمكـر مكـره — بـه اذ حـداه نحو تلك الاماكن
فخيم فى تلك الجهـات وعينـه — لمـراكش الحمـراء لا لتطـاون
ولكنـه مـع حفلـه بمـدافـع — وبيض وسمـر وامتـلاء الكنائن
تخاف ربط الجاش عنـه فـرده — على خزيه صفرا ولو من فراسن
تجمع جند الله مـن كل وجهـة — وقـد غض من مدينـه كل دائن
من الملك المقدام فالعلماء فالشـ — يوخ أولى التقوى وأولى البواطن
وتلـوهم الاجنـاد والناس كلهم — تضل بهم أبصار كـل معايـن
فشبت لظى الهيجاء ليس وقودها — سوى انفس الشجعان وسطالميادن
اذا أرعدت تلك المدافـع أبرقت — صقيلات بيض الهند فوق اليمائن
فلولا البروق الخاطفات من الظبا — لما أبصرت عين خلال المداخـن
قد انقضت الفرسان منا عليهم انـ — قضاض سقور الجو فوق الرواشن
وصابر كـل قرنه فمنجـدل الـ — ثـرى وجريح ساحـب للمصارن
وهامهم مثـل الكرين وقد غـدت — سنابك خيل الله مثـل المحاجـن

وسيبسطيان كفنته مياهه هزيما وماء النهر أفظع كافن
فحين قضى البتار فى الكفر ما قضى واشلاؤه نتن بغير مدافن
رأيت الوفا من رؤوس تجمعت ويا ليتها أيضا جدار المآذن
هنالك نصر المومنين مؤزر على كل ذى كفر تهجم ضاغن
فذلك يوم مثل بدر وصنوه حنين بأيدى المومنين الميامن
لقد ذاق فيه البردقيز من الردى جزاء مناحيس خزايا ملاعن
بغوا فجنوا جنى البغاة فأصبحوا سماد الفيافى لا سماد الفدادن
فللشكل ما كان الهزيم لارضه وللصقر منذاقوا الردى والشواهن
فنحمد رب العرش اذ كان ديننا لاهل الوغى والبأس خير المعادن

ولا شك ان شعراء قد قالوا فى هذا النصر العظيم ، وفى هذه الوقعة التى خرج منها المغرب عالى الراس ، شامخ الانف ولكننا ليس بأيدينا من تلك القصائد الا هذه القصيدة لاحد أفراد بيت الدغوغى ، هذا البيت الذى عرف من أفراده من كانت تهزه هذه المواقف الجهادية، وكانت تنطقه تلك الزعامة الوطنية ، وسنرى بعد شاعرا آخر من هذا البيت يروعه مقتل العياشى ، فيرفع عقيرته بقصيدة فى رثائه .

فهذه قصيدة على كل حال نادرة تعد من الوثائق الامينة ، ومن المسجلات الدقيقة لموضوعها ، فهى ليست بتلك الصلصة الصاخبة التى نعرفها فى مثل هذه المناسبات كما نجد فى رائية الهوزالى . وليست بتلك التى تهمل تصوير الحدث ، وتتوجه بكليتها الى الاشخاص الذين يهيمنون على الموقف ، ويكتب لهم الظفر فيه كما عندنا فى قصائد الجراوى عامة . ولا شك ان الدغوغى لم يكن من رجال الدولة ، حتى تملى عليه شيئا من ذلك أو هذا ولا شك انه استعار هذا التشبيه فى معلقة عمرو :

يدهدهون الرؤوس كما تدهدى حزاورة بأبطحها الكرينا

فقال هو :

وهامهم مثل الكرين وقد غدت سنابك خيل الله مثل المحاجن

وقصيدته تبتدىء بالاشادة بما تجنيه العدة الحربية ، من اسلحة

ومن رباط الخيل ، وبها تكون للابطال جولاتها ويعلو بها ذكرها فاقتحام الاخطار سور من يجتزه يحل بساحات المعالى والمآثر ، ويتحقق له امتلاك الذخائر ، ولا صون لمن يتنكب عنها ، ولا حظ لمن لم يجل فكره بالثبات فيها ، كما قال رأى « سبستيان » انهزيم فى الموقعة رجاله والغريق بالوادى بدنه فلقد اتى بجيش حجب الشمس نقعه ، مبادرا مختالا يغلى صدره ضغنا على الاسلام ، قاصدا الى انتهاك حرمته ودك صياصيه ، وقتل رجاله وتقديم أساراه قرابين لصلبانه والعبث بحريمه وعياله ولكن مكره صده مكر الله ، الذى استدرجه فحداه الى تلك المواقع التى خيم بها ، وعينه متجهة الى عاصمة الدولة مراكش التى يحلم بملكها فقصفت مدافعه واستلت سيوفه وملئت كنائنه ، وسرعان ما تخلف ظنه وخانه جأشه ، وأخذه جند الله من كل جهة ، من الملك المقدام فالعلماء فالاشياخ فذوى الفضل والصلاح فى المقدمة ، تتلوهم الجنود والمتطوعة من الشعب، وسرعان ما شبت لظى الهيجاء ولم يكن وقودها الا أنفس الشجعان .

أمـا الهوزالى فنجد من شعره هـذه القصيدة التى قالها فى احدى فتوحات المنصور ، منها قوله :

فتوح جنـى المنصور فى عرصاتها	جنايـة نضر يانـع من غصونها
ولا غصن الا من قنـاة قويمهـا	ولا زهـر الا من شباة سنانهـا
ولا روض الا من حمـاة كماتها	ولا سقى الا مـا جرى من طعانها
كتائب منصوريـة قـذفت بهـا	مـرام نـات عن أرضها ومكانها
تهيم بهـا الارواح حتى كأنهـا	تناغى عزيف الجن فى دورانهـا
وتطـوى بساطا أرضها لقنابـل	سنابكهـا أطوى لهـا من بنانها
سحائب من مراكش قـد أثارهـا	صبا النصر يحدوهـا حداء عنانها
يؤم بهـا الصحـراء يرتاد أمـة	سدى أنفت آسادهـا من عرينها
فكـم ملك قـد رامهـا فتصعبت	عليـه ومجت فى مجـون حرانها
فلمـا همت تلك السحائب فوقها	أفاقت وهبت مـن كرى هيمانها
الى الملك الشهم الذى لقحت به	لقـاح الحروب بكرهـا وعوانها
الى ابن البتول المجتبى من نجارها	وفرع العلا المختار مـن خيرانها

الى ابن الهدى وابن الندى وردى العدا   وفخر بنى ابن المصطفى وهجانها
بنى الحسن السبط الزكى الذى خبت   بـه فتن الاسلام فى هيجانهـا

الى آخر القصيدة التى يقول ضمن أبياتها :

فـلا زالت الاقطار تعطى مقادها   لسيفك من سوس الى خراسانها

هـذه القصيـدة نـلاحظ عليهـا تلك النزعة الشيعية (1) ولـو انها ليست بالقوة التى عهدناها عند الموحدين وأيام عبد المومن وابنـه يوسف بالخصوص ، اما الجزالة فيها فواضحة لا تحتاج الى تعليق . وبذلك يكون السعديون كالموحدين تعجبهم من الامداح تلك الفخامة التى تنبىء عن عظمتهم ، زيادة على كونهم صاروا يقولون بالمهدوية والوصاية .

ومن شعر الهوزالى ما قاله فى ابلال المنصور من مرضه ، وهو مـن قصيدة يقول فيها :

تـردى أذى مـن سقمـك البـر والبحـر
وضجت لشكـوى جسمـك الشمس والبـدر
وبـات الهـدى خـوفا عليـك مسهـدا
وأصبـح مـذعـور الفـؤاد النـدى الغمـر
فلمـا أعـاد اللـه صحتـك التـى
أفـاق بهـا مـن غمـه البـدو والحضـر
تـراءت لنـا الـدنيـا بزينـة حسنهـا
وعـاد الـى ابـانـه ذلـك البشـر
وصـار بـك الاسـلام فـى كـل بلـدة
يهنـا وبـدعـو أن يطـول لـك العمـر
وصحـت لنـا الآمـال بعـد اعتـلالهـا
وعـادت الـى الاينـاع أغصـانهـا الخضر
ولا غـرو ان خـافـت علـى علـم النـدى
اذا اغبـر وجـه الارض واحتبـس القطـر

(1) وتقدم ما فى ذلك .

لسيـــب أبـــى العباس انضـــت عجافهـــا (1)
قـــديمـــا فخـــافت ان يعـــاودهـــا الضـــــر

الى آخـــر القصيدة .

ومن شعره ما قاله فى فتح السودان ، من قصيدة يقول فيها :

المت وقد الوى على وصلها الهجر	كما افتر اثر الليل عن ثغره الفجر
وجلى وقد لاحت دجى الليل وجهها	كما نض سجف الليل عن وجههالبدر
تساقط لى در لقطـــت فـــريده	بأنمـــل سمع عـــن غيـــره وقر
تحدث عن مسرى سوار رمت بها	مرام تضل النهج فى فيحها الزهر
تحامىهواها الطير من خشيةالردى	قديما وأعيا الريح مسلكها الوعـــر
وجشمها المنصـــور خـــرس كتائب	تحمـــل ما يردى فيحمله الصبـــر
تقـــاد نواصيهـــا بكل متـــــوج	نمتـــه الى عدنان آباؤه الغـــر

الى آخر القصيدة . التى صاغها على قصيدة للمتنبى ورد فيها البيت المعـــروف :

وتـــركك فى الدنيـــا دويـــا كأنمـــا	تنـــاول سمع المـــرء انمله العشر

ويتسم شعره بالجزالة ولهذا ما قال ابن عيسى فيه قولته السالفة الذكـــر .

ويقول الهوزالى : بمناسبة القضاء على ثورة الناصر ابن عبد الله الغـــالب :

ولاحت عليهـــم كـــل زعف كأنما	أفيضت علـــى أبدانهم زرق غدران
تلاقوا دويـــن الـــورد كل مدجج	يهـــز اليهـــم كـــل اسمر ظمـــآن
وبارقـــة للمـــوت تحت سحابهـــا	صواعـــق تتلوهـــا مـــوارج نيران
يقيم لهـــا الاحـــلاف برقا فأمطرت	عليهم بشؤبـــوب من الموت هتان
وكانوا يساقون المنايا وأجفلـــوا	اوقـــع الردينيـــات اجفال ظمـــآن

---

(1) تصحفت فى المصدر السابق كلمة « انضت » بانفقت كما تصحفت كلمات اخرى فى هذه وفى القصيدة السالفة والأبيات اللاحقة ، مع بعض الاختلاف فى النزهة كذلك .

وهكذا نرى الهوزالى يتبع طريقته المجلجلة ويجمع بين القديم والحديث فى ذكر معدات الحرب وأدواتها ولربما كانت حقيقة واقعية فكان « السلاح الابيض » يعمل عمله ازاء الاسلحة النارية والقذائف المدمرة ولا غرابة فى هذا فقد استعمل حتى فى الحرب العالمية .

وقد استعان فى هذه — كعادته — بغيره ، وذلك مثل البيت :

وصاعقة من نصله تنكفى بها على أرؤس الاقران خمس سحائب

وهو من شواهد البلاغة ، منذ القديم ، وما زال يعايشها حتى عصرنا هذا

وهناك ملزوزى آخر من الادباء الكتاب والشعراء ، وهو أبو الحسن على من كتاب الانشاء لولى العهد بالحضرة الفاسية ، كما يقول المقرى ، الذى لقيه بها ، وأنشده كثيرا من شعره ، فيه مولدية مدح خلالها المامون، واستهلها بقوله :

كف الملام عن الشجى الحيران	فاللوم يوثر كامن الاشجان
ودع الموله يشتكى ما فى الحشا	من لوعة أذكت لظا نيران
ويفوه عما فى الضمير بواكف	مغدودق فى دمعه الهتان
ويبوح بالمحبوب اعلانا فقد	ضاق الفضا عن أوجه الكتمان
ضاق الفضاء وصرت من فرط الغرا	م أسكب العبرات من أجفان
ابكى المعاهد والديار وان نأت	كلفا بها وبشيحها والبان
وأسائل العرصات عما قد حوت	اكنافها من خرد الغزلان
وأبث من شوقى ما يقضى بأ	نى فى المحبة ليس لى من ثان (1)

الى آخر المولدية التى تتسم بالتقليد المطلق ، وبضعف الاحكام فيها وفى اسلوبها ، زادها ضعفا ما بها من تدوير مشمئز . ولا شك ان الشاعر كان لذلك العهد ، لما تستكمل شروطه الشعرية ، بل كان يتسرب اليه الخطأ حتى فى الاستعمال اللغوى ، اذ نجد فى البيت الاول أنه استعمل فعل « يوثر » وهو يريد « يثير » ، والقصيدة طويلة ، زهاء سبعين بيتا .

---

1) فى البيت تدوير عند النون المشددة من « بانى » .

ومن شعره ما خاطب به المامون ، فقال ؛ شاكيا اليه :

أبلـــغ المامـــون انــــى	قـــد كسانى الدهر ضيما
واعترانى مـــن خمــــول	مـــا يزيد القلب سقمـــا
وامتنعت مـــن عطائـــى	منـــذ عـــاميـــن ظلمـــا
وانتهـــى حالى الى حا	ل زوى لحمـــا وعظمـــا
فى بنيـــن غـــادروا مـــن	فرط مـــا يلقـــون نـــوما
علـــه يسخو بمـــا من	دابـــه يســـديـــه حاسما
لا يكـــل أمـــرى لمن لا	يتقـــى عيبـــا وشتمـــا
ان لى فى مدحـــه مـــا	يمـــلأ الاسفـــار نظمـــا

وهى أبيات مسفة متضعضعة ، والغالب انه قالها بعدما مضى عليه حين من الدهر كاتبا للمامون ، الذى يذكره بهذه البساطة المتعارفة .

ومـــن شعره قوله :

الا هل الى صبح الوصال سبيل	وهل لى عن ليل الصدود محيل
فيكشف غيـــم الهجر عنى قناعه	وألثـــم ثغـــرا ريقـــه سلسبيـــل

فهذا غزل بارد فاتر على بساطته .

وله أمداح وقطع تأبينية أمر بكتبها على قبر بعض الحظايا للمامون ، كما ان له مدحا لابى مالك الحميدى .

وأملح ما له أرجوزة مجزوة فى الغزل ورد فيها :

ينجـــو الجريح من سها	م مقلتيـــه ان رمـــى
فـــاق الظبـــا مـــع المها	وفـــاق ربـــرب الحمـــى
قد حاز معنى الحسن لم	يفصـــل بالا أو بمـــــا
مـــن لى متى يبخل بأنـــ	ـــس كنت فيـــه مغرمـــا
انى ببـــذل النفس فيـــ	ـــه لـــم اطـــق أن اكتما
دعنـــى فانـــى قد شغفـــ	ـــت حبه (1) فى كل مـــا

(1) كما فى الآية « قدشغفها حبا » .

يقضـــى علـــى كيــف لا يقضى بمـــا قــد تيمــا
ذو الوجنتيـــن كالشقيـــ ـــق أو كـــرقراق الدما

ومن هؤلاء أبو الحسن على بن منصور الشيظمى المراكشى ، القائد الرئيس والكاتب البليغ المشارك ، كما يقول المقرى فى روضته ولد عـــام 950 أو 951 ، كما ذكر المقرى ·

ومن شعره قوله ، وقد كتب على باب مرمر من ابواب « البديع » :

الحسن لفظ وهذا القصر معناه يـــا مـــا امليلـــح مـــرآه وأسناه
فهو البديع الذى راقت بدائعــه وطابق اسم لــه فيهـــا مسماه
صـــرح أقيمت على التقوى دعائمه ودل منــــه على التاريخ مغنـــاه
ولاح أيضا وعين الحفظ تكلـــؤه تاريخه مـــن تمام « قل هو الله »

وقد استعان بقوله تعالى : « افمن اسس بنيانه على تقـــوى » وفى الابيات مما لا يليق بأسلوب الشعر « أيضا » ، كما أن التاريخ بالحروف ناقـــص ·

ومن شعره قصيدة مولدية يقول فيها :

بانـــوا وهاج الشوق ذكر ربوعهم ذات السنا والـــروض والاضواء
وشدا بهم حادى الركاب فكاد ان تدع القلوب جسومهـــا بفضـــاء
يا سعد لو أن الزمان مساعدى ومجيب داعى البعد بعض ندائـــى
لركبت حرفا كالهـــلال منـــافـــرا للهمـــز الا فى المنادى النـــائـــى
واجبت أحيـــاء الفـــلا وطويتهـــا طـــى المـــلا بنجيبـــة فـــــوداء
تختـــاض فى جوف النهار كأنهـــا ســـر تولـــج فى ضميـــر حجـــاء
وتخال فى لجـــج السراب سفينـــة تجرى القلوع بهـــا بريـــح رخاء
هل انزلن بهـــا المحصب من منى وأزور بعـــد معاهـــد الـــزوراء
فأحط عنها الرحـــل ثـــم مخيمـــا فى ظـــل أحمـــد بغيتـــى ومنـــاء
وأمـــرغ الخديـــن ملتثمـــا ثـــرى وطئتـــه رجـــلا خاتـــم النبـــآء
محى الهدى ماحى الضلالة والردى بالبيض والخطيـــة السمـــــراء

الى آخر المديح النبوى الذى تخلص منه لمدح المنصور فقال من ذلك :

دحـــر الالـــه لك الفتوح وصانها كالزهـــر فى الاكمـــام والاوعـــاء
لا بـــد مـــن فتـــح يروقك واضح كالصبـــح بـــدرى النجار كدائـــى
وستملك الحرم الشريف وينتمـــى للـــوائك المنصـــور دون مـــراء

والقصيدة على تواضعها بألفاظها وقوافيها تذكرنا بلهجة الجراوى لـــدى الموحدين ، وتعيد الينا ما كان عليه أولئك ازاء الايوبيين الاتراك بما كان عليه هؤلاء السعديون ازاء العثمانيين الاتراك ، فالجراوى قال ، يخاطب ابـــا يعقـــوب :

كتب الاله لكم فتوحـــا فى العـــدا هـــذا لهـــا وســـواه كالعنـــوان

ثم قال فى ابنه يعقوب :

سينظم السعد مصرا فى ممالكـــه حتى تـــدوخ منهـــا خيلـــه حلبـــا
الى العراق الى اقصى الحجاز الى اقصىخراسان يلقى جيشهالرعبا(1)

وتقدم آنفا للهوزالى :

فلا زالت الاقطار تعطى مقادهـــا لسيفك من سوس الى خراسانها

ويقول الشيظمى فى فتح السودان :

سهم من الغرب قد أصمى الاساود اذ صموا وهم حيث بحر النيل مورود
وحين صموا عن الانذار أسمعهم صواعقا بنداها حيث الموت معقود
تـــراه ينفث من أفواهها بـــردا ينقض حيث فؤاد القرن مرصود
مدافـــع أبطلـــت للسود حكمتهـــا فلم يفد معهـــا نفث وتعقيد (2)
ومـــا استقاموا الى أن جردت لهم بيض واشرعت السمر الاماليـــد

فهذه الابيات تجمع بين القديم والحديث ، القديم بذكـــر السهـــام والرماح والسيوف والجديد بذكر المدافع ومقذوفاتها واصوات صواعقها وما تحدث فى النفوس من هلع .

---

1) تقدم هذا فى الجزء الاول عند عرض نماذج من أمداح الجراوى .
2) من « النفاثات فى العقد » أما كلمة « بردا » فيريد بها « البارود » المعروف .

ومن هؤلاء ابو القاسم القاضى ابن على الشاطبى ، ومن شعره ما قاله فى احدى المولديات ، من قصيدة يقول فيها :

ما بال طيفك لا يزور لماما ... وبمنحنى الاحشا ضربت خياما
ايعيش فيك عواذلى بسهامهم ... واموت فيك صبابة وغراما
وتبيح نهرك سائلا من ادمعى ... اوليس نهر السائلين حراما
عرض اذا حدثت عن باب الحمى ... فحديث قلبى فى الاجاريع هاما
اروى حديث الرقمتين مسلسلا ... عن دمع باكية الغرام سجاما
وتاق من حيث النسيم تحية ... اضحى النوى بردا بها وسلاما
يا جيرة العلمين دعوة شائق ... للذيذ عيش بالغضا لو داما
فخذوا بجرعاء الحمى قلبى فقد ... الف الاقامة بالحمى فأقاما
وخذوا بثارى اهل نجد انهم ... سلبوا الفؤاد وادنفوا الاجساما
فى كل غرب دمع عينى مشرق ... لكواكب فيها اثرن ظلاما
صليت بنار الشوق ثم رنت الى ... انسانها فى لجة قد عاما

ثم ينتهى الى مدح الرسول فيقول :

خير الانام محمد الهادى الذى ... اردى الضلال وجب منه سناما

ويستمر فى ذكر شمائله عليه السلام ، ويتخلص الى مدح المنصور، وفى تخلصه هذا يقول :

هذا الذى وعد الاله بأنه ... يطوى البلاد ويفتح الاهراما
يا مشبه المهدى فى آرائه ... عزما وفى عزماته اقداما
انت الذى ببنيه ابناء العلى ... ارسى البلاد وآمن الاقواما

وسنرى ان هذه اللهجة لها قاعدتها التى أشرنا اليها ولها معالمها التى نذكرها بعد .

ومنهم محمد بن عمر الشاوى المولود عام 943 ، ومن شعره ما هنأ به المنصور عند القضاء على ابن أخيه الثائر بالريف وهو الناصر الذى بعثه فيليب الثانى ، للمشاغبة على المنصور ، حين كان هذا يقوم بأدوار

ديبلوماسية — ضده — مع الملكة « اليزابث » ، فقال (1) :

تهنـا أميـر المومنيـن فقد جرت — لسطوتك الاقـدار جرى السوابق
اضاءت بك الايام واحلولكت على — عـدوك وارتجت رؤوس الشواهق
وذاك الذى قـد خيب الله سعيه — تردى فلم تنفعـه نصرة مارق
فكان كما قـد قيل لكن رأسـه — أتى سابقا والرجل ليست بسابق

يشير فى هذا البيت الى قول بعضهم ، فى الوزير ابن الفرس ، وهو مصلوب منكوس الرأس ، كما فى النزهة . (2) .

جـرى فجـرت رجلاه لكن رأسه — أتـى سابقا والرجل ليست بسابق
لقـد طمح المهـر الجموح لغاية — تقطع أعناق الجيـاد السوابـق

ومن شعره كذلك مخاطبا للمنصور :

فخـر الملـوك ان عبـدك واثق — بالنجـح مـن عايـاكم ومحقـق
فنوالكم عـم البسيطـة كلهـا — لـم يبـق معه فى البرية مـاق
فالغـرب يرفل فى ثياب جمـالكم — وجلالكـم يرتـج منـه المشـرق
امطـر علـى سحاب جودك منة — وانظر الى برحمـة لا اغـرق

ومنهم على بن أحمد الشامى الفاسى ، المتوفى عام 1032 ، ومـن شعره ما قاله فى النعال النبوية ، من قصيدة هكذا :

فحركت الاشـواق منـا لروضـة — أبـاح لنا الاسعاد من زهرها قطفا
زمانا بـه موصولنا نال عائـدا — وأكد نعت الوصل من نحوهم عطفا

---

(1) ممن قالوا الشعر فى هذه المناسبة ، الشياظمى من قصيدة مطلعها :
هكـذا هكـذا تكـون المعالـى — مسنـدات علـى العلى والعوالـى
والهزولى من قصيدة مطلعها :
هو النصر يجنى مـن ذوابل مـران — خياشيمها يرعفـن بالعلـق القانـى
وعبد العزيز الفشتالى ، مطلع قصيدة :
الفتح من حركات أحمـد واجـب — كل العوامـل فى العدا له طالـب
وهى قصيدة مثقلات بالتوريات نحوية وغيرها :
والمسفيوى بقصيدة مطلعها :
وافـاك فتـح واضـح الاقبـال — أربى على الماضى مـدى استقبـال
وهذه كما نرى مفتتحة بهذا الاصطلاح النحوى كذلك .
كما ارتجل ابن القاضى فى هذه الوقيعة أبياتا .

(2) وفيها أن الشاوى هذا هو المعروف بالجزائرى ، وذكر له شعرا آخر يستجدى المنصور .

تولى كمثل الطيف ان زار فى الكرى والا كمثل البرق ان سارع الخطفا

وتقدم أن ادب النعال النبوية ظهر فى القرن السابع ، وبرز فيه ابن المرحل ، والملاحظ أنه استغل — كغيره — مصطلحات علمية نحوية .

ومن هؤلاء ابو على الحسن بن احمد المسفيوى الكاتب بديوان المنصور ، والمولود عام 968 ، ومن شعره قوله من قصيدة طويلة ، متغزلا:

كفى ملامك لات حين تصبر باد هيامى فاعذلى أو فاعذرى
جلب الغرام على الحشا فرط الاسى فأنا الشجى وعاذلى لم يشعر
يا شادنا خلع السقام على من طرف وشب لى الشجون بمحجر
ان تحمك السمر الظماء فاننى من لوعتى اهوى لحاظ الاسمر

والبيت الاول ينظر الى صنيع بيت المتنبى :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا وبكاك ان لم يجر دمعك أو جرى

وله اشعار كثيرة وموشحات ذكر بعضها المقرى فى روضته .

ومنهم وزير القلم عبد العزيز الفشتالى ، المولود سنة 957 ، والمتوفى سنة 1032 ، كان يعمل فى القصور السعدية أيام المنصور وابنه زيدان وكان المنصور معجبا بأدبه وتفوقه فى النثر والشعر ، حتى قال فيه « نفتخر به على ملوك الارض ونبارى لسان الدين بن الخطيب » وآثاره فى الشعر والنثر كثيرة ، ولنكتف ببعض منها ، فمن شعره ما قاله على لسان احدى قباب المنصور ، من قصيدة يقول فيها : (كما فى نفح الطيب) :

سموت فخر البدر دونى وانحطا واصبح قرص الشمس فى اذنى قرطا
وصفت من الاكليل تاجا لمفرقى ونيطت بى الجوزاء فى عنقى سمطا
ولاحت بأطواقى الثريا كأنها نثير جمان قد تتبعته لقطا
وعديت عن زهر النجوم لاننى جعلت على كيوان رحلى منحطا
وأجريت من فيض السماحة والندى خليجا على نهر المجرة قد غطا
عقدت عليه الجسر للفخر فارتمت اليه وفود البحر تغرف ما أنطا
ينضنض ما بين الغروس كأنه وقد رقرقت حصباؤه حية رقطا
حواليه من دوح الرياض خرائد وغيد تجر من خمائلها مرطا

اذا أرسلت لدن الفروع وفتحت — جنى الزهر لاح فى ذوائبها وخطا
يرنحها مر النسيم اذا سرى — كما مال نشوان تشرب اسفنطا
يشق رياضا جادها الجود والندى — سواء لديها الغيث أسكب أم أبطا
وسالت بسلسال اللجين حياضه — بحارا غدا عرض البسيط لها شطا
تطلع منها وسط وسطاه دمية — هى الشمس لا تخشى كسوفا ولا غمطا
حكت وحباب الماء فى جنباتها — سنا البدر حل من نجوم السما وسطا
اذا غازلتها الشمس التى شعاعها — على جسمها الفضى نهرا بها لطا
توسمت فيها من صفاء أديمها — نقوشا كأن المسك ينقطها نقطا
اذا اتسقت بيض القباب قلادة — فانى لها فى الحسن درتها الوسطى
تكنفنى بيض الدمى فكأنها — عذارى نضت عنها القلائد والريطا
قدود ولكن زادها الحسن عريها — واجمل فى تنعيمها النحت والخرطا
سمت صعدا تيجانها فتكسرت — قواريـر أفلاك السماء بها ضغطا
فيالك شأوا بالسعادة آهلا — بأكنافه حل العلا والهدى حطا

وهى قصيدة طويلة وصف فيها هذه القبة ورياشها وأثاثها ، وتخلص من ذلك الى مدح المنصور بقوله :

جناب رواق المجد فيه مطنب
على خير من يعزى لخير الورى سبطا (1)

ومن شعره الذى كتب بداخل تلك القبة ، قوله :

جمال بدائعى سحر العيونا — ورونق منظرى بهر الجفونا
وقد حسنت نقوشى واستطارت — سنى يعشى عيون الناظرينا
واطلع سمكى الأعلى نجوما — ثواقب لا تغور الدهر حينا
وجوى من دخان الند القى — على أرضى الغياهب والدجونا
عاوت دوائر الافلاك سبعا — لذاك الدهر ما الفت سكونا
فصغت من الاهلة والحنايا — أساور والخلاخل والبرينا

---

1) وهى شهيرة شاهدة على روعتها وبداعتها . وان كانت بعض أبياتها مقتبسة من غيرها ، كابن الخطيب .

تكنفنــى حيــاض مــائحـــات	امامــى والشمائــل واليمينـــا
يقيد حسنهــا الطرف انفســاحا	ويجــرى الفلك فيهــا والسفينــا
تدافــع نهرهــا نحــوى فلمــا	تلاقى البحــر فى جــرى دفينـــا
ترى شهب السماء بهــن غرقــى	فتحسبهـــا بهـــا الــدر المصونــا
وقد نشــر الحباب على سمــاها	لالــى تــزدرى العقــد الثمينــا

الى آخــر القصيدة التى هى دون سابقتها ، فى فنها المعقد بتقاطيعه ، والمنوع بصوره واخيلته (1) وان كانت موسيقى القافية الرنانة ، تسحــر الآذان بأصداحها وتبعث الطرب فى المصغى اليها ، فحق لها أن تقــول « جمال بدائعى سحر العيونا » .

ومع هذه الفتون فانها أعطت المديح حقه من مبالغته فقالت :

فخرت وحــق لــى لمــا اجتبانــى	لمجلســـه اميـــر المومنينــــا
هو المنصور حائز خصل سبــق	وبانــى المجــد بنيــانا مكينــــا
وليث وغــى اذا زار امتعــاضا	يــروع زئيــره هنــدا وصينـــا
اذا امــت كتائبــــه الاعــــادى	بعثــن برعبــه جيشــا كمينـــا
يديــر عليهم مــن كــل حــرب	تدقهــم رحــــى أو منجنونـــــا

ولا شك أن الفشتالى فى هذه المعانى الاخيرة وصيغها استعــان بنونية عمرو بن كلثوم (المعروفة بين المعلقات) وخصوصا البيت الاخير الذى يسامت هذا البيت :

متــى ننقــل الى قــوم رحــانا	يكــونــوا فى اللقــاء لهــا طحينا

وله فى فتح السودان قصيدة رائعة يوجه الخطاب للمنصور فــى مطلعها ، فيقول :

جيش الصبـــاح على الدجى متدفق	فبياض ذا لســواد ذلك يمحــق
وكأنــه رايــات عسكــرك التى	طلعت علــى السودان بيضا تخفق
لاحــت وافقهــم ليــال كلـــه	كعمود صبح فى الدجــى يتألــق

1) انظرها فى النفح وغيره أيضا .

نشرت لتطوى منه ليلا دامسا ... اضحى بسيفك ذى الفقار يمزق
ارسلتهن جوائحا وجوارحا ... فى كل مخلبها غراب ينعق
وسرت فكان دليلهن اليهم ... مشحوذ عزمك والسنان الازرق

وقال أيضا فيما كتب فى بهو البديع برمر أسود فى آخره ابيض :

لله بهو عز منه نظير ... لما غدا كالروض وهو نضير
رصفت نقوش حلاه رصف قلائد ... قد نضدتها فى النحور الحور
فكأنها والتبر سال خلالها ... وشى وفضة تربها كافور
وكأن أرض قراره ديباجة ... قد زان حسن طرازها تشجير
واذا تصعد نده نوا ففى ... أنماطه نور به ممطور
شأو القصور قصورها عن وصفه ... سيان فيه خورنق وسدير
فاذا اجلت اللحظ فى جنباته ... يرتد وهو بحسنه مسحور (1)
وكأن موج البركتين أمامه ... حركات سجف صافحته دبور
صفت بضفتها تماثل فضة ... ملك النفوس بحسنها تصوير
فتدير من صفو الزلال معللا ... يسرى الى الارواح منه سرور
ما بين آساد يهيج زئيرها ... وأساود يعلو لهن صفير
ودحت من الانهار أرض زجاجة ... واضلها فلك يضىء منير
راقت فمن حصبائها وفواقع ... يطفو عليها اللؤلؤ المنثور
يا حسنه من مصنع فبهاؤه ... باهى نجوم الافق وهى تنور

الى آخر القصيدة التى نجد وصفها دقيقا بارعا . وهذه البراعة فى الوصف — على تفاوت فيها — كانت ظاهرة عامة عند شعراء العصر المنصورى، وكان مبعثها ذلك القصر البديع الذى بناه المنصور ، وأنفق عليه من عمره عشرين سنة ، ومن خزينة الدولة سبائك من الذهب مفرغة ، ومن اقتصاديات الامة قناطير من السكر مقنطرة كان يبادل بها ايطاليا فى رخامها المجلوب الى قصره وزنا بوزن ، وقد أفرغ فيه الصناع الماهرون من كل جنس ، ما لهم من مواهب ونبوغ فجاء ذلك القصر اعجوبة الزمان ،

1) مأخوذ من الآية « ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » لكنه جعله « مسحور » بدل « محسور » ليناسب « بحسنه » قبله .

وحديث الاجيال (وقد قال فيه كاتب انجليزى معاصر : انه فى عظمه مدينة بكل معالمها) . وكان المنصور رحمه الله يجعل الشعراء يتبارون باشعارهم لتنقش على قباب القصر وأعمدته وحتى ستائره ورياشه ، فكانت تلك الاشعار من جملة الزينة والزخرفة التى كان المنصور ينفق عليها بسخاء ، فلا غرو أن يكون شعر الوصف على عهده قد استنفدت فيه القرائح ، وظهر فيه كل مكنون من خيال هؤلاء الشعراء ، ولهذا نجد الكثير منهم قد وفقوا فى هذا الباب الذى كان يسانده وصف الفتوح والوفود والهدايا العجيبة التى كان هؤلاء يصطحبونها معهم .

والى جانب الوصف كان هنالك — كما سبق — شعر المولديات ، التى كان المنصور يحتفل بها أيما احتفال ، لاسباب كثيرة ، اهمها أن يذكر من أهل البيت الذى كان السعديون خصوصا الاول حريصين على الانتماء اليه ، (1) ياخذون من ينازعهم هذا الشرف ، أخذ عزيز مقتدر ، كما كان هذا الموسم فرصة لان يستعرض فيه المنصور قواته العديدة المختلفة الاجناس والشارات ، والحاملة لانواع من الاسلحة ، يرهب بها من تحدثه نفسه الخروج عن طاعته ، ويتباهى فيها لسلطانه ، (وهو الملك الذى يعجبه التباهى ، وتخلبه المظاهر ، ويحرص على أن يخترق ذكره الحدود ، ويصير هبته فى الشرق وفى الغرب)

وهذا نموذج للفشتالى فى تلك المولديات ، من قصيدة بلغت ابياتها أحد عشر ومائة بيت ، يقول فى مطلعها :

هم سلبونى الصبر والصبر من شانى	وهم حرموا من لذة الغمض اجفانى
وهم أخفروا فى مهجتى ذمم الهوى	فلم يثنهم عن سفكها حبى الجانى
لئن اترعوا من قهوة البين اكؤسى	فشوقهم أضحى سميرى وندمانى
وان غادرتنى بالعراء حمولهم	كفى أن قلبى جاهد اثر اظعانى
قف العيس واسأل ربعهم اية مضوا	اللجزع ساروا مدلجين أم البان
وهل باكروا بالسفح من جانب اللوا	ملاعب آرام هناك وغزلان

1) والجدير بالذكر ان الوصف بالسعديين ما كان يطلق عليهم فى أيامهم ولا كان يجرؤ على ذلك أحد ، بل كانوا يوصفون بالاشراف أو الشرفاء . فلما دالت دولتهم أطلق عليهم الوصف بالسعديين ، مجابهة لما ادعوه من النسب المذكور .

وأين استقلوا هل بهضب تهامة ... اناخوا المطايا أم على كثب نعمان

وهل سال فى بطن المسيل تشوقا ... نفوس ترامت للحمى قبل جثمان

واذ زجروها بالعشى فهل ثنى ... ازمتها الحادى الى شعب بوان

وهل عرسوا فى دير عبدون أم سروا ... يؤم بهم رهبانهم دير نجران

سروا والدجى صبغ المطارف فانثنى ... بأحداجهم شتى صفات وألوان

وأدلج فى الاسحار بيض قبابهم ... فلحن نجوما فى معارج كثبان

لك الله من ركب يرى الارض خطوة ... اذا زمها بدنا نواعم أبدان

أرحها مطايا قد تمشى بها الهوى ... تمشى الحميا فى مفاصل نشوان

ويمم بها الهادى المقدس بالحمى ... به الماء صدا والكلا نبت سعدان

واهد حلول الحجر منه تحية ... تفاوح عرفا ذاكى الروض والبان

لقد نفحت من شيح يثرب نفحة ... فهاجت مع الاسحار شوقى وأشجانى

وفتت منها الشرق فى الغرب مسكة ... سحبت بها فى أرض دارين أردانى

واذكرنى نجدا وطيب عراره ... نسيم الصبا من نحو طيبة حيانى

احن الى تلك المعاهد انها ... معاهد راحاتى وروحى وريحانى

واهفو مع الاشواق للوطن الذى ... به صح لى انسى الهنى وسلوانى

واصبو الى أعلام مكة شائقا ... اذا لاح برق من شمام وثهلان

أهيل الحمى دينى على الدهر زورة ... أحث بها شوقا لكم عزمى الوانى

متى يشتفى جفنى القريح بنظرة ... يزح بها فى نوركم عين انسان

واتصل بمدح النبى ، الذى وطأ له بذكر الاماكن المقدسة والحنين الى زورتها فقال :

ربوعا بها تتلو الملائكة العلا ... افانين وحى بين ذكر وقرآن

وأول أرض باكرت عرصاتها ... وطرزت البطحا سحائب ايمان

وعرس فيها للنبوة موكب ... هو البحر طام فوق هضب وغيطان

وأدى بها الروح الامين رسالة ... أفادت بها البشرى مدائح عنوان

هنالك فض ختمها أشرف الورى ... وفخر نزار من معد بن عدنان

محمد خير العالمين بأسرها ... وسيد أهل الارض بالانس والجان(1)

1) الميم مختزلة من « من » فى « بالانس » = من الانس » . والقصيدة مثبتة بالنزهة لليفرنى، على طولها .

وبعد زهاء أربعين بيتا تخلص للمنصور بقوله :

"وما ذا عسى تثنى عنانى وان لـــى	بآلك جاها صهوة العز أوطانـــى
اذا ند عن زوارك البأس والعنـــا	فجود ابنك المنصور أحمد اغنانـــى

ومن الحق أن يقال : ان شعر عبد العزيز الفشتالى ، على بداعته ، قد تكون أحيانا بضاعته مزجاة ، ينفق منها انفاق الفقير المحتاج . ولناخذ مثلا الابيات القليلة التى اكتفينا بها من طائيته الطنانة ، فنجد الشمس فيها تدخلت فى عدة صور منها ، كما نجد الدمية والدمـــى ، وفيض السماحة والندى ، مع الجود والندى ، والبحر ، والرياض ، والبدر ، والسماء ، والنجوم ، والتيجان والقلائد والانحطاط ، والوسط ، كل هذه ذكرت فى صور منها مرتين ومرارا ، قد تصل الى خمس ، كما فى الاخير ، بالفاظها ، وقد تركنا المترادف ، كما فى اللجين والفضة ، والمتخالف ، كما فى الزهر والزهـــــر .

بعد الشعر نتعرض لنثر عبد العزيز الفشتالى ، الذى يشبه الى حد ابن الخطيب فى بنى الاحمر والخطيب ابن مرزوق فى بنى مرين ، فجميعهم كانوا من رجال الدولة كتابا وشعراء ومؤلفين فيها ، فابن الخطيب الف فى دولته وفى ملوك منها ، كما نظم فيهم ، والخطيب ابن مرزوق الف فى أبى الحسن المرينى كتابه « المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبى الحسن » وله نظم فيه ، وعبد العزيز الفشتالى ، الف بأمر من المنصور كتابه « مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا » أى السعديين ، وهو أجزاء عرف منها الثانى عندنا .

كما نظـــم عشرات القصائـــد فيه . ويتســـم فى المنصـــور شعره بالرصانة ، ومتانة الاسلوب ، تطبعه الصنعة المقبولة ، بل المحمودة ، بمهارة استخدامها ، وحلاوة تنسيقها ، بما يفوق به أحيانا سابقيه ، ابن الخطيب وغيره ، وأن أقتبس منه طائيته المذكورة .

أما رسائله السلطانية، فمنها جل ما وجد بمجموع «رسائل سعدية»(1)

1) ذكر له المقرى قصائد ومقطعات كثيرة فى كتابه روضة الآس وغيره ، كما ذكر له رسائل سلطانية وغيرها مما لا نجد بعضه فى مجموعة الرسائل السعدية المطبوعة .

وهــذه نمــاذج منهــا :

فمما كتبه على لسان حال ابى عبد الله الشيخ المتوفى ، الى ولده المنصور سنة 988 ، قوله :

ولدى وقطين خلدى ، ومن يفاخر به الآفاق والبلاد أفقى وبلــدى ، وسيفى الذى تجنى بتوريده من نجيع المشركين جنى الثواب يدى ، درة سلكى ، ووارث ملكى ، والمؤتمن على ودائعى وملكى ، ومديــر الحــط والاقلاع افلكى ، أمير المومنين أبا العباس المنصور ، حرس الله علاك ، وأعانك على ما أولاك ، أسلم عليك سلام شيق لا يستعجل لقاك ، لتدخر من العمل الذى يقتضى فى هذه الدار ارتقائى وارتقاك ، وأسلم على أولادى البنين والبنات ، وأسأل الله لك ولهم أعمالا تثير الحسنات ، وابشركم جميعا أنى محبو من الله بالرضى والرحمة ، معتمد من فضله بكل نعمة ، وقد زادنى سبحانه المنازل والقصور ، بسبب جهادك الذى سماك من اجله المنصور ، فهو ياولدى عمل اسس عليه أمرك ، وفلك من برجه طلع بدرك ، وذلك ياولدى اذن لك بالدوام عليه ، وصــرف عنايتك كلها اليه ، فعمر به قلبك ، واجعل فيه منك وصبرك ، واشكر على ما اختصك به من تلك النعمة ربك ، وقم بحقه سبحانه فى خلقه ، وابسط العدل فيما ملكك من غربه ، وفيما سيملكك من شرقه ، واعمل فى أقوالك وأفعالك ، بحسب مقامك عنده وانه لمقام رفيع ، وحسبك انه فى هذه الدار لصق جدك النبى الشفيع ، الى آخر الرسالة ، التى تمثل انشاء الفشتالى ، على أول عهده بالمنصور ، ومن تتبع انشاءه فيما بعد ، وهو ملازملقصور السعديين ، زهاء نصف قرن من السنين ، يكتب عنهم فى شؤون الدولة وغيرها فانه يجد فرقا بين هذا الصنيع البسيط الذى لا يعتمد الا على السجع غالبا ، وبين الرسائل الاخرى السلطانية التــى لا تقصر فى فنها عما عرف لفطاحل الكتاب عندنا فى العهدين الموحــدى والمرينــى الزاهريــن .

وقبل أن ناتى بنماذج من هذه ، ننبه على أن كتابة الرسائل علــى لسان الاموات ، ككتابة رسائل الاحياء اليهم ، تقليد عرف فى الاندلس

من ذى قبل ، وكان سابق الحلبة فيه لسان الدين ابن الخطيب الذى كتب جئى فى مقامه بسلا نماذج منه .

وهكذا نتصل بعد بنماذج أخرى من رسائل عبد العزيز الفشتالى السلطانية ونقتصر فيها على فصل من ديباجاتها وآخر من صلبها .

فمنها هذه الديباجة ، من رسالة كتب بها الى الشيخ البكرى المصرى على لسان المنصور . يقول فيها :

المثابة التى اشتهر صيتها فعم سائر الاصقاع والاقطار وأفعم تلك الآفاق النجدية نسيمها المعطار والحضرة التى طارت بها الشمائل الصديقية كل مطار (1) وأنشد لسان حالها :

تمتع من شميم عرار نجد   فما بعد العشية من عرار

مثابة الشيخ الامام ، الذى حاز الفضائل على التمام ، وامتطى من رتب المعالى الغارب والسنام ، حجة الله فى الارض وقطب فلك العلوم فى طول البسيطة والعرض . الى آخر هذه التحلية التى تربو وحدها على صفحة كبيرة .

وهذا نموذج آخر من رسائله . وهو فصل لرسالة كتب بها على لسان المنصور الى بعض المشارقة الفقهاء .

أما بعد حمد الله الذى باسمه الكريم تفتتح الرسائل وعلى وحدانيته قامت البراهين واتضحت الدلائل . والصلاة والسلام على سيدنا محمد منهى الوسائل ومنتهى كل سائل وعلى آله أولى المجد الاصيل ، والشيم التى من لطافتها استمار رقة الاصيل ، وأصحابه نجوم الهدى وسيوف الله المنتضاة لقمع العدا ..

فانا كتبناه اليكم كتب الله لكم من عوارفه الجزيلة أجزل الحظوظ وأوفر الاقسام وأسكب عليكم من آلائه الجميلة الودق الهاطل المتوالى

---

1) اشتهر « المطار » وذكر فى شعر الجراوى ، مع انه ان كان من الثلاثى فحقه « مطير » مثل « مسير » الذى صار يستعمل فى عصرنا « مسار » ومثل « معيش » الذى أصبح « معاش » وكله خطأ .

بحمد الله الا ما سناه بفضله لهذه الايالة العلوية من الصنع الجميل واليسر الذى تولى لسان الدهر الا جمال منه والتفصيل ... الى آخر الرسالة التى تقع فى نحو أربع صفحات كبيرة .

وهذا نموذج آخر من تلك الرسائل وهو فصل من رسالة كتب بها على لسان المنصور الى السلطان مراد خان العثمانى يقول فيها :

وقد وفد على على مقامنا خطابكم الخاقانى ، ومدرجكم العلى السلطانى صحبة ارسال جنابكم السامى العثمانى ، فأطلع فى آفاق هذه الايالة العلوية فجر الموالات والاتحاد . ونادى بلسان المخالصة والممازجة فأسمع الحاضر منها والباد ، وبسطنا له مما يليق به من المبرة والتنويه بساطا ، وتلقيناه بوجه الترحيب والتكريم بمقدمه اغتباطا . ولما فض بأنامل الترحيب والاقبال ختامه ، وحسر عن محياه الوسيم لثامه ، كان مما أنهاه الينا من الانباء التى تبتهج النفوس لسماعها ، وتستميل الافئدة الايمانية بحسن ابداعها ، وتزهو الاقلام والمحابر بتخليدها ، فى بطون المهارق وأيداعها ، اهداء البشارة العظمى ، والمسرة الكبرى ، بما سن الله لمقامكم الخاقانى ، من الظهور على الفئة الصوفية الخارجية الرافضة ، وتبديد جموعها التى الى مشاقاة الله ورسوله وسب صحابة نبيه فى مضمار الغواية راكضة ، والى جموعكم السنية ناهضة ، فيالله من بشارة تزهو بها السنة الايمان ، وترتاح لسماعها ملائكة الرحمن ، وتفتح لها أبواب حضرة الرضوان .. الى آخر الرسالة الطويلة التى هى على براعتها تنال منها صور مكررة ، مثل « تزهو الالسنة » بعد « تزهو الاقلام » ، كما تقدم له نحو من ذلك فى شعره .

ومهما يكن فالنموذج الاخير من نثر عبد العزيز الفشتالى ، الى جانب ناحيته الادبية يهمنا كذلك الى جانب ناحيته التاريخية . فهذا الفصل يشير الى شىء هام كان قد استفحل خطره فى الشرق ثم تعدى الى الغرب ذلك هو المآل الذى انتهت اليه جماعة « الملامتية » الصوفية . نسبة الى الملامة لانهم يلومون أنفسهم ويلومهم الناس على تصرفاتهم الظاهرة . هذه الجماعة ،

ابن منازل ، وأبى عمرو بن نجيد ، ومحمد بن عبد الوهاب الثقفى ومحفوظ ابن محمد النيسابورى ، وصخر بن أحمد الفراء ، وأبو صالح حمدون القصار فى القرنين الثالث والرابع ، وكانت مبادئها ، مزيجا من التصوف ومبادىء أهل الفتوة منهم على الخصوص ، وهى مبادىء سامية ، فيها كثير من الاخلاص والتفانى فى العمل لوجه الله . فشاعت فى مصر والعراق والشام وغيرها ثم الاندلس ، وألف فيها كثير ، منهم ، أبو عبد الرحمن السلمى النيسابورى ، المتوفى سنة 412 ، وتلميذه القشيرى المتوفى سنة 465 ، كما تناول الكلام عليها فى كتبه ابن العربى الحاتمى ، خصوصا فى كتابه « الفتوحات المكية » وعرف من قبل عليها أندلسى آخر ، هو أبو عثمان سعد بن سلام المغربى المتوفى سنة 373 وكان قد قصد نيسابور ليتلقى هذه الطريقة ، فكان من أصحاب ابن عمرو الزجاجى . وفى القرن التاسع والعاشر ظهرت هذه الفرقة قوية بالمغرب ، واعتنق مبادئها كثير من المغاربة ، والعلماء منهم ، فصرنا نقع فى كثير من تراجمهم ، على النص الذى ينعتهم بأنهم من الملامية . ويكفى أن نعلم ان الجنيد كان من هـــذه الجماعة فى الشرق ، وان ابن عاشر لما نظم منظومته فى العبادات والتوحيد أضاف الى ذلك طريقة الجنيد هذا فى التصوف ، ونبه عليها فى أول منظومته تلـــك فقـــال :

فى عقـــد الاشعـــرى وفقـــه مالك   وفى طريقـــة الجنيـــد السالـــك

وقد ولد ابن عاشر سنة 990 ، وتوفى سنة 1040 .

وبهذا وجدنا الملامتية تغزو المغرب ، وتقام لها زوايا متعددة ، ويرتاب بها هؤلاء السعديون ، فيمتحن محمد الشيخ أصحاب هذه الزوايا ، ثم تستمر نظرة هؤلاء السعديين اليهم مستريبة ، فيشتد عليهم المنصور ، ولكنه لم يستطع أن يقضى على حركاتهم التى ظلت عنيفة ، وكان لها مواقف حاسمة فيما بعد .

وبالرغم من ان هذه الملامتية ، انتهت فى تركيا وممالكها وفيها وتونس ،

الى مرحلة من الفوضى والاباحية المكشوفة ، استوى فيها الشر والخير ، والحسن والقبيح ، مما جعل هؤلاء الخلفاء العثمانيين يفتكون برجالها ، كما تشير اليه الرسالة السابقة ، فان هذه الفرقة بالمغرب ، لم تتعرض الى تلك المرحلة الاباحية ، وظلت على مبادئها الفتية ، كما سنرى

نعود الى ادبائنا ، فمنهم أبو عبد الله محمد بن على الفشتالى الكاتب من نثره ما كتب به عن المنصور لاحد وزراء الاتراك من رسالة ورد فيها :

المرتبة التى ما زالت عظمتها تنشر على صعاد العز الموصول ءاعلام جلالها تخفق على هضاب الرعى المتلقى بالقبول ، وحسن الاختيار الخاقانى فى استخلاصها متمحض التمكين والخلوص وممدود أسماء أكبارها لا تقصره النقول والنصوص والمكانة الراسخة القدم فى درج المعالى الجامعة فى استنتاج الفضائل بين المقدم والتالى الحائزة من المثابة العثمانية فى حلبات الاضراب والاكفاء قصب السباق الفائزة من جلائل ايثارها وادنائها بنفائس الاعلاق والمنزلة التى لها من خلوص الاعتلاق بتلك الايالة الخاقانية ما أشرق شموسها وأثمارها وأناطت بعرى قاعدتها العثمانية من حبائل محبتها وأسباب وصلتها ما فسح أطناب معاليها وأجل مقدارها وأعملت عزائمها فيما أجال لديها قداح مرضاتها وادارها منزلة الوزير الاعظم الكبير الجليل الخطير الاقرب الوجيه المشاور الاشهر الاشمخ أبى فلان فلان باشا، يسر الله له من أسباب البر ما شا ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى جعل هذا الامر الكريم منارا لاقامة أود الدين ظاهرا ، واختار لمحبته من سبقت له السعادة من عباده المومنين وجعل لهم منه مساعدا وظهيرا ، وأتحف منه أكناف البسيطة وأقطار المعمور بسياج لا يزال وهاجا ، وأمطر من سماء معاليه لاوليائه غيث فضل لا ينفك ثجاجا ، وحكم بائتلاف وشائج الارواح مع تنائى مقار الاشباح ، وانتقى لمحبة بيت نبيه صلى الله عليه وسلم من زاد فى السعادة على غيره وأربى، وقال جل اسمه اثر اظهار خطر الموعود به قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى . وانفس المذخور المتخذ عند الرحمن عهدا ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا ، والصلاة والسلام على

عروس الحضرة القدسية الذى أعيا وصف كماله المنازع ولو سحبانية ، والاساليب ولو قسية ، سر الكون ونتيجة قياسه ، وخلاصة الوجود على تباين أنواعه وتفاصيل أجناسه ، سيدنا ومولانا محمد الذى انصدع فجـر دعوته الغراء عن ليل الكفر والشقاق ، وجاء وادى آية البينات فطم على القرى فى الاقطار والآفاق ، وعلى آله الذين حافظوا على سنته محافظة الكريم على عرضه ، والبخيل على عرضه ، ودافعوا حوزتها بكل ماضى الغرار ، من الاسنة الزرق والبواتر الحرار ، حتى أذعن العصى ، واخذ الابى وانتظم القريب والقصى ، وعن صحابته الذين شدوا فى نصرة دين الله حيازيم العزائم ، ولم يكتفوا بكرائم الاموال حتى بذلوا النفوس الكرائم، فانا كتبناه اليكم كتب الله لكم من المسرات المستمرة أوفرها نصيبا ، وجعل لكم فى الكمال سهما لا يزال مصيبا ، من الحضرة المراكشية حاطها الله حيث عزائمنا الجهادية مشحوذة المدى ، وهممنا العلوية فيما يرضى الله ويسخط عدو دينه بعيدة المدى ، وجياد المذاكى لارهابه مرتبطة ، وجمل الاحوال فى انتظام شمل السلام — منة الله — متناسبة مرتبطة ، وملة التوحيد بهذه الاقطار لا تزال تعض التثليث منها بأنياب مسمومة ، وتنثر أشلاءه وقد كانت بمدد الامهال منظومة ، فائتلفت والشكر لله ملة الاسلام أى ائتلاف ، ولم يجر الوهم فى خللها خيط تنافر ولا اختلاف ، وصنع الله لهذا الامر العلى الذى ما زالت أدوار السعود متحركة بأمانيه ، ولا برحت آناء الجديدين مجدة فى تحصيل بشائره وتهانيه ، زاده الله عزا وظهورا وابقاه فى عين الوجود نورا منعم الحياض ، أنيق الرياض ، لله المنة .

هذا ومصدر هذا المدرج الكريم اليكم تقرير ود تلوح من لدنكم دلائله، وتروق من تلقائكم بكره وأصائله ، وما يعرض لكم بهذه الانحاء ، فمقابل مرادكم فيه ان شاء الله بالتسهيل ، ومتلقى بوجه من الترحيب جميل ، ادام الله تعالى كرامتكم ، وتولى بمنه كلاءكم والسلام معاد عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

هذا نموذج من نثره ، وهو نثر تبدو بوضوح ، فيه كافة التصنع ، وتسيطر عليه ربكة التحذلق ، وينم عن مشاركة له فى عدة فنون ، مما الفنـاه فى

سلفه ، على فتر تضيق به اليد ، وان تظاهرت بكونها مبسوطة ، ينفق بها كيف يشاء .

أما شعره فيرتفع أحيانا الى شعر باديه عبد العزيز خصوصا الوصف — ومنه قصيدة هنأ بها المنصور بمناسبة فتح السودان يقول فيها :

بشرى تزف من الزمان المقبل | لمنصة الجذل الذى لم يرحل
خطت يد المنصور مهرق يمنها | مهرا به سنن الامام الاعدل

ثم يقول عن جيشه :

يصبون للحرب الزبون كما صبا الض | ـليل فى يوم بدارة جلجل
قرعت طنابيب السواد بجحفل | جهزتموه فى سحاب القسطل
فرماهم بصواهل ونواهل | وصواعق عن فعلها لا تسال
لولا ضياء المشرفية والقنا | المجد ضل به بليل اليل
خطبت سيوفك فى منابر هامهم | خطبا تذيقهم نقيع الحنظل

وهى طويلة فى أربعين بيتا (1) :

ويقول فى احدى مولدياته التى تقارب التسعين بيتا (2) مطلعها :

اسرار وجدك من جفونك تعلم | ولسان دمعك عن هواك مترجم
تخفى الغرام وفى الشهود عدالة | لا يقبلون رضى على أن يكتموا
دمع وسقم والسهاد وصفرة | كل على عقد الصبابة يرسم
لم يدر من الف السلامة أن ما | ء العين من نضج الفؤاد معندم
اطبقت أحشائى على نار الجوى | للصبر فيها منازل تتهدم
نادمت فيمن قد هويت جوارحى | فالعين تنثر واللسان ينظم
ان لم يفض دمعى على أخدوده | فى صحن خدى فهو فيه مبهم
نار البعاد على اختفاء مكانها | لأحر (3) من نار العذاب وآلم

---

1) وردت فى مناهل الصف تحقيق د. كريم . ونظر فى أبيات منها الى معلقة عنترة .
2) وهى فى المصدر السالف .
3) فيما طبع من المناهل « أحرق من نار » . والصواب تصويبنا ، والا فيلزم الاشباع .

بـــرق بأقصى المشرقيـــن ومـــاؤه — من مقلتـــى بالمغربيـــن بـــه دم
فكأنمـــا هو من سعيـــر أضالعى — قبـــس وانفـــاسى بهـــا تتضـــرم
يا ساكنـــى سلعا فقد لسع الحشا — من رقش موصول التفرق أرقـــم

وفى هذا المطلع ، نراه يستعمل المسطرة العدلية الشرعية ، وذلك فى بيتين منه ، وسياتى مثل هذا ، كما يستغل فى آخر النثر والنظم مثله ، وسياقه مفكك الابيات ، لا يسلم من داء التكلف ايضا .

ويقـــول مـــن اواخرهـــا :

أيـــم القنـــاة يغوص فى يم الدرو — ع كأنـــه بـــدم القلـــوب متيـــم
او ما ترى سمـــر الرماح بسودها — كالبيض فى الافرنـــج دأبا تحطـــم
فاجتحت من سنغاى اسحاقا وقد — جاء بجيش الســـود وهو عرمرم
طنت حصاتك فى الوجود فكل مـــن — ناواك فهـــو بالمهابـــة يقصـــم

ومن شعره الذى قاله على الارتجال ، ما ذكره ابو الحسن على الجزولى ، فى رحلته (النفحة المسكية فى السفارة التركية) وكان الفشتالى يرافقه قال الجزولى ، كنا خرجنا فى اثناء اقامتنا بتيطاون الى بستان الابر المفضل (ابن المدبر الاندلسى) وفيه قصره مبنى مشرف علـــى الرياض فجلسنا فى علوه وتحته بيت للنصارى ، خدمة البستان ، وهم لا ينفكون عن الشراب ولا يفارقونه ، فقال الكاتب ، ارتجالا ، ونحن هناك :

وبسيط يطـــرز النهـــر فى جـــا — نبيـــه بـــرد خـــزه ووشاحـــه
تـــد نعمنـــا بنزهـــة كان فيهـــا — بيـــت راح وفوقـــه بيت راحـــه
فى ريـــاض تبســـم الزهـــر لمـــا — اطلـــع الياسمين فيهـــا صباحـــه
وتغنت ام الحسيـــن علـــى عيـــ — ـــدانها بالحسين شعر الفصاحه(1)

وفى هذا الاديب يقول الجزولى من شعر له :

مـــا ابن العميد وما عبد الحميد اذا — انشا الرسائل فـــاق كل ذى لسن
ذاك الاديب الذى من حسن أخلاقه — وطيب عشرته يسلـــو اخو شجن

1) يستظهر داود فى تاريخه أن هذا المكان على حافة النهر عند « العدوة » فيه دار الهره .

وله أشعار كثيرة نجدها في « مناهل الصفا » وسيأتي بعض منها .

ومنهم ادريس بن علي ابن راشد الحسني الشفشاوني ولد سنة 960 أو 961 ونشأ بحضرة الامامة ، كما يقول صاحب الروضة وله نظم رائق وجملة ميلاديات يمدح بها المنصور ، فمن شعره قوله في التورية :

جاورت بالدمـــع القريـــح ديارهم   فلعلنـــي أحظـــي بقـــرب الدار
وطلبتهـــم وفقا لسائـــل جـــاره   فالله قـــد أوصى بحفـــظ الجـــار

ولـــه أيضا :

أجريت دمعـــي طائعـــا لجفائـــه   فأجـــاب سائلـــه بنهـــر عاصـــي
ورنـــا فقال تلطفـــا يـــا دانيـــا   خـــذ سهم وصلك من حبيب قاصي

وله في الاستخدام :

سحت السحب مـــن سماء جفوني   لحبيب قـــد جد في السير عنـــي
وغـــدا قاصدا لسفـــح عقيقـــي   قـــد رأينـــاه للبعـــاد يعنـــي

وقولـــه أيضـــا :

قـــد قلت اذ أبدى التعنف عاذلي   والجفن من جرى الدموع قريـــح
أهواه أسمر في الورى ولو ان قلـــ   ـــبي في رضـــاه بطعنـــه مجروح

ويقـــول :

أبكيت اذ عاينت نـــرجس لحظـــه   في روض حسن قد تبدى ذابـــلا
ورجـــوت سهما وافرا من غصنه   ولـــو أنه في القلب أضحى عاملا

ولـــه مضمنـــا :

قد قال لي نور عيني صف لنا زهرا   على بساط من الخابـــور منتصب
فقلت ثغـــرك مع لوني افتدك أو   حصباء در على أرض من الذهب(1)

---

1) التضمين جاء في البيت الأخير من قول أبي نواس واصفا كأس خمر بقوله :
كأن صغـــرى وكبـــرى مـــن فقاقعها   حصباء در عـــلى أرض من الذهـــب
(وهو مما يأخذه به النحاة في أفعل التفضيل) وقبله في جارية ساقية :
ساع بكـــأس الى ناش عـــلى طرب   كلاهمـــا عجـــب في منظـــر عجـــب
قامت تريـــني وأمر الليل مجتمـــع   صبحـــا تولد بـــين الماء والعنـــب

ومنهم الحسن بن يوسف الزياتى ، من رجال القرن العاشر واوائل الحادى عشر ، ومن شعره قوله :

وقالوا الى كم تشتكى غصص الهوى ... فقلت الى أن يعترينى أوانى
فكم ليلة قد بت خال من الهوى ... واصبح قلبى بين الخفقان
واضحى لسان الحال والشوق منشدا ... تقاسمتما يا انسيان جنانى
فمنكم بلحظ نائم الجفن فاتر ... خلعت به شوقا اليه عنانى
وخد يرينا الورد لكن لحظه ... حماه فلا يلفى اليه تدانى
ومنكم بلحظ بين السقم فاتك ... وجيد له داعى الغرام دعانى
فلم تلفيا والله فى الحسن ثالثا ... ولم الف فى روض المحبة ثانى

وقوله :

رفقا على القلب اذ فى القلب سكناكا ... وارع ذمامى فان الله يرعاكا
وارفق بطرف كئيب أنت ناظره ... قد طالما شاهدت عينيه عيناكا
وعامل الجسم بالاحسان يا أملى ... اذ هو مأوى لقلب هو مأواكا
واعكس ظنون اناس طالما زعموا ... قطعت عنى وذاك الظن حاشاكا
واردد كيود العدا فى نحرهم ابدا ... انهاك أن تأمن الاعداء انهاكا
وما يضرك لو واصلت يا أملى ... صبا كئيبا بطول الدهر يهواكا

وفى هذا من التكرار نحو « أنت ناظره » و « شهدت عيناك » و « فى القلب سكناك » و « لقلب هو يهواكا » والنداء بقوله « يا أملى » والوصف بكلمة « الكئيب » مما يدل على محصول فقير من اللغة ، كان ينفق منه وسنرى فى ابيات اخرى هذا النداء ، كأنه لم يجد غير هذا المنادى ، فلو استبدل به الكلمة الرائجة لاحسن ، لان المملول للناس هو المستجد ، أما المعتاد ، كالارض والسماء ، والبحر والصحراء ، فلا يمل كل ذلك ، ولهذا لو كان أملى « يا حبيبى » مثلا ، لما تطرق اليه نقد بالتكرار .

وقوله فى المتشابه :

قاسوا الذى صاد قلبى فى تجافيه ... بالبدر هيهات ما فى البدر ما فيه

وقـــولـــه :

حملتنى من عظيـــم الشوق يا املى — ما لا يكاد لسانى اليوم يحصيـــه
قد كنت قدما رحيب الصدر واسعه — حتى نظرتك يا مـــن لا اسميـــه

وهكذا اذا استثنينا على العموم أبياته الاولى ، فانما هو شعر لا يفاجئنا بكونه صادراً عن نحوى انتهت اليه رئاسة النحو ، كما قال المقرى عن السلاسى .

ومنهم عمـــر بـــن عبـــد العزيز ، الفقيـــه الزرهونى الفاسى ، المولود سنة 972 ، ومن شعره فى احول العينين قوله :

واحـــول مفـــرى بالعنـــاد وقلما — ينـــال كئيب منه بعض تحيـــة
رغبت اليـــه فى الوصال لعلنـــى — اقبـــل ثغـــرا فيه منـــه منيتـــى
فقـــال بطبعى الانحـــراف ومقلتى — علـــى بذا تقضى وحل مودتـــى

وله نظم على عروض « الموالیا » کما فی « روضة الآس » .

ومنهم على بن عبد الرحمن السلاسى الفقيه ، المولود سنة 960 .
ومن شعره تخميس لبيتين للمنصور سياتى ذكره عند التعرض له .
وقوله من مولدية طويلة غراء كما يقول المقرى :

اهاج اشتياقى حاجـــز ومسيـــل — فللدمع فى صحن الخدود مسيـــل

وذكر المقرى بيتا آخر هو :

ودمعى سريـــع للعقيـــق مضارع — ووجـــدى وليلـــى وافر وطويـــل

ثم قال لم اقف على باقيها ، وقال : ولصاحب الترجمة ،،، نظم رائق وامداح فى امير المومنين ،،، وولى عهده ،،، بعد أن قال : وقد حدثت أن امير المومنين ،،، قد ولاه الحضرة المراكشية .

وهذا القاضى كان لما استولى زيدان على فاس ، قاضيا عليها ، فقبض عليه وزج به فى السجن ، فظل به مـــن سنـــة 1010 الى ان قضـــى مسموما سنة 1018 .

وفى سجنه هذا ، كتب اليه الاديب المكلاتى بأبيات ، يستهلها كما ياتى :

امـــا اهـــلال غـاب عنـــا سفـور   فيجلـــى بـه خطب دجــــاه تثـــور

فلما أنشدها بكى ، بكاء شديدا ، وأجابه بأبيات يقول فيها :

تفتــق عن زهــر الربيـــع سطور   فمـــا هـــى الا روضة وغـــديـــر
هزمت من الصـــدر الجريح همومه   فأنت علـــى جنـــد الكـــلام اميـــر
محمد هل فى العصر غيرك شاعر   لـــه معـــه فى الخافقين ظهـــور
فانـــى على صفو الوداد واننـــى   سأشدو وقلبـــى بالهمـــوم كسير
متى وعسى يثنى الزمان عنـــانـــه   بنهضة جـــد والـــزمـــان عثـــور
فتـــدرك آمـــال وتقضى مـــآرب   وتحدث من بعد الامور أمور (1)
عليك سلام اللـــه منـــى فاننـــى   غـــريب بأقصى المغـــربين اسيـــر

ومن كبار الادباء محمد بن عيسى الكاتب الماهر الشاعر صاحب المقامة النقدية والمتوفى قتيلا اواخر القرن العاشر 999 . وفى هذه المقامة لم يقف عند الشعراء — أو الادباء عموما — بل حتى الفقهاء الذين لهم مساس مـــا بالادب وهذا فصل منها يقول فيه :

قلت . فأين الاديب الكاتب ابو الفضل يونس بن سليمان ؟ فقال : بيذق السفرة والكريم الواضح الغرة والغصن الرقيق القشرة والفكه الحلو العشرة ، وبعل العقيلة الحرة ، وعقد الجمانة والدرة ، ينظم وينثر ، وافق ماطره يكف ويقطر ، طريقه فى السهل وكلامه بين الشاب والكهل وهو اليوم صاحب قلم الانشا ورب الدلو فى الحضرة المنصورية والرشا .

قلت : واين الكاتب الاديب ابو العباس الغرديس ؟ فقال : الـــدر النفيس ، الغالى الرخيص ، ووارث المجد الذى له التهويم والتعريس ، فعل

---

1) فيها ريح من قصيدة ابراهيم بن العباس ، الوارد فيها :

فلـــو اذ نبا دهـــر وانكر صاحـــب   وسلـــط اعـــداء وغـــاب نصيـــر
تكون على الاهـــواز دارى بنجـــوة   ولكـــن مقاديـــر جرـــت وأمـــور

انظر ما فى ذلك من مناطات بلاغية ذكرت فى كتاب « دلائل الاعجاز » وتعليقنا على ذلك .

سودده غير مقيس فهو والسيادة سليمان وبلقيس وانه اليوم بفاس دار قراره ، ومشرق انواره ، ومنبت رنده وعراره ، فلا تسل عن النبل والنباهة والفضل ، هنالك الحسب الوضاح ، والمجد الصراح ، والادب المزرى بالراح ممزوجا بالماء القراح ينظم وينثر وعلى كل ما يشاء الخاطر عنده يعثر .

قلت : واين الكاتب الاديب ابو العباس احمد بن يحيى ؟ قال : البداوة والحلاوة والحضارة والطلاوة ، ما شئت من طبع ينبجس انبجاس الصخر وشعر يبهت الخنساء اخت صخر ، ونثر توده التيجان ، بفارس واذربيجان، له الخط المحكم ، والاجادة التى تترفع عن كم ، وهو فى كتاب الحضرة محسوب ولكن نور شمس بلاغته بغيم أزمة الحسبانيات محجوب ، وليس فيه الدهر بغبى ولكنه متغابى ، وقدما قيل :

فحيث ترى زند النجابة واريا
فثم ترى زند السعادة كابى

قلت : واين ابو عبد الله محمد بن على ؟ فقال : اخو علقمة ولبيد ، وذو المقول المحيى المبيد ، يوثر المذق والبيد ، على الرياض والنبيد ؟

وخير الشعر اكرمه رجالا
وشر الشعر ما قال العبيد

جزالة فى وصف المهامة والقفار ، وذكر المرخ والعفار ، وعلى ذلك فرمحه فى المدح مقوم الانابيب ، لا يقصر فيه عن ابن الحسين وحبيب ...

وقد سار فيها على طريقة سلكها ابن الخطيب فى رسالة سماها « قطع الفلاة بأخبار الولاة » وهى مثبتة فى كتابه « نفاضة الجراب » .

ومن تلك المقامة قوله :

قلت واين العلامة المفتى ، ابو مالك عبد الواحد بن احمد الحسنى ، ال الحسب الباهر ، والشرف الطاهر ، وبحر العلوم الزاخر ، ومنسى وائل ومعجز الاواخر ، او فاخر لم يجد من مفاخر ، وان الدهر لساخر ، ن يطاول من فلك ادراكه فى بحر العلوم مواخر ، كان فى اوله — كما مون — ، كاتبا وقفت دون غايته الاقدمون ، وأديبا يحاضر بفنون ، وبحرا

يقذف باللؤلؤ المكنون ، ثم لما شاب مفرقه ، وازدهى ببيانه مغربه ومشرقه، نبذ الانشاء قلمه ومهرقه ، وتخلى الا عن التلاوة والتدريس منطقه ، فصير للفتوى والمنبر ، وأخذ فيما يرد به على حضرة الملك الاكبر ، عالما بحقيقة ما استقبل ومجاز ما استدبر .

قلت وأين العلامة ابو عبد الله ، محمد بن أبى القاسم الشريف ، فقال البحر الذى لا يخاض لجه ، والطود الذى لا يسلك فجه ، والموسم الذى لا يخف ثجه وعجه ، شخص العلم والعمل ، والقبلة التى اليها فى الاخذ تتوجه أوجه الامل ، مجمع العلم الذى فيه بعضه وكله ، والمورد العذب الذى منه نهل الطالب وعله ، باعد آلا الدفاتر والقماطر ، فطبق المغرب والمشرق نسيمه العاطر ، فأحيت بالمغرب موات الخواطر ، سحائب علومه المــواطــر .

قلت وأين الفقيه أبو الحسن ، على بن سليمان ، فقال رجل الدين واليقين ، وحامل راية المتقين ، ليس أحد فى طريقته مثله ، فلا أحد الا ويشكر دينه وفضله ، شأنه التسهيل والايناس ، والسعى فى مصالح الناس، والنصح للمستنصحين ، واقتفاء أمر عباد الله الصالحين ، خصته الدول بخطة المظالم ، يعالج بجده السقيم منها والسالم ، متبلغا باليسير ، زاهدا الا فى زاد المسير ، معتقدا ان مثرى هذه الدار أسير ، وبالجملة فهو بركة الوقت وزاهده ، وصلة موصول العدالة وعائده ، فخرت منه السوس بثانى ابن الجراح ، فان تكن اقترحته على الله فقد جاء والحمد لله وفق الاقتــراح .

قلت : وأين فلان ؟ فقال ، كاتب مطبوع ، ليس بتابع ولا متبوع ، فياض الانبوع ، متضلع حتى من التفرقة بين الكوع والبــوع ، يمكث فى الرسالة اسبوع ، وهو اليوم ينشد ليت شبابا بوع .

قلت ، وأين فلان ؟ فقال ، ريحانة الندمان ، وحاتم الزمان ، هو من الكرم بين العارى والكاس ، ومن الارتياح بين المزهر والكاس لا تنزل الاحزان ساحته ، ولا تفارق الاباريق راحته .

قلت ، وأين الفقيه الشيخ العلامة فلان ؟ فقال : شيخ الجماعة ، والعالم الذى استهوت الآفاق تصانيفه وأوضاعه ، وأبت أقلامه فى التقييد والتأليف أن تفطم من الرضاعة ، هو القبلة والامام ، والملك الذى بيده الزمام ، والمنهل الذى تقصده الاوام (1) .

قلت ، وأين فلان ؟ فقال : الطويل المديد ، والفاضل الذى خدعه الشيطان المريد ، وسعى له كما أراد فيما يريد ، وقفت به مطية الصبر ، واستبعد المرام من طريق القلم والسيطر ، فمال للقيادة وتبرأ من العلم والسيادة ، فحصلت له الارادة ، وقد أصبح يجر العساكر ، ويفاخر بذؤبانه ويكاثر ، وهو لله فى اعتياض العلم بها حامد شاكر (2) .

قلت ، وأين فلان ؟ فقال ، العالم العام ، والركن المستلم ، والناهض برياسة القلم ، راقم الفجر بالظلم .

قلت ، وأين فلان ؟ فقال ، اللباب المنتقى ، والطود الصعب المرتقى ، الصارم المتقى .

قلت ، وأين فلان ؟ فقال ، شجرة الزقوم ، فى الفم والحلقوم (3) .

ومن رسائله السلطانية ما كتبه عن المنصور هكذا :

من حضرة فاس المحروسة بالله ، وصل الله سعادتهم ، ووالى ابداءهم الخير واعادتهم ، وحفظ عليهم من الخفض والبلهنية شأنهم ، وسنى من ام النعم واتصالها ارادتهم ، وأوضح فى التعاون على البر والتقوى ،تهم ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . الخ

اما بعد حمد الله الذى وعد بنصر من ينصره فكفى به وليا وكفى به ،را ، مطلع أنوار الهدى فمن أراد اطفاءها باء بغضب منه وساء مصيرا، ،لاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذى نصره الله بالصبا فكانت ،لهيرا ، وعلى آله وصحبه واهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس

يد الحميدى .
يد الشيظمى .
رسائل سعدية تحقيق كنون .

وطهرهم تطهيرا ، والدعاء لهذا المقام العلى بعضد يوسع الاولياء حماية والملحدين تدميرا ، فانا كتبناه اليكم كتب الله لكم دوام العافية واتصالها ، وعصمة لا تزول وان زلزلت الارض زلزالها ، وحفظ لكم من حفائظ هذه الدعوة الحسنية حامية لا تورد الا قلب القلوب نصالها ، ولا تؤخر عن الذياد والجهاد مصالها ، وقد وصل كتابكم واجمل من أخبار الفئة الخاسرة وفصل، وفرع من مقدمات عيثانها فى البلاد التى شمتيت بها واصل ، وبين من أنباء الباغى الذى ما بين من الصلاح قط ولا حصل ، ولا تنصل من دينه السابق وان أوهم انه تنصل ، وقررتم ان الناس لم يكترثوا بطنين ذبابـــه ، ولا أوهمها لمعان سرابه ، ولا وجمت أسدها لنباح كلابه ، وعواء ذئابه ، فهن الخيالات لا تتبس على العقول والاذهان ، وهو الباطل وان موه بحجـــة وبرهان ، ولا خفاء بالحق ومين الكهان ، والرؤيا اتى من اللـــه والتى من الشيطان ، وقد علمتم نور الله بصائركم جذم هذا الامر وجرثومته ، وعرفتم ضئضئه وارومته ، وانه عند الله بمكان ، وله عنده سبحانه قدر وشان . فعنايته به محفوظة ، ونصرته له معروفة ، واحسانه اليه على الدوام زائد ، واختياره اليه فوق ما ينتهى اليه اختيار الرائد ، فلا يقابل ضوؤه بظلام ، ولا توازن حقائقه بأحلام ، ولا يهاطل صيبه الجهام ، ولا يضارب ماضيه الكهام ، فاطووا على ذلك عقائدكم ، وأطيلوا به سواعدكم ، وقد الفكم الله وجمعكم ، فلا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون والله معكم ، وقد كان سعينا أن تعم المسلمين العافية ، ويرد القاصى والدانى من الهدنة والسكون الموارد الصافية ، وأن لا يذكى للفتنة ضرم ، ولا يستباح للسلم حرم ، ولا يرفع للحـــرب علـــم ، ولا تسعى قدم فى أراقـــة دم . على ان القرح بنا ينكى، ونار الهياج بنا تذكى ، والجزع فى بيوتنا يبكى ، والاقدام والفتح عنا يذكر وعن سيوفنا يحكى وحتى أراد الله أن يثير بمن أذن بشقائه الهول ، وأوهمه ان له القوة والحول ، فما هو الا لينجز وعده فى البسيطة لهذا الامر المكين، وليبلوكم حتى يعلم المجاهدين منكم والصابرين ، ثم ليقطع دابر القوم الذين ظلمـــوا ، وتلك عاقبة الظالمين ، فالاوقات بالتذكير معمورة ، والاقـــوال الافعال على ما يجدى بحول الله مقصورة ، فنحن وراءكم ، وعن قريب ملا بجنود الله عراءكم ، فهذه خيله تصافح اليكم الرياح اعرافها ونواصيها

وهذه بلاده ترميكم بأفلاذها من أدانيها وأقاصيها ، وبسائطها وصياصيها، من كل رام بشرر ، ودرب بالنبل والوتر ، وشهم يقيم هامته مقام المغفر ، وبطل يقدم اقدام الغضنفر ، فان دبت العقرب فالنعل لها حاضرة ، وان كرت فتلك اذن كرة خاسرة ، وذكرتم بالله شكر الله لكم ذكراكم وما ذكرتم ناسيا ، واسترحمتم للرعية وما استرحمتم والحمد لله — قاسيا ، فليس لنا حول الا حوله ، وانما نحن به وله ، ولا اتكال الا عليه ، ولا التجاء الا اليه ، ونحن نوصيكم بتقواه ، والعمل بما يقتضى رضـــاه ، ولا تنازعـــوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ، وابرءوا من الحول والقوة اليه يكفيكم مـــن كيد كل كائد ويريحكم ، واجتمعوا ان شاء الله لقراءة هذا الكتاب الكريـــم بجامعكم الاعظم ، وقدموا لقراءته من حقه أن يتقدم على أن جميعكم عريق فى المحبة لهذا الجناب العلى ثابت القدم ، وتعرفوا أن خروجنا ان شاء الله عند تحقق الدواعى ، فسيرى ان شاء الله مبصر ويسمع واعى ، واللـــه سبحانه هو المسؤول أن يكلأ أرجاءكم ويحقق فى تأييده وفضله رجاءكم ، وهذا موجبه اليكم والسلام التام البر العام عائد عليكم ورحمة الله وبركاته الى آخر رسالته التى طبعها الاقتباس القرآنى أكثر من اقتباسها مـــن الاشعار والامثال .

ومن رسائله السلطانية كذلك قوله على لسان مخدومه «الى أوليائنا الذين لهم صفو الوداد ، والخصوصية التى لا تزيد حالة القرب منها على حالـــة البعاد ، والصفوة التى تعرف لها خلوص الطويات وصفاء الاعتقاد ، والمحبة التى لا يتناول نظمها المعجز الانتقاد ، حزب الهدى ، والجمع الذى لم يترك الله قط أمره سدى ، ولا جعل الله عليه للمعتدين على تلون الالوان واختلاف الازمان يدا ، الفقهاء الاعلام الخ .

وله الى المنصور ايدكم الله مولانا أمير المؤمنين وأعانكم على حفظ ودائعه ، والقيام بشرائعه ، ان من الحقوق الواجبة على العبيد أمثالى الذكرى والنصيحة ، والمحبة الصريحة ، وقد تأملت أمور المقـــام العلـــى نوجدتها مهملة لم يضبطها قانون ، ولا هى على اصطلاح يعرف ما كان منها ما سيكون ، والامور اذا لم تحفظها القواعد والضوابط ، تساوى الغارب منها والساقط ، ورغب عن حبها اللاقط ، الخ .

ولابن عيسى شعر ينزل عن مرتبة نثره . فمن شعره قوله فى المنصور :

هو الغيث ثم البحر فى الجود والندى   وليث اذا جد الطعان هصور
يفوق السهام عزمه وانبعاثه   ويقصر عنه فى الثبات ثبير

وقوله وقد كتب اليه المنصور بالخط المشرقى يستدعى منه كتابا فبعثه اليه صحبة هذين البيتين :

سقتنى كأس السرور دهاقا   خطوط أتتنى فى مهرق
رأت كف أحمد فى الغرب بحرا   فجاءت اليه من المشرق

توفى ابن عيسى فى سجن ابن المنصور بفاس سنة تسعين وتسع مائة .

ومن هؤلاء محمد الوجدى الغماد المتوفى سنة 1022 ، ومن شعره قوله فى الغزل :

لبس الصفرة كى يزهو بها   شادن من جنة الخلد نفر
خلته من حسنه لما بدا   هالة الافق بوسطاها القمر

وقوله فى الخمر :

وصفراء كالشمس المنيرة نورها   لها فى خدود الشاربين مطالع
أذا لمعت فى الكأس قال مديرها   أبدر بدا عن جانب الغور لامع (1)

---

(1) تد ضمن هذا البيت الأخير صدرا من بيت لابن الفارض وهو :
أبدر بدا عن جانب الغور لامع   **أم** ارتفعت عن وجه ليلى البراقع
وله تضمينات أخرى لابيات بعضها لابن الاحمر وبعضها للصمة وتوريات عديدة والتزامات للجناس فى بعض المقطوعات التى نجدها بكتاب « روضة الآس العاطرة الانفاس » فى فى غرض الغزل خاصة ، كما له مقطوعات غزلية أخرى ، وموشحات ذكر احداها المقرى ومطلعها :

يا قد غصن البان   رفقا على المشتاق
قد ضرنى الهجران   والقلب فى احراق
قد طال ياسفاك   فى حبكم سهدى
لكنه اذ ذاك   أحلى من الشهد
بلحظك الفتاك   أقصر عن البعد

ومع هذا الابداع ، فانه يعد كابن الغرديس من الكتاب ، أكثر مما يعد من الشعراء ، وقد حفظت بعض رسائله السلطانية والاخوانية .

وقوله من قصيدة متغزلا كذلك :

ان الرشاقـــة واللطافـــة والصبا	حـــة والحلاوة والملاحة والحـــور
فى حلـــــة ذهبيـــــة فضيـــــة	موشيـــة بنفيـــس أفـــراد الدرر
صيغت لمن اهوى والبسي سندسا	منها وديباجا عليـــه قـــد ظهـــر
متـــأودا فيهـــا بـــــردف مـــردف	متبختـــرا يمشـــى بخصر مختصر
لبيـــاض وجهـــه واللجين تنافس	ولوجهـــه اللالاء فضـــل بالخفـــر
فاذا بـــدا واذا شدا واذا رنـــا	خلت الغزال أو الهزار أو القمر
واذا نظـــرت لوجهـــه واعينـــه	قلت الجمال من الخدود قد انفجر
عينـــى وأذنى فى النعيـــم بنظـــرة	وبلفظـــة منه وقلبـــى فى سقـــر
هـــل عطفـــة أو زورة أو وقفـــة	أو لفظـــة تقضى بادراك الوطـــر

وهى طويلة يبدو عليها التصنع المفرط ، على جمالها الفائق الذى لا ينكر فضله فى مهارة ترصيعه .

ومن شعره قوله ، متغزلا كذلك البيتان :

سل الليل عنى فهو ليس بغافل	يخبـــرك عـــن أنبـــاء حالى بطائل
وقـــل لاخيك البدر ينبيك بالـــذى	يشاهـــده من لوعتـــى وبلابلـــى

وهما مطلع قصيدة طويلة ، متصنعة كذلك . وقد عرف الشاعـــر أمداحه للسعديين ، وخصوصا منهم المامون .

وله قصائد ومقطعات ، أوردها المقرى فى « روضة الآس العاطرة لانفاس » . وقد حلاه فيه ، بقوله : الكاتب البارع الذى بين البدائـــع شرعها ، وولد عقائل المعانى واخترعها ، وافتض أفكار المحاسن وافترعها، هائم كلما تألق بارق نجدى ، أبو عبد الله محمد بن على الوجدى ، مـــن ل فاس .

فهو اذن كاتب قبل كونه شاعرا .

ومن هؤلاء اديب عالم مؤلف عظيم هو أحمد ابن القاضى المنسوب , مكناسة القبيلة والمولود سنة 960 والمتوفى سنة 1025 قد ارجانـــا

ذكـــره لان وفـــاتـــه تأخرت بعـــد المنصـــور كثيرا ، وان لم نأخذ بهذا الاعتبار غيره ، كأحمد الشامى وعبد العزيز الفشتالى المتوفين سنة 1032 لان نشاطهما الادبى مات بموت المنصور ، فلم يخلد منه شيء .

أمـــا ابـــن القـــاضى فاستمـــر علـــى نشاطـــه الادبـــى حتى الوفاة وعـــرف بالمشـــرق ، الـــذى أخذ فيـــه عن جلة من العلماء ، كالقرافى المشارك ، والبنوفرى عالم المالكية بمصر ، والعلقمى الشافعى المحدث سنة 986 وفى المشرق لقب بلقب شهاب الدين ، ويكفى أن يكون مـــن تلاميذه أبو العباس المقرى الذى أشاد به كثيرا فى روضته وتولى الصلاة على جنازته .

ومن تآليفه الادبية التى تعنينا هنا ، وهى من أهم المصادر المغربية، كتاب درة السلوك فيمن حوى الملك من الملوك ، وكتاب درة الحجال فى أسماء الرجال ، ذيل به كتاب الوفيات لابن خلكان ، فجمع فيه رجالا من المغرب والمشرق وهو أول عمل للمغاربة فى هذه التراجم التى لم تتقيـــد بزمان أو مكان أو بمذهب كما لعياض ، وكتاب جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس ، وكتاب المنتقى المقصور على مآثر الخليفة أبى العباس المنصور ، ألف هذا الكتاب ، بعد ما كان ابن عيسى قد ألف فيه كتابـــه « الممدود والمقصور من سنى أبى العباس المنصور » ، وله كتب أخرى ألفها برسم خزانة المنصور خاصة .

وهو الى جانب نثره وتاليفه ، له نظم لا بأس به ، ساق منه تلميذه المقرى بكتابه « روضة الآس » نماذج كثيرة ، منها هذه الابيات التى قالها بمناسبة استرجاع المنصور لمدينة أصيلا ، التى كان البرتغال ، قد احتلوها من جديد أيام أخيه عبد الملك ، وهى :

يا ايهـــا المنصور ابشـــر بالعـــلا	اللـــه بلـــغ فى العـــدا المامـــولا
انضاكم سيفا لحتـــف عـــداتـــه	وبكـــم غـــدا سيف الردا مفلولا
وهزمتم الشرك المتيـــن بعزمكـــم	مـــن غير ما سيف يرى مسلولا
واذبتـــم كبـــد الخبيـــث مهابـــة	وفتحتـــم آرامـــــه آصيـــــلا
وغدت من الناقوس صفرا بلقعـــا	يتلـــى بهـــا قـــرآننـــا ترتيـــلا

ابشــر لــواء الفتح معقود لكــم فاشكر الاهك بكــرة واصيـــلا
اكــرم بـــه من مالك بل صالـــح أضحـــى لنيــران العداة خليــلا
لا زال فى أفق الهـــدى شمسا وفى عيـــن العلاء يشاكل التكحيـــلا

وهى أبيات على صدق لهجتها المتواضعة ، ترتدى مرقعة الزهـــاد والصالحين ، ولا شك ان الممدوح بها يأبى أن يتعرض لنار ابراهيم الخليل وان كان الشاعر علل هذا ، بأن النصارى لما أرادوا الخروج من المدينة، جعلوا البارود تحت قصبتها ، ليتفجر عند حاول المسلمـــين فعصمهـــم اللـــه منـــه .

وقوله من قصيدة مدح بها المنصور سنة 999 بمناسبة افتتاحه السودان استهلهـــا بقوله :

حمدا مـــن المسك المفتق اعطـــر من غـــرة القصر المبارك يسفـــر
يـــا ايهـــا المنصور ابشر بالمنـــى النصر حقا مـــن لوائك ينشـــر

ويختتم القصيدة بهـــذه الابيـــات :

امـــا الجنـــوب فان جندك لم يدع شخصا بها ينوى الشقاق فيغدر
اجليتهـــم منهـــا وجسمك ثـــاويا مراكشا هـــذا لعمـــرك أكبـــر
تركـــوا لك الاوطـــان دون منازع تالله ان التـــرك مـــوت احمـــر
لا زلت بالسيف المهنـــد بـــانيـــا شرفا بـــه نحـــن الموالى نفخـــر

وفى المطلع تشابه فى استرجاع أصيلا وافتتاح السودان وان تقدم هذا بالحمـــد .

ومن مولدياته التى انشدها بين يدى المنصور ، هذه التى استهلها بقـــولـــه :

هـــل بارق من حيكـــم يتـــألـــق أم وجـــه ليلى فى الغياهب مشرق

وبعد المطلع الغزلى يتصل بمناجاة الرسول فيقول :

يـا مـن لـواء الحمد معقود له انت الرسـول الهاشمى المعـرق
تـد اـذ لى ذلـى لعـز جماله وغرامـه بيـن الجـوانح محرق

فلم يستغن عن اللواء المعقود الذى سبق ذكره فى مدح المنصور .

ويستمر فى هذا حتى يتخاص لمدح المنصور فيقول :

يـا مـن له ذنب عظيـم مثقـل انـزل به المختار فهو الدريـق
اى فاعلقـن ببنيـه تظفر بالمنـى لا خيـر فى شخص بهم لا يعلـق
لا تقنطـى يا نفس مما قد مضى انـى علقت بهم وانـى معتـق
اذ لذت بالمنصور نجل المصطفى طود الى شمس المكارم مشـرق

ويفيض فى اطرائه وذكر فضائله ، بهذا الاسلوب المغسول من كل زينة شعرية ، الصادق بتعريه من تلك الامانى التى كان المداح يطربون بها أو يحلمون بتحقيقها وفيه من قلق العبارات مثل « انزل به المختار » و « طود الى شمس المكارم مشرق » .

وكذلك القول فى ميلادية اخرى له انشدها 1010 واستهلها بقوله :

يا كعبة الحسن لولا سر معنـاك لـما سرى فى الدجى ركب لمغناك

وبعد انتهائه من مدح النبى يتصل بمدح المنصور فى أبيات أولها :

كهف ملوك الورى المنصور طودعلا تاج الملوك وفخر المعدن الزاكـى

فلم ينس أن يذكره ايضا بكونه طودا ،،، وان كان اسلوب هـذه ارق من سابقتها .

وله مخاطبا المامون ، غالبا :

يا مالكا حـاز المفـاخـر والثنـا يـا درة فـى غـرة الايـام
يا نجـل منصـور تملكت العـلا فافخـر بمـا اوتيـت من انعام

فام يبرم كذلك بذكر العلى وعرضها فى معرض أمداحه للسعديين ، مما واجهناه فى اول بيت ذكرناه ونواجهه فيما لم نذكر من أبيات أمداحه لهم ومن شعره يخاطب المنصور هذه الابيات التى استعطفه بها وهو واقع

فى اسر القراصنة الاسبان من قصيدة متواضعة :

بحــق الــذى أولاك ملكا فنجنــى ... مــن الهلك يا قصد السبى المكبل
وكــن يا امام العدل فى عون حائر ... اسيــر كسيــر ذى جنــاح مذلل
لقــد مزقت أيدى الزمان وريده ... ودارت عليــه الدائــرات كجلجل
واخنى عليه الدهر من كل وجهة ... وداست عليه النائبــات بأرجــل

وقد تصرف فى دارة جلجل الواردة فى معلقة امرىء القيس فشبه الدائرات بجلجل كما راينا . ولا علاقة لها بها فى البيت :

الا رب يــوم لك منهــن صالــح ... ولا سيمــا يــوم بدارة جلجــل

فالدارة أرض سهلة تدور بها الجبال فلما افتكه المنصور من الاسر ومثل بين يديه سنة 995 ، انشد ، نونية طويلة فى 63 بيتا ، استهلهــا بهذا البيت القلق المضطرب المرتجف :

مــن العقيــق عقيق العين هتان ... سل عنه سلعا فما يغنيك نعمــان

وبعد المطلع التقليدى تخلص لمدح الرسول على طريقة التغزل فى المحبوب ، اذ كان اسره فى طريقه الى الحج وزيارة قبره عليه السلام يقــول مخاطبا ناصحــه :

لو كان حقك نصحا ما انفعلت له ... وهبــه حقا فمــا للقلب اذعــان
قالوا صبرت على الاحباب قلت لهم ... صبرت للوجد أيــام وحقبــان
قالوا اسلهم قلت قلبى لا يفارقهم ... قالوا اصطبر قلت صبرى فيه روغان
واننى سوف أسلوهم اذا ولجت ... سم الخياط مــلا قيــح وبــزلان

والبيت الاخير كما نرى مقتبس من قوله تعالى « حتى يلج الجمل فى سم الخياط » . وبعد مدح الرسول يتصل بمدح المنصور ويشيد بأياديه.

والقصيدة على العموم تفوق غيرها ، وان قال فيها صاحبها «ذكرتها مع ركاكة معانيها وسوء الفاظها ومبانيها ،،، لان المقصود ذكر مآثره » فلا شك ان قولته هذه من قبيل تواضع الانسان فى معرض الشعور بالعظمة فيتستر بالخجل المفتعل (كما نرى) والا فليس له ما يضاهيها .

سوى هذه فله اخرى فى الغزل الرقيق وفى مخاطبة الاخوان ووصف الاماكن والديار ومطارحة العلماء والادباء بالالغاز وغير ذلك من اغراض ذكرها المقرى فى روضته ألتى خصص له منها نحو سبعين صفحة ، جاء فيها من منظوماته ، موشحة جميلة ، يفتتحها بقوله :

لاهتـــزاز البـــان وقت السحـــر   هـــامت الارواح
وقيـــان الطيـــر فـــوق الشجـــر   تجلـــب الافراح

* * *

يا شقيـــق الروح هـــات القدحا   من دنان الحـــان
قهـــوة تكسب قلبـــى الفـــرحـــا   تطـــرب النشوان
كـــل مـــن دارت عليـــه شطحـــا   من يدى وسنـــان

وبهذه الخمرية الظاهرة نجده يتغزل بمدح النبى فيقول :

لحظـــه يسطـــو بسيـــف الحـــور   سطـــوة السفاح
مـــا للمهـــوف بـــه مـــن وطـــر   بالهـــوى قـــد باح
لا تلـــم يا عاذلى فى حـــب مـــن   فـــاق بدر الـــداج
حبـــه وسط الفـــؤاد قـــد كمـــن   مـــن سنى وهـــاج
مـــا بصدرى مـــن هـــواه مؤتمن   صاحب المعـــراج

وقد شاع نظم الموشحات فى عصر المنصور وكان هو نفســـه مـــن الناظمين لها كما سنرى .

ومن نثر ابن القاضى ، قوله فى مقدمة « درة الحجال » وبعد فقد قصدت بهذا التاليف خدمة الامامة الهاشمية ، والخزانة العلمية المنصورية، خزانة الملك الاعظم ، والهمام الافخم ، بحبوحة المجد الباذخ ، وتاج ملوك العالم ذى الشرف الشامخ ، الملك الاسعد الاصعد أمير المومنين مولانا ابو العباس ، احمد الشريف الحسنى ، ابقى الله ملكه وجمع سننه ، ليكون شكرا لما اسداه من نعمه ، واقرارا بعشر عشر عشر أياديه ، اذ من لم يشكر الناس لم يشكر الله ، لانه أخرجنى من أسرى ، وخفف عنى اصرى ، عامله الله تعالى بالحسنى ، وانزله بالمقام الاسنى ، ولما كنت

قبل وضعت تاليفا وسميته بالمنتقى المقصور على مآثر الخليفة أبى العباس المنصور ، الشريف الحسنى واستطردت فيه ذكر بعض الفضلاء ومحاسن بعض النبلاء ، وضاق عن استيفائهم تعيينا ، وعن حصرهم تبيينا ، فاحتجت لجمع هذا لاذكر من حضرنى من الاعيان ، الذين لهم فضل قد شهد به العيان ، ولم اقتصر فيه على العلماء والادباء ، بل كل من له شهرة...

فهذا نموذج من نثره ، يتسم بطابع العلماء ، ولا يبدو عليه تفوق فنى.

وبعد ابن القاضى نجد من شعر سميه ابن القاضى بن الغرديس ، كاتب المامون على فاس أيام أبيه وكان ولى عهده آنذاك اشعارا فى المولد والامداح منها ما مدح به المامون من قصيدة موادية يقول فيها :

اهدى النسيم تحية المشتاق ... واذاع ذكر الشوق فى الآفاق
فى طى مسراه ولين هبوبه ... سر يشب لواعج الاشواق
لما سرت للروح منه رويحة ... حيت فأحييت مبتلا بفراق
جاءت تخبر عن اهيل بالحمى ... رحلوا فلم يطمع لهم بلحاق

الى ان يقول :

هل من سبيل للقاء فتشتفى ... من لحظ حسن جمالكم أحداقى
ام هل سبيل للورود لطيبة ... فهناك منية قلبى التواق
اهوى الوصول الى الرسول فتجتلى ... انوار حسن ضريحه آماقى

وبهذا يتخلص الى مدح الرسول ، ثم ينتهى الى الاشادة بأعمال صحابته وجهادهم ، فيقول ضمن أبيات

تام امتعاضا دونه خير اسرة ... تركوا الدنا مبتوتة بطلاق

الى أن يقول :

كم اتبعوا بالسيف كل معاند ... ضربا على الآذان والاعناق
هم الحموا الكفار كل وقيعة ... فسقوهم بالطعن كأس دهاق
فعلا على الاديان دين نبينا ... من بعد شرك ثابت ونفاق
واحتل من بعد الذوى بفضله ... روضا أريضا يانع الاوراق

سعد الانام بليلــة سطعت بهــا — شمس النبــوة تامــة الاشــراق
وافتر ثغــر الصبح عن ميلاد خيــ — ــر العــالمين الطيب الاعــــراق
أكــرم بـــه وبيومهـــا من ليلـــة — منها انتشار الحــق فى الآفـــاق

ثم يتصل بمدح المامون فيقول :

وافى الامام المرتضى المامون مـــن — مقــدارهـــا بالبــذل والانفـــــاق
وافـــاض اجـــلالا وتعظيمـــا لهـــا — أصناف نعمـــى وجوده الدفـــاق

الى أن ينتهى لفكرة الاحقية فى الخلافة فيقول :

ابن الخلائف والالى سادوا الورى — فمتـــى ترقـــوا للعــــلا لا راق
ان الخلافـــة فى ذؤابـــة هاشـــم — لا تعدهـــا للغيــر قــول وفـــاق
لهم الاحــق ومـــن عداهم معتــد — فلهـــم وراثتهـــا بالاستحقـــــاق

الى آخر القصيدة التى يقول فى ختامها :

فالديـــن يعلـــو كعبـــه لمقامـــه — والكفــــر فى ذل وفـــى ارهــــاق
لا زلت فى عـــز ونصر ضــــافيا — حلـــل البهـــا مرقومة الاطـــواق
وجديـــد سعدك أيها الملك الرضى — يقضى بنيـــل نفـــائس الاعـــلاق
وعلى النبـــى وآلـــه مع صحبـــه — تسليـــم مضنى دائـــم الاشـــواق
اذكـــى من المسك الفتيـــق تضوعا — وأتم مـــن نـــور الضحى الرقراق

والقصيدة فى ثلاثة وستين بيتا ، وهو العدد الذى ربما راعاه ، كما وجدنا فى بعض المولديات الآتية فيما بعد من كونه يطابق الاعوام التى حييهـــا الرسول .

وهذا الاعتبار غير ملتزم منهم ، فقد ياتون بمولديات فى ثلاثين بيتا ونحوها وقد ينتهون بها الى المائة أو تزيد عليها كما للفشتالى .

ولابن الغرديس مولدية أخرى طائية ، استهلها بقوله :

تبدت فأبدى الثغـــر من لؤلؤ سمطا — وفوقت الالحـــاظ سهما فما أخطـــا

ولاشك أنه قلد الفشتالى بهذه القافية .

ومن هؤلاء آخرون كانوا يشاركون فى الحقل الادبى على عهد آبائهم، مثل محمد بن عبد العزيز الفشتالى ، ومن ميلادية له مدح بها أحمد المنصور:

ان اوقدوا فمن الفؤاد ضرامهم   او أوردوا فمن العيون الماء
قوم اذا سمعوا بخير بريئة(1)   هز الركاب تشوق وبكاء

قال المقرى فى الروضة وهى طويلة .

ومن غزلياته :

ظبى الفلا ما لوجدى فيك غايات   ولا لبدء الصبا منى نهايات
ياطلعة البدر جفنى بالبكاء غرق   والقلب قد لعبت به الصبابات
يبدى التباله من هندى ناظرة   فى كل عضو من العشاق رشقات
واوات صدغيه لا بالعطف تسعدنى   ولا ينيل المنى منها اشارات
عجبت منه كسير الجفن من سقم   له على نصبه للرشق رفعات
فللصباح استعارات اخيلها   من ثغره وله منها امارات
اضحت غصون رياض الغرس خاضعة   تميل للارض منهن الذؤابات
إيه فابسط مديد الوصل منسرحا   ياغصن بان فللايام غفلات
فلى بتقبيل ذاك الورد منفعة   ولى برشف لثات منك رغبات

وهكذا نرى فى هذا الغزل استغلال مصطلحات فى النحو والبلاغة والعروض ، وهو ميدان كانوا يتبارون فيه لعهد المنصور خاصة .

ومثل عبد الوهاب ابن القاضى الحميدى ، ومن شعره قصيدة فى مدح ولى العهد المامون ، يقول فيها :

هنيئا فأعلام السعود بوادى   وفجر التهانى بالامانى مبادى
بوافق بالبشرى نواطق بالهنا   طوارق انباء بنيل مراد
ف لك الآمال وهى خرائد   حوال بأنوار الجلال حواد

(1) من الاقتباس القرآنى . « هم خير البريئة » .

تسر بابلاغ المعاهد اذ سرت   مواد بتسآد البعاد خواد

وتستمر القصيدة بهذا التلاعب اللفظى ، ويختمها بقوله :

يعب بأمواج جلت عن هزابر   عواد لاحماء الوطيس غواد
أسود هياج فى وشيج من القنا   عوال لهامات الكماة عواد
سيوف اذا شبت بهن لظى الوغى   صوال على أنهالهن صواد
سمت لك أعواد السعادة فارتق   مطاها فما فوق البسيط مضاد

ومنهم أحمد بن عبد الواحد الحسنى ، ومن شعره قوله :

من منقذى من شادن فاتن   يؤثره البدر على نفسه
أذا انتضى من لحظة صارما   ما أقرب الانسان من رمسه

وقوله :

قلت له اذ ساءنى معرضا   وحسنه يهزا بالشرب
هبك تجافيت فأبعدتنى   تقدر أن تخرج من قلبى

وقوله :

قلت لها اذ وعدت وانثت   تحكى غصون البان اذ تنعطف
مهلا أيا من لا نظير لها   والعادم الناظر لا ينصرف

وبهذا وجدناه كذلك يستخدم قاعدة نحوية .

وله أشعار مذكورة فى روضة الآس ، قال مؤلفه انه عارض بها أخاه فى أبيات ذكرها فى ترجمته ، كما قال انه أنشده كثيرا من نظمه .

وكان محمد أخوه كأبيه مكثرا من نظم الشعر والتفنن فيه ، فمنه قصيدة مولدية طويلة أنشدها بين يدى المنصور سنة 1009 ، وفيها توفى هو وأخوه أحمد بالطاعون واستهلها بقوله :

أمذاب تبر راق أم صهباء   تسعى بها غانية حوراء
فتانة من فرعها وجبينها   يبدو الصباح وتنشأ الظلماء

ويستمر فى هذا الغزل التقليدى ، الى ان يتخلص لمدح الرسول بقوله:

سكنت فؤادى فلست أنسى ذكرها   ما هز غصنا شمال وصباء
الا بمدح صفوة الارسال من   من نوره تتكون الاضواء

وينتهى من مدحه ايتصل بمدح المنصور فيقول :

يا تاج رسل الله ياقطب الهدى   كادت تذوب لبينك الاعضاء
لكن دنو سبطك المنصور قد   زال العناء به وزال الداء

ويغرق فى وصفه بالمبالغات ، الى أن يقول :

كل الملوك سواءه يخشى الوغى   والحرب وهو تخافه الهيجاء
فلو انه فى كربلاء شاهد   ما عم فيه المسلمين بلاء

وهذا البيت يذكرنا بقول الجراوى :

لو أنها نصرت علينا لم ترد   خيل ابن حرب ساحة الانبار

ففيهما معا تبدو ظاهرة التشيع لآل البيت الكرام (1) .

ومهما يكن فان عصر المنصور الذهبى كان فى ادبه ذهبيا بحق ، وكان المنصور نفسه على حظ كبير فى الادب ، كما كان من أولئك العلماء المشاركين والادباء الماهرين ، ومسائله العلمية ، واشعاره ، مما يتحلى به جيد ملوكنا الاماثل .

فمن شعره قوله فى وردة مقلوبة « وهو من أوليات شعره كما يقال » (2) بين يدى محبوبه :

ووردة شفعت لى عند مرتهنى   راقت وقد سجدت لفاتر الحدق
كأن خضرتها من فوق حمرتها   خال على خده من عنبر عبق

---

1) اغفلنا ذكر ادباء آخرين ومنهم صاحب (النفحة المسكية فى السفارة التركية) وكان كاتبا شاعرا كما تثبت ذلك رحلته المذكورة وتقدم منها ما اتصل بمحمد بن على الفشتالى .

2) بل كان البيت السعدى كالموحدى والمرينى جلهم ادباء ، فمن شعر محمد المتوكل (المسلوخ) ما تقدم ذكره فى الصفحة 663 و 664 .

ومن شعره قوله موريا :

شـــادن نـــم عليـــه نفحـــه   مـــا خلاصى من سهـــام كامنـ
احـــلال اننـــى خـــائفـــه   وغـــزالى بعـــد خـــوف آمنـ

وقوله فى رقيب :

رقيبـــى كان الارض مرآة شخصه   فأيـــن تولى الطرف منى يـ
مقيـــم بوجـــه الوصل حتى كأنمـــا   وصالـــى هـــلال والسواد صـ

وقـــولـــه :

ايـــا روضـــة ضنت علينا بزهرها   ولـــم يتلـــق ناظـــرى ســـو
ابيحـــى انفسى من شذاك بقاءها   اذا فت طرفى عل أنفـــى يـ

وقـــولـــه :

على جدول غطت عليـــه بشعرها   لئلا يرى الشمس الرقيبة لى ط
فبت أرى فى جدولى بـــدر وجهها   غريقا ونقطا فى العبير به كلـ

وقـــولـــه :

طرقت حمـــاه والاســـود خـــوادر   بـــه فتولى فى الظبا وهو يـ
فعلمت آساد الشـــرى كيف تقـــدم   وعلم غـــزلان النقا كيف تشـ

وقد خمس هذين البيتين القاضى أبو الحسن على السلاسى ، بقو

رمانـــى لحظ منـــه يا قوم فاتـــر   فيـــاعجبا مـــن فاتـــر وهو باتـ
ولمـــا جنـــى حبـــى ومالى ثائـــر   طرقت حمـــاه والاســـود خـ
بـــه فتولى فى الظبـــا وهو يشرد

الم يـــدر انـــى مقـــدم ومقـــدم   وفى الحرب والهيجا هزبر وضـ
ولست ابالى ما الخميس العرمرم   فعلمت آساد الشـــرى كيف تـ
وعلم غـــزلان النقـــا كيف تشـــرد

وكثيرا ما كان ينظم على سبيل الاجازة والمساجلة والمطارحة ، فـ
حاشيته يتبارون فى هذا ، كما كانوا يذيلون بعضه .

ومن شعره أيضا قوله :

من عنبر المسك أو من مسك دارين بلـى ومنـه نسيمات الرياحـ
مهفهـف ان تثنـى قلت مقتضـب من قضب نعمان أو من كثب يبر

وهو فى الثانى يومىء الى قول الفرزدق :

دعـون بقضبان الاراك التى جنى لهـا الركب مـن نعمان أيام عرفو

أما كثـب يبرين فالمقصود رملهـا المذكور فى شعر الخطيئة ورؤبـ وغيرهمـا .

وبعـده يقـول :

ذنبـى اليه ـ ولا ذنب ـ محبته مـن أجلها بسهـام اللحظ يرمينى
يـاما أميلحـه ظلما رضيت بـه لـو انـه دام منـه كان يكفينـى
معذبـى قد حرمت النوم بعدكـم فانعم بوصل هنىء غيـر مفتـون
أومض على ورد ذاك الخد برق فم يعـوض الخـد من ورد بنسريـن

وقـولـه :

لا وطـرف علم السيـف وقـد فى قـوام كقنـا الخـط اطـرد
ووميـض لاح لمـا ابتسمـت فأرتنـا منـه درا أو بـرد
مـا هـلال الافـق الا حـاسـد منـه حسنـا وعـلاء وغيـد
واـذا عـاش قليـلا نـاحـلا كيـف لا يفنـى نحـولا من حسد

وقـولـه :

تخالفت منـه عينـاه الى سبـب كـان اتفاقهمـا فيه علـى عطبى
محدقـة العين تقصينى وتؤيسنـى واللحظ يطمعنـى فيه ويسخر بـى
اشكو نهاى وشوقى كيف يفترقا (1) فى أمره وكـلا ذا زاد فى التعـب
ان طعت ذاك فمن لى فاتنى أربى أو طعت هذا فمن لى فاتنى حسبى

---

1) استعمل كيف جازمه وهو مسموع ويطرد مع ما ، كما سمع حذف النون من الفعل بعده بلا موجب للحذف .

ومـــن شعـــره قـــولـــه :

اقـــام بقلب فى هـــــواك مقلـــب وانـــى لـــه بين الضلـــوع مقـــام
فيا شـادنـــا مرعـــاه حبة مهجتـــى امـــا لحشى اقمـــت بـــه ذمـــــام

وقوله موريا :

ان يـــوما لنـــاظـــرى قـــد تبـــدى فتسلـــى مـــن حسنـــه تكحيـــــلا
قـــال جفنـــى لصنـــوه لا تلاقـــى ان بينـــى وبيـــن لقيـــاك ميـــــلا

الى غير ذلك من الاشعار الجميلة التى جمعها ابن القاضى فى كتابه المنتقى المقصور ، كما يقول فى درة الحجال الذى اتى فيه بكمية وافرة من اشعاره · وكذلك اتى بجملة أخرى من اشعاره عبد العزيز الفشتالى فى كتابه (مناهل الصفا فى اخبار ملوك الشرفا) والمقرى بالجزء الاخير من (نفح الطيب) فى تعرضه للموشحات التى قال فيها المنصور ، واول كتابـــه (روضة الآس العاطر الانفاس) ·

وبالجملة فعصر المنصور الذهبى وقصره يذكرنا بعصر المعتمد ابن عباد وقصره الذى كان ندوة الادباء والعلماء يوفد اليه من جميع الاقطار كما كان قصر المنصور يفد اليه حتى شعراء الشرق وأدباؤه · فكـــان اواخر القرن العاشر واوائل الحادى عشر يزهو بأدباء المغرب فى كل ربع مـــن ربوعـــه ··

وكذلك فان المنصور نفســـه يذكرنا بابن عباد الذى كان يطـــــارح الشعراء ويستجلى مكنون قرائحهم ويبث فيهم نشاطا بما يخلق لهم مـــن مناسبات ويبعث فيهم من بواعث وهذه صورة من تلك المطارحات التى كان المنصور يلقيها بين ادبائه فتستجيب له القرائح وتنظم بها الاشعار ، كما نجد فى هذه القصة التى يوردها عبد العزيز الفشتالى فى كتابه (مناهل الصفا) قـــال :

وفى مقامه ايده الله — بمحلته السعيدة على اغمات صدرت عن جلاله العالى ابيات من نظمه البارع فى الاعتذار عن ترك الوداع وهى هذه :

تبــدى وزند الشوق يقدحه النوى   فتوقــد أنفاسى لظــاه وتضــرم
وهــم لتوديعــى فأعرضت مشفقا   علــى كبــد حــرا وقلب يقســم
ولــولا شــواه فى الحشــا لاهنتهــا   ولكنهــا تعــزى اليــه فتكـــرم
عجبت لآســاد الشرى كيف تحجم   على أنه ظبى الكناس ويقــدم (1)

فانثال عليه من بالمحلة من كتاب حضرته وشعراء دولته انثيال الهيم على الورد وانثحل على الشهد وكان أول الحلبة فى ذلك الميدان وأحرزهم لراية السبق يوم الرهان شيخنا العالم العالم العلامة مفتى الاسلام وعلم الاعلام أبو مالك عبد الوحيد بن أحمد الشريف — أبقاه الله — فقال وأجاد فى المقال :

واعجب من ذا طول صبرى عندمــا   تجلــى فــدك والجنــان متيـــم
تحمل منــى القلب فى شرك الهوى   وحل اصطبارى وهو من قبل مبــرم
وغادرنى مضنى حليف صبــابــة   وقدمــا بتعذيبــى خليق ومغــرم
فللــه عينا مــن رآنــا وبيننــا   رسائــل شوق لا تبيــن وتكتــم

ثم تلاه الفقيه شاعر الدولة أبو عبد الله محمد بن على الهوزالى فقال:

اخــوض عباب اليم فى حومة الوغا   وسمر القنا بيــن الضلوع تحطــم
وأصدع قلب الفيلــق المجر عنــوة   ويصدع قلبى أحور العــين أفحــم
وأحمى ذمــار الملك شرقا ومغربا   ويحمى فؤادى وهو فيــه محكــم
وأكتــم ما أنويــه حتى عن الحشا   وأودع مــن بلواه ما ليس يكتــم

ثم تلاه صاحبنا الفقيه الكاتب البارع أبو على الحسن بن أحمــد المسفيوى فقــال :

تــواى به مــا بى أسى وصبابة   طواها فبــات البين عنها يتــرجم
فهــا حزنــى أودى بحسن تبصرى   وذا جلــدى نهب لديــه ومغنــم
ليهنهــم مثــوى الضلــوع فانــه   سليم علــى حكم الصبابة مسلــم
فان يك تعذيب المتيــم فى الهــوى   فان فؤادى فى هــواهــم منعـــم

(1) تقدم أن العباس بن الاحنف تناول هذا المعنى وبعده آخرون كسليمان بن الحكم الاموى ثم ابن حمديس الذى ردده فى شعره كما ردده معاصره ابن زنباع ثم تناوله سليمــان الموحد وآخرون بعده الى أن كان المنصور ثم تناوله ابنه زيدان كما سنرى بعد .

ثم تلاه مؤلف الكتاب عبد العزيز بن محمد الفشتالي — سمح الله له بمنه — فقال :

ألـم يك هـذا الخشف يألف وجرة فما باله بالمنحنى يتلـوم
صحبت أخاه البدر فى الليل ساهرا يمثله لى الهوى والتوهم
وقالوا نظير الخيزران قوامه فقلت غلطتم انه منه اقوم
لقد وسع الارضين صدرى فسيحه فضاق احتمالا بالذى منه يكتم (1)

وتلانى صاحبنا وباديئنا الكاتب أبو عبد الله محمد بن على الفشتالى فقال :

خضوعى حاكم الغرام قضى به وشأن القضاة بالشهادة تحكم
فلو لم ير العدلان دمعى وزفرتى لما كان فى رسم القضاء تعلم
غزال حواه خوط بان واننى لانجد دأبا فى هواه وأتهم
فهبنى أروم كتم نار صبابتى فان لسان الحال عنى يترجم

ثم تلاه الفقيه الاصيل الفاضل الجليل نادرة العصر ونخبة الدهر القائد أبو الحسن على بن منصور الشيظمى فقال وقد تخلص من الغزل الى التمدح وتخطى القطعة الى القصيدة كعادته .

وهنا ياتى الفشتالى بقصيدة طويلة تبلغ ثلاثة وخمسين بيتا ذيل القطعة بالاربعة الاخيرة منها فقال :

ويعجبه منها انحجل فيعتدى عليها ويمضى حكمه فتلسم
ويشرع رمحا من قوام وينتضى ظبى من جفون فى النهى تتحكم
ويقدم تيها وهو بالحسن صائل فيبهر من ذاك الاسود فتحجم
وتشفق منه أن ترى ومكانه من القلب مستول عليه التألم

وهكذا نرى فى هذه المطارحة الشعرية شبيها بتلك المطارحات التى عهدناها فى قصر المعتمد ابن عباد الذى كان يزخر بالادباء كما زخر بهم قصر المنصور وكان المعتمد فيه يثير تلك القرائح فتجود بمكنونها كما كان المنصور يفعل بها ، وكلا الملكين أديب شاعر رددت صدى شعره جنبات قصره .

1) ص 221 وما بعدها تحقيق د. كريم . وفيها تصحفت كلمات أصلحناها .

أما موشحاته فمنها هذه :

ريان من ماء الصبا أهيف وممتلىء البرد
كالغصن هزته الصبا فوق الربى الشهب
قد قلت لما أن سبى بحسنه لبى
من عينه سل ظبا وغمدها قلبى

* * *

أسرنى ماضى الشبا أوطف مرنح القد
ياقاضح الروض سنى بل مخجل البدر
وقاطعى ظلما عنا ومن مقره صدرى
الم تكن شمس دنا فانها تجرى

* * *

علقته من الظبا أسجف يسطو على الاسد (1)
قلت له وقد نهد وجد فى حربى
وغلب الظبى الاسد وفاز بالغلب (2)
الشمس برجها الاسد فاسعى الى قلبى

وهذه موشحة أخرى له ، يعارض بها موشحة لسان الدين ابن الخطيب وابى بكر محمد ابن الصابونى الاشبيلى :

وليالى الشعور اذ تسرى ما لنهر النهار من فجر
حبذا الليل طال لى وحدى لو ترانى جماته بردى
فاطميا فى خلعة الجعدى هى ليلى اخت بنى بشر
فأين انت يا أبا بدر
كم سقطنا الطف من طل رب ليل ظفرت بالبدر

---

(1) تكرر هذا كثيرا .

(2) بعدها اتى بيت به سقط فى « روضة الآس » وتركناه أصلا ؛ لانه واغل هنا ، ولا محل له البتة .

واستـرحنـا مـن كاشـح نـذل واجتمعنـا ومـا درى ظلـى
ونجـوم السمـاء لـم تـدر (1)
وبنفسـى مهفهـف المـى ومطيـع قـد غـرنـى لمـا
سألتـه وقائعـى ممـا فى ربـاط قسمتـى صـدرى
لحنيـن ونـاظـرى بـدرى
وهـلال فـى حسنـه اكتمـلا هـو شمس واضلعـى الحمـلا
قـام يشـدو وينثنـى فـى مـلا قسما بالهـوى لـذى حجـر (2)
مـا لليـل المشـوق مـن فجـر

ومن الشعراء الذين ذكروا بأمداحهم لابناء المنصور ، رجل عجيب حقا قال فيه المقرى ، انه ليس من أهل العلم ولا يعرف النحو ولا اللغة ،بل كان يتولى قراءة الامداح الميلادية بين يدى المنصور ، ومع هذا فقال شعرا فى المنصور ، ومنه قصيدة هناه بها بفتح السودان وذكر مطلعها المقرى ،ثم ذكر له قصيدة فريدة ، مدح بها الواثـق بالله ، أبا فارس الذى كـان احد الاخوة الثلاثة الذين توزع الملك بينهم بعد وفاة المنصور ، ولا ندرى ، هل مدحه بذلك وهو ملك ـ كما يبدو ـ أم مدحه وهو يتولى اقليم مراكش فى حياة أبيه .

هذا الشاعر ، هو عبد الله بن عجال المزورى ، وأبياته نادرة المثال بين اشعار السعديين ، فالرجل كما يبدو تلقى آلادب بالمراس ، وكانت فيه موهبة فنية لا يتوفر عليها بعض السابقين . وهى فى وصف قصر المسرة وحدائقه الى جانب مدح أبى فارس الذى كان مقيما فيه ، كما نرى :

بشراك فالبشـر قد حيا على طرق والنصـر لبـى بمجمـوع ومفترق
والسـن اليمـن والاقبال قائلـة انعم بمسك الدجـى وزهرة الفلق
أمـا ترى قبة الابريز قـد برزت تختال من خلـع الانوار فى سرق
تبرقعت حلـلا خضـرا مجـددة وصب فيهـا غدير التبر من ودق

(1) (فالشطرة الاخيرة لابن الخطيب (كما فى روضة الآس) والموشحتان مذكورتان بـه وبنفح الطيـب .
(2) تضمين لما فى سورة الفجر . وكذا الشطر بعده وهو لابن الصابونى .

تخـــال من سندس خضر غلائلتها بغيد روض من الفردوس مسترق
محفوف الآس والنسريـــن فى شرف مفيأ الظل عـــن برد وعن عذق
أصولهـــا فوق برج الحمل راسخة بطالـــع السعد والاضداد فى محق

ومنهـــا :

قد كحلت نرجس الاحداق من حبر زرق تباهى العيون الكحل بالزرق
وقلـــدت عقد قلب الملك وائقهـــا ونقبـــة فوق ورد الحسن بالسرق

ومنها كذلك :

لعنبـــر الشحر نفحات بمفرقهـــا فيهـــا لمنتشـــق رى بـــلا شرق
نارنجهـــا ولجاج الماء مـــن عجب بحـــر بلا غرق جمر بـــلا حـــرق
حسناء قد أصبحت يسايك منظرها والطيب حياك منه كل ذى عبـــق
تبديك مـــا شئتـــه من عاطر أرج أو طائـــر هزج أو زاهر أنـــق
بالواثق المقتفـــى المنصور ناطقـــة أنـــا المصونة عن فقر وعن فرق
اذ كـــل صنع أتى الملك الامام به بالقصر ثانى بديع القصر فى نسق

ومنها أيضا :

حسن توارث ميـــراثا تـــؤيـــده آثـــار سابقـــة تتلـــى بملتحـــق
عجائب من بديع الصنع أحكمهـــا تقدير من خلق الانسان من علق
من كل رائقة رقت محـــاسنهـــا فى حسنهـــا كرقيق الظل فى ورق
للـــه منها عروس اقبلت فجلـــت خـــد الصباح بدا فى طرة الغسق
تزفهـــا لك أيـــام الهنـــاء الـــى قصر المسرة عن عزم وعن قلق
لم يكفه أن جنى ورد الخدود بها حتـــى أضاف اليها نرجس الحدق
زهـــر لمقتطف زهـــر لمعتســـف ثغـــر لمرتشف مســـك لمنتشـــق
تفرد الواثق الملـــك الشريف بهـــا فى زمن لم يدع شأوا لمستبـــق
فمـــن يجـــاريك فى مضمارها أبدا والفضل يحرز خصل السبقبالعنق
ايقنت انك سبـــاق لغـــايتهـــا لمـــا رقيت العلى فى اول الطلـــق
للعقـــد فى كل حال رونـــق عجب ولا كرونقـــه فى صفحة العنـــق
يا واثـــق الملك قد حسنت لى صفة لو رمت شكرك طول الدهر لم أطق

نبـــا لسانى عما فيك مـــن كرم   كما نبا السيف عن مسرودة الحلق
نظمـــت آخـــر عليـــاكم بأولهـــا   فصرت تجمـــع منهـــا كل مفترق

فهذه قصيدة رائعة الجمال ، اما مطلع القصيدة التى مدح بها المنصور ، وهناه بفتح السودان ، فهو :

اتى البشير لمـــن جلت مواهبـــه   مستصحب النصر مذ تسرى ركائبه

فالغالب أن هاته كانت على وتيرة تلك القصائد الرتيبة ، التى سلف ذكـــر بعضها ·

الفصل الثاني

ما بعد المنصور

لم يتوف المنصور ، سنة 1012 ، حتى تعرضت الدولة ، لنكسة فتكت بها من جراء هذه الحروب الطاحنة التى كانت تشب بين أولاده ، وقد أضيف الى ذلك كوارث أخرى ، نزلت بالمغرب الذى كان قد فتك به الطاعون وذهب ضحيته ، حتى المنصور نفسه ، فهام الناس على وجوههم، والطاعون يلاحقهم ، والفتن من كل جانب تطاردهم ، وانتهز الاسبان نكبة المغرب ، فجاءوا بأساطيلهم ، وقد استصرخ بهم المامون وفر اليهم ، فسرحوه الى المغرب ، يجر وراءه ، جيشا لجبا ، من هؤلاء الاسبان فنزل معهم بحجرة باديس التى كانوا قد احتلوها من ذى قبل أيام الغالب. ثم احتلوا العرائش ، سنة 1019 ، وفى السنة التالية احتلوا المهدية ، وكانت طنجة والجديدة وسبتة قد صارت اليهم من يد البرتغال . فشق على المغاربة المغاور ذلك ، وتجردوا لقتال عدوهم ، وظهر ابطال مجيدون وكان على راسهم ابو عبد الله العياشى ، الذى صار يشن الغارات على الاسبان ، فى العرائش والمهدية ولا يالوا جهدا فى محاربتهم بالجديدة وطنجة اما سبتة ، فقد استمر اهل تطوان من مغاربة وأندلسيين يداهمونها ويضيقون عليها الخناق ، وكان بنو النقسيس يوجهون عنايتهم الخاصة اليها ، ويتجردون لتخليصها ولكنهم لم يفلحوا ، فظلت سبتة بيدهم بعد عودة البرتغال الى استقلالهم .

والى جانب هؤلاء المجاهدين ؛ أبطال التحرير ، كان هنالك رجال آخرون اتسموا بهذه البطولة ، وكانوا يرون أنهم أحق من هؤلاء السعديين المتناحرين ، فظهر الفقيه ابو محلى الذى ادعى انه المهدى المنتظر، كما ظهر يحيى الحاحى الذى حارب أبا محلى وقتله فى معركة دارت بينهما سنة 1028 ، ثم ظهر ابو حسون السملالى ، وكانت كذلك بينه وبين الحاحى حروب شنيعة الى ان توفى الحاحى سنة 1035 ، ثم محمد الحاج الدلائى ، الذى كانت له حروب مع العياشى ، الى ان قتل هذا غدرا

سنة 1051 ، بعد ما كان قد بايعه كثيرا من مدن المغرب ، مثل فاس وسلا ، وغيرهما . وبعد وفاة الدلائى المذكور سنة 1062 ، ظهر عبد الكريم الشبانى سنة 1069 ، واستمر فى ثورته الى أن توفى سنة 1079 وفى السنة التى توفى فيها العياشى رحمه الله ، خلفه من اتباعه الخضر غيلان ، وكانت له مواقف من البطولة ؟

هذه هى الحالة التى كان عليها المغرب آنذاك ، وبقى أن نشير الى شىء آخر كان قد انتشر فى المغرب عن طريق الاتراك ، وهو وجود الفرق الملامتية ، التى كان لها أثر قوى ، كما تقدمت الاشارة لذلك ، واستتد ساعدها بتغلغلها فى الاوساط المغربية بل حتى فى هؤلاء الابطال الذين كانوا ينتمون الى الشيخ الفلانى ، او انهم أنفسهم أصحاب الزاوية الفلانية ، مثـــل الدلائيين . وكان تهديد هذه الزوايا يلوح من زمن بعيد أيام محمد الشيخ وكان المنصور متضايقا من ذلك ويريد القضاء عليه ، كما نجد فى نزهـــة الحادى وغيره ، ولكنه لم يستطع . ولما توفى ظهر اثر هؤلاء ، قويا خطيرا ، ثم استفحل امرهم وانتزى الدجالون منهم ، وانتشرت الخرافات ، وتعلق الناس بالاوهام وخيوط العنكبوت ، فهذا البطل الفلانى يحارب وهو يتلو البردة ، وهذا يبارز وعلى ذراعه حرز مربوط ، وهذا وذاك ، لا يتأثر بالبارود

ومهما يكن فقد كان المغرب يناضل فى حروب داخلية ، وخارجية فانعدم فيه الامن والطمانينة ، ولكن هذه الاضطرابات خلقت أجواء من الادب الصاخب الساخر فكانت الرسائل الجدلية والقصائد المثيرة بين هـــؤلاء الزعماء — بعضهم مع بعض — او مع أولئك الملوك . كما صارت بعض الرسائل تصدر من هؤلاء الملوك الى الجهات والاطراف تحض الناس علـــى الطاعة لهم ، أو تحرضهم على نزع الطاعة والولاء لخصومهم ... ثم كانت هذه الاشعار والقصائد التى تضم دواوين بحالها من الاقذاع فى الهجـــو والنيل من أعراض الناس .. فاتسمت هذه الاضطرابات بأن الجو الادبى كان يصطخب بها ، كما كان معروفا ذلك فى شعراء الجاهلية وأوائل الاسلام بل وجدنا لها مثيلا الى حد ما من ذى قبل فى تلك الرسائل التى كانت تروج بين محمد بن عبد الله السعدى وبين أعيان المغرب وعامائه من طرف عمه

عبد الملك بن محمد الشيخ ، الا أن هذه كانت تغلب عليها المسحة العلمية بينما تلك كانت تغلب عليها المسحة الادبية فى نثرها وفى شعرها ...

وبالاضافة الى هذا فان أساطين الادب الذين كانوا على عهد المنصور ظل بعضهم حيا فى هذا الصراع مثل عبد العزيز الفشتالى الذى استقر يعمل فى بلاط المامون الى أن توفى سنة عشرين والف ، ومثل محمد بن على الفشتالى الذى توفى سنة احدى وعشرين وألف ، ومثل ابى الحسن على بن أحمد الشامى الذى توفى سنة أثنتين وثلاثين وألف ، كما كان هناك ادباء آخرون ليسوا فى هذه المرتبة ولكنهم لا ينزلون عن مستواها كثيرا .

ومن هؤلاء الاديب أبو عبد الله محمد بن أحمد المكلاتى ، الذى تقدم أنه ، كتب الى القاضى السلاسى ، وهو سجين ، بهذه الابيات :

أمـا لهـلال غـاب عنـا سفـور	فيجلى به خطـب دجـاه تثـور
فصبرا لدهر رام يمحصك الاسـى	فأنت عظيـم والعظيـم صبـور
سيظهـر مـا عهدته مـن جمالكم	فللبدر من بعد الكسوف ظهـور
وتحيى رسوم للمعالى تغيـرت	فللميت من بعد الممـات نشـور
أبا حسن انـى على الحب لم أزل	مقيما عليـه ما اقـام ثبيـر
ففى النم ماء من بقايـا ودادكم	وذلك عنـدى سائـغ ونميـر
عليكم سلام الله ما هطل الحيـا	وغنت بأغصان الرياض طيور (1)

فهذا شعر كسابقه ، لا يختلف كثيرا عن تلك الاشعار التى كانت تقال على عهد المنصور . وكذلك كانت اشعار بعض الناجعين من اولئك المجاهدين الذين ظهروا فى هذه الفترة أو بعدها بقليل ، كما كان شعراؤهم وكتابهم ، على درجة لا بأس بها .

فقد وجدنا شعراء مدحوا العياشى ، واشادوا بمواقفه فى الجهاد ، فكان منهم المكلاتى المذكور ، الذى مدحه بهذه الابيات من قصيدة عام 1049:

حديث العلا عنكم يسير به الركب	وينقله فى صحفه الشرق والغرب

---

(1) روى بدل « هطل » انهلت . والاول أوفق ، كما أن البيت قبله مختلف عما فى نزهة الحادى .

وحبكم فـرض علـى كل مسلـم … تنال به الزلفى من الله والقرب
فأنت رفيع من اصـول رفيعـة … نجوم الدياجى فى الانام لها سرب
سمى رسول الله ناصـر دينـه … تجلى بكم عن افقه الشك والريب (1)
ولم أر بحرا جاوز البر قبلكـم … تجود لمستجـد انامـله السحـب
وما يستوى البحران عندى فان ذا … اجاج لعمرى للمذاق وذا عـذب

وللملاكتى المقامة الزهرية فى مدح المكارم البكرية ، قصد بها محمد بن ابى بكر الدلائى ، وهى من اجمل المقامات المغربية واطولها نفسا .

وكما كان المنصور اديبا عالما ، كذلك ابنه زيدان ، ومن شعره قوله :

فتنتنـا سـوالـف وخـدود … وعيـون مدعجـات رقـود
ووجوه تبـارك الله فيها (2) … وشعـور على المناكب سود
أهلكتنـا الملاح وهى ظبـاء … وخضعنا لها ونحن اسود (3)

وقـولـه :

مررت بقبـر هامد وسط روضـة … عليـه مـن النـوار مثل النمارق
فقلت لمـن هـذا فقالوا بذلـة … ترحـم عليـه انـه قبر عاشق

وفى الحق أن نقول ان الرسائل السلطانية ظلت على ما كانت عليه لاول الامر تسلك تلك الطريقة التى خطها لها عبد العزيز الفشتالى وان كانت فى جوهرها قد نزلت من ذلك المستوى الرفيع . فهذه رسالة كتبها

---

(1) كذا فى النزهة ، ولعله كان « بكم ينجلى عن أفقه الشك والريب » .
(2) قوله « تبارك الله فيها » فيه ما فيه ، وهو الى العامية أميل وأنسب ؟ باستبـدال « عـلى » فيه . وكلتا التعديتين واردتان لبارك كمـا فى « وبارك فيها » و «باركنـا عليه وعلى اسحاق » أما « تبارك » فمعناه تقدس مثل « تبارك الله أحسن الخالقين »
(3) تقدم ما قيل فى هذا المعنى بالشرق والاندلس وصقلية والمغرب .
ولكن زيدان زاد بما جمله وعبر عن رقته فى حسه ونبله فى شعوره ، وهو مما نجده له كذلك فى البيتين المذكورين بعد هذه .
شتان ما بين هذا الشعر المنساب على طبيعته ، وبين ذلك الشعر المتأنق المتنمق الذى كان يصدر عن أبيـه
لقد تمكن زيدان من الصولجان ، وخرج من قوقعته بتادلا ، واستولى على العاصمتين احداهما تلو الأخرى ، ولكنه كان لا يدخل الى هذه أو تلك الا خرج عنها مهزوما هـو أو رجاله الذين كان يخلفهم على ضبط شؤونها ، فكانت معاركه ، وخصوصا مع عبد الله ابن المامون معارك تعد بالعشرات ، وكان صموده فى وجه منافسيه ومناوئيه ، فريدا فى هذه الاسرة السعدية ، ولقد صمد حتى أسلم روحه لبارئها وخلفه ابنه ، فكانت الكوارث تترى متعاقبة متلاحمة ولم تهمد الا بهمود الدولة نهائيا .

كاتب الخليفة الوليد بن زيدان لا تختلف كثيرا فى اسلوبها عما عهد فيما قبل..

وهو ابو العباس احمد بن عبد الحميد المريد الانصارى الذى يقول فيهـــا :

وبعد فقد وصل الكتاب الامامى الكريم لعبده المنغمس فى بحر نداه ، المقتبس من نور هداه ، — فلان — وصل الله لذلك الصدر الأشرف عادة العلو ، وسعادة الرواح والغدو ، باهر السور والاعجاز ، رائق الصدور والاعجاز ، مسطرا من صور البلاغة ابهاها ، لابسا من حلل البراعة ما يقصر عن حسنه كل حسن وان تناهى . وحق لكتاب أودعته الحكم الحلية، وأملته الهمة العلية ، ان يكون الكتاب المطهر ، والعلم المشهر ، والطالع الذى ابت آى فصله الا أن تظهر وتبهر فتلوت نصه الذى هو أعلى درجات النصوص ، ولفظه الذى لا ينكر عموم فضله ارباب الخصوص .. الى آخر الرسالـــة ›››

ويقول من فصل رسالـــة كتبهـــا عـــن مخدومـــه الـــى الجهـــات يحضهم على الطاعة :

هذا وان ما لكم من الوداد فى هذا الجناب الكريم ملحوظ ، والعقد على رسوخه مصون محفوظ ، والالتفات اليه بعين الاعتناء جلى ، والاعتداد به روض باكـــره الولـــى . ولمـــا انعقـــد الاجتمـــاع والاتفـــاق ، مـــن جميـــع هـــذه الآفـــاق مـــن أربـــاب العقـــد والحـــل ، واســـوة الديانـــة والفضل ، من أعيان الاعيـــان ، وخاصة الخاصـــة ، والجماعة والجمهور ، من الشرفاء والعلماء ، والمرابطين وقواد الاجناد ، الرامحة والرامية ، واصحاب الهمم الدينية السامية ، على بيعتنا الشرعية الامامية ، ووقع منهم الاصفاق عليها عن طوع ورضى ، حسبما أوجبته السمحة البيضا ، كتبنا لكم لتنهضوا علـــى الفور للانتظام فى سلـــك الجماعة ، وللانضمام الى أرباب التقى والطاعة ، ولا تكونوا ممن اصبح واعماله اعمى له ، وافعاله أفعى له ، « وأفيضوا من حيث أفاض الناس » تنالوا كل مرغوب ، وتظفروا من عنايتنا بكل مطلوب الى آخر الرسالة التـــى تلاعب فيها بالالفاظ كثيرا ونزل عن مستوى السابقين قليلا .

وهذه رسالة اخرى مذيلة بقصيدة لابى العباس احمد بن عبد الحميد ايضا عن الوليد بن زيدان كذلك للجناب المولوى :

من سبط ارومتك السنية ، وفرع دوحتك الحسنية ، الذى اقام العدل قسطاسه ، وأنار للحق مشكاته ونبراسه ، وخصه بامرة المغرب ، من بيده الامر كله ، فأسفر عن صبح النصر رمحه ونصله ، واشتمل على خواص الشرف الوضاح نسبه وفضله ، وطابت فروعه لما استمد من ريحانتى الجنة اصله ، الوليد بن زيدان المعتصم بسببك ، المستمسك بالله ثم بك ، المستشفى بذكرك كلما تألم ، المفتتح بالصلاة عليك كلما تكلم ، لاثم تربك ، ومؤمل قربك ، المتوسل بك ، الى رضى ربك ، ومستمنحك مضاعفة السعود ، واقتضاء لكماله بالبقاء والخلود ، وأن يؤيده الله تعالى بنصره ، ويمنحه ما لم يمنح ملكا فى عصره ، وأن يكون له معينا وناصرا ، ولعدوه قاصما وقاهرا .

اللهم يامن جعله أول الانبياء بالمعنى ، وآخرهم بالصورة ، واعطاه لواء الحمد يسير آدم فمن دونه تحت ظلاله المنشورة ، وجعلنى من أمته المجبولة على حبه المفطورة ، وشوقنى الى معاهده المبرورة ومشاهده المزورة ، ووكل اسانى بالصلاة عليه ، وقلبى بالحنين اليه ، فلا تقطع عنه اسبابى ، ولا تحرمنى فى حبه أجر ثوابى ، وتداركنى بشفاعته يوم آخذ كتابى .

هذه يارسول الله وسيلة من بعدت داره ، وشط مزاره ، ولم يجعل بيده اختياره ، يستنشق من ريح عنايتك نفحة ، ويترقب من محيا قبولك لمحة ، يدفع بها عدوا طغى وبغى ، وبلغ من رغبته وبغيه ما ابتغى ، فبجاهك ندفع ما لا نطيق ، ونعالج سقيم الدين حتى يفيق ، فلا تسلمنا ولا تهملنا ، وناد ربك فينا ، والصلاة والسلام عليك ياخير من طاف وسعى ، واجاب داعيا اذا دعا ، وعلى جميع أصحابك وآلك ، صلاة تليق بجلالك ، وتحق لكمالك ، وعلى ضجيعك صديقك وحبيبك وخليفتك فى أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على ملتك ، وصهرك ذى النورين ، وابن عمك ابى السبطين ، سيفك المسلول على عداتك ، وباب مدينة علمك وآياتك ، وبدر

سناء جلالك ، ومكمل كمالك ، كتبه عبدك وسبطك من حضرة مراكش ، حرسها الله وكـــلاهـــا .

اني خير مامول وأكـــرم واهـــب   واسمـــح مفضال بأسنى الرغائب
اني العروة الو ثقىالى الاكرمالاتقى   الى السؤدد ألفضفاض من كلجانب
الى من به عين الكمـــال قريـــرة   سرورا بمـــا لمجـــده من مناقب
اني من به نـــور الهدى متبلـــج   وأقماره وضاحـــة فى الغيـــاهب
الى النعمة العظمى التى جل قدرها   ويكبر ان يحصيـــه عد لحاسب
الى سيد الكونين والصفوة الذى   به يزدهى فخرا لؤى بـــن غالب
وفى ليلـــة الاسراء حفت بمجـــده   ملائكـــة ما بين ماش وراكـــب
عليـــه لواء الحمد والعز خافـــق   وحامله جبريـــل بين المـــواكـــب
فيا نسمـــة أودعت جيب جنوبهـــا   تحيـــة موصول الضراعة راغب
تحاكى من الروض الوسيم نسيمه   اذا افتر زهر من بكاء السحائـــب
اذا جئت سلعا والعقيق ولعلعـــا   وصافحت أزهار الربى والاهاضب
فعوجى على من بالمحصب داره   وفى ربع قلبى حاضر غير غائب
وسيرى الى مغنى الجلالة والهدى   ونادى الندى الفياض عذبالمشارب
وبثى له شكواى مـــن كل ثائـــر   ومـــن كـــل باغ مارد ومحـــارب
ليشفع لى عنـــد الالـــه فانـــه   لديه عن المامـــول ليس بنـــاكب
وينصرنى النصر العزيز على العدا   ويحمـــى حماى عن طروق النوائب
ولا يبق فى أقطار ملكـــى منازعا   ولا راكبا منهم متـــون السلاهب
ولا نافخا للحرب جـــذوة باســـه   سوى هالك أو هارب منى راهب
ويحرسنى فى كـــل ورد ومصدر   ويكنفنى دون القنـــا والقواضـــب
ويدفـــع عنى كـــل خطب وحادث   ملم ويكفينـــى شرور العـــواقب
ويارك لنـــا يارب فيمـــا وهبتـــه   وحطنـــى من الاعداء سار وسارب
فأنت عمادى واعتمـــادى وناصرى   وأنت ملاذى فى اقتضـــاء مآربى
فلى نسبـــة من مجدكم ووصيكم   كستنـــى برود العز ضافى الجلابب
أجر بها ذيـــل الفخار وكيف لا   وأنت أبى يا ابـــن الكرام الاطايب
فـــلا زال منهـــلا عليك وواكفـــا   سحاب صلاة بيـــن هام وساكب
وأزكى سلام عابـــق النشر عاطر   تطيب بـــه أرجاء فيح السباسب

كما كان من الشعراء مثل الاديب أبى عبد الله محمد بن أحمد المكلاتى، الذى تقدم ذكره ، وما خاطب به القاضى السلاسى ، ومدحه للعياشى بتلك الابيات السالفة (1)

وممن مدحوا العياشى عبد الواحد ابن عاشر ، صاحب المنظومات المشرقة ، ولكنه فى مدحه تكلف بعناء فادح ، المحسنات اللفظية فقال :

يا حادى الاظعـان فى الرياشـى	ابلـغ سلامى فخرنـا العيـاشى
مـن نوره بدا وفضلـه غـدا	تحـدو بـه الركبـان والمواشى
طود الهدى عين الندى فرد الورى	فريـد وقتـه الامـام الخـاشى
للـه سيـف صـارم وقـاصـم	ظهـر أعدى كبيـرهم والناشى
يتركهم عنـد اللقـا رهن الشقـا	صرعـى على الارض كما الكباشى
يا مسلمـين تهنكـم حيـاتكـم	ما عاش فيكم سيـدى العياشى
انـام لا شك الانام الكـل فـى	ظـل الامـان ليـن الفـراش
يا عاذلـى فى حبـه عـذلك دع	ولا تحدثنـى حـديث الـواشى
انـى امـرؤ بالحسن مفتون وعن	جميـع لـوم لائمـى عـاشـى
هديتـى الى الكـرام أبـرزت	سلامهـا للسـامعين فـاشى

فهذا شعر صاخب بهذه الدمدمة الصوتية ، وهذا الايقاع المجلجل ، كأنه عمد فيه الى الانشاد الشعبى الذى تصحبه المزاهر والطبول وزادت القافية الشينية شنشنة الموضوع غرابة ، وان كان المتصوفة ، وفيهم ابن عاشر هذا ، يعجبهم ذلك ، وتتقدم منه للاغماتى فى تزهده .

بعد هذا نجد أبا العباس أحمد الدغوغى يرثى العياشى بقوله :

كم شاد كم ساد كم سد الثغور وكم	أودى وأعدى غياث الغيث مقتصدا
وكـم أبـاد جموع الروم قهرا وكم	أردى العدا وعن الاسلام ذاد ردى
ياعين ويحك سحى واذرفى وكفى	ويا فؤادى تفتت والـزم الكمـدا
مات السرور فساءتك الشرور وقد	سرت وفاة نصير الحق من عنـدا

الى آخر القصيدة الطويلة التى نجدها فى كتاب (نزهة الحادى)

(1) ويمكن أن يعد من هذا العهد كذلك ابن عجال السالف الذكر فقد ذكر المقرى أنه على قيد الحياة

وهى قصيدة مؤثرة لكن الصنعة التى لم يحسنها صاحبها شوهتها وأفسدت عليها مهمتها ، بالاضافة الى بعض الاسفاف الذى يواجهه القارىء فى أبياتهـا (1) .

والحاحى الذى قضى على أبى محلى ، هو الذى أخرج بو دميعة بعد معارك ، من تارودت وتملكها منه ، فلما توفى عام 1135 صفا الجو لابى حسون وخضع له قطر السوس ، ثم درعة وسجلماسة ، بعد وفاة زيدان ،

وكذلك كان يحيى الحاحى فى الادب له حظ ملحوظ ؛ نظما ونثرا .

فقد وجدنا لهذا المرابط الخطير رسائل وقصائد ، منها التى نظمها على نمط قصيدة لذى الرمة ، فيقول :

عاسى مثـل هذا يندب الدين نادبه ... قد اجدب واديه وشحت سحائبه
فلا فكر فيما قد عرانـا وألحفت ... على سرحها الغارات بغتا كتائبه
تبـدد شرع المسلمين كأنـه ... مفاصل شلـو مزعتـه نوائبـه

---

(1) ومن شعره قوله فى قرية أزرو :

قريـة لا قـرى لابن السبيـل بهـا ... تبا لها ولأرجـاس بها اجتمعـوا
لـولا افاردهـا يقرون واردهـا ... مـن سـؤر بـارد ما فى ضمنه وجع
لقلـت مـن زار أزرو زار مقبـرة ... ورب مقبـرة زوارها انتفعـوا

ففى هذه اسفاف وتلاعب بالالفاظ واستغلالها .

وله هذه القصيدة المولدية :

رحلـوا وقاطـن شوقهم لم يرحـل ... وسروا بلبـى بـين تلـك الارحـل
فألفـت من جسدى الذبول لفقدهـم ... أسفـا ومـن خلـدى ذهول البلبـل
فعلى الطلول تزايد الزفرات مـن ... حرقى على عبرات دمعى الهمـل
يا ربـع اين ظباء حيك والمهـا ... وجاذر بهـم جييـدك كـم حلـى
يا ربـع ويحـك أين مـن بنقائهم ... يزهـو نقـاك كأنه لم يعطـل
أجرى الضوامر مدلجـين حداتهـم ... متحملـى الاثقـال أى تحمـل
ألفوا السهاد من الرقاد وحالفـوا ... قطع الوهـاد بكل حـرف هوجـل
وسرت بهـم تختـال كل مفـازة ... من ركبهـم حظيـت برفمة منزل
لم لا وقصدهم الذى فضلت بـه ... أعـلام مكـة كل مغنـى أفضـل
وبطيب طيبة حيـث حـل تعطـرت ... كل العوالـم وهـو أكرم مرسـل
الهاشمـى الابطحـى محمـد ... هـادى الانـام وسيلـة المتوسـل
خير الاوائـل والاواخـر من لـه ... نطق الجيـاد رضى بافصح مقـول
وكذا اليه الجذع حـن وان مـن ... شـوق لوطأتـه بمحضر محفـل
ومن الـزلال العـذب عل محافـلا ... مـن بـين أنمله جـرى بمسلسـل
وشكـا البعيـر اليه فـرط عنائـه ... وشكا الغزالى اليـه خيفة موجـل
والضـب أفصـح معلنـا بثنائـه ... والذئـب سلـم جهـرة بتذلـل

الى آخر القصيدة التى لا ترتفع الى ذلك المستوى الراقى الذى عهدناه فى مولديات السعديين ، بل ان بعضها بلغ من الاسفاف مبلغه .

غـــدا قددا من بعد أن كان شاخصا   وحيدا تذود العابثين قـــواضبـــه

الى آخر الابيات التى نجدها بسوس العالمة ، ومن نثره أو نثر كاتبه محمد بن الحسن المانوزى ، الشاعر الناثر ، وكان أولا معه ، ثم انضم الى خصمه بودميعة ، كما سنرى بعد وفاة سيده الاول ، رسالة كاتب بها زيدان نجدها فى الاستقصا ، وفيه أنه كان يراسل السلطان كما كان يراسل من قبل أبا محلى ، ويهاجيه بقصائد عديدة ، حتى قال معاصره القاضى أبو زيد السكتانى ، انه وقف على تاليف كبير مشتمل على ما وقع بين الحاحى وأبى محلى من الشعر فى غرض الهجاء وغيره ·

ولابنه القاضى أبى مهدى عيسى رسالة طويلة ينصح بها الحاحى وردت بالاستقصا ، يقول له مخاطبا :

فانـــى لمـــا قفلـــت ــ بحمـــد اللـــه ــ بســـلامـــة وعافيـــة الى جبلـــى ، وجـــدت أهلـــى وأولادى ، مستـــوحشين مـــن الباديـــة وان كانت محل سلفى ومقر تلادى ، بعد أن ألفوا الحواضر وطبعوا علـــى طباعها ، فكانوا أحق بها ، وكنت فى غاية الضيق والتأسف لما حل بأولادى، فتذكرت قول بعض فقهاء الاندلس ، ممن نابه مثل ما نابنى ، وأصابه مثل ما أصابنـــى :

أليس مـــن التبيـــح مقام مثلـــى   بـــدار الخسف منكسف الجمـــال
أخالط أهـــل سائمـــة وســـرح   وارتـــع بيـــن راعيـــة الجمـــال

فأجلت فكرى ، وان كان الكل بقضاء الله وارادته ، فرايت أن ذلك ، وفى التضاء لطف ، أمر أنتجه ، كما لا يخفى على ذى بصيرة ، ما حل بالمغرب ، من افتراق الكلمة ، وتلاعب شياطين الانس والجن بذوى العقول منها ، فصاروا أحزابا وفرقا ، فاتبعت كل طائفة من هواها ما كانت تعبد ، حتى اذاعرض لعقل أو عرض عليه ، منهم الاقلاع بادره الشياطين ، فسدوا عليه بابه ... الخ ،

وهذه الرسالة وان كان الطابع الفقهى يغلب عليها ، الا انها مائئة بالاشعار والامثال مما يدل على أن صاحبها كانت له حصيلة أدبية غنيـــة ،

لا يستهان بها .

وقــد أخرجه محمد الشريف من سجلماسة ثم درعة ، وكانت مدينة ايلــغ دار رياسته

وله مراسلة مع القاضى أبى زيد عبد الرحمن وابنه أبى مهدى عيسى السكتانى ، نجدها فى الاستقصا أيضا .

وفى كتاب ايلغ نجد كثيرا من الاشعار وغيرها ، مما راج بين الحاحى وبودميعــة .

ومن ادباء العصر أحمد الرسموكى ، فقد كان أبو حسون السملالى يطفح ديوانه بالكتاب والشعراء من رجاله فهو وان لم يكن على الحظ الذى كان عليه يحيى الحاحى من الادب فقد كان ينشطه ويرفع شأنه .

وهكذا كان من حاشيته الرسموكى ، الذى نجد له قصيدة قالها فى مدحه ، يقول فيها :

ملك اذا اصطــاد الملوك يعافــرا	يصطــاد أبطــال الملــوك الصيد
تتقصف الاعــداء قبــل لقــائــه	فرقا وان هو لــم يفــه بوعيــد
أموالهــم لجنــوده ورقــابهــم	لسيوفــه وجيــافهــم للبيــــد
حتــى اذا ملك البــلاد جميعهــا	كفــل البنين بعطفــه والجــود
ذو مــرة فى حربــه وقســاوة	قصامــة للصخــر والجلمـــود
لكنــه فى السلم ليــن كينمــــا	لا ينتبــه كالخيــزر الاملـــود

ومنهم كاتبه محمد أمحالوا الانيسى .

ولهذا الكاتب نجد عدة قصائد قالها فى مناسبات عديدة ومن تلــك القصائد قصيدة مدحه بها عام 1021 ، وهذه أبيات منها :

النصر طــوع يــديك والتمكــين	فانهــض فانــك طالــع ميمــون
فالسعد يخدم والجحافل والقنــا	والسابغــات وصــارم مسنــون
أظلت من أفق الامــارة بعد مــا	ساءت مــن أبنــاء الملوك ظنون
شغلــوا بلهوهم المديــد فضيعوا	مــا انه ــ عهد الجدود ــ مصون

وتشاغبوا ما بينهم حتى تهد ... مت المدائن كلها وحصون

الى أن يقول :

انهض بهمتك التى يدرى لها ... ذاك المقام الفارع المحصون

فالناس كلهم وراءك ينهضو ... ن ايجدع المستأسد العافون

ثم يقول :

فالمغرب الاقصى جميعا ناظر ... يوما تجول عليه منك يعين

فيرى العدالة كيف كانت والهدى ... والعز بالاسلام كيف يكون

والعلم كيف يكون نشر عبائه ... فى الناس حتى يعلم المسكين

فاذن يكون المغرب الاقصى على ... ما الهند تغبطه به والصين

وهذه النونية ، تنظر شيئا ما ، الى نونية الجراوى فى أبى يعقوب يوسف بن عبد المومن ، يستهلها — كما تقدم — بقوله :

نظر بكل سعادة مقرون ... نالت به الدنيا المنى والدين

ومن شعر هذا الكاتب ، قوله جوابا عن هؤلاء ، من أبيات :

مهلا فلا تستعجلن حتوفا ... فغدا ترون أسنة وسيوفا

وهكذا فقد كانت تلك المنافسات والخصومات والاحداث عامة تنطق أولئك الشعراء بقصائد كهذه طوال يتبارون فيها ، فنجد مثلا تاردنت يصل البشير الى « ايلغ » بقرب استرجاعها لابى حسون فينطق شاعران من كتاب أبى حسون ، بقصيدتين ، احداهما للشاعر الكاتب ، احمد أمحالوا(1) الذى يستهل قصيدته بقوله :

الا أبشروا بالفتح دقت بشائره ... ودبت الى فجر النجاح تباشره

وهى قصيدة تنيف على الخمسين بيتا ، ويقول الثانى من أخرى ،

---

(1) يبدو أن أبا حسون كانت قد علقت عليه آمال كبار فى استرجاع مجد المغرب الغابر ، وقد قيلت فيه أشعار طنانة منها القصيدة التى اشرنا اليها ، وهى تنيف على ثمانين بيتا ، كما نقل ذلك صديقنا السيد المختار السوسى — رحمه الله فى « ايلغ » ؟ ومحمد أمحالو هو والد احمد أمحالو المذكور . أما بودميعة فيقال ؟ انه من أولاد السلطان أبى العباس الاعرج كما نقل ذلك فى « الاستقصا » عن شرح (زهرة الشماريخ) .

وهو محمد المانوزى الكاتب :

هيهات أن يبقى الوليد كجده — فى الملك ان لم يفد قطب المعمع
ان الممالك لا يقام عمادها — الا براعفة القنا فى الاذرع
بالقتل والفتك الذريع يشيد من — يبغى بناء الملك وسط الزعزع
كم من أنوف لا تقاد براتها — بمتاود الطاعات ان لم تجدع
لا يجتنى ثمر السيادة فى الوغا — من لم يطب نفسا متى ما يصرع
حتى اذا غلب العدو أتى بما — يستل منه الضغن بين الاضلع
بسياسة ليست بأرى لا ولا — شرى ولكن بين ذاك لمن يعى
والطب ليس بباتر عضوا سوى — أن كان فيه دواؤه لم ينجع
من أخطأته سياسة فى أمره — لا سيما ملك الورى يتضعضع
قم يا امام الدين وانهض نهضة — جمازة تذر العدى فى مفزع

الى آخر القصيدة التى تناهز خمسين بيتا ، وكان ذلك فى حدود **1044**

وله أشعار كثيرة منها قوله مجيبا عن سيده للمرابط يحيى الحاحى :

تشب تنانير الوغى بالمكاتب — وتهرب من ايقادها بالكتائب
ففى كل يوم منك شعر كأنما — على الشعر تأسيس الامور المصاعب
فلم نر الا ان نجيبك بالوغى — وبالجند جند الله أعظم غالب
فبارزهم ان كنت شهما كما نرى — كثيرا اذا راسلتنا بالمكاتب
« محا السيف أسطار البلاغة وانتحى — اليك اسود الغاب من كل جانب »

وهذا البيت ينسب الى أبى مسلم ، وكانت الابيات جوابا على بائية اخرى للحاحى يقول فيها :

اذا شئتم ان ترتقوا للغوارب — فميلوا الى شعر القنا والقواضب

والمهم ان سوق الادب كانت رائجة فى هذه المنازعات ، وأن الشعر بالخصوص ، كان كما قال شاعرنا ، ناعيا على الحاحى المذكور ، استكثاره من الاشعار :

ففى كل يوم منك شعر كأنما — على الشعر تأسيس الامور المصاعب

واخيرا نجد الزاوية الدلائية ودورها الادبى ، اذ كان من اهم اثارة تلك العوامل الادبية قيام هذه الزاوية الدلائية بحمل عظيم فى نشر الثقافة الاسلامية على العموم وتنشيط الحركة الادبية بنوع خاص ..!

نعم ؛ لقد أدت رسالة هامة لولا تعرضها لمشاكل السياسية ، وألف الناس فى هذه الزاوية وأدوارها مؤلفات معروفة أهمها « البدور الضاوية » للحوات ، كما كان من العائلة نفسها شعراء وكتاب وعلماء يذكر بعضهم سليمان الحوات .

ويحق أن نعد من نبهاء الزاوية الدلائية الاديب العالم المشارك .

أبا على الحسن بن مسعود اليوسى المولود سنة أربعين وألف والمتوفى سنة اثنتين ومائة وألف . فاليوسى اذن يمثل الحركة الادبية فى معظم النصف الثانى من القرن الحادى عشر الى نهايته (1) وبذلك يمثل مرحلة انتقال الدولة من السعديين الى العلويين .. وهو خير من يمثل هذه الحلقة لما توفر عليه من أدب قوى وسعة ثقافة ، وكان فى الشعر بتلك العارضة القوية والقدرة فى نظم قوافيه الطوال بكل يسر وسهولة . تحدث عن نفسه فقال : لو أردت الا أتكلم الا نظما لفعلت .

وديوانه المطبوع يشهد له بمكانة ممتازة فى قرض الشعر الجزل وفى أسلوبه الاخاذ بسحر بيانه ، والباهر بطول نفسه . ومن أهم قصائده الطوال رائيته التى رثى بها الزاوية الدلائية . فرائيته فى الرثاء الى جانب تأثيرها طريفة أيضا فى الشعر العربى عامة والمغربى منه خاصة ، فهى طريفة لانها لا تتعلق برثاء شخص ، وانما تتعلق برثاء معهد من المعاهد الحبيبة الى نفس الشاعر (2) .

---

(1) انظر ترجمته فى كتابنا « محاضرات فى تاريخ التشريع الاسلامى » .

(2) وبعد قصيدته التى قالها ، بنحو قرنين تقع كارثة ، وقوع تطوان فى يد الاسبان فتقال قصائد عديدة فى رثائها وندب حالها ، كما سياتى . ولعل ذلك كان تقليدا اندلسيا حيث ان اغلب سكان المدينة كانوا من الاندلسيسيين اللاجئين اليها قبيل سقوط غرناطة وبعدها وذلك على فترات مديدة كانت آخرها لاولئك المورسيين . وقد سبق للدقون ان رثى الأندلس ولكنه رثاء لم يكن خالصا وان قرع به « باب الندبة » كما قال . ثم انه كذلك من اصل أندلسى فربما هاجر والده أو هو الى المغرب .

ورثاء الاماكن بما فيها المدن ورثاء الدول على العموم قليلا مـــا نجده فى الادب العربى اذا ما قيس بغيره من رثاء الاشخاص بأعيانهم .

صحيح إن هذا النوع من الرثاء عرف فى الجاهلية فى مثل عدى بن زيد والاعشى ميمون وغيرهما من شعراء تمسحوا فى الجاهلية فغلبت عليهم نزعة التدبر والاتعاظ .. أما فى الاسلام فنجد من أول الشعراء الذين رثوا المدن الشاعر البحترى . ومن امعن فى قصيدته المعروفة فانه يجد صاحبها لم يهدف الى رثاء أيوان كسرى — كما هو الشائع — وانما هدف الـــى شىء آخر قذفت به نفسه الحزينة اليائسة التى فجعت فى سيدها المتوكل وقد صرع أمامها فصار كأن لم يكن ولم يخلف وراءه الا تلك الذكريـــات الاليمة التى توحى بكثير من الاسى والحسرة .

لقد نجا البحترى من مهلكه بأعجوبة وغادر البلاط العباسى وهو ينظر الى الحياة نظرة تافهة ويصادفه فى منجاه ايوان كسرى — الذى ندب اليه حظه — فكان هذا التداعى بين المصائب التى مرت فى خيال الشاعر واذا به ينظم قصيدة لا يرثى بها ايوان كسرى وانما ليتسلى بما حل بالايوان عما يعتلج فى نفسه من حسرة والم . وهو نفسه يفصح بهذا فى قوله :

اتسلـــى عن الحظـــوظ وآســـى لمحـــل مـــن آل ســـاسان درس
ذكرتنيهـــم الخطـــوب التـــوالـــى ولقـــد تذكـــر الخطوب وتنســـى

فوقفته هذه كانت تشبه الى حد ما تلك الوقفات السائـــرة التـــى وقفها شعراء الجاهلية على ربوع أحبابهم ودمنها ..

ثـــم فيمـــا بعـــد نعـــرف عمـــارة اليمنـــى يرثـــى بقصيـــدتـــه الطويلـــة الدولـــة الفـــاطميـــة ومجـــالسهـــا وأعيـــادهـــا ومواسمها ، ولكنـــه مـــع هـــذا لم يقصد الى رثـــاء هؤلاء وانما توجه اليهم بعدما وقع فى سجن صلاح الدين الايوبى فرثى نفسه فى الحقيقة وقال :

عمـــارة قالهـــا المسكين وهو على خوف من الموت لا خوف من الزلل

وعلى كل حال فاليوسى اتى بطرائف فى أدبنا العربى ، تستحـــق الدرس والتخصص فيها . ونفسه فى جل قصائده طويل ، طولا لم تعهده

فيمن سبقه الا فى نحو مالك ابن المرحل أو بعض القصائد للملزوزى ، (وان كانت هذه اشبه بالنظم العلمى) .

ومن الاشياء التى واجهتنا بقوة فى شعر اليوسى ، قصائد التوسل بالصالحين من الاموات ، ومدحهم فى قبورهم ، وهذا كان كما سلف خاصا بالنبى عليه السلام ، أما غيره فكانت القصائد التى تلقى على قبورهم قصائد تأبين ورثاء ومناحة وبكاء ، كما كان يقع على قبر المعتمد بن عباد ، مما سنه ابن اللبانة الاندلسى ، وتبعه الناس بعده ، وجلهم كان اندلسيا.

وأما قصائد المدح ، لهذه القبور بأصحابها ، فلم تكن معروفة فى الادب العربى عندنا ، فيما عدا مدح النبى ، والا فى هذا العهد بما قصد فيه اليوسى . ثم استمر الحال عليه ، حتى وجدنا صاحب الاستقصا يفعل ما فعله اليوسى ، وياتى من بعده فيكون منهم من سلك هذه الطريق .

وهذه بعض مطالع الداليات ، التى توجه بها اليوسى الـــى اولئك الاموات رحمهم الله ، يقول فى مطلع قصيدة فى الولى عبد السلام :

يا قطب هذا القطر بل قطب الورى ومواصـــــل الادلاج والاســـــآد

وهـــى 26 بيتا ، يختمها بهذا :

واجمـــع جماعتهـــا بظـــل وارف متمنـــــع فى بـــاذخ الاطـــــواد

ويقول فى مطلع دالية أخرى ، يمدح بها ابا يعزى :

هذا ضريح الولى الصالح البادى شمس على كل اغـــوار وأنجـــاد

وهى طويلة ، تذكرنا بدالية ابن اللبانة ، التى انشدها يوم عيد على قبر المعتمد ، ومطلعها :

ملك الملـــوك أسامـــع فأنـــادى أم قـــد عدتك عن السماع عوادى

واليوسى ، يعد ـــ كما تقدم ـــ الحلقة التى تجمع بين العهدين ، السعدى البائد والعلوى ، ونبوغه وان ظهر فى العهد السعدى مبكرا (1) الا أن آثاره فى

(1) انتهت دولة السعديين عام 1069 وخلفهم اخوالهم الشبانات عشرة أعوام .

التلميذ والتاليف ، لم تظهر الا فى العهد العلوى قوية نشيطة تتردد أصداؤها فى جنبات المغرب عامة . وقد جمع ديوانه الشعرى ، فكان ثانى الدواوين المغربية التى تروج عندنا ، لحد الآن . وهو يدل على تمكن صاحبه من ناصية اللغة والبلاغة بصفة خاصة ، كما تدل قصائد منه ، على موهبة شاعرة قوية فى صاحبها .

ومما نختار من ذلك قصيدته التى رثى بها الزاوية الدلائية ، ومطلعها :

اكاف جفـــن العين أن ينثر الدرا ... فيأبى ويعتاض العقيـــق بها جمرا
واسأله أن يكتـــم الوجد ساعـــة ... فيفشى وان اللـــوم آونـــة أغرى
وقد كنت أستصحيه حتى توقـــدت ... جذا الوجدفاستسقيتهيطفىء الجمرا
على أن دمع العين فضل حشاشة ... تذاب فماذا ينفع الدمع ان يجرى
وكانت سروح الهم عنـــى عوازبا ... وبعد النوى أضحت مراتعها الصدرا
وكانت عيون الحادثات غـــوافـــلا ... زمانا وخطب الدهر كان بنا غـــرا
ليـــالى كان البين عن جيرة الحمى ... صدودا ونظم الشمل لم يستحل نثرا
وكانت مدامـــة الوصـــال مدامـــة ... على القوم صرفا لا مزيجا ولا نزرا
تجاذب أخدان الصفاء كؤوسهـــا ... فلا تختشى منها خمـــارا ولا سكرا
فبينـــا ليالى الوصل بيض وروضه ... بفيض الندى كانت مرابعه خضـــرا
عدت غدوة أيدى الحوادث فاختلت ... خلاها فعادت بعد نضرتها غبـــرا
وابدلـــن مأنوس الديـــار وأهلهـــا ... بوحش وحولن الاهيل بها قفـــــرا
وبينا جموع الحى كالراح شبتهـــا ... بماء فلا تختشى جفاء ولا نعـــرا
وكالفرقديـــن الطالعيـــن تـــآلفـــا ... وصاحبى الملك الذى نادم الشعرا
أصابتهم عـــين الكمال فغـــادرت ... اكفهـــم من كل ما جمعت صفرا
وردتهم مثـــل الثريـــا اذا رات ... سهيلا بشحط البين أو واصل والرا
« كأن لم يكن بين الحجون الى الصفا ... أنيس » بلى لكن هوى جدهم عثرا

الـــى أن يقـــول :

بـــلاد اذا ذقنا رضاب معينهـــا ... فمـــا لرضاب العين نلتمس الثغرا
وان نحن رحنا بالشذى من رياضها ... ربحنا فما نرجو على العنبر التجرا
رياض اذا أبصرتهـــا ونشقتهـــا ... فلا تذكرن نجدا ولا تذكرن شحرا

وأزر على من كان حن صبابة   اليها قديما اذ على مثله يزرا
فمن لى بواديها اذا فاح رنده   ومن لى بمرعاها اذا طلع المشرا
ومن لى بروضات يفوق ضياؤها   على الشمس حسنا كلما ابتوت زهرا
وهيهات روض ينبت الرند أيكه   وهيهات روض يطلع الشمس والبدرا
فهل نفحة تكفينى المسك فائحا   وهل شربة تكفينى الشهد مستمرى
وهل طلعة تكفينى البدر طالعا   وهل لمعة تكفينى الثغر مفترا
وهل وقفة بين الطاول التى قضت   صروف الليالى فى معالمها نذرا
هناك اخوان الوداد وفتية   هم للحشا خمر فما يطلب الخمرا
نزايلهم لا عن هوى لنراهم   كما لنطام زايل المرضع الظئرا
وننأى عجالا عنهم مثلما نأى   أبو صبية عنهم اذا يمم القبرا
فمنا اليهم صبوة ابن ملوح   ومنهم شجا الخنساء اذ فارقت صخرا
فما أنزر الصبر الجميل على النوى   وما أغزر الدمع الطويل وما اجرى
فلولا هوى نجد وطيب نسيمها   وريح خزاماها اذا ساق والفجرا
وعذب فرات سلسبيل سخت به   اكف الغوادى فى حدائقها غمرا
ومشمولة صهباء ما قط شابها   براووقها الحانى ولا حلت القدرا
بها هامت الارواح من قبل خلقنا   ومن بعد ما كنا واذ نبلغ الحشرا
فكم ولهت فكر ابن عيسى ومالك   وكم أطربت سهلا وكم شغلت بشرا
اذا ما تحساها الفتى لم يخف بها   جناحا ولكن يرتجى عندها أجرا
تحمله الاوزار غير مذمم   بأعبائها العظمى ولم يكسب الوزرا
وتبرد غلات الحشى وتشبها   أوارا وتعطى الرشد والسفه الحجرا
وتورثه قبضا وبسطا وفرقة   وجمعا ونئيانا وتورثه شعرا
فلولا رجاء الفوز منها بشربة   تداوى عقابيل الهوى والجوى المغرى
لكانت اكف البين تصدع بالجوى   رجاجة احشائى فلا املك الجبرا

الى أن يقول :

هو الدهر لا يبقى على متخشع   ذليل ولاذى نخوة مزده كبرا
حسام اذا ما صمم الدهر فى امرىء   غدا دمه بين الورى خضرا مضرا
وريح سموم حيثما هب مرة   تعفت معافيه وان بعدت مرا

وسيل اذا ما يمم الارض اصبحت اخاديد وأنفلت كراديسها كسرا
وليث هصور ما تغشى حظيرة فيسطو الا انعم العض والعقرا
غشوم فما يرتاع من بأس خادر كمى ولا من حسن ساكنة خدرا
فليس عجيبا ما أتى من عجائب ولو اطلع الخضراء واستنزل الخضرا

ثم بعد ابيات ، يختم القصيدة بأبيات أخرى يبتدئها ، بقوله : «ومن» الشرطية ، كما فعل زهير فى معلقته ، فيوالى اثنين وعشرين بيتا أواخرها :

ومن يرم بالبغض الودود معنفا ليصفو يورث قلبه البغض والغمرا
ومن لا يكن يبدى سجاياه يبدها اذا ما ارتجى الرغباء أو آنس الذعرا
ومن يطلب العلياء يلف مذاقها هبيدا لذوغا للحناجر لا نكرا
ومن يسر فى درك المعالى بهمة لجوج رموق للعلى يحمد المسرا
ومن لا يزل كلا يحمل ويحتمل به الارض أنى سار من ثقل وقرا
ومن لا يكن يرجى لخطب فلا يكن فتى فى ندى وليكن ناهدا بكرا
ومن لا يخل النفس ثم يخلها فقد اخطأ المرتاد من أمه ظهرا
ومن يدخر تقوى الاله وذكره على كل حال يحمد السعى فى الاخرى
ومن يغن بالمولى فلن يعدم الغنى اذا لم يجد يوما لجينا ولا نضرا

وهناك رائية اخرى يصح أن تعد ضمن تلك العيون وهى فى الفخر تناهز المائة بيت ، يقول فيها :

واذا رأيت المرء محتسيا كأس الهوان فليس بالحر
والحر ليس حياته بسوى عز الجناب ورفعة القدر
لا بالطعام ولا الشراب ولا اسـ ـتلقائه بأرائك وثـر
واذا تزايلت الحياة فما من عيشة تبقى ولا عمر
وسؤال ذى لؤم وذى بخل ورجاؤه لنوائب تجرى
انكى لقلب اخى المروءة من نقل الجبال ومحمل الصخر
وغناك عنه بالقناعة فى حاليك فى عسر وفى يسر
أجدى من الملك الذى جمعت أبناء هرمز غابر الدهر
ولباس صونك عن تملقه أبهى من الاستبراق والخضر

وبعد نحو عشرين بيتا عامرة بالنصح يقول :

وتسنمـــن ذرى الامـــور ولا ... تخلد الى سفاسفها الخضـــر
والناس كالغوغـــاء هائمـــة ... لو كان يبلو الناس ذو خبـــر
وصبابة من ماء وجهــك انـــ ... ــفس من رحيق سلسل غمر
والمــرء كــل المــرء بينهــم ... ذو الملبس الزاهى وذو الوفر
واذا تحاول نيـــل مكـــرمـــة ... فانهض اليهـــا نهضة الشمـــر
لا ينظـــرون الى الوفـــاء ولا ... فضـــل الذكـــاء وثاقب الفكر
فتـــوخ فى الناس ألوفى اذا ... عاشرتهم وحذار ذا الغـــدر
واسبرهم قبـــل الاخـــاء ولا ... تغتـــر فى الاخوان بالسبـــر
وصداقـــة اللؤماء معقبـــة ... لؤمـــا كمثل حكاك ذى العـــر
فأعد لليـــوم الـــذى خضعت ... فيـــه الطلا لرواجف الذعـــر
وتحولت فيـــه الذيـــن هـــم ... قنـــن الذرى شمما الى الذر
وتـــدوسهم أقـــدام طائفة ... كانت لديهـــم موقع السخـــر

وتستمر القصيدة على هذا المنوال زهاء أربعين بيتا .

فهذه صرخة او صيحة كان مبعثها العصر الذى عاشه أبو على ، وشد ما كان له فى نفسه أعمق الاثر واوجع الحرج ، ينم عنه شعره أحيانا

جعلنا القصيدة ملحقة بتلك العيون ، لطولها والا فانها فى مستواها الفنى لا تصل الى تلك غالبا ، كما نجد فى البيت :

وصبابة من مـــاء وجهك انـــ ... ــفس من رحيـــق سلسل غمر

فان هذا البيت تتبرأ كلماته بعضها من بعض ، على حد تعبيـــر الجاحظ ، فالرحيق كان مناسبا له « الذ » ولكن هذا لا يناسب « صبابة من ماء الوجه » فان تركنا التعبير على حده ، فان الفتور يتسرب الى « انفس » من هذا الرحيق السلسل الغمر .

وهكذا تتراءى بعض تعبيرات هذه القصيدة فى قلقها وعدم انسيابها فى مضمونها واجراسها والوان بيانها خصوصا المتكررة .

وأما النونية التى اشرنا اليها فهى فى طولها نحو خمسين ومائة بيت ،

مجيبا بها اديبا ، يدعى احمد المباركى ، عن غيرها وصفها اليوسى فقال :

قد أتتنى أبياتك الغر تسرى — سريـان الزلال فى القضبـان
وتحاكى أزهار روض قريض — جـاده كـل مسبـل هتـان
أو بروداً منمنمات مع الخال — ودرا مفصـلا بالجمـان
أو نسيـم الاسحار أو نغمات — الورق فى الايك أو هدير المثانى
أو مغيب الرقيب أو طلعة الحـ — ـب وروض الصبا ورجع القيان
أو منال المرغوب بعد انتظار — أو زوال المرهوب بعد اكتبان
فتعاطيتها كـأنـى تعاطيـ — ـت كؤوس الصهباء عند الحان
من سلاف مشمولة تتـرآى — فى النواجيد كالنجيـع القانى
واذا شبتهـا تناثـر منهـا — درر فى صحائف المرجـان
ظلت من نشوتى بها وسرورى — مستطير الفؤاد ذا ميـلان
وتصفحتهـا كأنـى تصفحـ — ـت لعمرى سبيكة العقيـان
ووردت منهـا زلالا نميـرا — وخليجا مـن بحرك الطفحان
وتفهمت ما تبث من الوجـ — ـد وتشكو من الزمان المعانى

وبهذا البيت انتقل الى موضوع الرسالة التى اجاب عنها ، وقـد حاول الشاعر أو الناظم فى قصيدته النونية أن يكون رقيق الحاشية فى أسلوبها ، فوفق فى الابيات الستة الاولى ، ولكنه سرعان ما تهلهل فيها فصار يرقع بنحو « عند الحان » و « ذا ميلان » « خليجا من بحـرك الطفحـان » .

أما التشبيهات بالخمور واحتسائها ، فقد أكثر منها اليوسى فى جل قصائده ، ويبدو أن العصر كان مسامحا فى هذا التشبيه رجال العلم والفقهاء من شاكلته ، ثم اختفى ذلك فيما بعد ، فلم نعد نجد من ادبائنا مثل ابن الطيب وابن زاكور من معاصريه .

وفى تعرضه لما شكاه صديقه توسع فى ضرب الامثال بالامم الخالية والدول العاتية ، شأنه فى ذلك شأنه فى مراثيه ، وبعدها صار ينصح بالصبر واحتمال ما ياتى من الدهر ، فقال فى غضون ذلك :

انما الحلم والحجا أن تلاقى — نوب الدهر ضاحك الاسنـان

مطمئنا اخا سكون علـى ما ... فى الحشا من لواعج الاحزان
فكأن الخطوب ريح جنـوب ... صرصرت ساعة على صفوان
وكأن الـذى رزيت سفـى ... فوقهـا أو غسالـة الهطلان

وبعد نصائح عديدة ، انعطف الى نفسه فيما يواجه به النوائب وما يقاسى بها أو يسهر من أجلها ، ولكن ذلك كله لا ينال منه اذ قال :

ثم اصبحت غبها ضاحك السـ ... ـن على ما فى الصدر منيران

وصار يعدد مواقفه الثابتة ، كأنه جعل نفسه القدوة فى احتمال المصائب ومواجهة المصاعب ، وعاد الى النصح وضرب الامثال بالمرئيات وافاض فى السلوك الواجب اتباعه ازاء الاخوان ومعاملة الاصحاب ، والاغضاء عما يصدر عنهم من هفوات :

واذا تبتغـى صديقـا بـلا ذنـ ... ـب فعـش مفـردا عن الخلان
صاحبـى اخبـرا الزمان فان لم ... تعـرفـا كنـه أمـره فسـلان
ان عندى مـن الزمـان وأهليـ ... ـه لعلمـا ينيـر جـو الغسان
ليس شىء مـن الصروف بسلـم ... لمصـاب ولا عليـه بـجـان
لا ولا بالحجـا تنـال الامـانى ... لا ولا الجهـل رائـد الحرمـان
كم لبيب ذى نجـدة مـات هزلا ... وغبـى تحتفـه الـف هـان
وكريـم أديـل بعـد اعتـزاز ... ووضيـع يسمـو على كيـوان

واستمر على هذا المنوال ، ثم نصح باساءة الظن بالاقارب والاخوان ، وانهى القصيدة بهذه الابيات :

لا تـرج امـرأ ولا تلـق يـوما ... حائمـا حـول رحله فـى ايوان
وتثبـت ولا يغرنـك منـه ... بارقـات الاقبـال والاحسـان
ان ذل القنـوع ليس بشـافيـ ... ـه على الحر قبـل اقصا الامان
ومـن اعتـز بالقناعـة أمسـى ... فى نعيـم وعـزة وامـان

هذه نماذج مختلفة من شعره المتواضع ، وقليلا ما نراه يسمو عـن هذا المستوى ، كما نجد فى قوله :

ان بيـن الغمـام والزهـر الغـ ... ـض لرحمـى قديمـة واخـاء

بان ألف عــن ألفــه فتــوارى في الثــرى ذا وذاك حــل السماء
فاذا مــا الغمام زارت جنــابــا آذنــت فيــه بالحبيب اللقــــاء
ذكــرت عهــده القديــم فحنــت عنــد لقيــاه فاستهلت بكــــاء
فتــرى الزهر بارزا مــن خبايا ه يحيــى الوفــود والاصدقــاء
بادي البشر والبشاشـــة جــذ لا ن لبوســـا مــن كــل لــون رداء
ثملا من شمول شمس الضحى وهــ ـــو عالــى بسط سندس خضراء
راقصا والصبا تهنيـــــه والــور ق غوانـــى القيــان تشدو غنــاء

فهذه أبيات تسحرنا بجمالها وحسن عرض صورها ، قبل أن تسحرنا بألوان من زخارف البديع وحسن التصنيع الا ما كان من نحو التشبيه والاستعـــارات (1) ·

ومن نماذجه الجميلة ما تناول به وصف المدن والبقاع ، كقوله في مدينـــة تطـــوان :

تطاون شفت الفــؤاد المستهـــا وجلت مــن الاحــزان ليلا مظلما
واطـــار منظرهـــا المرونق بهجــة عــن قلبى المضنى هموما جثمـــا
بلـــد تقاسمت البهـــاء جهـــاتـــه فتنـــاصفت حسنـــا وفاقت مبسما
مترفعـــا في مـــرقب يطرى بـــه أنسا ويطـــرب من رآه تبسمـــا
فحكـــى عروسا جليت اذ جليــت أعلا منصتهـــا الرفيعـــة منسمـــا
ما شئت مــن عين يكسرها الحيا بحـــذاء ثغـــر تشتفى فيه الظما
لـــولا الجبل الراسيات بجوهـــا لحسبت منظرهـــا الثريا في السما
فلقـــد غدت عدنا الم تر تحتها الا نهـــار تجرى في بساط أدهمـــا
وزرت علـــى عـــدن ألم تر فوقها غـــرفا زهت حسنا على تلك الدما
لـــــه در أحبـــة غادرتهـــــــم فيهـــا يعـــدون الصداقة مغنمـــا
أرزوا الـــى الخيرات ظمئا شرعا وراوا سبيـــل البر دينـــا قيمـــا
وأود لـــو كـــانت مجالس بينهم يضحين في سبـــل الهداية معلما

---

(1) كان ذلك كله من قبيل البديع ، ولكنه فيما بعد عد من فنون البيان ، وانفصل عن فنون البديع ، منذ قرون خلت قبل عصر اليوسى ، لدرجة ان أصبحت الاستعارة فنا قائمـــا بذاته عندنا .

هكذا يذكر تطوان ، ولكنه ينعى عليها كما نعى على غيرها من جل مدائن المغرب ، قلة العلوم بها ، فيقول :

وشجا الحشا أن لم اجد من عالم يهدى الورى فيها ولا متعلما
الا يسير صبابة من ذى حجى لصبابة بالعلم أضحى مغرما

ومن شعره فى المدن قوله فى مدينة شفشاون :

بلد بحسبك منظر منه ومخبره أتم
مسرى الهموم ومسرح الا بصار مسلاة الغمم
مترفلا فى حلة من حسنه جنب العلم
كالحرة الحسناء فى كنف الهمام المحترم
وتراه من جناته متلألئا بين الأجم
كالدر بين زمرد فى قرط مارية انتظم
وكوجه خود حفه شعر السوالف فى دلم
وكغرة فى أدهم والصبح فى جنح الاحم
والثغر من زنجية ترنو اليه وقد بسم
والبدر ما بين الدجا والشيب فى سود اللمم
يعلو فويق جبينه علم تدلى من أمم

ويشكر أهلها أو يشيد بهم فيقول :

لله اخوان بها شم المعاطس والهمم
طهر السرائر والحبا غر الصنائع والشيم
أبناء مجد فى الألى كانوا يراعون الذمم

الى آخر الابيات الجميلة على بساطتها وخفة وقعها ، فكأنها صدرت عنه عفو الخاطر .

وفى معرض ذكر أهلها بالعلم يقول :

والعلم وردا ما حلى الا لمن نزع الحكم

ولا عجب من هذا فقد كان من رجال شفشاون آنذاك من عرفوا

بأدبهم ونالوا من الدولة حظوة بوأتهم كراسى الوزارة أو ارائكها ، مثل الحراق الذى هو من رجال الانيس .

على اننا لا نغفل عامل الظهور والتولى على مسرح السياسة والخوض فى معامعها وما يكون لذلك كله فى تخليد الناس ونقش اسمائهم على هياكل الشهرة ونصب الاذكار (1) والا فان الرافعى وبركة ، لم يكونا أقل منهم .

اما داليته فقد أفردها بالتاليف فى شرحها ، وهى فى طولها نحو خمس مائة بيت ، وموضوعها وان كان فى المدح والتهنئة الا ان فيها طرائف يصح ان يعد بها اليوسى اول من ياتى بها من شعراء المغرب ، منها هذا الحنين الى المعاهد والديار الذى يصوره فى الابيات :

وطن عهدت به الشبيبة والصبا ... الفين ليس أخوهما بمنكد
ورفلت فى أثواب عيش باسق ... عذباته أنق المحيا أرغد
وقطفت من زهر السرور نواضرا ... وهصرت منه بالغصون الميد
أيام كنت رخى بال فى ذرى ... حدب على موسر وموسد
الهو بأحداث الزمان مراغما ... لانوفها عبث الوليد المستدى
مرخى العنان بروض كل لبانة ... سرحا بها سرح الفلو المخضد
لا أخشى ظفرا ولا نابا ولا ... اشجى لبين مغور أو منجد
والدهر سلم والخطوب غوافل ... والعيش غض والامانى حفدى
ما دوحة فينانة أو روضة ... بخميلة أو فى يفاع اسجد
سحبت عليه ذيولها مزن الحيا ... وسخت عليه بكف وأكفها الندى
يسقى من الوسمى مترع كأسه ... ويصان من نسج الولى ببرجد
من كل سابغة الذيول كأنها ... عكر تسام على الربى بالمرعد
نشر الجنوب جمانها فتقلدت ... لبب الرياض بحليها المتبدد
فتدفقت أنهارها وتفتقت ... أزهارها فى روضها المستأسد
وتساجلت أطيارها وتمايلت ... أشجارها كالمثمل المتميد

(1) فكم من انسان يستكبر عليه منصب أو يستهان له بلقب ، ولكنه حينما يستقر به ، ويتمكن منه لا يلبث المستكبر أو المستهين ، أن يستعظم من استصغر بالامس ، فيطأطىء — تلقائيا — له الرأس .

وجــرى لطيف نسيمها برياضهــا — جرى الزلال بغصنهــا المتــأود
مــا شئت مــن شرب يلذ ومنظر — انق وصوت فى الغصون مجسـد
وحبــاب جريال يخلخل ساق أمــ — ـلود بهــا فحم الذوائب مملــد
أو أمــن ذى فرق خليــع لبــه — او غفــوة الاصبــاح للمتهجــد
أو عذب شارعة الفرات على ظما — أو وصــل حب بعد هجر مبعــد
بالــذ من تلك الليــالى لو محــا — ما خطه الدبران سعــد الاسعــد

لقد تناول اليوسى بأشعاره ، كل ما تراءى له ، أو صادفه فى الحياة، فمن ذلك ، أن أختا له ، بكت اثر ما سلمت عليه ، قادما من سفره فلما سألها عن ذلك ، قالت : تذكرت يوم فراقك .

حينئذ انشأ يقول فى أبياته :

ومحزونة بالبين طال بهــا الجوى — علينا وشوق فى الجوانح لــداغ
تبيت وجفناها يباريهمــا الحيــا — وما تحت جنبيها من الفرش لداغ
الى أن تسخى الدهر بالوصل بيننا — ولاح ضيــاء بالمســرة بــزاغ
فلمــا انقضى التسليم ما بيننا بكت — وفاض لها دمع من العين نســاغ
فقلت ألم يان السرور ولم يــدر — شــراب للقيــان الاحبة ســواغ
فقالت تذكرت الفراق غدا فــذا — لقلبــى عن تلك المسرات صــداغ
فيا لك مــن حــزن يبارى مسرة — بسهمين كل فى المفاصــل بــلاغ
ويا لك من نعمــى ببوسى مشوبة — كما شاب محضا بالدم الدر نساغ
بل الشر فى الدنيا على المرء صائل — يموج عليه الدهر والخيــر رواغ
على أن لطف الله للعســر دامغ — كما الحق منه للاباطل دمــــاغ

فهذه الابيات ، على لوعتها الحارة ، ولهجتها الصادقة ، قد تسلط عليها التصنع والتكلف ، خصوصا فى قافيتها الغريبة بين القوافى .

كان اليوسى يواجه خصوما من فاس خاصة فقال أحدهم يعرض بــه كمــا يبــدو :

فلو كنت فى الفردوس جار البرابر — لحولت رحلى من نعيم الــى سقــر

يقولون للرحمن « بابا » بجهلهم ... ومن قال للرحمن «بابا» فقد كفر[1]

فرد عليه اليوسى فى قوله :

كفى بك جهلا أن تحن الى سقر ... بديلا من الفردوس فى غير مستقر
وتجهل معنى مستبينا مجازه ... لدى كل ذى فهم سليم وذى نظر
فان أبا الانسان يدعوه أنه ... كفيل وقيوم رحيم به وبر
وقد قال عيسى اننى ذاهب الى ... أبى وأبيكم جاء ذلك فى الاثر
عليه صلاة الله ثم سلامه ... على المصطفى المختار من سائر البشر

فهذا رد منه يعتمد على البلاغة ومجازها ثم الاثر النبوى الوارد فيما قاله المسيح قبل أن يرفعه الله اليه ، احتكم اليوسى الى ذلك وقد غضب لقوله غضبة كل منا لحظيرته الاولى التى احتوته أو احتوت آباءه وأجداده ، فلا يعد ذلك منه تعصبا للبربرية بل حفاظا لكرامة ضئضئه الذى نشأ هو منه ، وليس بلازم ضرورة اذا ما أحب الانسان أسرته الصغيرة أن يكره أسرته الكبيرة ، فاليوسى مغربى بربرى عربى ، فى آن واحد ، ولا لوم عليه أن يرفع عقيرته بالامتعاض لاسرته وعشيرته ، بل اللوم كل اللوم على من أنشد البيتين ، ولا شك انه عناه — شخصيا — بهما ، والغالب أنهما صادران عن منافس من أهل فاس ، التى لم ترحب به عند قدمته عليها ، أو نقله اليها · ولشدما زار بالشكوى من ذلك كقوله :

على رسلكم يا أهل فاس فاننى ... فتى لست بالقدم الغبى ولا الغمر
أنا الصارم الماضى ويارب نافث ... يخرق فى البحث الاديم ولا يفرى

لقد عانى عنتا عظيما من أولئك المنافسين الذين كان بيدهم مقاليد المعرفة ويديرون دواليب العلم ،ويقلبون بأصابعهم صولجان التفوق والتنوق، فعز عليهم أن يحل بين ظهرانهم هذا الذى ركن اليه المولى الرشيد واكبر

---

(1) حضرت مجلسا سأل فيه أستاذ مصرى بعضهم عن معنى « جنون » فقال له : انه الله . فقلت فى هذا أبياتا منها :

لقد ظلموا اذ صغروا من الهه ... سمى له فانهم ولاتك منكرا
فاياك والتصغير فالله أكبر ... واياك والانكار فالصبح أسفرا

علمه واستنشد شعره ، فصاروا يتربصون به الدوائر ، ويناوئونه فى كل مناسبة (1) .

وبعد ما تناولنا شعره نحاول أن نلقى نظرة على نثره الفنى ، وهو فى نظرنا دون شعره من هذه الناحية الفنية ، وكأنه كان يحس بذلك ، ولهذا قلمنا يخلى رسائله ، من تطعيمها بالشعر ، له ولغيره . ورسائله التى طبعت (2) يغلب عليها الناحية العلمية ، فهى فى مغلبها فتاو علمية تناولها تناول الاديب وليس فيها ما يخلص الى هذا الادب الا رسالة عزى بها فى الشيخ عبد القادر الفاسى ، ورد فيها : شيخ الجماعة وسراج الملة وقدوة الوقت وبركة الوجود ، فانه مصاب عم فجعه وعظم وقعه :

مصاب لو ان الارض فل اديمها لما انبعت نهرا ولا انبتت زهرا
ولو ان آفاق السماء أصابها لما اطلعت شمسا ولا انزلت قطرا

وكيف وهو عماد أمن تخضم وبنيان قوم تهدم وسراج أطفىء عند اطباق الرجاء وحسام غمد عند قيام الهيجاء .

فهذا نثر مقبول منطور على سجيته ، لم تنل منه السجعات المتوالية، وكذلك الشأن فى مقدمة زهر الاكم : « صلاة تلوح فى أفق مكانته العلياء قمرا ، وتفوح عن طلعته الغراء عنبرا ، وتنهل فى جناب مجادته الفيحاء كوثرا ، وتخضل فى روضة جماله الغناء زهرا ، ما هب نسيم ، وذهب ذو رسيم ، وعلى آله الاماثل ، بدور المحافل ، وصدور الجحافل ، وينابيع الفضائل والفواضل ،،، ما بدا على وجنات الورد تخجيل ، من رشفات النسيم البليل واصفر روعة وجه الاصيل ، من لحظات طرف الليل

---

(1) سمعت من فاضل — رحمه الله — أن اليوسى لما حل بفاس ، وتطلعت اليه الانظار ، طلب منه أن يلقى درسا فى التفسير ، فاستجاب لذلك ، بادىء ذى بدء ، ودون أن يعرف المسألة التى سيتناولها بالدرس . وكان هذا معروفا ، واستمر العمل به الى وقت قريب . فلما اقتعد كرسيه للالقاء ، قرأ السارد الآية « فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » وكان القصد التعريض به . فبدأ الشيخ يفسر الآية ، ووقف وقفة طويلة عند الكلب وخصاله الحميدة ، التى استهلها بأنه يأنس بالزائرين والضيوف ، كما قال الشاعر :

وكلبك آنس بالزائرين من الام بالابنة الزائرة

(2) بتحقيق تلميذتنا الاستاذة فاطمة القبلى .

الكحيل ، وأسفر الصباح عن ثغر بسيم ، ومنظر وسيم الى قوله :

العلم أنفس علق يقتنى ، وأحلى ثمر يجتنى ، وأعدل محجة ، واقوم حجة ، واطول بدر فى دجنة ، وربح متجر يثابر عليه ، وانجع مرعـى ينتجع اليه ، وأرجى بارق يشتام ، وأفضل جناب يعتام ، وأنور نور يستضاء به فى الظلمات ، وأمنع وزر يعتصم به فى الازمات ، وأوثق عروة يستمسك بها ذوو البصائر ، وأعظم عدة تعقد عليها الخناصر ، وأقوى مطية تركب ، وأتم سلاح ينتكب ، وأطيب نسمة تستنشق ، وأجمـل محبوب يعلق ، وأبهى زينة يتحلى بها المتحلون ، وارفع منصة يتجلـى عليها المتجلون ، فان العلم غذاء العقل ، وبه يعرف الحكم العدل ، وان الخصيصى التى بها شرف الانسان انما هى العلم ، فان المرء لو بلغ فى كمال الجسم أطوريه ، لا يكون انسانا الا بأصغريه .

لـولا العقول لكـان أدنى ضيغـم ادنـى الى شـرف من الانسان

وما امتاز اللسن الذكى عن العيى الا برجاحة الجنان ، وفصاحـة اللسان ، فان الخليق للافكار ، عند افتراعها المعانى الابكار ، والجدير للالسنة عند اقتطافها أزاهير البيان ، واهتصارها أفانين التبيان ، أن يتميز فيها الفائق من المائق ، والسابق من السائق .

هكذا نجد طابع الاسلوب الشعرى باستعاراته وتشبيهاته وأخيلته الراقصة ، وكلماته المتشاخصة غالبا على نثره الفنى ، ولم يكتف بهـذا حتى حشر فيه هذا البيت من الشعر ، كما هو فى نشأته ، لا تبديل لخلقه .

وقد لاحظنا الاعتماد على أشياء فى هذا الفن ، كالقمر والبدر ، مفردا وجمعا ، والزهر والثمر والنسيم ، والضوء والظلمة ، بالافراد والجمع والترادف ، وكل ذلك فى حسن استخدام ، ومهارة اتساق ، بحيث يختفى تكراره وتعمده .

وعلى الجملة ، فان اليوسى يعد مفخرة من مفاخر المغرب ، النيـر المستنير ، بعلومه وآدابه ، واطلالاته المشرئبة على آفاق العالم الاسلامى ، واشراقاته الصوفية الناصعة ، وأرواحه المتراقصة فى فضاء الفكر الحر ،

ومجال الانفة والاعتزاز بالنفس الابية التى لا تعرف الانحناء والخضوع ، يتقصف متنها ولا تنحنى ، ويهن عظمها ولا تنثنى .

عيروه بالبربرية ، فما تعير ، وقال :

« نعم ، هو ذاك فى الظاهر ، والاصل يعلمه الله ، فان اتقيت الله تعالى لميحططنى نسب ، فان نسب الانسان طينه ، وحسبه دينه ، انتم بنو آدم وآدم من تراب ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم .

الى عـــرق الثرى وشجت عروقى وهـــذا الموت يسلبنـــى ثيـــابـــى

وان أريد الغدر والوفاء ، والخبث والصفاء ، فالناس فيه معادن ، وقد يوجد فيه من الوفاء عند العجم ما لا يوجد عند العرب اليوم ، والتجربة قاضيـــة بذلـــك .

وعين الرضا عن كل عيب كليلـــة ولكن عين السخط تبدى المساويا

فبالله لو لم تكن الاعراب الغربية ساكنة فى مجال الخيل والبحر من ورائها ، هل كانت تذعن ذلك الاذعان وقد عرفت حميتها ، ولا سيما عند استخفاف الدول ، فكم من عصى شقوا ، وكم من ذى أمر اغتالوا . وأما البربر فانمايغترون احيانا بالجبال المنيعة ، كما يغتر أعراب الصحـــراء بالمهامـــه .

فالعـــرب منه مع الكدرى طائـــرة والروم طائـــرة منه مـــع الحجل

فهذا نموذج آخر يصح أن نضعه الى جانب تلك النماذج النثرية ، وهو على قصره يؤكد تلك القضية ، بأن اليوسى ، يعتمد على الشعر ولا يتخلى عنه أو يستغنى الا لماما ، ثم يعود اليه عودة المحب المشوق الى حبيبه ، فى لهفة وحرارة لقاء ،،،

أما ادباء الدلائيين ، فمنهم محمد بن أبى بكر ، الذى اجاب احمد ابن القاضى على شعر بقافيته فقال :

نعم لاح برق الحسنفاختطف الحشا فلبيتـــه من بعد مـــا كنت آبيـــا

ومن شعراء الدلائيين أيضا محمد بن محمد بن عبد الرحمن الدلائى المتوفى

عام 1088 ، ومن شعره يتشوق الى وطنه :

فيا وطنى اهوى هواك وان رمى ... بــى البين مرمى لم اجد عنه مهيعا
وانى لأستدعــى عهودك كلمــا ... اضاءت بنور مــن ثنايــاك لمعــا

والطيب الشاذلى الدلائى :

قال فيه صاحب « البدور الضاوية » : آية من آيات الله فى الحفظ والتحصيل ... اخذ من كل عام بنصيب .. متفننا فى الفقه والاصول والعربية والآداب ... خرج من الزاوية مع من خرج ، عند الحادثة العظمــى ، واستوطن مدينة فاس ،،، ثم دخل مكناسة الزيتون واستوطن بها . من شعره قولــه :

حيتك نافحة الشــذا بعبيــرهــا ... وسقتك مغدقــة الحيا بنميــرها
ودعــاك منصبك العلــى مملكــا ... وغدوت فى الدنيا أجــل أميرهــا
وفدت رسائلك الجليلــة طيهــــا ... نشر المودة فى خلال سطورهــا
فكأنهــا الصهبــاء رق مزاجهــا ... وكأنهــا الديباج فى تحبيــرهــا
وتنكبت عــن منــزلى اذ خيمــت ... ما عرجــت بسلامهــا وسفيرها

فهذا شعر رقيق يدل على موهبة شعرية فى صاحبه ، توفى عام 1107 واخــوه احمــد ، المتــوفى عــام 1106 ومــن شعــره وقولــه ، مــن قصيــدة :

ما ان يعيبك فقد الحلى والحلــل ... ان أنت بالهمم الشماء كنت ملــى
قد ضل من ظن أن المال يرقع مــا ... او هى السؤال بعرض فيه مبتذل
لا بارك الله بعد العرض فى عرض الد ... نيا ولا نلت ما بالعــز لــم انــل
ورب جاهلــة هبــت تعاتبنـــــى ... أن كنت عن غمر عيش موثر الوشل
قالت رأيتــك ذا قــول تحبــره ... ازهى من الروض غب الواكف الهطل
وفى الملــوك لــه كــفء فامهــم ... حتى يعيدوك ذا خيل وذا خــول
ولست اصغى وان لجت لتعدل بى ... عن منهج الصون بالتعتاب والعذل
وان من كرمى بخلى بشعرى عن ... تقريظ ذى كرم أم ذم ذى بخــل
فلن ترانى مذيلا مــا حييت لــه ... فى غير ذكر الوغى والاعين النجل

يأبـى ابائى وآبائـى ويانف لـى مجد أناف ولم يقنع علـى زحـل
نفس الكريم تعاف الورد يصحبه ذل على ظما فى الجوف مشتعـل

فهذا شعر شاعر حق ، وهو من أجود ما وجدناه فى هذا البيت الدلائى ، وفيه ريح من لامية الطغرائى .

ومنهم محمد المرابط الدلائى المتوفى عام 1089 ، ومن شعره :

ودعتنـى ولقـد اودعتهـا مهجتـى والبـين أمـر قد بهـر
ورنـت نحـوى بطـرف فاتـر فاتـن قـد زانـه ذاك الحـور

وله مولدية طويلة ، مطلعها :

حـى المعاهد طافـح الاشجـان وانثـر هنـاك لآلـئ الاجفـان

ومنهم الطيب بن محمد المسناوى ابن أبى بكر ، الذى رثى اباه بقصيدة استهلها بقوله :

غوائل هذا الدهر مرهوبة الفتك فان سر فى حين فاكثـره مبـك

ومنهم أبو عمر بن محمد بن أبى بكر الدلائى ، ومن شعره قوله من قصيدة فى بعض اخوانه :

حـاك الربيع حدائقا وأزاهـرا والسقط من ورق حبتـه بشائـرا
فالورق تشدو فى الغصون ترنمـا والروض يسبـل ان زهاه غدائرا
والورد يخجل فى نـداه لان رأى حمر الخدود من الغوانى سوافـرا
وعيـون نرجسه تحماق نحـوه انفا على ساق يقوم مفـاخـرا
والمـزن يرقص فى الربى فكأنهـا صحـن ملئ درهمـا ودنانـرا
والنهـر منعطف كأرقـم حلـة داب اللجين اذا جرى بجواهـرا
وفصيح (كيثار) يقـول لما جن أدر الكؤوس فذا الزمان كما ترى(1)
غنـى الهـزار له واسمع صادحا أهل البطالـة واللذاذة جـاهـرا
او ما ترى الايـام تزهـو نحـوه والدهر بعد عبوسه متبـاشـرا
اشرب هنيئـا فالزمان قد انتشى جذلان من كأس السرور معاقـرا

---

(1) كلمة (كيثار) وضعناها استظهارا منا . ومحلها فارغ .

ونختم مكر هؤلاء الامراء الأدباء ، بأمير جمع بين النثر والنظم ، نجد من ذلـك نماذج طيبة فى كتـاب نشر المثانى ، لابن الطيـب القادرى (1) هذا الامير هو أحمد بن أحمد بن محمد الدلائى .

فمن نثره ،رسائل بعضها الى المولى اسماعيل ، وبعضها الى اخوان له ، على مستوى رفيـع .

أما نظمـه ، فمنه قصيـدة رائية رائعـة طويلة ، يخاطـب بعض اخوانه متشوقا الى ما مضـى له من أيامه ، هكذا :

اريحا سرت بين الحدائق والنهـر   معنبرة الأذيال مـن نفحة الزهـر
وبانت بوادى العدرى تسحب ذيلها   وللصبح غارات على الانجم الزهر
وزارت رياض الحزن والطل قد غدا   يقلدهـا عقدا نفيسا مـن الـدر
ومرت على اكناف دارين فانثنـت   تفاوح عرف المسك والعنبر الشحر
اذا ملت نحو الغرب يوما فبلغـى   تحية مشتاق الى ابن أبى عمـرو
خليلى ومن صافيته الود فى الهوى   وارعى له فى السر عهدى وفى الجهر
واهتاج شوقا ان سرى الركب نحوهم   وأهفو كما تهفو الحمائم للوكـر
وقضى عليه ما لقيت من النـوى   غداة استقلوا والركاب بهم تسرى
وانى على العهد القديـم لثابـت   وحاشى لعهدى أن يحول الى غدر
وفرط اشتياقـى نحوه وتذكـرى   لا يامنا اللاتى غدت غرة الدهـر
زمان الصبا اذ عيشنا الغض رائق   يرف رفيف الزهر فى عقب القطر
واذ نحن فى ظل مـن العزوارف   وغصن الصبا يهتز فى حلل خضـر
وقولى له لا تنس ما كان بيننـا   فحفظ عهود الود من شيم الحـر
وعرج على ربـع الـدلاء وحيـه   تحية مشبوب الجوانح والصدر (2)
يمينا لقـد خلفتمونـى بعـدكـم   اخا ولـه حيـران فى مهمه قفـر
كئيبا كأن الارض حلقـة خـاتم   عـاى ومن لى بالتجلـد والصبر
فلو أبصرت عيناك ما بى من الاسى   وما بضمير القلب من لهب الجمر
لاحزنكم حالى وفـرط تشوقـى   وشـدة ما القاه من فادح الضر

(1) تحقيق الاستاذين محمد حجى وأحمد التوفيق .

(2) يلاحظ أنه مرة يؤنث المخاطب ومرة يذكره .

يمثلك الفكر المروع من النوى   فارتاح اذ يبدو خيالك فى فكر
ويدنيك منى الوهم حتى كاننى   اناجيك من فرط التشوف والذكر
وحفك ما أرض الجدار (1) بموطنى   ولكن قضاء حم من مالك الامر
ألا ايت شعرى هل أرى ذلك الحمى   وأنتم باملاك السيادة كالزهر
وهل اتركن يوما تلمسان راحلا   عليها الى تلك المعاهد والوكر
فتدرك آمالى وتقضى مآربى   وينسخ حكم البؤس والعسر باليسر
على اننى لو سرت عنها لاصبحت   نوازع أشواقى لها دائما تسرى
ولم لا ولى فيها امام معظم   ابو مدين قطب المشايخ والعصر
امام له فى حضرة القدس مقعد   ينزه عن زيد هناك وعن عمرو
واخوان صدق يكرمون جليسهم   ويولونه ما يستحق من البر
وخذها على ما فى الحشا من كآبة   حديقة شعر جادها صيب الفكر
من الاندلسيات طبعا ورقة   تحاكى اطراد الماء فى صفحة النهر
من الكلم المنخول بالطبع لفظه   يروق كما راقتك صافية التبر
تود الغوانى لو ظفرن بدرها   ليجعلنه عقدا على لبة النحر
كلاما كما نمنمت وشيا مفوفا   صنيع فتى قد فاق فى صنعة الشعر
تميل ابن زيدون لها طربا بها   كما مال نشوانا نزيف من السكر
واو راسل الاحباب يوما بشعرها   لما ضاق من ولادة مضض الهجر
ويهوى ابن عمار صناعة حوكها   وطبق معانيها لالفاظها الغر
هدية من قد شط عنكم مزاره   تجوب اليكم كل مستخشن وعر
سباسب جرد تعزف الجن حولها   ويخفق فيها القلب من شدة الذعر
صحاصح تشكو الخيل من طولها الوجا   مجاهل ضلت فى فلاها القطا الكدرى
تحن الى مأوى السيادة والعلا   فتابلها من معروف برك بالبشر
وحى على بعد المدى بتحية   معطرة الأذيال طيبة النشر
اجلة اعمامى واهلى ومن له انـ   ـتماء الى غوث الورى ابن ابى بكر
وقل لهم انى على العهد ثابت   مقيم عليه ما حيت الى الحشر
وعذرا فان البين غير فكرتى   ولله اشكو ما تضمنه صدرى

(1) لعله يعنى تلمسان . انظر تعليق المحققين عليها .

فلا زلت فى أمن وعــز مــؤبــد موقى مدى الايـــام من نكبة الدهر

هذه القصيدة ، فى غنى عن التعليق عليها ، بما وصفها به صاحبها ، فانها بحق على تلك الصفة ، اذا استثنينا من ذلك ، الابيات الستة الاخيرة ، القلق بعضها ، والفاتر بعضها الآخر ابتداء من المصراع الثانى ، لاول تلك الستة . وقد ذكر بالقصيدة الوصف بكونه مقيما على العهد والوفاء ثلاث مرات (6 ، 8 ، 43) .

وعلى اجادته العظيمة فى منحها كل الصفات التى يمنحها الكلام ، عامة ، والشعر منه ، خاصة ، فان فيها ريحا من ابيات القاضى عياض ، التى خاطب بها الوزير :

عسى تعرف العلياء ذنبى الى الدهر فأبدى لها جهد اعترافى او عذرى

وفيما عدا اليوسى ، فان شعراء آخرين ، تناولوهم بأمداحهم ، الا انهم لم يكونوا ذوى عارضة قوية فى تلك الامداح ، كما وجدنا ذلك للدغوغى ، فيما ذكره الحوات وكما نجد فى هذا النموذج ، لعبد الوهاب الفاسى ، الذى تناول الدلائى وذويه فى قصيدة هكذا :

نهــج الهدى فى استقامه	لمــن يــروم مــرامـــه
أن تبــغ نجدا او تهوى	عـــــراره وثمامـــه
اهل الدلا اهــل نجــد	وارضهــم ارض رامــه
لمــا ارتقوا فى المعــالى	وخلفــوا كــل هــامــه
واستتبعــوا المجــد لمــا	القــى اليهــم زمامــه
وخيمـــوا فـــى ذراه	دون الانـــام خيــامـــه
جعلتهــم لــزمـــانــى	اجـــل درع ولامـــه
وحقهــم وهــو عنــدى	ابــر كـــل قســامــه
لهم علــى الناس اندى	من حاتم وابــن مامــه
وفضلهم ليــس يحصــى	ولــى علــى ذا علامــه
مــن حل يوما حمــاهم	فدهره فــى استقــامــه
لا يختشى منــه ضيمــا	ولا يخــاف انتقــامــه

وليس فيهم عيوب   غير الندى والشهامه
تخالهم كالبدور   مكانة ووسامه
وكالسيوف مضاء   وحدة وصرامه
وكالاسود ولكن   مهابة وزعامه
وكالأسود ولكن   سماحة وضخامه
نوالهم كل آن   يحكيه صوب الغمامه
وكيف لا وابوهم   من قد عرفتم مقامه
قد امتطى الليل دهرا   والصبح أم أمامه
نهياكم بامام   صام الزمان وقامه
قد وجد الفضل نثرا   فكان هو نظامه
احرزه وحماه   وما اباح اقتسامه
واذ راكم بنيه   يصن لديكم ختامه
ومن يشابه أباه   فما عليه ملامه
حزتم مدى الدهر فخرا   ورفعة وفخامه
لن يبرح المجد فيكم   ما خلفه وامامه
كأنما الدهر وجه   وجيلكم فيه شامه
حتى غدا الشام قال   مروانه وهشامه
خريدة من محب   اهدت اليكم سلامه
قد صانها عن سواكم   محبة وكرامه
ان ظفرت بقبول   نال المحب مرامه
أو لوحظت بسواه   فلا اقول علامه ؟

فهذه قصيدة خفيفة الظل والوزن البلاغى خافضة الجناح من الفن الصناعى ، اتينا بها على تواضع منها واستحياء من صاحبها ، وسوف نرى مثيلات ، فيما نظم افيلال ، فى احداث تطوان .

ومن المعاصرين للحسن اليوسى ، والآخذين — ربما — عنه ، رحالة عظيم ، كان لرحلته ، وما يزال ، اقبال عليها ، من المشارقة (1) والمغاربة .

1) فى مقدمتهم استاذنا الاستاذ عبد الحميد العبادى رحمه الله رحمة واسعة .

انه أبو سالم عبد الله العياشي ، نسبة الى آيت عياش ، قرب تافيلالت .

لقد ولد قبل اليوسي بأربع سنوات فالعياشي ولد عام 1037 ، فتلقى العلم والقراءة ، على جماعة ، كان أولهم ابوه الذى كان أحد مقدمى الزاوية الناصرية ، فكان ابنه هذا ، من الآخذين عنها والمنتمين اليها ، ثم قصد عاصمة العلم فاس ، فأخذ عن أعلامها ، مثل الخطيب حمدون الأبار ، ومحمد ميارة ، وعبد الرحمن ابن القاضى ، وعبد القادر الفاسى ، الذى أجازه اجازة علمية .

ولا شك ان صلته باليوسى كانت صلة علم وطريقة ، مما جعله يرفعه الى أعلا المنصات ، التى كان عليها كبار العلماء والمتصوفة فى الاسلام ، فقال فيه قوله المأثور :

من فاته الحسن البصرى يدركه فليصحب الحسن اليوسى يكفيه

لقد كان العياشى من رجال العلم ، الذى ألف فيه عدة مؤلفات ، نجد ذكرها فى مؤرخى الشرفاء ، لبروفنصال ، كما كان من رجال الادب، الذى يعنينا ، فسجل فى رحلته معلومات ادبية وحضارية وتاريخية ، مما جعلها فى مقدمة الرحلات لعهده .

طبعت رحلته بالمطبعة الفاسية ، ثم أعيد نشر هذه الطبعة (1) .

وهى من الاهمية التى لخصت فى تاريخ الشرفاء ، بكونها ، تضم قائمة مسهبة لمشاهير الاعلام المعاصرة ، شرقا وغربا ، خاصة فى الاقطار التى زارها ، أو مر بها ، فى رحلته هذه كما تطلعنا على العناية التى كانت العلوم الاسلامية ، تنالها فى تلك الاقطار ، من الدارسين والعلماء النابهين .

ومن المفيد فى هذا السياق ، أن نذكر انه ضم الى قائمة الذين أخذ منهم بالمغرب ، آخرين من النبهاء ، الذين اخذ عنهم بالمشرق ، مثل

(1) على يد الدكتور محمد حجى الذى ذيلها بفهارس ثلاثة ؛ أعلام الاشخاص والقبائل والأمم ، وأعلام الاماكن ، وأعلام الكتب .

الشيخ الذائع الصيت على الاجهورى ، الفقيه المشارك ، فى عدة علوم وفنون ، والشيخ المتضلع المتصوف ، ابى اسحاق الشهرزورى الشعرانى، المتوفى بالمدينة ، ومثل الشيخ ابى مهدى الثعالبى ، وغير هؤلاء ممن ورد ذكرهم ، فى رحلته .

بالاضافة الى هؤلاء جميعا ، كان فى رفقته من علماء المغرب ، من لا نعثر عليهم ، فى غير رحلته ، نخص بالذكر منهم العالم الفاسى محمد المنقوشى ، وكذلك ابو عبد الله ابن ابى الشتاء ، الذى ذكره بالحبيب الشقيق ، خير خل وأزكى رفيق ، العلامة اللوذعى ، الرحالة الالمعى ..

ومما رثاه به قوله فيه :

موافقنى فى كل حال ومؤثرى — على نفسه فى كل خير ولذة
حبيبى خليلى لا خليل سواه لى — يدانيه فى اخلاقه المستقيمة
سخاء وصبر جودة وفتوة — توقد ذهن فى صفاء طوية
وعزة نفس لا تروم دناءة — وغاية صبر فى احتمال وعفة
محمد المحمود نجل ابى الشتا — عليه من الرحمن سابغ رحمة
قد اختلسته عندما تم بدره — كمالا وغالته اكف المنية
فو الله لا عزيت فى فقده امرأ — سواى ومن اولى بذا غير مهجتى
لقد طالما حذرته ونصحته — وقلت له احذر من ركوب السفينة
ولكنه من حبه الخير مسرعا — لنيل المنى لم يهتبل بنصيحة
فجرته قصدا للردى غير هائب — سلاسل اقدار تقود بزمة
تجاوز أرض الروم حتى أتت به — منيته اقصى البلاد البعيدة
فذاق بها كأس الحمام وخلفت — رهينا بقسطنطينة خير طينة
وكان كثيرا ما يكرر ذكرها — فصار بها الملحود فى بطن تربة
رعى الله من بالروم اضحى مجدلا — ونشأته فى الغرب افضل نشأة (1)
وليت المنايا اخرته بحكمها — على ما تشاء من فداء ورشوة
ولو اننى آليت لا ذاق بعده — لذيذ الكرى جفنى لبرت اليتى

(1) المراد بالروم تركيا الأوربية « روملى » وتعم الاقليم الواقع بين البلقان والبحر الاسود ومرمرا وايجه .

لقد طاب حيا ذكره فى بلاده ... كما فاح شرقا عرفة بعد ميتة

هنيئا له خير الشهادة حازها ... على بغتة بالطعن فى أرض غربة (1)

بخير ثغور المسلمين رباطه ... بإثر ركوب البحر فى خير وجهة

وآثر عنه الناس فيه كرامة ... فصار مزارا قبره فى المدينة

ملائكة الرحمن عنه نيابة ... يحجون قطعا كل عام بحجة

الى الله والمختار كان مهاجرا ... فأدركه موت على حال هجرة

فكان بلا شك على الله أجره ... فأكرم بذا موتا وأكرم بهجرة (2)

سأبكيك يا خير الاحبة ما بكى ... محب حبيبا بالدموع الغزيرة

وأبكى دما بعد الدموع وبعدها ... تسيل عليكم يا خليلى مهجتى (3)

محمد لا والله ما كنت ناسيا ... لعهدك ما دامت حياتى بجثة

محمد من للعلم بعدك ناشرا ... فوائده فى الناس من دون هجنة

محمد من للجود بعدك قد عفا ... وقد كنت بسط الكف جم العطية

محمد من للحلم بعدك ان اسا ... عليك مسىء لم تؤاخذ بزلة

محمد من للدرس ان بات أهله ... لهم نظر فى صفحة بعد صفحة

ومن لصحيح النقل ان ضل أهله ... يريدون فى أمر طويل الخصومة

محمد من يلقى الاحبة ضاحكا ... سواك بلا عبس منير الاسرة

محمد من للبحث يلقيه تارة ... ويلقى عليه من فنون عويصة

محمد ماذا انتقى من مدائحى ... لعلياك أنت البدر من فوق مدحتى

تجيد سؤالا أن سألت كذاك ان ... أجبت بعقل أو نصوص صحيحة

سأهدى لكم طيب الثناء واصطفى ... لكم من دعائى دعوة اثر دعوة

هذا شعر وسط ، مقبول ، لا ينال منه ، الا البيت قبل الاخيرين ، القلق بقوله « كذاك ان » ، وفيما عدا ذلك فالقصيدة مؤثرة، تذكرنا بروحها ونداءاتها المتكررة ، بمرثية ابن رشيد لولده ، فيما مر ذكره ، فكأن هذا الرحالة ، قلد ابن رشيد الرحالة ، كذلك .

(1) يريد بالطعن وباء الطاعون الذى توفى بـه .

(2) يشير الى قوله تعالى « ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .

(3) لقد مات أيضا رحمه الله ، مصابا بالطاعون ، عام 1090 وكان المرثى قد توفى عام 1072 ، حسبما أخبره به الفاسيون القافلون من الحج ، يوم دخوله مدينة طرابلس .

أما نثره فمتكلف ، كما فى فاتحة رحلته ، الحمد لله الذى قرن ممدوح السفر ، بمجموع الظفر ، وحث عليه فى طلب السعادة ، فقال تعالى : « فلولا نفر » ، فيا سعادة من نفر ، الى الله مع ذلك النفر ، ولم يمل السرى فى الليل اذا أدبر ، والسير فى الصبح اذا أسفر ، فذنب المجاهل والموامى عنده دائما مغتفر ، وأرواح المعاطن اذا أثير الركائب أطيب لديه من المسك الاذفر ، لا يصده عن طيبه نضارة العيش الاخضر ، ولا ازورار الحبـــوب الاصفر ، ولا يفل حد عزمه اعتراض الازرق ولو كان من بنى الاصفر ، فالموت الاحمر دون مرماه أشهى من الثريد الاعفر ...

وهو نثر فى غاية الفتر والعرى ، وان حاول صاحبه أن يكسيه بأثمال بالية شاحبة مزقة .

ومن المعاصرين لليوسى ، وقد تأخر عنه ميلادا ووفاتا ، أبو العباس احمد بن عبد القادر التاستاوتى .

هذا الاديب يشارك اليوسى ، فى كونه من تلاميذ الزاوية الدلائية ، وأنه من المتصوفة الذين كانت لهم صلات قوية بالزاوية الناصرية العتيدة فكان لهذه الصلات أصداء أدبية قويـــة ، سبق منها قصيدة اليوســـــى الدالية التى جمعت فأوعت ، والتى بلغت فى طولها ، ما لم نعهده سلفا .

وقد عارضها التاستاوتى بقصيدتين ؛ احداهما دالية تقارب أربع مائة بيت ، والثانية لامية أطول من السالفة ، بنحو مائتى بيت ، استهلها بقولـــه :

قف ساعة بين الغويـــر فاربـــل	واعطف بمنعطـــف الرسوم الهمل
واجتـــز من الطلـــل الذى بجواره	آثـــار قـــوم فى البريـــة كمـــل
ان الوقـــوف به تعلـــة مكمــــد	وهـــى الربيع لقلب كـــل مبلبـــل

فهو مطلع تقليدى كذلك ، يستمر فيه الى أن يقول :

مترفـــلا فى ثـــوب عيش سابـــغ	رغد هنيىء مـــا لـــه مـــن امثـــل
روض السرور به تفتـــق نـــوره	فى طالـــع رحب الذراع مكمـــل
يزهـــو الصفا برجالـــه فى غبطة	ويراغم الهفـــوات مـــن متضلـــل

برخـى العنان بجنـة أفنانهـا — قـد ذالت للقطف مـن متدلـل
لا يختشـى تبديـل ديـن لا ولا — ايقانـه لعـوارض بمحـول
وزمانـه سلـم وعيـن خطوبـه — اغفت ولا من حاسـد متنكـل
ما عطفـة مـن هاجر أو روضة — من باهـر أو نفحـة من افضـل
وكفت عليه من الغيوب سحابـة — وكفا فبـات موسدا بتعلـل
يسقـى عقـارا ما له غول ولا — يدنـى المعلـل من صداع تخيـل
من كل صهبـا لو تنسم ريحهـا — ميـت يعـود الى المقـام الاول
فكأنهـا فى كأسهـا در صفـا — وكأن ساقيهـا صفـاء المنصـل
فاذا لثمت كؤوسهـا اصبحت فى — عـز منيـع باسـق متكمـل
متمـايلا نشوان تزهـو مطـربا — تعلـو علـى الاقران أجمل مثمل
هذا وما هب النسيم بـروضـة — غنـا ولا جعل الرقيب بمعـزل
أو وصـل غانيـة يغـرق نورها — ظلم الدجا من كـل ليل أليـل
أو أمننـا مـن بعد خوف مقلق — او دفعنـا الاعدا ولـم نتـزلزل
أو ما يكون من الروى بعد الظما — أو فرحة بعـد البكـاء لمعـول
بألذ مـن زمـن حبـانا انسـه — والوقت صـاف سالم من حسفل

وهكذا نراه يحتذى اليوسى حتى فى السياق ، الذى اتخذه اليوسى، وكان هو محتذيا فيه الاعشى ، كما احتذاه غيرهما سابقا . واستمر التاستاوتى على هذا يندب زمانه الماضى ومنازل أحبابه ، والايام السعيدة التـى قضاها معهم ، ثم يستسلم الى اليأس من عودتها ويتحسر لفواتها ، ويتصل بالنهاية المحتومة ، الموت ، ويفيض فى تشبيهه ، وسطوة سلطانه، وشدة قبضته ، وكثرة ضحاياه من الملوك وعظام التاريخ وكيف أنه لم ينج منه طائر فى الجو ، أو ساع بغور ، أو بطود ، الى أن يقول :

والروح منشـاه من الامر العلـى — ومقره عـين البقـاء الاكمـل
فيحـن ذا لسمائـه متصعـدا — ويحـن ذا متسفـلا للارذل
ومخافـة التفريـق بينهما الفتـى — فى حالـة المـرء النشيط الافشل
ارواحنـا مأمـورة بتـزود — فاستنهضـت لكنهـا بتثقـل
لـو خففت أعبـاء مـا قد حملت — لم تجـر للعليـاء جرى الفسكل

وفى هذا من الافلاطونية وعالم مثلها ، وما ردده ابن سينا فى عينيتــه ما تقدمت الاشارة اليه ، فيما مضى ، وسيعود اليه فى داليته ويستمر فى هذه الفكرة المثالية أو الخيالية ، التى تبناها المتصوفة أمثاله . وكــان هو ممن تعتقد فيهم الولاية والكمال ، كما نجد بكتاب « طلعة المشتــرى » للناصرى ويعقب على ذلك بالنصائح وضرب الامثال ، وسوق الحكم . وضمن هذا يقول :

يا حســرة بل غمــة لنفــوسنـــا	مــن بيــن مألفنا الالذ الاجمــل
ان انــوى فى هــذه لمـــروع	احــرى بقبــر فى الظلام مهــول
والنفس فى حــر الفــراق مذابــة	ولهــا أزيــز فى الحشا كالمرجــل
كــانت سليمى غيــرة فبدا لهــا	ان حان بعــد اليــوم نأى متبل
فتأسفت حــزنا وزاد نحيبهـــا	مــن حادث يصلى القلوب مبلبل

ويعقد حوارا معها ، الى أن يقول :

هــذا وكم مــن وامق خلفتـــه	يبكــى وأمضى للعلــى فى الاول
واجــد لم أنظــر لمــن باينتــه	متحمــلا فى البيــن ما لم يحمــل

ثم يعود الى نصائحه ويطيل رشاءه فيها ، ويضرب الامثال ، ويحض على التنقل والاسفار ، ويضرب فيها الامثال كذلك ، فيقول مثلا :

والمــرء لــو يوتى المنــى بمحله	ما جاوز الدرب امرؤ القيس الخلى
شرب الردى من آل قيصر فاغتدى	فى ضيق قبر معلم مــن جنــدل

كان كل هذا من صنيع اليوسى كذلك ، وان كان الاول فيه أحلى مهيعا ، وأسلس أسلوبا ، ثم تخلص الى موضوعه ، بل مهد له ، فقال :

لمــا أتت مــن كل صقــع شاسع	خوص بمحمــود واكــرم مرســل
صلــى عليــه الله ما هبت صبا	فهــو المنــى وعليــه كان معول
خل المطيــة فى الثرى ثم الحصــا	وتوسم البيــدا بوطىء الارجــل

وانجرف فى هذا انجرافا ، أغرقنا معه فى الحكم وضرب الامثال ، مرة أخرى ، بعدما خلنا اقترابنا من القصد ، الى بر النجاة . وحتــى

فى هذا البركنا نجد نفسنا فى مجاهل مخيفة ، حتى للقطا والورقاء ، التى تطارحه البكاء على نفسه والاصحاب ، الى أن يقول :

يا ليت عبـــد الله يسمع نوحتـــى ألقيت زادى واعتقلـــت مرحلـــى

وبعدما يجاذبه اليأس والامل ، فى آن ، يلقى عصـــا التسيـــار ، ويتنفس ، ونحن معه ، الصعداء بقوله مواجها قصده لمدح شيخه الناصرى:

وأحـــن من يحنـــو لـــروح موجع بأعـــز وجـــد بالوقـــار مسربـــل
الماجـــد الشيخ ابن ناصر الـــذى ملك القلوب بطواســه المتسلســـل
أحيا السيادة بعـــدما قد عطلـــت وأقـــام رسم الدين بعـــد تخلخـــل

واستمر فى الاشـادة والتنويه ، وما يتخلل ذلك كله ، بنحو خمسين ومأتى بيت ، ختم بنهايتها القصيدة فقال :

الشيـــخ مطلبنـــا وغايـــة سؤلنا نرجوه يرحمنـــا بستـــر مســـدل
ويكون لى عونـــا على نيل المنى فاليـــه تنظر مقلـــة المستوغـــل
لا زال مأوى الراغبين ومنتهـــى أمـــل العفـــاة وغايـــة المتوســـل
مـــن جـــاءه والوزر أثقل ظهـــره ولى سريعا وهـــو غير مثقـــل
سعدت بطلعته الليـــالى واعتلـــت ومـــن انتمى لذوى السعادة يعتلى

أما القصيدة الاخرى الدالية التى تأخرت عنهـــا زمنا ، وقاربتهـــا طولا ، اذ أنها دونها بنحو مائة بيت كما أنها دونها فى فنها ، وطول نفسها، فهى تخالفها فى موضوعها ، حيث انها فى مدح النبى ، عليه الصلاة والسلام . والتاستاوتى يدرك قصورها عن الاولى اليوسية لجزالة ألفاظها وتمنـــع معانيها ، كما قال معتذرا وقد استهلها بقوله ، على نحو ما فعل اليوسى:

عـــرج بأطلال الاحبـــة واقصـــد آثارهم يـــوما لعلـــك تهتـــدى
واجتـــز اذا جئت الديـــار بمنزل قد ضم أجـــداث العشير الهمـــد

واستمر هذا يترسم الطريق العتيق التقليدى ، الذى يدور فيه دورانا لا يفضى الى قصد معين ، ويقحم فيه قوله :

يا حبـــذا قـــوم اليهم تنتمـــى يسلـــى بهم عـــن الد أو مولـــد

مـن كـل شيخ فى المعارف عدتى ... ذى نجـدة فى سيـره المتسـدد
وسميذع كهـل يبيـت كـأنـه ... متـوسد جمـر الغضـا لتعبـد
مـا شئت من حلم وعلم باهـر ... ونبـاهـة ونـزاهـة وتفـرد
وفتـى لـه عقل رشيد فائـق ... متحفظ فى سيـره مـن معتـد
وعنايـه كل مسامـع ونـواظـر ... موقوفـة فى الحـادث المتـأكـد
فاذرف دمـوعك ان ذكرت شمائلا ... ومحـاسنا قـد غيبت فى الملحـد

وهكذا فكأنه يرثى أو يؤبن ، ولكنه بعد بيتين يتصل بوطنه ، كمـا تقدم مترسما خطى اليوسى فيقول :

وطن بـه نلت الشبيبـة والصبا ... واخوهمـا فى الناس غير منكـد
أزهـو وأرفـل فى رداء فيهـق ... مـن عيشه الاسمى الجميل الارغد
متنـاولا زهـر السرور بروضـة ... غنـا وهصرا للغصـون الميـد
أيـام كنت منعمـا فى حجر مـن ... يحنـو على منـومـى وموسـد
الهـو ولست مروعا مـن حادث ... عبثا شبيهـا بالوليـد المستـدى
وبـروض آمالى طـرحت أعتنـى ... فرحا وأمـرح كالفلو المخضـد
لا يعترينـى الهم مـن خوف ولا ... غـم لاجـل مغـور أو منجـد
والدهـر سمح بالمنـى وصروفـه ... غفلت ومـا ارجوه منه حفـدى
مـا نفحة ورديـة مـن هاجـر ... وردت علينـا مـن مقام أمجـد
طرقت وليلـى بالقطيعـة أدهم ... فبـدا لنـا قمـر اللقا بالاسعـد
وكنت علـى سحابـة من جوها ... فتوشحت أرضـى بثـوب برجـد
فاخضرت الاغصان بعـد ذبولهـا ... فكأنهـا نـور نشـا بالمـرعـد
نشـر الجنوب جواهـرا من زهرها ... فتـزينت أغصـانهـا بـزبرجـد
فجـرت بهـا أنهـارها وتفتحـت ... انوارهـا بمكانهـا المستـأسـد
وترنمت أطيـارهـا وتمايسـت ... أغصانهـا كالمسكـر المتميـد
هب النسيم بروضهـا فتفطـرت ... وسـرى السحاب بغصنها المتأود
ما شئت مما تشتهيه العين مـن ... زهر أنيق فى الغصـون مجسـد
أو أمـن خائف الصدود مولـه ... أو هجعـة وقعت بعيـد تهجـد
أو شرب مـاء بارد بعـد الظمـا ... أو قرب من تهـواه تلـو تبعـد
بألـذ مـن عفو الكريم اذا عفا ... وبفضله أرجـو المنـى من أجود

وهكذا يستمر فى لوك الكلام باطنابه المتعمد ، ويعدد فى ذكرياته الخوالى ، ثم يقول :

هل للصفا بعد الوفا من عائد	ولما مضى قبل النوى من مسعد
ولوصل شمس من حبيب أشرقت	فرمت حنادس ليلنا بتبدد
تتجذب الصاحاء عند شروقها	خمرا جميلا غير خمر صرخد

وبهذا « الخمر الجميل » كما قال ، ينطلق الى آماد ، تتقطع دونها الانفاس ، ولا تجد أمامها الا هذه « الحسرات » وهيهات والموت قد غلقت به أبواب الشهوات والنزوات :

واذا أصيب به امرؤ لم ينتفع	بمقالة من حبه « لا تبعد »
كم من ملوك فى الثرى قد غيبت	والفرس جدتهم بسيف مجدد
والروم قد رشقت نحور ملوكهم	عن غفلة منهم بسهم مصرد
سادات حمير اطعمتهم علقما	وطوت علا عبد المدان الأتمد

وهكذا استمر الى بنى أمية وبنى العباس ، ثم انتهى الى تفاهة الحياة الدنيا ، ثم قال :

فالجسم يجذبه لارض سفله	والروح تجذبه العلا بتصعد
مثل السليم وفى المقيم المقعد	والخلق بينهما حيارى فى ندى
والروح مطلوب بخدمة ربه	وبزاد تقوى ثم لم يتزود
فتحمل الاعبا ولما يأتمر	فاعجب لروح بالذنوب مقيد

وبعدما يسدى النصائح ، ويعجب من غفلة الانسان عن ربه بأعراض الدنيا وزينتها وملاذها ، يخاطبه بقوله :

ولقد جعلت خليفة لتسير فيـ	ـها سيرة المستخلف المستعهد
ووزيرك العقل المؤزر جنده	بالنور من رب العباد الامجد
وجميع ما خلق الاله رعية الـ	ـروح الزكى الطاهر المتسدد

وبعدما يطيل فى هذا سلما وحربا ، يأتى بالحكم ، ويتبعها بالنصائح ، فى علائقنا بالخالق والمخلوق ، ويضرب الامثل ويعقبها بالقصص الموعظية ،

الى أن يتخلص الى المقصود من مدح النبى ، مستفتحا بقوله :

صلى عليه الله ما هبت صبا … وبكى لرؤية وجهه ذو أكمد
لولا النوى ما أقبلت من مغرب … فوق المطايا عاشقون لاحمد

ويستغرق مدح النبى نحو ثلاث مائة بيت ، بما يتخلله من وقفات ، معروفة فى السيرة ، وختم ذلك بالتوسلات والتضرعات ، الى أن انتهى الى قوله :

حسنت ظنى مذ وقفت ببابكم … ورجوت أن أحظى بوقت مسعد
ومن الوقاحة أن أخاطب سيدا … من دون مصعده اجتلاء الفرقد
لو كنت ممن يستحيى لخجلت من … ذكرى له هيهات يحسن من ردى
أيخاطب العبد الذى لعبت به … شهواته صدر الصدور الاوحد
لكن تحقق بالادلة عندنا … لا شىء أحلم فى الورى من أحمد
فقصدته والله أرجو ذرة … من بحر حلم باسط قبض اليد
حاشى الجمال أرد من غير المنى … وأبيت موجوعا بقلب أكمد
أنت المؤمل فى الشدائد كلها … أنت الجواد الغيث للمسترفد
أنت الذى من أم بيتك راغبا … ولو اقتضى أمرا عظيما يسعد
أنت الذى سعدت بك الاشياء قا … طبة ومن يقصد سعيدا يسعد

فهذه الابيات كان فى الامكان أن يتوجه بها الى ملك أو عظيم من العظماء ، على عادة المتزلفين من الشعراء ، ولا نفحة فيها لمدح الرسول خاصة .

والقصيدة على عمومها فيها من التكلف ، ما يصرخ به غالبا أبياتها ، وفيها من غرائب الكلمات ، التى تتجهم منها القسمات . ونادرا ما تجيد ... ولا شك أنها كانت نفاضة جراب من هذا الشاعر ، الذى يعتذر عن ذلك فى كلمته النثرية التى وطأ بها لها ، وكان ختمها كما بالطلعة عام 1125 وسنه آنذاك يناهز الثمانين ، كما نص على هذا صاحب « طلعة المشترى فى النسب الجعفرى » .

وعلى الجملة ، فان التاستاوتى ، مكثر مطيل فى قصيده ، أكثر من

من كونه مفنا مبدعا فيه ، وهو فى الاول يبز اليوسى ، على تقليد له دونه فى فنه ، كما انه فى نثره .

وذلك كما فى هذه الرسالة التى وجه بها الى أحمد بن عبد الله الدلائى .

أما بعد فانا نضرع الــى سبحانه فى هدايتنا ، وقبــول ما أشرتم به الينا ، من النصيحة ، كما نسأله أن يجنبنا واياكم من السخط والسعى فى الفضيحة ، أما والله لقد طوقتنا بها جواهر المنن المنيفة ، والبستنــا حلل المنن الشريفة ولا عيب فيها ولكنها ، كبدر تجلى فاجلى النحوس ، ولقد أسمعتها ، ان شاء الله أذنا واعية ، وأحللتها غرفا سامية ، وهى وان كانت بارعة الجمال ، ووردت من أصل طيب ، وانشرحت لها الصدور انشراح الارض للصيب ، ترغب منك أن تلثم لثامها ، وتفض ختامها ، ولا تسمع فيها لغيرك ، حتى تحوز منها قضاء وطرك ، ولقد دللتنا على المنهج الاوفى وحرضتنا على المورد الاصفى ، فوقعت منا موقع الدوا من السقيم، والنسيم من الروض الوسيم ، نسأل الله أن يذوقنا واياكم من الشراب الذى وصفته ، ويوجهنا واياكم الى الباب الذى فتحته .

فمــا كل ماء مثل صدا ولا كــ ـــل المراعــى مشبه السعــدان

فالقشر خلاف اللباب ، والماء ليس كالسراب ، رحم الله من قال :

ارســل الى ذاك الغــزال بصيرة بمحاســن الغــزلان ذات أمــان
تنظــر بتحقيق وتبصر ما جــرى من غير ما زيــد ولا نقصــــان
فهنــاك تنشرح الصدور اذا رات حسنا فمــا خبــر يرى كعيــان

ولا ارضى لك ملك الدنيا بحذافيرها ، بل كلمة من كلماتك فى هــذه الوصية تساوى جميع زخاريفها ، ثم ان كنت صادقا فغايته ان تستعمــل فى ما أحب لك من النسك ، وتجيب ما تراودك به نفسك من الملك ، ولعلك حملت كلا على ظاهره ، ولم يسعك التاويل المكنون باطنا ، فأجريت فرس قلمك ، فى ميدان نباهتك وعلمك ، فتنسمت هذه الوصية من عرف فهمك .
وحينئذ فلا بأس ان نشير الى بعض المراد من معانى كتابية ، واراجع اخى بما هو كالجواب ، عن بعض كلماته الآتية ، مع انى لست بأهل

أن اجارى العلماء فى ميدان ما رسموه ، أو أرد عليه ما استنبطوه ، غيــر أن للخواطر صولة لا ترد ، وحملة لا تصد ، فان أصابت الصواب ، فالحمد لله ، والا فأنا أستغفر الله ، أما قول سأنتقم ، فما عقلت أنى كتبت لك بذلك ، وانما قلت لك أغضب لعقال بعير مسلم ، والغضب لله مطلوب من كل مسلم ، ومن لم يغضب فقد أخل بمطلوب الشريعة وساء الادب ، لان العبد اذا غضب سيده ولم يغضب فقد ساء معه الادب ، وهــذا الغضب له أدب ، وهو ان لا يتناول القلب ، ولا يترك الغضب لله الا جاهل أو متهاون بالدين ، والانتقام للمسلم ونصرته واجبــة شــرعا ، ومستحسنة طبعا لكن على قدر الاستطاعة بالمشرع فى الظاهر ، والاذن لاربابه فى الباطن ، ولا يلزم من عدم الانتقام فى الحين والمسارعة لنصرة المظلوم عجز المخصوص بالعناية فتحفظ قدره من نظرك ، أو تحكم لــه بعدم الولاية ، فلا جرم قد يقدر الله عبدا من عبيــده اللابسين ملابس الاصطفائية والضلعين من مواهب الاجتباوية ، ويغضب لهتك الحرمات ، ولا يظهر اثر الغضب لتوقف امره على الاذن أو مراعاة الوقت ، وهذا فى حق المخصوصين بالتصوف . وأما غيرهم فغاية أمرهم الغضب لله ، والاستسلام لامر الله ، وهذا بعينه جواب قولك ، شاهدت كذا وكذا من المتكلم فلم تنتقم وهلا غضبت ... اما والله لقد غضبت ، وهذه الحجــة التى الزمتنيها غير مقتصرة على ، بل تناولت قطب الزمان اليوم ، الذى بيده الربط والحل واليه يفزع المتصرفون فى تصرفاتهم ، وقد جعل الله أمر العباد بيده واقدره على الانتقام ، وشهد ما شهدناه ..

وهى رسالة طويلة ، لا تبلغ فى مداها ما كان عليه نثر اليوسى الفنى، بل هى دون ذلك ، كما كان شعره دون شعر اليوسى .

البـــاب السابـــع

العصر العلوي

الفصـــل الاول

الحركة الادبية منذ قيام الدولة الى فرض الحماية على البلاد

بالرغم من تلك الفتن المبيرة ، وتلك الفوضى التى عمت أرجـــاء المغرب ، فقد كانت الدولة العلوية ، قد تهيأت لها الفرص ، التى لم يحسب حسابها ، فتأسست فى لمح البصر ، وتهافتت عليها الجماعات والتفت حولها الجماهير ، وقد سئمت تلك الحياة المريرة ، وكلت من تلك الاوضاع المضطربة فحققت للمغرب طمأنينته ، بعد ما نجت هى نفسها من الانشقاق الحاصل فيها فاطمأن الادب بدوره ، وكانت الحركة الفكرية والادبيـــة علـــى اشدهـــا .

وهكذا ، فانه لما استقر الملك العلوى على يد المولى الرشيد وقضى على الزاوية الدلائية لم يرد أن يقضى على النابهين بها بل احسن معاملتهم ونقلهم الى معاهد المغرب ليستأنفوا فيها نشاطهم العلمى والادبى .

وقد اشتهر المولى الرشيد بتشجيعه للعلماء ، عموما ، وللادبـــاء والشعراء منهـــم بالخصوص . فكان يسنى لهـــم الجوائز والمنح حتـــى أمه بعضهم من الجزائر ومدحه ببيتين طرب لهما وأجاز صاحبهما بألفين وخمس مائة دينار . ولا شك أن الشعراء على ذلك العهد كانوا ينشطون لهذه الجوائز وتتفتح لها قرائحهم ، لذلك وجدنا الادب يـــزداد انتعاشا ويشارك فى ذلك حتى الفقهاء الذين كان من بينهم أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى ، الذى كان يشبه اليوسى فى كثير من الصفات . فهوعالم مشارك وهو مؤلف فى عدة فنون ومن تآليفه كتاب الاقنوم فى حدود العلوم كما أن اليوسى له كتاب القانون فى هذا الموضوع ثم ان كلا منهما كان يصف

بشعره بعض المآثر التى قام بها المولى رشيد فى فاس .

وهكذا كان هذا الاديب العالم أبو زيد عبد الرحمن بن عبد القادر الفاسى المتوفى سنة 1096 أى قبل اليوسى بسنوات (1) .

كان أبو زيد ذا مشاركة فى العلوم تفوق مشاركة اليوسى حتى ان أباه عبد القادر الفاسى كان يسميه باسيوطى زمانه . ولكنه فى شعره كان لا يصل الى درجة اليوسى .

ومن احسن شعره هذه القصيدة التى نعرض نماذج منها وقد قالها فى مدح المولى رشيد مقلدا بها الفشتالى فى احدى قصائده التى قالها على لسان القبة الخمسينية ـ سبق ذكرها ـ يقول ابو زيد فى تلك القصيدة :

كأن النواوير الدنانير القيت ... على ثبج من فضة سائل المعطا
فتحسبها حمر الشقائق وكرت ... على النهر حورا خدها يسعر الشطا
وقنوان ذاك السفح يبهر حسنها ... ويحكى امتداد القد فى الهيئة الشطا
كأن وجوها من حسان تجمعت ... وقد مزجت ثم الخدود بها خلطا
وازهاره بل نوره وعراره ... وتياره سر المحاسن قد أعطى
على سوق ياقوت بأعين فضة ... لها حدق الابريز تستكمل الرقطا
لها حلل من سندس وعمائم ... أدير تعلى ما راق منها وما انحطا
كحصباء در فوق أرض زبرجد ... ومنشور ثوب معلم حبر المرطا
فمن أحمر مثل العقيق وازرق ... حكى الفلك الادنى اذا ما صفا كشطا
ومن أصفر كالزعفران معصفر ... وأبيض لم يعلم فلاحته النبطا
فمن يبغ كافات الشتاء (2) نبيعها ... غناء براءات الربيع لمن اخطا
رياض وريحان وروح وراحة ... ورغد ومولانا الرشيد الذى أعطى
وان قلت شينات لتلك وانها ... لاشهر من نار على علم ملطا

---

(1) انظر ترجمته فى كتابنا « محاضرات فى تاريخ التشريع الاسلامى » و وكتابنا « الادب المغربى » .

(2) هى المذكورة فى بيتين لابن سكرة ووردا فى المقامة الكرجية للحريرى أولهما :

أتى الشتاء وعندى من حوائجه ... سبع اذا القطر عن حاجاتنا حبسا

شمائل تسقينا الشمـــول وشيمة　　شفاء وشمع والشواء من الشيطا
وشمس الورى الشهم الشريف وشبله　　يزيح من الاحزان والكرب ما اغتطا
وفى ضمنها السينات تطفىء لوعة　　من الصب هاجت منه أو أوهجت نفطا
سنى وسناء مع سراج وسكـــر　　وسعد وسلوان وسلم ولا سخطا
وسلطاننا سامى الذرى سيد الورى　　سليل السراة السالكين العلا شبطا
وضمنها الصادات فضلا ورحمـــة　　على الخلق فضلا بعد أن أظهر القسطا
صفاء وصحب والصدور وصحـــة　　وصفح صنوف الزهر تحسده غبطا
على اثر ميمات المـــراد لحاضـــر　　وباد ومن باهى ومن الف الضغطا
مقـــام كريـــم مستقـــر مديحـــه　　ومـــاء ومحبوب متى اسعف المرطا
وافضل من هذى محيـــا امامنـــا　　ابـــاح لنـــا مرآه مستسهلا بسطا
فبشراك يا وادى الجواهر احييت　　رسومك بالخيرات من حاتم معطا
وبشراك يادهر السعود فأمرهـــا　　تسنى له قد سحرته يد ضبطـــا
وبشراك يا جيش الفتوحات هذه　　مزية تاج المسلمين لكم حـــوطـــا
ويا اشرف الاملاك ما قط اجلت　　ملوك كما أوتيت او عجلت قطـــا

الى أن يقـــول :

فما هو الا جنـــة قـــد تزخرفت　　اذاك كظيظ الباب يشهد اذ أطا
سوى انه الدنيـــا وزينتها معـــا　　ومـــا لم تر العينان فى طيه بسطا
هنيئا بدا كالشمس يهدى بنـــوره　　ويمحـــى ظلام الظلم اذ نفس الربطا
وكالبحـــر لولا ما به من عذوبـــة　　وكالبدر لولا البدر قد كلف النقطا
احاديثه تسقى المـــدام بكـــوثـــر　　فتفعل سكرا لكن العقل ما غطـــا
فلو أوتى التصوير صور نفســـه　　وما زادها فضلا على ما به اختطا

الى آخر القصيدة التى نلاحظ عليها بعض الفتور فى كثير من أبياتها. يبدو ذلك فى تكرار بعض الكلمات مثل العطاء وما اشتق منه كما يبدو ذلك فى بعض الابيات التى ما أوحى بها الا القافية مثل قوله :

ويا اشرف الاملاك مـــا قط اجلت　　ملـــوك كما أوتيت او عجلت قطا

ثم نجده يكرر فى قصيدته كلمة (قط) وهى كلمة يستثقلها الاسلوب

الشعرى خصوصا اذا لم يوفق الشاعر فى استعمالها كما حصل فى هذه القصيدة .

والاخيرا فانه فى اقتباساته كثيرا ما يخفق كما فى البيت الاخير الذى اخذه من بيت المتنبى :

فلو صورت نفسك لم تزدها   على ما فيك من كرم الطباع

هذا النموذج من شعر ابى زيد عبد الرحمن الفاسى ، هو فى نظرى أحسن نماذجه الشعرية ، التى اطلعنا عليها ، وأكثر نظمه تعليمى كالاقنوم (1).

ومن ادباء العهد الاسماعيلى ، عبد الله بن يوسف الوادنونى السوسى ، القائل فى اسماعيل ، بعد رجوعه من الصحراء عام 1089 ، من قصيدة :

هواى على تلك المهارى الرواسم	بتلك الخدور المائلات القوائم
صمدن الى نحر الفلا بدجنة	مجررة أذيالها بالقواتم
تبدت من افاق الهضاب كأنما	تسوق رياحا عاطرات الغمائم
كأن أعالى الخدور نواصعا	بياضا ظهور الورق بين الحمائم
كأن بروق الجو يبرقن فوقها	توالى ابتسامات الثغور البواسم
كأن سراب الدو يلمع بينها	وقد مد نور الشمس فوق الرواسم
رجاء خلال الجيش جيش مظفر	تضم حوافيه خيار المقادم
تحوم أمانى للورى فوق جوه	كطير اذا ما سار سرن حوائم
يبين أمير المومنين أمامه	كساع بتبشير الاهالى بقادم
يصون طليعات الخميس ببأسه	كما صين ريش مختف بالقوادم

الى آخر القصيدة التى تحتوى على 37 بيتا . نجدها فى « سوس العالمة »

---

1) انظر « نشر المثانى » و « تاريخ الشرفاء » وكلاهما يصفه بالبراعة فيه . أما قصيدته هذه ، فتبدو عليها المعاناة مما اضطر صاحب « الدرر الفاخرة » الى شرح كلمات جلها واردة فى قوافيها هكذا : « الشطا » المعتدلة « الرقطا » بياض مشوب بأسود أو أحمر أو أصفر « المرطا » كساء من خز أو صوف « كشطا » بلا سحاب يستره « النبطا » النبع « ملطا » شهير « الشيطا » النضج « اغتطا » غم « شبطا » احتراما .

ومن تلاميذ اليوسى ابو عبد الله محمد بن قاسم ابن زاكور الفاسى الذى يعد من اهم ادباء عصر اسماعيل العظيم ففى ذلك العهد كان المغرب قد استرد سيادته كاملة فخفقت فيه بنود العام والآداب كما خفقت فيه بنود النصر والظفر ونبغ رجال عديدون كانت لهم المكانة الاولى فى الثقافة الاسلامية عامة والآداب منها خاصة كما كانت لهم الحظوة العظيمة فى البلاط الاسماعيلى فكان من بين هؤلاء اديبنا ابن زاكور المولود فى العقد الثامن من الحادى عشر والمتوفى سنة 1120 ·

كان ابن زاكور كما قلنا تلميذاً لليوسى فعليه اخذ الادب وعنه تعلم كيف ينشىء الخطب ويحبر الرسائل وينظم رائع الشعر ويقصد القصائد الطوال · وقد ظهرت فى ادبه عامة قوانين النشوء والارتقاء ، فبز أستاذهفى ادبه فكان فيه اسلس اساوبا وأحلى ذوقا كما كان أنق اغراضه الشعرية أشمل مما عهدناه فى شعر اليوسى وأضاف الى ذلك كله شيئا آخر لم يكن لليوسى سابق عهد به وهو الموشحات الجميلة التى قلما نظفر بمثيلاتها فى الشعر المغربى على الاطلاق اللهم الا ما كان من تلميذه ابن الطيب العلمى الذى سنتحدث عنه فيما بعد ·

ومسألة الموشحات ، كانت فى الواقع ، قد نالت عناية المغاربة ، منذ عهد سحيق ، الا ان أصداءها كانت تاتى من الاندلس فمنذ العصر المرابطى ، وجدنا ، أن أبا بكر ابن باجة ، طرب لموشحة له ، ابن تيفلويت، طربا شديدا ، جعله يحلف كما ذكر ابن خلدون بالايمان المغلظة ، الا يمشى ابن باجة الى داره الا على الذهب ، وازداد اقبال المغاربة عليه ، أيام الموحدين ، فكان لابن الياسمين فى المنصور أمداح منها كما فى الغصون اليانعة ، وتقدم أن أبا حفص عمر الاغمانى اشتهر بالموشحات كذلك · ثم ان الموشحات ، لم تصل الى ما وصلت اليه الا فى العصر المرينى ثم العهد السعدى ، الذى كان فيه المنصور نفسه من ابرز الوشاحين ، واستمر نشاط التوشيح فى العهد العلوى ، لكن الوشاحين فى الاندلس والمغرب ، ما ارتفع لهم شأن ذكرا به الا فى قصيدهم التقليدى فلا نعرف وشاحا على الاطلاقكان له ذكر لمجرد موشحاته · فابن عبد ربه وابن زيدون وابن سهل وابن زهر وابن الياسمين الى ابن الخطيب ، جميعهم شهروا بأدبهم

الفصيح فى الاندلس والمغرب خصوصا . ثم اننا فى هذا العهد وجدنـــا المغاربة يهتمون به اهتماما خاصا ويحاولون أن يتناولوه بالدرس والتعريف ويؤلفون فى بعضه شروحا ، كما حصل من اليفرينى المؤرخ المعروف . وان كان قد سبقه عبد العزيز الفشتالى ، فى العهد السعدى .

ولنتعـــرض الى ذكر بعـــض النماذج من توشيحات ابن زاكـــور فمن ذلك قوله من ربيعياته :

قد اكتسى العريان ، من مائس الاغصان ، بالسندس
وطـــرز البستان ، بالورد والريحان ، والنرجس
هبت به الازهار ، بنسمة الاسحار ، من الوسن
وهاجت الاطيار ، برائق الاشعار ، أم الحسن
تسبح الجبار ، الواحد القهار ، مولى المنن
من علم الازمان ، بمذهب الاشجان ، عن ملبس
وكلل الافنان ، بنورها الفتان ، ذى النفس
فالروض فى نشر ، يبث بالفجر ، سر الزهر
والارض فى حشر ، كتائب النور ، ذات الغرر
يكسى ملا البشر ، ببسطها الخضر ، من اعتبر
شم بارق السلوان ، ياذا الاسى اليقظان ، فى الخلس
فسلوة الاحزان ، فى نفحة البستان ، بالغلس .

وقـــولـــه :

كن عاذلى اولا ، فالنشر فاح ، من الاقاح
فنشوتى اولى ، من لحى لاح ، بين البطاح
ونغمة الطير ، انستك عود ، غيداء رود
دراهم النور ، وشت برود ، خضر النجود
ونفحة الخير ، جاءت تقود ، سعد السعود
حادى المنى املى ، اى انشراح ، ذات اتضاح
لله ما احلى ، نشر الاقاح ، مـــع الصباح

ما أبدع البستان ، قد اكتسى ، بالسندس
مكلل الافنان ،لا يأتسى ، بمن نسى
فاطرب به كيلا ، ترضى اللواح ، فهو النجاح
ولا تطع نذلا ، يرى الجناح ، فى الارتياح .

وهكذا نجد أخرى جميلة متغزلا فيها :

ادر الكاسات مـــن خمـــر اللعس　　يالها من راح　　تحكى الجلنار
واسقنيهـــا خمـــرة تجلـــو النفس　　علنى ارتـــاح　　من حر الأوار
بأبـــى ظبـــى رمانـــى بسهـــــام　　ريشها الاهداب　　تبرى الافئـــده
مـــزق القلب الكليـــم المستهـــام　　اذ رنا وانساب　　سيف جـــرده
عنبـــرى الخال مسكـــى الختـــام　　يذهل الالباب　　در نضـــــــده
همت وجـــدا من سناه المقتبـــس　　من سنا الاصباح　　أو بدر انـــار
لاح حين افتـــر ثغـــر كالقبـــس　　ازهر وهاج　　اذكى زند نار

* * *

نرجسى اللحظ وردى الوجنتيـــن　　بدم الاكباد　　أزرت بالشقيق
بـــدر حسن فوق غصن من لجين　　مائل ميـــاد　　البان شقيق
قـــد نضا نحوى سيف المقلتـــين　　أوهن الاعضاد　　واشتد الحريق
عيـــل صبرى فى هوى ظبى الانس　　والحجا قد راح　　مذ شط المزار
ورذاذ الدمع من عينـــى انبجس　　والهوى فضاح　　لا يخفى استتار

وقوله مطلع أخرى فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام :

عللانى فلقد جاء الصباح　　بسلاف الراح
وامزجاها بلمى غيـــد صباح　　واملآ الاقداح
واسقيـــانى فلقـــد غنى وصاح　　طائر الاصباح

* * *

ان فى الكاسات من خمر الدنان　　سلوة المحزون
فاشربنهـــا فلقـــد آن وحـــان　　زمن ميمـــون

* * *

مذ بدت تطلع أقمار المدام في سما الفكر
قوض الاشجان من بعد التئام رائــد البشر
مثلمـــا قوض غربان الظلام اجدل الفجــر

* * *

يا لها من خمرة رقت معان من بها ملبون
فقت الاقمار في أيدي القيان في الليالي الجون

* * *

مزجتها راحة الاسكنــدر بثرى اسرنديب
فلذا ازرت بطعم السكــر واريج الطيب
واشبــت بسناها الابهــر امنيات الشيب

* * *

فاسقنيها قهوة تكسو البنان عندم المطعون
مكثت في الدن دهرا مذ زمان صانها افريدون

* * *

بنت كــرم جنيت كرمتهـــا لابى بلقيـــس
وسقاهـــا فبدت نضرتهـــا أرسطاطاليس
خاتها لما غشت سورتهـــا في حشا البنيس

* * *

زجل الرهبان يوم المهرجان في حمى عبدون
أي فؤادي اذ علاه الخفقان فهو كالمجنون

فهذه نماذج من موشحات ابن زاكور التي نلاحظ عليها رقة وحلاوة قلما نجدها فيما سبقتها من موشحات غيره ممن سبقوه مثل محمد بـــن طاهر الهواري أو أبي الحسن علي بن هارون · وهي صفة شعره عموما · على انه في بعض قصائده قد يتصنع فتختفي فيها تلك الحلاوة مثل قوله :

وذي بز يبز البز عند البـــز بالبـــز

وهذا البيت من قصيدة قالها في اللجأ الى الله ، ونحن نلجأ الى الله ونعوذ به منها ، وهي :

تعززت بـــذي العـــز من الشيطان ذي الاز
ومما ينسبن فكـــري الى الشخر أو الأز
ومن شر الذي قد بز مكـــرا نهيـــة البـــرز

ومن قول بلا فعـــل — وفعل ربه يخـــزى
ومن فقر اخـــى ذل — ومن بخل ومن عجز
وما بالشر قد يقضى — وما بالذل قد يجزى
ومما يقتضى طردى — عن التوفيق أو بهزى
وممن يشتهى ضرى — وممـــن وده جـــازى
وذى همز وذى لمـــز — وذى غمز وذى طنز
وذى نهز وذى نكز — وذى وكز وذى وخز
وذى نبز وذى نحـــز — وذى نغز وذى نغـــز
وذى ضكز وذى مرز — ورز مفـــزع الـــرز
وذى لخز علـــى بزى — من الملبوس من عز
من العرب أو العجم — أو التـــرك أو الغـــز
ومـــن فدم أخى لؤم — ومن نـــز أخى وفـــز
وذى جرح بلا رمح — وذى حـــز بلا لخـــز
وذى بـــز يبز البـــز — عند البـــز بالبـــــز
ومن سير الى عيـــر — ومن جمز الى جبـــز
ومن منعى من النفع — ومنحجرى ومنحجزى
ومـــن كـــز أخى لز — ومن فـــز أخى قـــز
قسا قلبى من الذنب — الذى يربى على الرز
حنـــانيك أمولانـــا — أربـــى سامع الركز
لاضنانـــى وأردانى — سنان الغم بالركـــز
فكن لى سيدى عونا — على الشيطانذىالهمز
وكنحصنىوكن حرزى — وكن مالى وكن كنزى
بشمس الرسل وبل الفضل — ركـــن العـــز والعز
رسول الله سيفالله — من افنى ذوى الزجز
صـــلاة ثـــم تسليم — عليـــه رائق الطرز

فهل كان الشاعر حقيقة يلجأ الى الله ويضطر اليه ، بهذه القصيدة، أم كان يظهر براعته فى اللغة ، أو كان يلهو ويعبث بهذا ؟ لا أدرى ، ولا

أحاول أن أعلق على الكلمات الواردة فى هذه المنظومة ، ومن رغب فى ذلك، فعليه بالمنتخب من شعر ابن زاكور (1) .

وفى هذا العصر شاعت الخمريات التى واجهتنا قبل فى شعر اولئك المغاربة الذين رحلوا الى الاندلس واقاموا بها مثل الشاعر المكودى معاصر ابن الخطيب ، والعزفى ، أما باقى الشعراء فلم تظهر على شعرهم هذه الخمريات الا نادرا (2) . لان مواقف ملوك المغرب الجدية لم تكن لتسمح بها — كما كان ملوك الاندلس يسمحون بها ويشاركون فى مضمارها — ولو ان ابن زاكور يتملص من هذه الخمريات ويدعى انها خمريات الرموز الصوفية التى وجدناها فى شعر الحسن اليوسى ، وقبله بشعر أديب مكناسى — فى القرن التاسع — الا انها على كل حال فتحت فى الادب المغربى بابا من القول وجدناه على مصراعيه عند تلميذه ابن الطيب العلمى الذى لم يدع انها خمر صوفية وانما ترك الموضوع مكشوفا على حقيقته .

سوى هذه ؛ نجد من أجمل قصائده قوله فى الربيع :

مد للسلوان أشراك النظر ... فى ابتهاج الروض من وجد المطر
وتلق الانس عن آس الربى ... وارو طى النور عن نشر السحر
وارتشف ثغر أقاح باسما ... واصطبح فى الظل من كاس الزهر
والتثم وجه المنى مستبشرا ... حيث رام الغصن تقبيل النهر
وجلا الورد خدودا أشربت ... حمرة العقيان من فرط الخفر
وانبرى النسرين يهدى ذهبا ... فى صحاف مفرغات من درر
وحبا الخيرى أنفاس الصبا ... نفحات أنشرت ميت الفكر
وانتشى البستان من خمر الحيا ... فاستقاء النور من ذاك السكر
نظمت فى جيده أنداؤه ... عقد در كلما ماس انتثر
قيد الالحاظ فى بهجته ... واجل غيم الغم عن شمس العبر
واعتبر بالنور يذوى بينما ... هو معشوق لشم وبصر
وأشكر الله على آلائه ... انما ينجح سعيا من شكر

---

1) المنتخب عبد الله كنون .
2) ومنه ما ورد فى شعر أبى الربيع سليمان الموحد ، كما تقدم .

وفى هذه توريات حديثية قليلة ؛ كما فى البيت الثانى منها ٠

كان ابن زاكور كثير الاسفار ؛ ينتقل فى طول البلاد وعرضها ، حتى الجزائر ؛ موطن أسلافه ، قبل تطوان ٠

ومن حسنات أسفاره تلك الاخوانيات التى كان يكاتب بها أصدقاءه مجيبا عما كانوا يوجهون اليه من مثيلاتها الشعرية ، كقصيدته التى أجاب بها ابا الحسن على بركة بتطوان وعلى منضوصة ، يقول فيها :

أتانا النظم يبهج كاللآلى	تروق بجيد ربات الحجال
تحدانا بمعجزة خبير	بأسرار البلاغة والكمال
فما أحلى العتاب به ولكن	مضمنه يعد من المحال
معاذ الله أبخس حق خل	يمت الى بالسحر الحلال
وبالمولى أبى الحسن المعلى	على ذى المناقب والخصال
ألست من بنى تطوان من قد	عنيت بحبهم منذ الفصال

ثم يقول :

عليهم ما هفا ريح الشمال	سلام تستمد به الغوالى
خصوصا شيخنا رب المعانى	أبا حسن عليا ذا المعالى

فشيخه هذا على بركة المذكور ، أما على الاول ، فيبدو أنه على مندوصة الاندلسى الاصل ، والذى أجابه عن قصيدة أخرى بقوله :

قسما بمن بالصد قد أضنانى	وسقان كاسات من الهجران
وغدا يمزق مهجتى بلحاظه	وكسان ثوبى ذلة وهوان
ما أنت الا حائز خصل العلا	متقلد بلآلىء التبيان

الى أن يقول :

همنا بشعرك بل بسحرك فانثنت	ألبابنا سكرى بخمر بيان
ما شئت من لفظ أرق من الهوى	والذ فى الاسماع من عيدان
وبديع معنى كالنسيم لطافة	أحلى من الرشفات من غزلان
ما البحترى وأبو فراس والبها	بأرق منك ولا الفتى الهمذانى

وهكذا نجد ذكرا للبهاء زهير الذى نجـد اصداه الفنيـة فى بعض مقطوعاته ، خصوصا فى فائية ربيعية له .

ومن اخوانياته ، ما كتب به الى صديقه أبى يعقوب الشوذرى التطوانى الاندلسى الاصل كذلك ، وهى قصيدة طويلة يقول فيها :

سقـى مرتع الاحباب ديمة واكف ... وهـل غير أوطان الاحبة مرتعى
وانى وان أمسيت فى فاس ثاويا ... لتطوان آمالى وفيهـا تـولعـى
ديـار أنـاخ الحسن فى عرصاتها ... وأرخى على أرجائها كـل برقع
اذا نفحت من جانب الجوف نفحة ... تسيح على خدى مذانب مدمعـى
حنينا الى تلك الاباطح والربـى ... وشوقا الى ذاك الجمـال المرفع

ويبدو أن الشوذرى كان يميل الى الاساليب العتيقة ، ولهذا يستعملها ابن زاكور فى قصيدته هذه ، وبيته :

ديـار أناخ الحسن فى عرصاتها ... وارخـى على ارجائها كل برقـع

انما انتزعت جمله من أبيات امرىء القيس فى معلقته المعروفة ، ثم ان هذا البيت من أواخرها :

فلا زال فى افـق البلاغة كوكبـا ... يصيب بشهب الشعـر كل هملع

صارخة قافيته بارضاء ذوقه اللغوى . وهذه المناسبة كثيرا ما نجـد اعتبارها عند الشعراء ، ولهذا لا نعجب من رثاء أبى نواس لشيخه خلف والاخوانيات قليلة فى شعرنا وان كان وجودها فيه قديما ، وعند القاضى عيـاض بالخصوص .

وبعد فان أجمل شعره ربيعياته ، تليها غزلياته ، فى بعضها .

وهذه قصيدة غزلية ، يتجلى فيها جمال وصفه لمناظر الرياض وغيرها، واستهلها بقوله :

يا دار مـن أهوى رعـاك الله ... وتفجـرت برياضـك الامـواه
وغدوت فى حلل النضارة تزدهـى ... وهنـا عليك مـن الصبا أنـداه
ما كان آنق نزهـة سلفت لنـا ... بربـاك اذ بـرق المنـى شمناه

والدهر سالمنا وغل شباته — عن حربنا وأحبتى ما تاهوا

والانس ينظم شملنا فى سلكه — والوصل صافح يمننا يمناه

فى جنة ما كان الطف نشرها — حسدت عليه انوفنا الافواه

ماست لدان غصونها لما شدا — شحرورنا النشوان واطرباه

وتبسمت ازهارها لما بكى — فيها الحيا همالة عيناه

أفشت نواسمها سرائر نورها — لله سر النور ما أفشاه

والروض مبتهج الاصائل والضحى — سقيا لذاك العصر ما احلاه

الى آخر القصيدة الجميلة ، على ما فيها من فتور بتكرار التعجب ، ما كان آنق ، وما كان الطف ، ما افشاه ، ما أحلاه ، وبعده ، ما اجفاه..

ولابن زاكور ديوان شعر جمعه بنفسه ، وهو ثالث الدواوين الشعرية ، التى بيدنا للمغاربة قبله ، وكأنهم فى جملتهم لم يكونوا يهتمون بجمع الاشعار فى دواوينها ، سواء منهم من كان له ذلك الشعر ومن كان لغيره . ولا نعرف فى القديم ذكرا لديوان شعر جمع لاولئك أو جمعوه لانفسهم ، الا ديوان ابن حبوس الفاسى وديوان ابى الربيع الموحد وديوان الشريف السبتى ابى القاسم الملقب بالغرناطى ، وهؤلاء جميعا عاشوا طويلا بالاندلس ، فقلدوا رجالها فى تدوين اشعارهم ، أما غير هؤلاء فليس لنا من دواوينهم الا ما ذكرنا للحسن اليوسى اخيرا ، ثم تلميذه ابن زاكور هذا .

وديوان ابن زاكور يعم قصائد وقطعا ، فى أغراض مختلفة ، كما يعم موشحات عديدة جميلة ، وكأنى بالرجل كان يتحدى فى فنه فنظم على قوافى الحروف جميعها ، لم يترك منها حرفا ، مما أوقعه أحيانا فى تكلف ظاهر ، مثل القصيدة الخائبة التى مطلعها :

اقول لمن يصيخ الى اصطراخ — فخير القول يرسخ فى الصماخ

ومثل الارجوزة الثائية التى استهلها بقوله :

حبل الدنا يا مبتغيه رث — والذل فى اطلابها منبث

ومثل الزائية السالفة الذكر .

وبعد ما تعرضنا لشعر ابن زاكور نتعرض لنماذج أخرى من نثره الفنى . فمن ذلك قوله واصفا متنزهات كيتان بنواحى تطوان .

وهذا الكيتان من أجمل المواضع وافضل المنتزهات والمصانع . تطرد خلال رياضه انهار . تجرى فى الصباح بذائب اللجين وفى الاصيل برائق النضار ، وتشجع بأدواحه أطيار ، لا تدانيها نغمات الاوتار . فقد اعتدل هواؤه ، واشتمل بالابتهاج بهاؤه ، تغص الزهراء بطلاوة مرآه ، وتود الزهرة لو ترتدى بملاءة حلاه ، وتحسد جماله النضير ، وطرازه المرونق ، محاسن السدير ، وبدائع الخورنق ، ترتاح النفوس فى بساتينه ، وتحى الارواح بشم رياحينه . ان حل من انحله الوجد برباه ، صاح من حينه واطرباه ، وأسلاه تسلسل غدرانه ، وتغريد ورشانه ، عمن قطف لبــه بأجفانه ، ومزق قلبه بهجرانه (1) ..

وقوله : فى وصف شيخه اليوسى . وأما حبر الاحبار ، وجهينة الاخبار وزين القرى والامصار ، العديم النظير فى سائر الاقطار ، من أسعد بمطالع أنواره كواكب نحوسى ، مولانا أبو على الحسن بن مسعود اليوسى . اطال الله مدته ، وحمى من نوائب الحدثان حوزته ، فقد ورد فى شوال سنة خمس وتسعين لهذه الحضرة ، وأعارها بقدومه ابتهاجا ونشرة ... فأقام بها أياما ، ونقع بها لكل ظمآن الى ورده أواما ، وأعاد نيران الجوانح على الافئدة بردا وسلاما ، فلازمت منه بحرا زاخرا ، ونظمت من نفيس فرائده لؤلؤا فاخرا ...

وقوله فى خطبة ديوانه : أما بعد فهذا ما أثمر به روض القريحة ابان الشباب ، وألتحه به نسيم الفكر اذ ذاك من خطأ أو صواب ، رتبته على حروف المعجم ، ليشتمل المبهم بفضل رداء المعلم ، ويعزز الضعيف بجوار ذى العز المنيف وذلك أنى لم أقتصر فيه على سلوك مجاز ، بل يوما ببغداد ويوما بالحجاز ، وآونة بعكاظ وطورا بذى المجاز ، وسميت جمعه الصحيح

---

1) من توطئة المنتخب . وتحرفت فيه كلمة « السدير » بالسرير ، فأصلحناها ؛ كما فى قول الحماسى :

فــــاذا شربـــــــت فاننــــى رب الخورنـــــق والسديـــــر

وقد طرز آس القريض بياسمين التوشيح ، ومزج عويص أبى حزام برقيق عروة وابن ذريح ، (الروض الاريض فى بديع التوشيح ومنتقى القريض) ...

وهكذا نجد نثره لا يختلف فى سلاسته وخفة روحه عن شعره وهو كما نرى يلتزم فيه السجع ولا يطيل الفقرات الا فى النادر .

كما أنه فى استعاراته وتشبيهاته وبديعاته مقتصد غير مفرط وليس فى كل ذلك ما يستوقف النظر .

فشخصية أديبنا تتمثل قوية فى شعره دون نثره .

وبعده نتعرض لشخصية اخرى كانت لها مكانة ادبية وهى شخصية الاديب محمد ابن الطيب العلمى (1) تلميذ ابن زاكور فى الادب وحامل رايته بعده . ولد ابن الطيب بفاس وتوفى بمصر سنة 1134 .

ويتفق ابن الطيب مع أستاذه ابن زاكور فى سلاسة أسلوبه الشعرى وخلوه من كل تكلف كما يتفق معه فى براعته فى الموشحات . ولكنه يمتاز عنه بمقاماته وعلو منزلته فى النثر خاصة .

وسنقتصر فى شعره على عرض نماذج من موشحاته وقصائده فمن موشحاته هذه الموشحة الجميلة :

يا ليلة السكر ويوم الخمار ، بين الصغار ، علمتما الاكواس رمى الجمار

بات يحيينا نسيم الرياض
حتى اكتسى الليل قميص البياض
كأنما يملأ الطلا من حياض

مهفهف ينسيك ذات الخمار ، غب المزار ، يدير باليمنى لنا واليسار

فاشرب فما فى شربها من جناح
هذا غراب الليل ضم الجناح
وقهقه الابريق والطير ناح

وفاح كالعنبر نشر العرار ،بين الثمار ، وأنشد القمرى حى الديار

1) عرف بكتابه القيم « الانيس المطرب فيمن لقبه مؤلفه من ادباء المغرب » وهو اهم من ترجم لادباء ذلك العصر وان كان كتابه يقتصر على شخصيات قليلة ممن لقيه واجتمع به من الادباء ؛ كما سياتى . وفيه كثير من نماذج أدبه ، هو ؛ مما نتناوله بالذكر والتفصيل .

واستنطـــق الاوتار تحـــت الورق
ظبـــى صفـــا منـــه الجبـــين ورق
قـــام واهـــدى للعيـــون الارق
عارضه فوق الخدود استدار ، ثم استنار ، والبس الحمرة تحت اخضرار
بـــدر علـــى جيـــش الملاح ظهـــر
يعبق ريـــح المسـك مهمـــا ظهـــر
فهـــل رايـــت الغصـــن لما زهـــر
مستأنس اصبح يبغى النفار ، فما يزار ، ووجهه الجنة حفت بنار
لما استحـــل الوصل لى واستبـــاح
فى ليلـــة تنسى الليالـــى الصبـــاح
قلـــت وقد اسفـــر وجه الصبـــاح
يا ليلة الوصل وكأس العقار ، دون استتار ، علمتمانى كيف خلع العذار

فهذه احدى موشحاته الجميلة الا انها قد بدا فى موضوعها شىء لم نشهده فيما سلف من أشعار المغاربة السابقين . ذلك هو التغزل فى الغلمان هذا النوع من الادب السخيف كان معروفا فى الاندلس منذ عهد سحيـــق بعدما عرف فى الشرق تقليدا للاعاجم ، بعد تسلطهم وتدخلهم فى العراق .

أما الذين قالوا فى هذا الغزل عندنا فغالبهم كانوا مرددين لما كان فى الاندلس ، وتقدم منهم العزفى والغرناطى وأبو القاسم محمد بن احمد الحسنى قاضى الجماعة ، وأستاذ ابن الخطيب ، حيث قال :

وأحـــور زان خـــديـــه عـــــذار	سبـــى الالبـــاب منظـــره العجاب
اقـــول لهم وقد عابوا غرامـــى	بـــه أذ لاح للدمـــع أنسكـــاب
أبعـــد كتـــاب عارضـــه يـــرجى	خلاصى لى وقد سبـــق الكتـــاب

ولا شك ان ذاك من باب التقليد فحسب والا فان الموحدين الذين كان شاعرهم الجراوى المقلد ، كانوا لا يسمحون بهذا الادب ويطردون صاحبه .

فكان فيما بعد ؛ هذا الادب التقليدى لاظهار البراعة الفنية .
كما يفهم ذلك من قصة الشريف هذا مع تلميذه ابن جزى ، الذى نظم فى الموضوع بقوله :

ومعسول اللمـــى عـــادت عـــذابا	علـــى قلبى ثنـــايـــاه العـــــذاب
وقـــد كتب العـــذار بـــو جنتيـــه	كتـــابا خـــط قارئـــه اكتئـــــاب

وقالوا لو سلوت فقلت خيرا ... وانى لى وقد سبق الكتاب

قال ابن الكلبى — كما فى النفح — ثم عرضتها على شيخنا القاضى ابى القاسم الشريف بعد نظمها بمدة يسيرة ، فقال لى ، قد نظمت هذا المعنى ، بالعروض والقافية فى هذه الايام اليسيرة وانشدنى (الابيات) .

وفيما قبل وجد الفتح ابن خاقان مذبوحا بمراكش ايام المرابطين ، ووجد ابن الياسمين ، أيام الموحدين مذبوحا بمراكش فى تلك الجهة بعينيها ، على الهيئة نفسها ، كما فى الغصون اليانعة ، وكان السبب لما اشتهروا به من تهتك مزدوج .

انشد ابو عبد الله محمد العبدرى القرطبى ، وكان فى المرتبة العليا من الطهارة والعفاف ، ابياتا بمجلس عبد المومن وهى :

ابا قاسم والهوى جنة	وها أنا من مسها لم افق
تقحمت جاحم نار الضلوع	كما خضت بحر دموع الحدق
اكنت الخايل اكنت الكليم	امنت الحريق أمنت الغرق

فهجره عبد المومن ومنعه من الحضور فى مجلسه ، وصرف بنيه عن القراءة عليه (1) .

نعود الى موضوعنا فنجد من قصائد ابى الطيب العلمى قوله :

تفتحت أزهار روض السعود	وغنت الاطيار فى كل عود
فباكر اللذات فى روضة	ما بين مزمار ودف وعود
وقم الى الراح ورد صرفها	فطالما أملت منها الورود
صهباء يعلوها الحباب كما	تلعو على نحر الغوانى العقود
فى كأسها ماء ولكنه	فى القلب مثل النار ذات الوقود
ولا تمل عن شربها ابدا	من بأس واش خفته أو شهود
فكم زنت بكرا مع ابن سما	ولم تجب يوما عليها الحدود
شمس آذا غابت بجوف امرىء	أشرق فى خديه بدر السعود

(1) وأقدم نص وجدنا للمغاربة • يشير الى هذا كان بيتى شعر للجراوى ، اذ يحكى أنه كان فى حانوت وراق بتونس • وهناك فتى يميل اليه ، فتناول الفتى سوسنة صفراء ، وأومأ الى خديه — مشيرا وقال اين الشعراء ؟ — تحزيكا للجراوى — فقال :

وعلوى الجمال اذا تبدى	اراك جبينه بدرا انارا
اشار بسوسن يحكيه عرفا	ويحكى لون عاشقه اصفرارا

ثم تابعه ابن ادريس المرسى وابوبكر بن مجبر • فقال الاول ابياتا ثلاثة والأخير أربعة .

فهاتهـا من كف حلـو اللمـا — لكنـه للصـب مـر الصـدود
كأنهـا حمـراء فـى كفـه — معصورة من ورد ذات الخـدود
سـاق أطـار النوم عن مقلتـى — وكم سبانـى بالعيـون الرقـود
أطلق دمعـى من اليـم الجفـا — والقلب قـد أوثقـه فى قيـود
ادخـل ذاك الخصـر فى عـدم — وردفـه أخـرجـه للـوجـود
فـذاك مـن ضعف يقـوم وذا — مـن ثقلـه ما زال يبغى القعود

والشاعر كما نرى مقتصد فى صنعته ، مثل «فى كأسها ماء ، وفى القلب مثل النار ذات الوقود » ، وهذا الوصف للنار قرآنى « النار ذات الوقود » ومثل « اذا غابت بجوف امرىء أشرق فى خديه بدر السعود » وان كان بدر السعود تفتر بما فى البيت الاول من روض السعود ومثل حلو اللما مع قد الصدود ، ولا جديد فى التشبيه الوارد فى البيت بعذ « كأنها حمراء معصورة من ورد ذات الخدود» ومثل «أطار النوم عن مقلتى بالعيون الرقود» وان كان قوله « وكم سبانى » قد حجز فى الجملة بين هذه المقابلة بالتضاد : « أطار النوم عن مقلتى بالعيون الرقود » ومثل « أطلق دمعى والقلب قد اوثقه فى قيود » ، وهو ما اتى مذيلا المعنى قبله ، من اطارة النوم عن المقلة السبى بالعيون ومثل « دخل الخصر فى عدم وردفه أخرجه للوجود » وفى الاول من المبالغة المفرطة ما لا يتوازن مع مجرد الخروج للوجود حيث لا مبالغة فى البيت الاخير . فقد أبردت المقابلة فيه ، تلك المبالغة ، حيث كان الخصر فيها يقوم من ضعف وكان الردف ما زال يبغى القعود من ثقل، وهو وصف قديم تناوله الجاهليون ، وفى مقدمتهم الاعشى ميمون ، كما تناوله شعراؤنا وعلى رأسهم ابو حفص الاغماتى .

وبالجملة ، فان تأنق الشاعر هنا لا يتعدى الطباق والتشبيه فى اقتصاد ، وقد بلغ الاسلوب منتهاه من البساطة والجفاف فى البيت :

ولا تمـل عـن شربهـا ابـدا — من بأس واش خفته أو شهـود

وكذا نجد هذا الاقتصاد فى الحلية بقصيدة اخرى فى الموضوع نفسه، وان كان الجنوح فيها الى الحلية اللفظية ، على عكس الاولى ، وهى :

خـذ مـن حديث الرياض والزهر — روايـة ابـن الربيـع عن مطر

وانظــر الى الروض زانه نهــر	مثــل العيــون تــزان بالحــور
نخــذ لنفســك فــى تقلبــهــا	نصيبهـا فــى الســرور والسرر
ورد مــن اللهــو كــل صافيــة	وشمــر الذيــل بعــد للصــدر
ولا تخف فــى وردهــا ضــررا	فــذلك الخــوف باعــث الضــرر
وقــل لمــن نفســه محــذرة	اهــل يــرد القضاء بالحــذر (1)
وليــس يخطــر للنفــوس عــلا	مــا لــم تجــار جوارى الخطر
نهــاتهــا مــن دنــان معصــرة	تبث اخبــار سالــف العصــر
لــو أنهــا حــدثت مباشــرهــا	كــانت تحــدث عــن أبى البشر
مــن كف بــدويــة مخــدرة	هبت عليهــا شمــائــل الحضــر
شمس بأنــق القلــوب مطلعهــا	تفتــر عــن بــرد وعــن درر
بيضـــاء نــاعمـــة مغنيـــة	تغنيــك نغمتهــا عــن الــوتــر
يــود سامعهــا اذا اقتصــرت	لــو أنهــا لم تمــل الــى القصر

وهكذا تواجهنا هذه الابيات باحتفالها بالمحسنات اللفظيــة كثيرا ، فالبيت الاول فيه هذه التورية بابن الربيع عن مطر (من رجال الرواية) وفى البيت الثالث فيه الجناس بالسرور والسرر (جمع سرة يكنى بها) وفى البيت السابع نجده فى يخطر مع خطر وتجارى مع جوارى السفن كما نجد الجناس فى معصرة والعصر بالبيت :

فهــاتهــا مــن دنــان معصــرة تبث أخبــار ســالف العصــر

(وهو لغة فى العصر اى الدهر) · وكذلك نجده فى مباشرها والبشر فى البيت الذى يليه :

لــو أنهــا حدثــت مباشرهــا كــانت تحــدث عن أبــى البشر

وكذلك فى مغنية وتغنيك بالبيت :

بيضـــاء ناعمـــة مغنيـــة تغنيــك نغمتهــا عــن الوتـــر

---

1) ادخل همزة الاستفهام على هل الاستفهامية ، وقد سمع ذلك فى قول الشاعر :

ســائــل فــوارس يــربوع بشدتنــا اهل رأونا بسفح القاع ذى الأكـــم

قالوا ان هل هذه بمعنى قد ، وادعوا أنها هى فى قوله تعالى « هل اتى على الانسان حين من الدهر » وبالغ الزمخشرى فقال ان هل معناها دائما « قد » ·

اما المحسنات المعنوية فقليلة كالطباق .

والى جانب هذه الحلية ، فهناك التشبيه والاستعارة فى بعض الابيات منها ، واجملها بالبيت :

من كف بدوية مخدرة هبت عليها شمائل الحضر

اما البيتان :

وقل لمن نفسه محذرة اهل يرد القضاء بالحذر

وليس يخطر للنفوس علا ما لم تجار جوارى الخطر

فمعنى مطروق (فى كون من لا يركب الخطر لا ينال العلا وأن الحذر من قدمه لا يفيده ولا يرد عنه ما قدر له وقضى عليه ، فلا حذر من قدر) ولا شك انه اقتبس من قول صفى الدين الحلى :

لا يمتطى المجد من لم يركب الخطرا ولا ينال العلا من قدم الحذرا

وان كان لا لزوم لوجود هذا المعنى ازاء البيت قبله :

ولا تخف فى وردها ضررا فذلك الخوف باعث الضرر

ومهما يكن فان هذه النماذج من شعر ابن الطيب العلمى — قصائده وموشحاته — مشرقة الاسلوب بينة المرامى خالية من كل تكلف أو تقصير وهى ظاهرة تبدو على جل ما لدينا من شعر له ولا يوجد فيه ذلك التقليد الذى لاحظناه فى قليل من قصائد ابن زاكور التى خرج فيها عن طبعه الى تقليد بعض المتوعرين من الاقدمين كما قد افصح عن ذلك بنفسه فى مقدمة الديوان .

وعلى الجملة فان ادب ابن الطيب نجده يمج هذا التقليد سواء ذلك فى النظم والنثر الذى ينطلق ، دون تعثر او توقف ؛ كما سنرى ؛ عند التعرض لنماذج منه .

ثم أن تورياته خفيفة كابن زاكور ؛ ان لم تكن أخف من تلك ، فى غالب الأحيان .

والموضوعات نفسها ، مما يشرح النفس بابتهاجه ، ولا ينقبض له الصدر ، أو يضيق بكآبته .

وهكذا فان شعر ابن الطيب العلمى يجود بصفة خاصر فى وصف الرياض ومجالس اللهو والشراب وان غزله يكون بتلك الصفة وهو من متممات ذلك الوصف او هذا الوصف من متمماته .

فان خلا غزله من هذه الصفة فهو على خلابته مردد لصور وتعابير طالما اعتورها شعراء من قبله .

والامر دون هذا بكثير فى امداحه التى لم يكن ميسرا لها فى فنه (حتى ولو كان فى القصيدة التى مدح بها المولى اسماعيل كما يأتى) .

ويتصل بالامداح المراثى فهو فيها قد ينزل الى درك السخافة احيانا كما سنرى ، فى النماذج التى نقتصر عليها .

واجمل ما له فى الغزل قوله :

يا طلعة البـــدر فى ليل من الشعر	يا فتنة خلقت فى صورة البشـــر
ارحم شهيـــدا له فى الحب معترك	بيـــن المنـــاسم والالحاظ والطرر

ومع هذا فان البيت الاول مطروق جدا من الشعراء ، والبيت الثانى ما هو الا قول ابن الفارض :

مـــا بين معترك الاحـــداق والمهج	انـــا القتيـــل بـــلا اثم ولا حرج

ومن كان كذاك فهو شهيد لا محالة ، ومن هذا ايضا قوله :

الا فانظـــروا وردا تفتح فى الخد	تفتـــح ورد يانـــع فـــوق خـــده
وفى ثغـــره ورد منعـــت وروده	ومـــا ضره لو جاد بالورد والـــود

شعر انيق لولا التلاعب المفرط بالبيت الاخير الذى قد يعجب بعضهم:
اما امداحه فمنها قصيدته التى اشرنا اليها ، فى المولى اسماعيل يقول فيها :

نصرت امير المؤمنين يامطلع النصر	فجـــاء الردى للطى والدين للنشر
وواصلت حبل الدين بعد انصرامه	بصارمك الهندى والبيض والسمر
مليك يرى فى الحرب بين كماتـــه	كبدر وهذى النجم تحنو على البدر
يريك طغـــاة تحت حافر طرفـــه	ومـــا هى الا الطير فى مخلب الصقر

عقول العدا طارت الى وكر سلمه كما طار شوقا ذو فراخ الى الوكر

فهذه اوصاف وان حاول ان يتأنق فيها ببعض الحلية كالطباق فانها مفككة وينقصها السبك المحكم كما نجده في قوله : « بصارمك الهندى والبيض والسمر » وقوله « كبدر وهذى النجم تحنو على البدر » وعلى حين يجعل الطفاة تحت حائر طرفه يقول فيها « وما هى الا الطير فى مخلب الصقر » وشتان بين الصورتين وان اتحدتا فى الغاية منهما . ولكن هذا لا يكفى فلا بد من الانسجام بين الصور ووضع بعضها ازاء بعض ، واخيرا ياتى هذا التشبيه للذى لا لزوم له وهو « كما طار شوقا ذو فراخ الى وكر » بل انه ابرد ما جاء قبله وهو « عقول العدا طارت الى وكر سلمه » فما كان اغنى هذا المصراع الاول عن الاخير . ومن التعابير العلمية فيها ورود الطي والنشر ؛ شقيق اللف والنشر .

ومن مراثيه لعلى بركة قصيدة يستهلها بقوله :

مات صبرى بين احياء الكرام يوم لف القوم منشور الخيام
وأقام الحزن لما ارتحلوا وكذا الدنيا ارتحال ومقام
اين اهل العز ملاك الورى نزلوا للموت من أعلى مقام
اين أهل العلم أعلام الهدى رحلوا عنا الى دار السلام

ان تك الدنيا كذا حالها فعلى زهرتها منى السلام
كم اضعنا العمر فى اسعافها بين دن وكؤوس ومدام
وسهرنا الليل فى حسو الطلا فعصينا الله والناس نيام

بعد هذه الوقفات من التفكر والاعتبار والتحسر يتصل بتأبين صاحبه ويذكر ما كان عليه من مشاركة فى البيت :

منطق نحو بيان لغة سير فقه تفاسير كلام

فمستوى القصيدة كما نرى لا يحتاج الى تعليق (1) . ومع هذا فهو اعلا مما عليه قصيدة اخرى فى رثائه يقول فيها :

صيرت تطوان كلها عربا فما ترى اللحن ثم فى حركة
واليوم ماتوا اذ مت من أسف وما لهم اذ سكنت من حركة

1) وفيه فتور ، « بالسلام » الثانى بعد الاول ، وتكرر فى « حركة » الواردة بالبيتين التاليين

لـــذاك عينـــى تقـــوم بعـــدك فى بحـــر مـــن الدمـــوع كانها سمكة

فما أسخف هذا التشبيه فى هذا المقام الذى يزيده برودة قوله :

هتكت يا مـــوت فيـــه عرض فتى لـــولاك مـــا رىء قط مـــن هتكه

وبعد الشعر فنثر ابن الطيب نجده فى درجة عالية يبز بها أستـــاذه ابن زاكور خصوصا فى رسائله وتحلياته ؛ كما فى هذه التى خاطب بها صديقه الاديب محمد بن العربى الشرقى يقول فيها :

وبعد ما تستحقه تلك السيادة ، الممنوحة بالحسنى والزيادة ، من السلام الذى طابت نفحاته ، وطالت غدراته وروحاته ، والرحمة والبركة ، ما هز ذكرك ساكن القلب وحركه ، فانه لما طال أمد الفراق ، وبلغت الروح الى التراق ، وظن أنه الحين وقيل من رأق فكرت فيما يفك من يد الاشواق أسرى ، ويجبر ما بين الاصحاء كسرى ، فقلت :

وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع وبالليل لـــم يسر

فما عثرت بعد معاناة البين ، ومعاتبة الدهر المفرق بين المحبين ، الا على بعض درر من كلامك ، استخرجت من بحور مددك بمداد أقلامك ، كنت اذخرتها عن القوم ، لمثل هذا اليوم :

تفقدتهـــا بعـــد الســـرور بكونها وفى الليـــة الظلماء يفتقد البدر

فما زالت تذكرنى أيام الوصال ، وتقطع من غرائب البين ، وتخرسه ان صاح أو صال :

ذكرت بهـــا بعد التفرق ما مضى زمان النقا والشىء بالشىء يذكر

الى أن استولت على يد الضياع ، واعقبت لى ذلك الامن بالارتياع، فأصبحت من فراقك ملتاعا بلوعتين ، واحترقت بجمرتين والتدغت من جحـــر مرتين :

وكنت كذى رجلين رجـــل مريضة ورجـــل رماها الدهر يوما فشلت

غير أن الآمال كانت تشوفنى والليالى لكتابك تشوقنى ، فكنت أصدق

فيك الاوهام وأعد حديثها من الالهام .

صدقت وهمى فى الحديث ولم اقل   خبر رواه الــوهم وهــو ضعيف

وهكذا يستمر فى هذه الرسالة التى يخلها بأشعــار لغيره ويقتبس فيها من القرآن والحديث والامثال وغيرها ، وخصوصـــا فى أولهــا ، بالحسنى والزيادة ، وبلغت الروح الى التراق ، وظن انه الحين وقيل من راق ، وبحور مددك بمداد اقلامك ... فهذا كله من القرآن مع تغيير طفيف ، كما فى « وظن أنه الحين » بتغيير الفراق بالحين ، وقد يركب من آيتين ، كما فى المثال الاخير ، من قوله تعالى « ولو ان ما فى الارض من شجرة اقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفذت كلمات الله » وقوله « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا » وقد يخف كما فى « وبالليل لم يسر » من سورة الفجر « والليل اذا يسرى وهذا فى الشعر . كما فيها من الاصطلاحات الحديثية « خبر ضعيف » ومن الحديث « والتدغت مـــن جحر مرتين » فهذا من الحديث « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » .

ومن التعبيرات الجارية ، على السن العلماء وغيرهم « والشىء بالشىء يذكر » ومن تضمين الامثال « وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر » وتقدم ان هذا مصراع بيت لابى فراس ، من قصيدته السائرة والتى نصفها غزل ونصفها فخر ، وكذلك البيت .

« وكنت كذى رجلين رجل مريضة   ورجل رماها الدهر يوما فشلت »

فان هذا صار مثلا .

ثم ان أسلوبها كما رأينا متشبث بالبديع كله ، فالسجع لازم لزومه فى رسائلنا منذ القاضى عياض ، والجناس يتخلل الجمل والفقرات مثل طابت نفحاته وطالت روحاته ، وبحور مددك بمداد أقلامك ، وصح وصال وتشوفنى وتشوقنى ، وأسرى وكسرى .

كما يتخللها الطباق فى نحو أعقبت ذلك الامن بالارتياع ، وطالت غدواته وروحاته ، وهز ذكرك ساكن القلب وحركه ، وتخرسه ان صاح

أو صال · وهو من النوع البسيط ؛ الذى لا يؤبه له ·

اما تخللها بالابيات الشعرية فهو شائع عند الاندلسيين خاصـــة وفى أدبنا الى حد فقد سبق أن رأينا له مثيلا فى نثر الشاعر الجراوى ، وان كان هذا يخلل بشعره غالبا ·

ومن تحلياته تحليته لاستاذه ابن زاكور بقوله :

وحيد البلاغة ، وفريد الصياغة ، الذى أرسخ فى أرض الفصاحة اقدامه ، واكثر وثوبه على حل المشكلات واقدامه ، فتصرف فى الانشاء ، وعطف انشاءه على الاخبار واخباره على الانشاء ، وقرع الرجال ، فى ميادين الارتجال ·

فهذا مثال آخر ، فيه سجع ، وازدواج بالمترادف ، بنحو وحيـــد البلاغة وفريد الصياغة ، كما فيه جناس خفيف ، وخاص من تخلل الشعر فيه ، وهو اشبه بنثر رسائل القاضى عياض ، فى قصر الفقر وعطف بعض جملها عطف تفسير ·

ويقول فى خاتمة كتابه المطرب عند موازنته بين أولئك الذين ترجم لهم فى كتابه « مراتب هؤلاء الرجال متفاوتة فى الارتجاح والارتجال ، فهم بين رئيس طاوعته اقلامه ، ورسخت فى مراكز البلاغة اقدامه ، وانتشرت فى عساكر المبارزة راياته واعلامه ، فهو فى فنون الكلام يتصرف ويريد أن ينكر فيابى الله الا أن يعرف · كلامه السهل يسيل المدامع ، وتصغى له المسامع ، ويعد ينظم مثله كل سامع · فاذا ريم اعجز ، وما طل فى ذلك الوعد وما انجز ، وبين آخر كثير الاغراب ، راغب عن الاعراب ، لا يعلم له مراد ، ولا يفهم من أبياته الافراد · وهو اذا تأملته وجدته يتكلف ذلك الابهام ، ليعمى على الافهام ، ويحتاج اليه للاستفهام ، وليعلم أن له اطلاعا على اللغة ، وانه بلغ من الغريب ما بلغه » · وهى موازنة قيمة تنم عن نقده وذوقه ·

ويقـــول فى احـــدى مقـــامـــات :

أخبرنا بعض الظرفاء ، من ذوى المروءة والوفاء ، ممن أعتمد على نقله

وروايته ، وأحكم بصحة عقله ودرايته ، قال : جلست يوما ما مع جماعة من الاحباب ، على شيء من الشراب ، نتذاكر ما مر فى أيام الشباب ، وبيننا شاب حسن الصورة عليه الملاحة مقصورة ، واللطائف فى شمائله محصورة ، الا ان شعر شاربه قد طال ، واسترسل غاية الاسترسال ، فسألناه عن سبب طوله ، وعدم قص طويله ، فقال أنا أخبركم بخبر يعجب لذكره الحاضرون ويطرب لسماعه المنصتون والناظرون ..

كنت من شانى اتزخرف فى المكاسب ، واتخير منها ما يناسب ، فصليت يوما صلاة الاستخارة ، فوجدت نفسى مائلة الى التجارة ، فقصدت مدينة سنجار ، وفتحت بها حانوتا بسوق التجار ، ووضعت فيه من محاسن القماش ، ما أستعين به على المعاش ...

وزينت الدكان ، بحسب الامكان ، وكسوتها بالاستار على أربعة أركان ، وعاملت أهل الاسواق ، بمكارم الاخلاق ، واستعنت بالقربة ، على ليالى الغربة ، فاتفق لى فى بعض الايام ، ضرورة الى دخول الحمام ، فوجدت فى طريقى جماعة من النسوان ، بينهن فتاة كأنها قضيب البان ، فلمحت من تحت الازار معصمها ، وقد سطع صفاؤه ، وأبصرت من تحت النقاب جسمها ، وقد لمع ضياؤه ، فوقفت وقد جرى من الجفون دمى ، وعجزت عن نقل قدمى ، ثم تبعتها من بعيد ، ولاحظتها الى أين تريد ، فدخلت دارا يدل اتقان بابها ، على سعادة أربابها ، فنظرت فاذا بالقرب من ذلك المكان ، خياط يخيط فى دكان ، وعنده من الصناع والاعوان ، ذوو أذقان (1) ومردان ، صنوان وغير صنوان ، فقلت فى نفسى ، من هذا الخياط أستفهم ، عما على أبهم ، فرجعت الى دكانى ، وأحضرت عدة من التفاصيل، وجئت بها حانوت (2) الخياط بقصد التفصيل ، فجالسته ، وحاورته وآنسته ، وفصلت ذلك القماش ، وعجلت له من الاجرة ما يحصل به الانتعاش ، ففرح بحضورى ، واعتنى بأمورى ، ووجدت عنده معرفة بالادب ، وشكا لى

---

1) يريد بها اللحى ، كما هو الاستعمال العامى بالمشرق ؛ مما يدل على انه انشأها وهو بمصر .

2) استعمل هنا « الحانوت » بجوار « الدكان » ، وهذا فى الواقع اسم جمع دكانة ؛ مثل دباء اسم جمع دباءة . ولعل استعمال « دكان » من أثر المشرق فيه كذلك .

من ضيق الحال والسغب ، وانشدني لنفسه من شعره المستعذب :

أنـــا الخيـــاط لـــي رزق ولكـــن أرى حالـــي مـــن الافلاس عبـــره
ذراعـــي فيـــه من فقري مقص ورزقـــي خارج من عيـــن ابـــره

فاستحسنت نظمه ، وحملت همه ، وصار يتلقى كلامي بالقبول ، ويقف ممتثلا لما أقول ، فسألته عن صناع دكانه ، وديار جيرانه ، فما زال يشير الى كل دار ويشرح حالها ، ويعرفني تفصيلها واجمالها ، حتى أفضى الحديث الى الدار التي اختارها ، وقصدي أن تتضح لي أخبارها ، فقال هي دار خطيب البلد ، وهو رجل كثير المال قليل الولد ، مشهور بالتوقرة الزائدة ، ولا له من الاولاد الا ابنة واحدة ، وهي روحه التي بين جنبيه ، والسواد الذي فيه نور عينيه ، وقد منعها الازواج ، وخطبها جماعة من البلد ، فلم يسمح لها بالزواج ، فقلت : والله لقد شوقتني اليها ، وحدثتني نفسي بخطبتها والعمل عليها . فهل تعرف امرأة تعرفني باسمها ، وتوصل خطبتي الى امها ، فدلني على عجوز مشهورة في عقد النكاح ، تعـرف بياقوتة الملاح ، فلما لقيتها أوضحت لها الحال ، ووعدتها أن تمت المسألة بتحف ومال ، فسمعت كلامي ، وضمنت لي بلوغ مرامي ، وانشدت :

أنـــا ياقـــوتـــة المـــلاح وربـــي في أمـــوري هـــو الكفيل بقـــوت
ان سلكت القفـــار جئت بوحش أو سلكت البحار جئت بحـــوت
ويقـــود الصعاب لطف احتيـــالي بخيـــوط تكـــون مـــن عنكبـــــوت
القنـــي في لظـــي فان غيـــرتنـــي فتيقـــن أن لســـت باليـــاقـــوت

ثم فارقتني وذهبت ، واشتعلت نار وجدي والتهبت ، ومضى على شهر لا ادري أمرها ، ولا أعرف مستقرها ، فذرفت العيون ، وسهرت الجفون ، وساءت الظنون ، وقلت :

غـــاب الرسول فلـــم يعد بجوابه ففهمت معنـــى الحال في تأخيـــره
فكأنـــه لم يلـــق أمـــرا طائـــلا فـــأراد بالتأخـــير ستـــر أمـــوره
مـــا ضـــره لـــو جاءني بجـــوابه فعلمت ما قـــد كان عند حضوره
ان كـــان خيـــرا نلت منه بشـــارة أو غيـــره فكـــرت في تدبيـــــره

قال : وبعد ذلك حضرت ، وقد انفطرت كبدى بما انتظرت ، فلاح من وجهها عدم القبول ، وخيبة المأمول ، وقالت : والله لقد تحيلت وتوسلت فما ظفرت ولا توصلت ، لم يوافق أبوها على زواجها ، ولا سمحت نفسه باخراجها ، ولكن والدتها رثت لحالك ، ووافقت على ذلك . فقلت لها : لقد يئست من حياتى ، ودنت وفاتى ، فساعدينى قبل فراق الدنيا بنظرة واحدة ، ولك ولامها ، التكرمة الزائدة ، فليس لى غرض غير قبلة فى جسمها وأخرى فى معصمها .

وبعد ذلك طاب المـــوت فاغتنمى أجـــرى ولا تهملـــى امت كمـــدا
وساعدينـــى على حل بليت بهـــا وعجلى فلعلـــى لا أعيش غـــدا

ثم تصعدت زفراتى ، وتجددت حسراتى ، وتزايد شهيقى ، وغصصت بدمعى لا بريقى ، فقالت : أترضى بذلك النزر القليل ، قلت : نعم ، والله على ما نقول وكيل ، فاستصحبت من الذهب ما أرضاها ، وركبت سفينة النصح، وقالت : « بإسم الله مجراها ومرساها » . وذهبت، وقد دهت عيناها فغابت عنى قليلا ، ثم عادت فرأيت وجهها جميلا ، وقالت : لقد رثت لك الوالدة ، وسمحت لك بنظرة واحدة ، بعد أن قلت لها ، لا بأس بنظـــرة العين ، ورغبتها فى أجر من يجمع بين المحبين . فاياك أن تنقض عهدا ، أو تتعدى حدا ، وتقرر الميعاد يوم الجمعة وقت الصلاة ، ووالدها على المنبر فى مصلاه . فصمت وتصدقت ، وانتظرت ذلك الوقت . الى أن دنا الميعاد، ودخل الوقت أو كاد ، فخرجت من دارى ، وقد صفت أكدارى ، وحسنت هيئتى ، وسرحت لحيتى ، واستعملت ما يناسب من الطيب ، وقصدت دار الخطيب ، فاجتزت بحجام عنده مرآة ، ومقصات مستحسنـــات . فناولنى المرآة حتى رأيت وجهى فيها ، فوجدت شعر شاربى قد طال ، وتعين أن يخفف ويزال ، فأمرته بقصه ، وأن يأخذ منه بمقصه ، فامتثل أمرى ، وقص ما طال من شعرى ، فسألته عن اسمه وأصله ، لعلى استدل بذلك على فعله ، فقال : اسمى قتور ، وأصلى من خيبر ، فقلت ، اسم عتيث ، وأصل خبيث ، فقصدت اعطاءه درهما عن أجرته ، فسبقتنـــى يدى الى كيس الذهب ، لما طبع عليه الانسان من عجل ، ولما نظر اليه

والى ما فيه من الذهب ، طار عقله وذهب ، فناولته منه دينارا ، لاكفى منه عارا ، فانكب على قدمى ، وبالغ فى الثناء على كرمى ، وقال : مثلك من يخدمه الانسان ، وهل جزاء الاحسان ، الا الاحسان ، والله لقد اغنيتنى من كرمك ، ولا اعود أموت الا تحت قدمك ، فأثنيت عليه بالخير ، واسرعت عنه فى السير ، فأسرع حتى لقينى ولازمنى ولاصقنى ، وما تأخر عنى ولا سبقنى ، فقلت له : انقطع عنى ، ولا تتبعنى ، وما الذى تريد منى ، فقال : معاذ الله أن أفارق من أحسن الى ، وتفضل بهذا الدينار على ، والله ما أنا من أولاد الزنى ، ولا من أبناء الخنا . هذا والعجوز مراقبة وصولى ومنتظرة لدخولى ، فاعترضنى جمع من المساكين ، وقالوا : تصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين ، فناولته دينارا آخر وقلت صرفه وفرقه عليهم ، وتول ايصال ذلك بيدك اليهم ، فرماه الى الفقراء فى الهواء ، وقال : اقسموا هذا بينكم على السواء ، ثم هرول فأدركنى ، ودخلت من الباب ، فأراد أن يمسكنى ، وقال : الى أين يا سيداه ، وقد دخل وقت الصلاة ، فلم أرد عليه الجواب ، بل دخلت وأغلقت دونه الباب ، فما لبث أن طرق الباب ، وقال : يا سيدى فاتك الصواب ، قد أقيمت الجمعة ، والاقوام الى الصلاة مجتمعة ، فقالت لى المراة : دع غلامك يذهب ، فقد تعدى وغلب ، فقلت : والله ما هو لى بغلام ، ولا لى معه كلام ، فاخرجى اليه ، والعنى والديه ، فخرجت اليه ، وأنكرت عليه، فرمى عمامته وبكى ، وقال : الى الله المشتكى ، سيدى فى هذه الدار ادخلوه ، وطمعوا فى ماله فقتلوه . وزاد فى الاستغاثة ، واجتمع عليه الناس حلقتان أو ثلاثة ، ولم يزل يصرخ ويستغيث ، ويقول : ألا منجد ألا مغيث. والعجوز راجفة ، والبنت واجفة ، والام خائفة ، والطوائف واقفة ، « أزفت الازفة ، ليس لها من دون الله كاشفة » . وما زال يصيح واسيداه يامولاه ! خرج الناس من الصلاة ، فاتك الثواب ، عدمت الصواب ، حصلت وراء الحجاب ، ضرب بينى وبينك بسور له باب . فخرج الناس من الجمعة ، وعلى الباب طوائف مجتمعة ، واتصل بالخطيب الخبر ، فبادر الى داره وحضر . فرأى الناس مجتمعين ، وألى الحجام مستمعين فلما وقع نظره عليه ، ادناه اليه ، وقال له : ما الحديث ، والى كم تصرخ

وتستغيث . فقال : ان سيدى قد دخل الى هذه الدار ، ومعه كيس فيـــه ألف دينار ، ثم لما أدخلوه ، طمعوا فيه فقتلوه ، وهو فى هـــذه الدار ، فادخل وعرفنى الاخبار .

(قال الراوى) هذا ونحن نسمع الكلام ، ونتوقع الحمام ، فوجدت فى الدار بئرا ، فرميت نفسى فيها . وأمرت النساء يسترونها بما يخفيها . فدخل الخطيب الى نسائه ، وعرف من قول الحجام ، وفوق اليهن سهام الملام ، فحلفن له بما أرضاه ، وقلن : حاش لله . فخرج اليه بغيظ شديد، وقلب دونه الحديد ، وقال : ياغلام ! دع عنك هذا الكلام ، فما عندى من يتهم بكلامك ، ولا من ترميه بسهامك ، فصرخ بأعلى صوته وقال : قتلوه وليتنى مت قبل موته . ولو كان حيا ما فاتته صلاة الجمعة ، ولكان حاضرا وأنا معه ، واحزناه واأسفاه ، واسيداه وامولاه ، غروك ، فأدخلوك ، وطمعوا فى مالك فقتلوك . ائذن لى بالدخول ، فأنا أعرف ما اقول ، فأمره الخطيب بالدخول الى داره ، ومعه من الحاضرين من بعثه فضوله على كشف أخباره ، فدخل الدار فى جمع كبير ، فأوقعته المقادير على فم البير ، فقال : سيدى فى هذا المكان ، ولا بد من النزول فيه ولو كان ما كان ، ثم نظر فى نواحى البيت واستدعى باناء فيه زيت ، وحل عمامته وبل طرفها ، وأوقدها لمكيدة عرفها ، وأدلاها فى ذلك البير ، وادارها فأنارت أى تنوير ، فرآنى جالسا بمكانى ، وقد حل بى من الويل ما كفانى ، فاستغاث : كذب الماطل ، وجاء الحق وزهق الباطل ، سيدى فى هذا البير ، والانسان جار تحت المقادير . فأخرجت من ذلك المكان ، على اقبح حال واسوأ شان ، فقال لى الخطيب : ان أردت الخلاص فاصدق . فقلت ما دخلت الا لاسرق . فحملت على ذلك الحال الى الوالى ، فسجننى وأخذ أموالى ، فبقيت فى الحبس سنة ، فى عيشة خشنة ، ما رأيت فيها لذة بينة ، وعلمت أن من أحسن لكل ردىء الاصل شقى كما شقيت ، ولقى ما لقيت ، وكان مما نظمته فى حبسى ، مخاطبا لنفسى :

تجنب ردىء الاصل واحذره واجتهد	على طرده فالخير فى شرف النفس
واياك أن تغتـــر منـــه بملمـــس	يليـــن وجنبـــه اجتنابك للرجس
فان الافاعى قاتـــل سمها لمـــن	تدانـــى اليهـــا وهى لينـــة اللمس

ويكفيك فى صدق الوصية ما جرى — على وما لاقيت من ذلك النحس
تقصدته بالخير كافى بضده — واوليته المعروف جازاه بالعكس
وكم ليلة قضيتها فى عساكر — من البق والناموس فى ذلك الحبس
أقاسى الاسى من ذلك المدبر الذى — رأى قصده نقلى الى ظلمة الرمس
وضيع اموالى وعرضى ومقصدى — ولكن حمدت الله اذ سلمت نفسى

وكانت العادة جارية بعرض المحابيس على السلطان ، فى كل شهر رمضان ، فأحضرت بعد سنة بين يديه ، وسألنى عن الامر الذى حبست عليه ، فقلت : لى قضية اذكرها بين يديك ، واذا أنهيتها فالامر الى الله ثم اليك . فأدنانى ، واستفهمنى عن شانى ، فذكرت له الحكاية على الوجه الصحيح ، واوضحت له الحال فلم يحتج الى تصريح . فعجب من حالى ، وامر برد مالى ، وتبليغ آمالى . وأمر الخطيب ان يزوجنى من بنته المذكورة، وقام بالصداق من عنده على احسن صورة . واحضر ذلك المدبر وسلمه الى ، وحكمنى فيه عند وقوفه بين يدى ، فذهبت به الى دارى ، وصفت بتلك المحبوبة اكدارى ، فصلبته على الباب مرجوما ، وابقيته سبع ليال وثمانية أيام حسوما ، وسمعت هاتفا يقول :

قضت نحبها نفس هذا اللعين — وفى صلبه نعمة مطلقه
فلا رحم الله تلك العظام — ولا برحت بلظى محرقه

وما مر به أحد الا لعنه ، واستظرفه على الخشب واستحسنه ، وانشدت :

نلت جبرى بكسر قلبى وصبرى — ورقيبى رأيته مشنوقا
رام نفعا فضر من غير قصد — ومن البر ما يكون عقوقا

واقسمت لا قصصت شعر شاربى ، ولو استرسل الى ترائبى ، فهذا سبب طولها ، وقد رضيت بتطويلها ، ثم أنشد :

ارى الاحسان عند الحر دينا — وعند النذل منقصة وذما
كما النيسان فى الاصداف در — وفى بطن الافاعى صار سما

وبعد عرضنا لمقامة ابن الطيب العلمى ، نقف وقفة قصيرة عند اصل

المقامة ونشأتها وشيوعها ، ثم نتفرغ لمقامة ابن الطيب المذكورة . فأصل الكلمة من قام اذا وقف (1) فهى اذن موقف وليست مجلسا ، كما قيل . فالمجلس فى التعليم يطول وقته ، ويمتد ساعات عديدة ولكن المقامة لا يزيد وقتها على دقائق معدودة ، وهذا ما جعل أول مبتدعها يسميها بذلك الاسم، اذ مقاماته بذاك القصر الذى ذكرنا ، ثم ان موضوع المقامة يكون مـــن البساطة بحيث لا يحتفل به احتفال الذين يجلسون لتلقى التعليم وقضاياه العويصة ، وكأن كلمة مجلس فى هذا ، انبثقت فى الاسلام ، من حديث جبريل ، بينما نحن جلوس عند رسول الله اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ... فطبيعة الدرس العلمى من نقاش وحوار وتفهيم وتفهم تقتضى الجلوس . ولكن ما تحتوى عليه المقامة غالبا لا يقتضى ذلك ، بل يلقى على الواقفين المنصتين الى صاحبه ، فى الاسواق ونحوها غالبا (ليس بالمساجد) .

والمقامات عرفت فى الاندلس والقيروان بعدما عرفت فى الشرق ، ثم اهتم بها المغرب ، فكان من شراح مقامات الحريرى ابن الزيات ، قبل أن يشرحها الشريشى فى الاندلس . وكان هذا فى العهد الموحدى ، كما تقدم ، ثم أقرأها ابن آجروم منديل فى العهد المرينى . وكانت مجالس اقرائها وشرحها بسبتة حافلـــة .

وفى هذا العهد المرينى ، وجدنا عبد المهيمن الحضرمى السبتى ينشىء مقامة تقوم على القصة والحوار بين العشر الجوارى فيهـــن البيضـــاء والسمـــراء والطويلـــة والقصيرة والسمينـــة والرقيقة والعجوز والصبية والاعرابية والحضرية . وكل تجادل عن نفسها وتفاخر بشخصهـــا كمـــا تقـــدم ذلك .

وفى العهد السعدى وجدنا ابن عيسى ينشىء مقامة ، فى نقد معاصريه من الادباء والعلماء عامة ، وكان فيها بصيرا يجلى ما لهم من صفات ، حتى ولو لم تكن ادبية او علمية ، بأن كانت خاقية صرفا فى بعضهـــا .. وبعده كان الكاتب المكلاتى ينشىء مقامة زهرية فى المفاخرة بين الازهار

1) كما فى الآية « كلما اضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا » أى توقفوا عن مشيهم .

وان جعلها تهدف الى «مدح المكارم البكرية» نسبة الى أبى بكر الدلائى (1).

اما فى العهد الاسماعيلى ، فقد وجدنا لصاحبنا ابن الطيب تلك المقامة القصصية فيها متعة وحبكة على تواضعها . وكغيرها من مقامات عرفت فى الشرق وفى الغرب ، وجدنا صاحبها ياتى بعدة اشعار جلها له وبعضها لغيره ، يخلل بها قصصه ، وينطق فيها اشخاصها ، بما يلائم بينهم وبين ما يستنطقهم به ، ولذلك لا نعتد بتلك الاشعار ، والابيات على انها نماذج صادقة تمثل المستوى الذى كان عليه شعره ، ولم يرتبط بقصة أو صاحبها.

وهذه ملاحظة لا بد ان توخذ بعين الاعتبار فى نقد الشاعـــر بتلك الاشعار ، فقصائد شوقى التى لا ترتبط بقصة ما ، هى غير قصائده وقد ارتبطت بقصة ، أو حاولت تشخيص حادث من الاحـــداث أو تصويـــر شخصية من الشخصيات ، وعليه فان تلك الابيات او القطع التى تواجهنا فى مقامات العلمى ، لا نجعلها تمثل فنه الشعرى مجردا ، ولا نستسبرها ادرك اغواره الحقيقية فى شعره . بل ننقدها باعتبارها من القصة ، تقوم بدور من أدوارها .

وموضوع المقامات قصة كان أم نقدا أدبيا ، عرف كذلك لاول ما عرف الادب العربى هذا الفن ، فوجدنا اللونين معا فى مقامات بديـــع الزمـــن الهمذانى ومن جاء بعده ، من مشارقة واندلسيين وقيروانيين ومغاربة ، فمن مقامات البديع المقامة القريضية فى نقد الشعراء من جاهليين واسلاميين ومحـــدثيـــن .

وبعـــد فمقامة ابن الطيب وان جعلها مضافـــة الى الحجام الـــذى لازم بطلها الشاب ، لكنها فى روحها مقتبسة من مقامة للحريرى ، وهى المقامة السنجارية . فعناصرها وارضيتها متشابهة ، الى حـــد أن بعض الاقتباسات تصاوبت فيهما ، وهكذا ففى مقامتنا تاجر كان يتاجر ، وفى المقامة السنجارية للحريرى ، كانت الرفقة صادف نزولها بسنجار ، ان أولم بهـــا احد التجار ، فدعاها الى مأدبته ، فأجابت دعوته وحضرت ناديه ،

---

1) انظر نشر المثانى للقادرى .

فانعقد المجلس كما وجدناه انعقد فى مقامتنا ، الا أن هذا على الشراب، وذاك على الطعام تلاه الشراب فى جام كأنه جمد من الهواء ، فتباعد عنه أبو زيد السروجى ، فكان تباعده غريبا ، كما كان طول شارب بطلنـــا غريبا ، وسئل أبو زيد كما سئل ذلك الشاب عن هذه الغرابة ، فأجاب أبو زيد بأن الزجاج نمام ، وانه اقسم الا يضمه ونموما مقام ، وقد كان له جار بهذه الصفة . وكذلك كان صاحبنا يرافقه من لم يكن يرحب برفقته، وأنه نم عنه ، فكانت الفضيحة التى افضت الى سجنه ، وكانت عند أبى زيد جارية لا يوجد لها فى الجمال مجارية ، ان سفرت خجل النيران ، وصليت القلوب بالنيران ، وان بسمت أزرت بالجمان ، الى آخر الاوصاف التى اجملها صاحبنا فى تلك الفتاة ، التى سطع صفاء معصمها وضاء تحت النقاب جسمها (وكأنها قضيب البان فى قامتها) وفى قصة أبى زيد نجد صاحبها ينم عنها ويفضى بجمالها وسحرها الى امير وال فكان هذا الوالى ناشرا لاذنيه فى وصفها ثم كان يسوم صاحبها ايثاره بها . وتدخل الامير فى القصة عنصر رابع فيها ، كما كان تدخل السلطان فى مقامتنا عنصرا كذلك . ولكن الموقف يختلف : فهذا السلطان يرق لحال الشاب المحب ويعمل على أن يزوجه من الفتاة التى احبها . أما ذلك الامير فانه على العكس يريد أن يستأثر بتلك الجارية ويحرم منها صاحبها المفتون بها ، فغشيه من الهم ما غشى فرعون وجنوده من اليم ، وانتهى الموقف بأن قارض الامير سواد العين بصفرة العين ، بعد ما كان صاحبها لا يسمح بمفارقة بدره ، وبأن ينزع قلبه من صدره . وأما الموقف فى مقامتنا فقد انتهى على العكس ، بأن صفت اكدار الشاب بتلك المحبوبة التى هام بها . ثم يقع القسم منه بأن لا يقص شاربه ، كما عاهد الله ابو زيد أن لا يحاضر نماما منذ هذه الحادثة، حتى ولو كان الزجاج . وبذلك أقصى عنه ذلك الرفيق ، الذى كان « لا يكتئب من النجة اى التذلل ، ولا يتئب أى يستحيى من وقاحة الوجه . بل يلظ بالوسائل ويلح فى المسائل » واخيرا « دعا بالويل والثبور وييئس من نشر وصله المقبور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور » . وكذلك كان بهذه الصفة ذلك الحجام . فقد لازم صاحبه لزوم الظل الثقيل وعمل هذا كل ما أمكن فى تثبيطه ، واستعان اخيرا بالعجوز الياقوت خاطبته ،

ولكنه ظل متبعا لاثره ملحا الحاحه الوقح الى أن كانت الكارثة المذكورة فهذه عناصر كثيرة نجدها منبثة من المقامة السنجارية .

ثم أن عنصر المفاجأة فى المقامتين واضح جداً ، وان كان هذا يكاد يعم المقامات القصصية بصفة خاصة . ولعل القصة من طبيعتها تعتمد على المفاجأة اكثر مما تعتمد على غيرها ، ولهذا نجد روايات شكسبير معتمدة عليها اعتمادا كليا . وهكذا فأبو زيد ركن الى جاره ، ولكنه فوجىء بأضراره ، فيما نم عنه لدى الامير حتى انتزع جاريته الجميلة ، وكذلك الشاب ركن الى الحجام وصار يداخله ويسائله ، لعله يستدل بذلك على فعله ، الذى أعجبه لا محالة ، وأراد أن يجازيه بدرهم ، ولكنه اخطأ فادخل يده فى كيس الدنانير ، فكانت هذه مفاجأة ، ثم ناول دينارا منه للحجام المذكور . فكان ذلك مفاجأة له ، طار فرحا لها ، وترك حرفته ، فصار يتبع الشاب طمعا فى دنانيره . فكان عمله هذا مفاجأة للشاب ، لم يحسب حسابها ، ولم يقدر عواقبها الوخيمة .

ومن المصادفات فى المقامة السنجارية ، أنهم لما نزلوا بسنجار ، صادف نزولهم ان أولم بها أحد التجار ، فدعى الى مأدبته الجفلى ، مـــن اهل الحضارة والفلا ، حتى سرت دعوته اليهم . فهذه مفاجأة لتلك القافلة التى كان فيها أبو زيد السروجى ، وكذلك كان الشاب فى مقامتنا بمدينة سنجار ، يصادف فى طريقه الى الحمام ، جماعة من النسوان ، بينهـــن فتاة كأنها قضيب البان أخذت بلبه بعد ما كان يستعين على الغربة بقربه، فحصل بذلك فجأة تحول فى سلوكه .

ومن المشاهد التى نجدها فى المقامتين ، انشاد الشعر لذى مقام خطير يستحسنه هذا ، فيحسن الى صاحبه ، فأبو زيد لما انشد أبياتا له وسمعها وسجعه رب البيت استملح تقريضه وسبعه (أى هجاءه) وبوأه صاه أى فرش كرامته وصدره على تكرمته ، وكذلك الشاب لـــا سمع شعر الخياط ، استحسن نظمه ، وحمل همه (فهذا عنصر آخر كذلك فى القصتين) واخيرا كان رب البيت قد استحضر عشر صحاف من الفضة وامر خادمه بنقلها الى مثواه مليئة بحلواء القند والضرب ، فاقبل أبو زيد

على أصحابه يقرأ سورة الفتح ، ويقول : أبشروا باندمال القرح « وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم » وكذلك كان الشاب اخيرا فى مقامتنا ، يقوم السلطان بصداقته من عنده على احسن صورة ، ويامر برد ماله الذى كان قد أخذ منه ، وتبليغ أمله ، فكان ما احبه قد تحقق بفضل ما كرهه من تلك المحنة ، والعيشة الخشنة ، التى قاساها فى سجنه . فهذا عنصر آخر فى القصتين كذلك ، أمكنه الآدب من تلك الصحاف هدية ، سلمه الغلام الذى كان يحملها ، وهو الموقف الذى شابهه مع وجود الفارق تمكين السلطان ذلك الشاب من الحجام ، الذى ذهب به الى داره ، وكان هذا يعتبر نفسه غلاما له ايضا ، كما ظنته الخاطبة كذلك ، اذ قالت له « دع غلامك يذهب » وقال الشاب والله ما هو لى بغلام . ولكن الموقف يختلف بعد ، فأبو زيد يقول « لست أدرى أشكو ذلك النمام أم اشكر ، وأتناسى فعلته التى فعلها أم اذكر ، فانه وان كان أسلف الجريمة ، ونمم النميمة ، فمن غيمه انهلت هذه الديمة » أما الشاب فقد صلب حجامه مرجوما على باب داره وان كان سببا فى نيل مرغوبه . ويصح أن يضم الى ذلك عنصر الصلاة ، المنبثق من قول الحريرى « وجمع فيها بين الفريضة والنافلة » والفرق انه استعمل هذا فى الاستدراج .

ومع هذه الفوارق ، فلا ينكـــر اقتباس ابن الطيب مقامته من مقامة الحريرى المذكورة ، ثم انها لا يبدو فيها أثر لبيئة الاديب ، على خــــلاف غيرها ، بل على العكس كان المكان « سنجار » وغريبا عنه (1) .

ومن ناحية الصنعة ، فزيادة على الاشعار التى تخللت المقامتين ، نجد فى السنجارية اقتباسات قرآنية ، كما نجد فى مقاماتنا أخرى منهـــا « صنوان وغير صنوان » « والله على ما نقول وكيل » « باسم الله مجراها ومرساها » « هل جزاء الاحسان الا الاحسان » « تصدق علينا ان الله يجزى المتصدقين » « أزفت الازفة ليس لها من دون الله كاشفة » « وقلن حاش لله » « جاء الحق وزهق الباطل » « سبع ليال وثمانية أيام حسوما » فهذه لم يتصرف فيها مطلقا ، وهناك أخرى فيها تصرف بسيط ، مثـــل

(1) والغالب انه أنشأ المقامة وهو بمصر ، كما تقدم فى التعليق السالف .

« ضرب بينى وبينك بسور له باب » فهذه أبدل فيها « بينهم » الواردة فى الآية ، بقوله « بينى وبينك » وكذلك تصرف فى « طبع عليه الانسان من عجل » فأبدل « خلق » الواردة فى القرآن ، بقوله « طبع عليه » وقد وردت فى المقامة السنجارية ، كما هى « خلق الانسان من عجل » وفيها « من تسنيم » و « لا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة » ... فهذه كلها من القرآن تضاف الى ما سبق مع الاقتباسات الثلاثة الواردة فى حديثه .

وله أخرى تصرف فيها أيضا . ومن ناحية الفن ، فالمقامة لا ترقى الى المستوى الذى عليه مقامة الحريرى ، لا لغة ولا بلاغة ولا تشخيصا ونجد فيها زوائد نجمت من تلك الاسجاع المتكلفة ، مثل قوله « ويطرب لسماعه المنصتون والناظرون » فلا محل للناظرون هنا ، وكذلك « وحدثتنى نفسى بخطبتها والعمل عليها » . ولا لزوم للعمل عليها هنا ، ومثل « فما ظفرت ولا توصلت » و « يئست من حياتى ودنت وفاتى » ومثل « ومقصات مستحسنات ... فأمرته بقصه وان يأخذ منه بمقصه » الى غير هذا من الحشو والزوائد ، يضاف اليها التكرار بنحو « سيدى أدخلوه وطمعوا فى ماله فقتلوه » وان كان هذا التكرار يغفره تصوير ذلك الحجام بتلك السماجة وترديد الاستغاثة فى موقفه ، كما يصورها فى ذلك فضوله الذى يجعله يذكر ويكرر التذكير بوجوب الجمعة والحضور لادائها ، فى تلك اللحظة الحرجة .

والحبكة فى القصة لا يستهان بها . ونلتمسها فى مداخلته للخياط بالسؤال أولا عن صناع دكانه ، بعد أن حمل اليه تلك الاقمشة التى تظاهر بانه يقصد تفصيلها ، فجالسه وحاوره وآنسه وعجل له أجره فى سخاء ، حتى فرح بحضوره واعتنى بأمره ، ثم صار يقص عليه قصة كل دار الى أن وصل الى الدار المقصودة بالذات ، ونلتمسها عند ما عادت الخاطبة وقد طال انتظاره لها فلاح من وجهها عدم القبول الخ ونلتمسها أيضا فى اختيار وقت صلاة الجمعة حينما يكون والد الفتاة قائما على منبره خطيبا ، وما كان منه بعد ذلك ، وقد عاد الى داره فوجد الناس مجتمعين حولها ، والحجام يصيح ويستغيث وهم يسمعون ذلك فى غشية الخوف والهلع ، ونلتمسها

فى دخول الخطيب الى داره ، معرفا نساءه قول الحجام ، وموجها اليهن سهام الملام ، وما كان منهن من حلف أرضاه ، وقد قلن له : حاش لله. وهذه مقتبسة فى الواقع من قصة يوسف فى القرآن الكريم ، ونلتمس هذه الحبكة أيضا ، فى دخول بعض الحاضرين مع الحجام الى الدار ، وقد أذن بذلك الخطيب ، بعثهم على ذلك فضولهم فى كشف الاخبار ، وتصوير شـــره الحجام فى المال ومضايقته لذلك .

ولا تنال من القصة ، بعض الاخطاء ، كتذكير البير ، وتأنيث الباب ، ثم تأنيث الشارب أو شعره ، بعد ذكره مذكرا فيما قبل وقوله : وأمرت النساء يسترونها ، بدل يسترنها .

وبالجملة فالمقامة التى تعنينا ، لا ترتفع الى مستوى رفيع ، وهى دون المستوى الذى عليه مقامة الحضرمى السبتى ، وان كانت هذه تقوم على المناظرة والمفاخرة ، وتلك تقوم على القصة المجردة .

ولا شك أننـــا لاحظنـــا فيمـــا سلف من الاسلـــوب على مقامة العلمى ان صاحبها بالرغم من كونه اقتبس فى مقامته جل عناصرها من مقامـــة الحريرى السنجارية ، فانه فى لغته خلص تماما مما عليه المقامة السنجارية من استعمال الغريب والتأنق فى استغلال المشترك من الالفاظ . فكانت لغته سهلة لينة ، لا تحوج اية كلمة منها الى استشارة المعاجم .

وفى مقامتنا كذلك أصداء من المقامة الحجرية ، فالحجام فيهـــا هيئته نظيفة وحركته خفيفة وقد نفحه الحارث بدرهمين انثالت عليه الدراهم فازدهاه الفرح عند ذلك ابتهج بباكورة جناه ، وتفاءل لغناه . وفيها انه بعث الغلام فى مهمته فأبطأ ، ثم عاد مخفقا فى مسعاه ، وهو ما كان مـــن الخاطبة فى مقامتنا مع ذلك الشاب بطل القصة . ومن الالفاظ الواردة فيهما « الخنا » ، كما فيها معنى هذا البيت الوارد فى مقامتنا :

القنـــى فى لظـــى فان غيـــرتنـــى   فتيقـــن أن لست باليـــاقـــوت

والوارد فى الحجرية هكذا :

وطالما اصلى الياقـــوت جمر غضى   ثـــم انطفا الجمر والياقوت ياقوت

وفيها « اللظى المضطرمة » كذلك ...

وفى هذه أيضا الضرب على الحديد البارد ، وفى مقامتنا وصف قلب الخطيب ، بأنه دونه الحديد ، وفيها وصف الرزق بكونه أضيق من سم الخياط وفى مقامتنا يصف الخياط رزقه وحاله فى البيتين :

أنـــا الخيـــاط لى رزق ولكـــــن أرى حـــالى مـــن الافلاس عبره
ذراعـــى فيـــه من فقـــرى مقص ورزقـــى خارج من عيـــن ابـــره

كما نجد فى تلك المقامة الحجرية « ونقلت اليك قدمى » وفى مقامتنا « وعجزت عن نقل قدمى » .

فهذه أصداء من المقامة الحجرية نجدها فى مقامتنا . ومع هذا كله فاللغة ، ايضا ، مختلفة من حيث الغرابة والحوشية ، التى انتهى الحريرى بها الى اقصى حد ، لانه فى الواقع لم يكن يقصد الى القصة من حيث هى ، ولا الى المسائل العلمية مجردة ، بقدر ما كان يهدف الى تحميل من يتلقاها زادا من اللغة ثقيلا تنوء به المدارك والافهام ، بخلاف ابن الطيب فقد هدف الى القصة المجردة من كل تكلف أو تحمل لغيرها ، والغـــالب أن ابـــن الطيب قصد المعارضة بها كما قصد المعارضة لمزدوجة مدرك فى عمـــرو النصرانى الذى تحدث عنه الحريرى أيضا ، كما قال ياقوت .

ولابن الطيب أثر فى التاليف الادبى هام بالنسبة لعصره وهو كتاب « الانيس المطرب فيمن لقيه مؤلفه من أدباء المغرب » فهذا الكتاب يعد سجلا لعصر هذا الاديب وان لم يكن على درجة حافلة فى ذلك ، فانـــه المصدر الاول لدراسة أدبه ، شعره ونثره ، زيادة على أولئك الذين ذكروا به . والغالب انه أهمل كثيرا أو قليلا حتى من هؤلاء الذين لقيهم لسبـــب من الاسباب (1) .

وعلى كل حال فمن المفيد أن نلقى نظرة على هذا الكتاب .

ففى المقدمة نجده يدعو بالنصر والتمكين فى التحريك والتسكين ، لمولانا أمير المسلمين ، جابر انكسار المعدمين ، الذى زهت به أيامه ، وعم

1) وقد انتقده بهذا الشاعر المعاصر له على مصباح .

البرية انعامه فأيده الله وظفره ، وأباد به جيوش الكفرة ، الاشرف الهمام، الامير العاوى الامام ، ابى النصر مولانا اسماعيل ابن مولانا الشريف ، ادام الله نصره ، وشيد فى دار الخلافة والتأييد قصره ،،،، فهذا كتاب دعا اليه من يجاب دعاؤه ، ويملأ بالسمع والطاعة وعاؤه

والمفهوم من هذا كله ، أن المولى اسماعيل كان الباعث على تاليف الكتاب ، أو أنه احد كبراء رجال الدولة والوزراء . وعلى كل حال ، فهو يذكر أنه ضمنه بعض كلام ادباء المغرب ، وانه كان عند الشروع قد نوى ان يجمع « بين أصول العلماء والفروع » لكنه آثر الاقتصار ، لما لم يجد معه « شيئا من انبائهم » فاقتصر « من الرجال على المشهورين » ثم قبل الترجمة لهؤلاء المشهورين ، قدم قصائد له فى مدح المولى اسماعيل ، وهى ثلاث ، تجرد بعدها لتراجم الادباء ، فكانوا حسب الترتيب هكذا :

1 ـــ أحمد بن عبد الحى الحلبى ، فذكر أنه نشأ بحلب ، وغادرها الى فاس ، ثم اثبت له قصائد ومقطعات جلها فى مدح الرسول ، وحكايات

2 ـــ محمد ابن زاكور ، فوصفه بما تقدم « وحيد البلاغة وفريد الصياغة ، الذى ارسخ فى أرض الفصاحة أقدامه ، واكثر وثوبه على حل المشكلات واقدامه » .

3 ـــ محمد بن مسعود المرينى ، « واعظ المدينة » واثبت له من شعره توسلات ووعظيات ، كما اثبت له نماذج من رسائله ، وأبياتا فى الجناس وعجائب له .

4 ـــ محمد الشرقى ، فحلاه بأنه « شاعر الاوان الذى لا يشتمل على مثله ديوان » وهو صاحبه الذى عرف به ، واتى فى ذكره بآداب وفنون وأثناء ذكره لما راج بينه وبين صاحبه ، استطرد لذكر صاحب لهما اديب هو :

5 ـــ أحمد عمور ، فذكره بكونه « له كلام سهل تميل الى سماعه العامة » ، كما ذكر له اشعارا ، ثم قال « وللشيخ احمد عمور ديوان خاص به فى لجة الاكثار وعام ، وجمع بكثرة الشعر فيه بين الاروى والنعام » واستطرد ـــ بعد أن عاد الى صاحبه ـــ استطرادات ملأت صفحات منه

6 — المهدى الغزال ، الذى وصفه بأنه « اديب ماهر وقضيب بلاغة بالاغراب زاهر » ، كما حلاه بالاديب الكاتب ، وهو والد احمد كاتب محمد بن عبد الله الآتى ذكره . ثم ذكر له مطارحات شعرية ؛ جرت بينه وبين صاحبـــه الشرقى .

كما أتى له بمقطعات فى جارية وساقية ومغنية ، وفى غيـــر هـــذا من غزل ووصف وتورية .

7 — عمر الحراق الحسنى الوزير الكاتب ، قال فيه « قوى العارضة، لا يطمع الفتح أن يعارضه » واتى له بأبيات يتشوف الى شفشاون بلده وشفعها بحكايات عنه وعن حفظ وليده ، نجدها كذلك منقولة فى الاتحاف .

8 — أحمد دادوش ، حلاه بالاديب الكاتب « صاحب التعاريض فى الضروب والاعاريض » ثم ذكر له شعرا ، فى قصيدة طويلة مذيلا بها ابياتا خمسة .

9 — محمد البوعصامى ، قال فيه « بليغ مصره وامام الادباء فى مغربه وعصره » ثم ذكر له شعرا أيضا ومعلومات موسيقية لقنه اياها وغير ذلك .

10 — عبد القادر بن شقرون ، قال فيه « شاعر مصيب رتع فـــى البلاغة بمرعى خصيب » ، واتى له بأشعار متغزلا ومتوسلا وغيرهـــا ومعلومات طبيـــة .

11 — محمد بن سليمان ، وصفه بأنه « شاعر مطبوع » واتى له بنماذج من شعره ونثره وبعض الالغاز والاحجيات والحكايات والانشادات واطال فى هذه الترجمة واستطرد فيها . كما ساق بعض قصائده التـــى عارض بها شعراء مشارقة ، وأخرى قالها فى مناسبات ، وموشحـــات له وغير ذلك من الاشعار والحكايات العجيبة ، والمستطرفات التى قصها فى قالب المقامات ، وقد اطنب فى ذكر اشعار له مادحا لاشخاص وبلدان نالت منه نصيبها الاوفر « تطوان » كان لهذا البيت :

مـــا لتطـــوان لم تلد لك شبهـــا   انهـــا عــــن ولاده لعقيمـــــة

منهــا منــاقشات علميــة حادة ، كتبت فيها الرسائل ، وذكرت حولها استطرادات وحكايات ايضا ، انتهت بذكر اشياخه الذين كان منهم المسناوى أحمد وابنه محمد ، وفى هذا الصدد اتى بقصائد فى مدحهم ، أو بمناسبة تذكرهافى ذلك المعرض،كما اتىبمراثيه لبعضهم، كمحمد بن احمد القاضى الحميد.

وهذه الترجمة من أمتع ما فى الكتاب ، ان لم تكن أمتعه ، لكثرة ما ورد فيها من استطرادات أدبية وتاريخية ، تصل بحصار سبتة والقائم به.

12 — على مندوصة ، وصفه بقوله « شاعر مفلق ، فقير من التوقف مماق ، يقيد ما شاء من القوافى ويطلق ، ويفتح باب المعميات آونة وتارة يغلق ، رحل الى البلاد المشرقية فحل المشكلات النحوية ، والاشكال المنطقية ، ومال الى المذهب ، واذهب فيه من عمره ما أذهب » .

13 — أبو عبد الله محمد بن يعقوب ، وصفه بقوله : سديد الباع ، كثير الانطباع ، رحيب الاندية فى الكلام والرباع ، له أبيات سهلة العبارة ، لطيفة الاشارة ، أخذت بمجامع القلوب .

وبالتفصيــل فاننا نتناول آثار هــؤلاء فيمــا ذكروا بــه فى الكتاب.

أما صاحب ابن الطيب العلمى ، محمد الشرقى الفاسى ، الــذى قال فيه — كما تقــدم ذكره — : شاعر الاوان ، الذى لم يشتمل على مثلــه ديوان ، دخلت عليه عرايس المعــانى من كل باب ، ومدت الى سماء بلاغته بالاسباب » الى آخر تلك الاوصاف التى تضعه موضع الاديب المتــاز صاحب المواهب الفذة والاطلاع الواسع والاستحضــار العجيب والقدرة على الارتجال والمعارضة ؛ فمن شعره قصيدة طويلة ، قالها فى غربته يقول فيها :

الا فى سبيــل الله ادمــان غربتى	وتقريب تأويبى وتبعيــد أوبتــى
تغربت عن اهلى وانسى والفتــى	ولهوى وزهوى وانبساطى ونعمتى
وصرت الى قفر ووحش وفرقــة	وهــــم وغــم وانقباض ونقمــة
وفارقت مــن لو دام فى العين ثاويا	لكــان لها كالنــوم من بعد يقظة
وعاشرت من لو كان فى الغربقاطنا	لصرت لاقصى الشرق فى طى لمحة
وباينت من لو بان عنى حقيقــة	لمت بأشواقى لــه الف مــوتــة

وعاينت من لو مالت العين نحوه ... اراه عليها شر وزر وزلة
فيا راكض الوجناء تجهد فى السرى ... وتطوى الفيافى بقعة بعد بقعة
مجدا على كثبان رمل مهيلة ... وهائلة تربو على كل ربوة
وأبصرت فى «الصفراء» «صفرا» ازاءها ... ومن بعدها «الحمراء» ذات الثنية

ومنها :

وسرت بأرض لو تسير بها القطا ... لضلت وما دلت على ورد جرعة
كأن هدير الريح فوق بساطها ... حزين يوالى زفرة بعد زفرة
كأن جياد الخيل من عرق بها ... سفائن بحر خضن فى وسط لجة

ومنها فى الخيل :

تزلزل أطراف البلاد فلو علت ... جحافلها فوق الجبال لدكت
اذا ما تمشت فى الحضيض تخالها ... عقارب صيف فى ربى الرمل دبت
كأن كرام الناس فى صهواتها ... بدور بأفلاك الجمال تجلت
كأن انين العيس واد هجيرها ... بكاء عميد ذاق أول عشقة

ومنها :

وجئت الى تازا الزكية زائرا ... بلاد لها فى الغرب اقدم نسبة
هنالك ترى من آل فاس معاشرا ... لهم عشرة تزهو على كل عشرة
أناس بهم زان الاله بلاده ... كما ازدان محبوب بحسن الطوية

ومنها فى فاس :

وبلغت فاسا موضع الحلم والتقى ... فمن حلها تغنيه عن كل بلدة
« بلاد بها نيطت على تمائمى » ... ومنها ابتدائى فى الوجود وتربتى
فكم من صديق لى بها متعطف ... أميل لمرآه وتصبيه رؤيتى

ومنها أيضا :

فآه على جناتها ونعيمها ... ففيها نعيمى فى الحياة وجنتى
وآه على نهر الجواهر سائلا ... كمثل عقار سال عن عين فضة
اذا اخضر منه النبت وابيض ماؤه ... يحاكى عذارا لاح فى حسن صفحة

واعذب من شنيل والنيـــل ذوقه   واغـــزر مـــن نهر الفرات ودجلة

الى أن يقول فى صاحب له ضمن آخرين من أعلام فاس وادبائها :

حكى فى التقى بشرا وفى الفضل خالدا   وفاق ابن ثور فى سماح ورافـــة
فراستـــه تنسى ايـــاسا ومـــالكا   وينسى ابن سينا فى ذكاء وحكمة
تجمع فيـــه كل مجـــد وســـؤدد   كمـــا اجتمع القرآن فى صدر حمزة
فلولاه ما تاق الفـــؤاد لمنـــــزل   كمـــا تاق ملسوع لانفع رقيـــــة
الا ليت شعرى هل أراه بناظرى   وهل تسمح الايـــام منه بـــزورة
وتنظمنـــا الاقدار فى سلك أنسها   كمـــا انتظـــم الـــدر النفيس بلبة

الى آخر القصيدة ، التى قال عنها صاحب الانيس « جرى على كل الالسنة شكرها » ولكنها فى الواقع تحكمت فيها القافية ، التى قسرت معانيها وقصرتها عليها ، فكان فيها تفكك وضعف ببعض عبارتها .

ولابى عبد الله الشرقى فى العشق والغرام قوله :

بـــدء الغـــرام مجـــون   وبعـــد ذاك شجـــون
والحـــب نفـــع وضـــر   وجنـــــة وجنـــــون
وراحـــــــة وبـــــلاء   ومنـــــة ومـــنـــــون
فاحفظ فـــؤادك منـــــه   فمـــا هنـــــاك أميـــــن
أولا فمت بـــه وجـــــدا   فالمـــوت فيـــه يهـــــون

هكذا نجده تناول هذا الموضوع بغير ما تناوله به الاغماتى ، والموحد فيما تقدم .

والملاحظ عليـــه ركونه الى أجراس الالفاظ والتلاعب بها كمـــا يركن الى التقابل بين المعانى والاول أكثر ظهورا فى شعره كقوله فى هذه الغزلية:

مـــن لـــى بهـــا تختال فى حليها   كـــروضـــة تختـــال فى زهرهـــا
فبشرهـــا أرحب مـــن بشـــرهـــا   ونشرهـــا أطيب مـــن نشـــرهـــا
وخدهـــا أبهـــج مـــن وردهـــــا   ونـــورهـــا أبهـــج مـــن نورهـــا
وقـــدهـــا أرفـــع مـــن غصنهـــا   ووجههـــا أبيض مـــن فجـــرهـــا
العيش والجنـــة فـــى وصلهـــــا   والمـــوت والنيـــران فى هجرهـــا
وهـــى فى مجلس أفـــراحهـــــا   كأنهـــا الزبـــاء فى قصـــرهـــــا

لــو تسعــد الدنيــا بــزورتهــا   لاصطلــح النــاس على شكرهــا

وهكذا فننا نلاحظ على هذه الابيات حذلقة قبــل أن تكون شعــر فطرة أو تطبع وهو ما كان قد انتهى اليه الادب عند تلك الجماعة المتأنقة المتزخرفة أكثر مما واجهناه فى العصور الخالية وخصوصا العصر المرينى الذى ابدا فى الحياة واعاد .

أما تائيته السالفة فهى فى جملتها تنظر لا محالة الى تائيــة ابــن الفــارض :

نعم بالصبــا قلبى صبا لاحبتــى   فيا حبــذا ذاك الشذى حين هبت

وفيها ذكرت معاهد الشباب ومواطن الاحباب ، كما فى هذه الابيات :

مخيــم لذاتــى وســوق مآربى   وقبلــة آمالى وموطن صبوتــى
منــازل انس كن لم انس ذكرهــا   بمن بعدها والقرب نارى وجنتــى
ومــن اجلها حال بهــا واجلهــا   عن المن ما لم تخف والسقم حلتى
غرامــى بشعب عامر شعب عامر   غريمى وأن جاروا فهم خير جيرتى

يستمر هكذا فى ذكر الاماكن والديار الى أن يقول :

رعى الله أياما بظــل جنــابهــا   سرقت بهــا فى غفلة البين لذتى
ومــا دار هجر البعد عنها بخاطرى   لديهــا بوصل القرب فى دار هجرتى
وقد كان عندى وصلها دون مطلبى   فعاد تمنى الهجر فى القرب قربتى

ثم يختم القصيدة بقوله :

سلام على تلك المعاهد من فتــى   على حفظ عهد العامرية ما فتــى
أعد عند سمعى شادى القوم ذكرمن   بهجرانها والوصــل جادت وضنت
تضمنه ما قلت والسكــر معلــن   لسرى وما أخفت بصحوىسريرتى

وقد بلغ فيها التلاعب بالالفاظ مبلغه (كما رينا فى الابيات منها) .

وفى قصيدة الشرقىشىء من هذا التلاعب كذلك، ولكنه مقتصد جدابنحو « وباينت ما او بان » و « مهيلة وهائلة تربو على كل ربوة » و « وابصرت فى الصفراء صفرا » و « لضلت وما دلت على ورد جرعة » وفيها طباق

كذلك فى نحو « وتقريب تأويبى وتبعيد أوبتى » .

وهذه أبيات فى مغنية :

غنت فأغنت عن سمـــاع العــود	فكأنهـــا قـــرأت علـــى داود
عذراء يعـــذر مـــن يهيـم بحبهـــا	بيضاء تسحر باللحـــاظ الســود
هيفـــاء كالدنيـــا تلاعـــب أهلهـــا	أبـــدا وتمـــزج وصلهـــا بصـــدود
قدت قلـــوب العاشقـــين بقدهـــا	وبنهدهـــا قـــد طولـــت تنهيـــدى
لعساء فاقت ظبية الوعساء بالـــ	ـــطرف الكحيل وبالطـــلا والجيـــد
عاطيتها راحا تريح مـــن الاســـى	فى ليلـــة وفـــت بديـــن عهـــود
فسكرت من أكواسهـــا وحديثهـــا	سكـــرا يفـــارق غيبتى بـــوجـــود
حضر الغريب بها وغاب رقيبهـــا	وحلا الحبيب بها ومر حســـودى

وهى بجناسها المتكم فيها على مستوى من البيان مثل هذا التشبيه « هيفاء كالدنيا تلاعب أهلها ، أبدأ وتمزج وصلها بصدود » (وكذلك فى البيت التالى « وبنهدها قد طولت تنهيدى » وان كانت هذه الصورة منساقة مع الجناس الذى سبقها فى قوله : « قدت قلوب العاشقين بقدها » الى جانب الطباق بنحو « بيضاء تسحر باللحاظ السود » و « يفارق غيبتى بوجودى » ثم البيت الاخير :

حضر الغريب بها وغاب رقيبهـــا	وحـــلا الحبيب بهـــا ومر حسودى

ومن شعره قوله فى الحكم :

كل امـــرىء يصبـــو الـــى مثلـــه	وطائـــر يـــأوى الـــى شكلـــه
من لا يكـــون الخيـــر فى فرعـــه	فكيـــف كـــان الخيـــر فى أصلـــه
من أجمع النـــاس علـــى لؤمـــه	خاب الـــذى يطمـــع فى فضلـــه
من جار فى الحكـــم بـــلا قـــدرة	لـــم تاتـــه القـــدرة فى عـــدلـــه
ومن أهان النـــاس ظلمـــا لهـــم	دلتـــه دنيـــاه علـــى ذلـــه

فهذه أبيات تكاد تخلص من سيطرة قافيتها ، وهى اشبه بما تقدم لابن حيوس من قصيدته :

فعل امــرىء دل علــى عقلــه والفــرع منســوب الــى اصلــه

وبالجملة فان محمدا ، الشرقى كان شاعرا مقبولا على تصنعـه هذا ولكن لا نراه ناثرا بتلك الخطب التى ساقها صاحبه ابن الطيب اذ كل ما يصافحنا فى خطبه ونثره صنعة ، تتكلف فى بعض الاحيان ، وتقليـد ياخذ بتلك المعارضات .

واما احمد عمور ، فسلف ان قال فيه : له كلام سهل ، تميل الى سماعه العامة كثيرا . ثم قال : وله ديوان خاض به فى لجة الاكثار وعام ، وجمع بكثرة الشعر فيه بين الاروى والنعام .

وانى لا اجد له من نماذج تستجاد الا بعض أبيات من قصيدة ، مدح بها احد الاشراف العراقيين ، يوم قدومه من حجه ، استهلها بهذا المطلع :

جل مجــدا عــلاك عمــا اقــول اومــا جــدك النبــى الرســول
ساعدتك الايــام باليمــن والاقــ بــال يامــن به تهيــم العقــول
فثنــاك الــذى به هــام فكــرى كل عنــه الاجمــال والتفصيــل
منحتــك الايــام مــا ترتجيــه وحبــاك المــرام رب جليــل

وختمهــا بقولــه :

هاكهــا غــادة ثنــاك حــلاهــا مالهــا فى بنــات فكــر مثيــل
حسنت اذ تقــول فيك ارتجــالا « جل مجــدا علاك عمــا أقول »

فهذا شعر كما نرى سهل ، تفهمه حتى العامة فتميل اليه كثيرا ، كما قال العلمى ، وله اخرى فى التوسل لا تختلف عن هذه فى نسجها الرقيق الســاذج .

وامــا محمد البوعصامى فتقدم فيه انه « بليغ مصره ، وامام الادباء فى مغربه وعصره » قال : رحل الى «المشرق ، وطلع عليه كالبدر المشرق» ثم قال « حضرت معه يوما فى مجلس لبعض الاصحاب ، والافق يطرز ثوب الرياض برقم السحاب ، وكان معى الصاحب الظريف ، ابو العباس سيدى أحمد الشريف ، فمد يده الى العود ، والعود بين انخفاض وصعود ، والجو

بين بروق ورعود ، فاستخبر العشاق بتوشيته ، ورفل فى حلل الغناء وأرديته ، وعام فى خلجان الاتقان وأوديته ، فقال يمدحه :

تبدى كبدر الافق فى غيهب الدجى   غزال رآه ابن النبيه فجارا
يجس بأطراف الانامل عوده   فياتى بشىء ليس فيه يجارى

ثم أشار الى أن عارض ، ودع كل معارض ، فقال :

بدا كهلال الافق ليل وصاله   قصير ذاك الليل منه نهارا
وغنى بعود وهو سكران اعين   فصير منه السامعين سكارى

ثم لما أن طاب بغناه مغناه ، أنشد ثانيا فى معناه :

بى شادن مهما سرى فى غيهب   ارخى الحنادس افضح الاقمار
امسى يجس العود جسا محكما   فزرى بزرياب وانسى الدارا
ومن العجائب والغرائب شادن   يأوى القفار يحرك الاوتارا

فأبياته هذه على ما فيها من تشبيه الجميل بالبدر والغزال ، قد سئمتها لغة الشعر وأساليبه منذ القديم .

أما قوله فى البيت الثانى « فياتى بشىء ليس فيه يجارى » فما أبعده عن افق الشعر الجميل ، وما أجفه فى تصوير عزف هذا الذى يجس بأطراف انامله عوده فى مهارة وسحر .

وقد عاد الى وصف ذلك الجميل ، اذا سرى فى غيهب دامس أفضح الاقمار ، ولكنه هنا ذكره بشادن ، وفيما قبل ذكره بغزال ولا فرق بينهما الا أن يكون هنابالغ بأن جعله يفضح الاقمار ، وفيما قبل جعله كبدر الافق فى تبديه ، ثم قال : انه اذا جس عوده جسا محكما زرى بزريات وأنسى الدار ، ووصف الجس باحكام ، فيه من الجفاف ما فيه كذلك ولم يسعفه التأنق اللفظى فى زرى بزرياب .

ولا شىء بعد هذا كله يستحق الذكر او ياخذ العجب من هذا الشادن الذى يأوى القفار ويحرك الاوتار .

أما القصيدة التى ذكرت له فى التوسل

بالرسول وآله وصحبه والتابعين والائمة والصالحين كعبد القادر وغيره من الزهاد فانها متواضعة جدا ، وان كان ابن الطيب يقول : انها اشتهرت فى النجود والاغوار . فان كانت كذلك فلنفحاتها الروحانية البسيطة (ولا يلزم من اشتهارها فى عصر من العصور التى تهيمن عليها ظروف بعينها أن تكون هى فى نفسها بتلك الصفة التى تبوئها المكان الرفيع) .
وهـذا مطلعهـا :

سحى بدمع كالعقيق محاجرى	شوقا لطيبة والعقيق وحاجر
تلك المعاهد حين اظهر دينه	رب البرية بالرسول الطاهر
سر الوجود محمد خير الورى	والمنتقى من كل اصل طاهر
من قد تجلت طيبة الزهرا به	وزهت ففاقت كل روض زاهر
وسمت على الفردوس حقا واكتست	حلل السنا من شانه المتواتر
وتواضعت لمعالم الهدى بها الـ	ـآفاق كالفلك المحيط الدائر
أين اجتلاء نجومها وبدورها	من آله والصحب ذخر الذاخر
زهر المناظر طيبى الاخلاق من	فخروا به فى الناس أى مفاخر

فهذه أبيات تحقق ما قلناه فى القصيدة ، التى تجلت بنظمها ، وتخففت من زينة يتحلى بها الشعر ولغته الرشيقة . فالاستعارات معتادة ، زيادة على الاوصاف المتكررة ، كالرسول الطاهر والاصل الطاهر ، وطيبة الزهرا والروض الزاهر ، وان كان هذا مقبولا لاختلاف المعنى فيه ، ولكنه يتكرر بعد بزهر المناظر .

ومع هذا فالمطلع اقرب الى لغة الشعر من باقى القصيدة ، التى نعفى انفسنا من سماعها .

واما عبد القادر ابن شقرون الذى سبق أن قال فيه ابن الطيب « شاعر مصيب ، رتع من البلاغة بمرعى خصيب » .

فمن شعره هذا المطلع من قصيدة فى مدح الرسول عليه السلام :

اسقيانى كؤوس بنت الدوالى	ان عرانى السقام فهى الدوالى
بنت كرم ربت عناقيدها السو	د بمهد الغصون تحت الظلال

رنحت مهدهـا الريـاح وناغـتـ ـهـا البلابيـل من غصون عوال
رضعت من لبـان سلسال نهر وسقاهـا الحيـا سلاف الزلال
ربهـا المـزن فوق عرش عريش فتكلـل عـرشهـا باللـآل
حجب الفرس بكرهـا فى دنـان ضمخـوهـا بعنبـر وغـوال
مزجت برضـاب ظبـى لمـاه خندريس ختامهـا مسك غـال
بـين ورد ويـاسميـن وآس قـد تمايـل قـده فى اعتـدال
فى ريـاض زهت بشـوب نضـار مـن اصيـل مرونـق بالجمـال
هـزت النـافحات فيهـا غصونا شربت مـن شمـول ريح الشمال
غـرد العندليـب فيهـا خطيبـا فى منابـر قضب سـرو طـوال
كـم ليـال قطعتهـا فـى نعيـم حفظ الله عهـد تلك الليـالـى
بت متبعا بها « سنة » الوصـ ـل وبات الرقيب حلف « اعتزال »
بيـن راح وشمعـة ومغـن وظبـاء قنصتهـا باحتيـال
اذ نصبت لهـا حبائـل حفـت بزخاريف مـن غـرور المحـال

وهى قصيدة طويلة جدا ، وعلى مستوى من الجمال التقايدى الذى لا بدع فيه ، كما نجد هذا المطلع جميلا ، الا ان جماله معهود جدا للشعراء، فالكناية ببنت الدوالى عن الخمر ، معروفة ، وان زينها بالمتشابه فى نهاية البيت ، أى الدوالى ، فهذا كما فى قول الحريرى عن الدنيا :

قد رمتنا بالدواهـى والدواهـى

ثم الكناية عنها ببنت الكرم معهودة كذلك ، وان كان مهد الغصون بعد ، مما يستحسن له ، كما يستحسن ما يتصل به فى البيت :

رنحت مهـدهـا الريـاح وناغتـ ـهـا البلابيـل من غصون عوال

على ما فى الغصون هنا من تداخل مع الغصون السابقة ، حيث جعل الاخيرة تعتليها البلابل حقيقة ، وجعل الاولى مهدا على المجـاز (واسهب فى هذا الربيب ، فهو يرضع من لبان نهر سلسال ، فاذا نمـا سقى سلاف الزلال . ولكنه عاد مرة أخرى لهذه العناقيد فذكر ان المزن ربها فوق عرش . وربما تحرر هذا الاديب الفقيه ، فجعل المـزن ربـا

لها فوق عرشه ، وهذا يناسب الربوبية ، كما هو الظاهر ، ويكون فيه من الانسجام وعدم التكرار . اما ان جعلنا ربها ، بمعنى ساسها ، وتكون هى فوق عرش عريش ، فيكون فيها تكرار ، وينسجم مع اضافة العرش بعد الى الضمير الذى يعود عليها . ولا يمنع هذا التقدير الاول ، فيكون عرشها بالملابسة ، حيث ان ربها صاحبه . وبعد هذا يذكر ان الفرس حجبوا بكر هذه الخمور ، وهذا مطروق كذلك . وفى البيت بعد ذلك ، تداخل مربك . فهذه الخمر مزجت برضـــاب ظبـــى ، لماه خمر كـــذلك ، وهى الخندريس ، اذن فتكون الخمر قد مزجت بخمر ، ختامها مسك . وهو وصف قرآنى لخمر الجنة ، ويبقى بعد ذلك ذكر الورد والياسمين والآس يتمايل قده المعتدل ، كلها كانت ظرفا لذلك الظبى الذى كان بينها ، ولا مانع أن يكون القد المذكور لذلك الظبى نفسه ، ثم يصف روض تلك الزهور ، بكونه يزهو بثوب نضار من اصيل مرونق جميل ، وهذا معروف عند العباسيين كالسلامى ، بعد ابن المعتز ، ثم فى شعر الاندلسيين كما عند ابن خفاجة :

(والريح تعبث بالغصون وقد جرى   ذهب الاصيل على لجين المـــاء)

ولكن الجديد هنا ، كونه جعل الاشعة الذهبية ، ثيابا تزهو بهـــا الرياض ، وهو ما يحمد لتصويره البديع ، ومن قبيل التكرار قوله :

هـــزت النافحـــات فيها غصونـــا   شربت من شمـــول ريح الشمال

وكل ما فيه ، استعارة الخمر الشمول لهبوب ريح الشمال ، وهذا جميل ، زاده جمالا الترشيح قبله بشربه ، ثم الجناس بين الشمـــول والشمـــالى .

وكان الاليق — لولا الوزن والتكرار — أن تستبدل كلمة «رنحت» بكلمة « هزت » ، واذا بهذه الغصون قد سكرت بشراب هذه الشمول ، فتكتمل الصورة البلاغية ولا يبقى بعدما يسترعى النظر ، فى الابيات الخمسة الاخيرة ، الا التورية ، بالسنة والاعتزال ، وهذا على اطراف أنامل الفقهاء مثلـــه .

ويلاحظ على الابيات ان الاشباع استعمل تسع مرات فيهـــا وهـــذا الاشباع لم يتقدم لنا فى اشعار المغاربة الا فى موشحة ابى الحسن ابن هرون .

واما الغزال ، الذى وصفه — كما تقدم — بقوله : اديب ماهر ، وقضيب بلاغة بالاغراب زاهر ، ذكى العقل ، صحيح النقل ، الى ان يقول : لــه ملكة فى التعبير ، وقدرة على تنميق الطروس والتحبير ، واطلاع عـــلى الاخبار ، وعبارة مطاوعة عند الاخبار » .

والغزال ، ربما كان من ذرية الغزال السفير الاندلسى والشاعـــر القديم ، فان المهدى هذا اندلسى الاصل من مالقة ، وسنرى ابنه احمـــد من الكتاب النابهين والسفراء من المغرب الى بلاد النصارى ، كما كان جدهم، ان كان ايضا ، سفيرا من الأندلس الاسلامى الى بلاد النصارى .

والمهم ان الغزال ذكر من رجال الانيس . ومـــن شعـــره قـــولـــه فى جارية مغنيـــة .

وغيداء مـــن تحريك اوتار عودهـــا	غـــدا لهواها فى الفـــؤاد سكـــون
تغنى فما ندرى أمن صوت عودها	أمـــن صوتهـــا ذاك الغناء يكـــون

وقولـــــه :

كأن الشمـــع اذ يبـــدو سناهـــا	غيـــداء صالـــت باللحاظ الســـود
ورق الريـــاض تعلمـــت الحانهـــا	فلـــذاك تلفـــى عذبـــة التغريـــد

وقوله فى الشمـــع :

كأن الشمـــع اذ يبـــدو سناهـــا	بمـــرآة حكـــت شمـــس النهـــار
رمـــاح اركـــزت بغديـــر مـــاء	مموهـــــة الاسنـــــة بالنضـــار

وقـــولـــه فى بستـــان :

انظر الـــى الروض وقد نشـــرت	عليـــه اوراق مـــــن الياسمـــين
يحكـــى بســـاطا ناعما صيغ مـــن	زبرجـــــد يعلـــــوه در ثمـــــين

وله فى مجلس انس :

قم هاتها مـــن كف ذات الخمـــار	مذهبـــة تذهـــب داء الخمــــار
ولتغتنم اكـــواسهـــا بكـــرة	فالليـــل قد ولـــى أمام النهـــار

وله فى اعتدار لطيف :

ايا مــن عــلى الكتــب عاتبنــى ومالــى فى تركهــا معتـــب
اذا كنــت فى مهجتــى حــاضرا بعيشـــك قــل لــى لمــن اكتــب

وله فى جاريــة :

ادارت علــى وجهها شعرهــا وقالــت ومبسمهــا فى ابتســام
بعيشـــك ما شبــه هـــذا فقلـــت كليل احــاط ببــدر التمــام

فهذا شعر كما نرى متفاوت فى معرضه ، وفى بعضه تعبيرات متواضعة، مثل « فلذاك تلفى عذبة التغريد » و « ذاك الغناء يكون » .

اما التصنع والتصنيع فنجد ذلك فى تحريك الاوتار الذى يكون بــه سكون الهوى فى الفــؤاد ، ومثل « غنت فأغنت عن سماع العود » وهذا قد تقدم للشرقى بلفظه كما هو ، وتقدم لابن الطيب معناه فى قوله :

بيضـــاء ناعمـــة مغنيـــة تغنيـــك نغمتهــا عــن الوتــر

فكأنهم ثلاثتهم تباروا فى هذا المعنى البسيط .

ومن تصنعه هذا البيت :

قم هاتها مــن كف ذات الخمــار مذهبــة تذهـــب داء الخمـــار

ففيها ذات الخمار مع داء الخمار ، زيادة على مذهبة مع تذهب .

واشد منه تصنعا ، هذا اول البيت من قوله :

يالقومـــى ســـاق ســـاق ســـاق لــى المـــوت جهـــارا
لاح لـــــى والليـــل داج فغـــدا الليـــل نهـــارا

ومن التكرار فى وصفه للمغنية ، ذكره لها بغيداء فى قطعتين :

غنت فأغنـــت عن سماع العـــود غيـــداء صالت باللحـــاظ الســـود
وغيداء من تحريك أوتار عودهــا غـــدا لهواها فى الفؤاد سكـــون

وقد استعمل الجناس بين غيداء وغدا كما استعمله الشرق بـــين عـــذراء ويعـــذر .

وقد ركن فى بعض تشبيهاته ، الى صنيع ابن المعتز ، كما نجد ، فى

تشبيه الشموع موقدة ، برماح موهت أسنتها بالنضار وكذلك فى تشبيه الروض منثورة عليه الياسمين ، ببساط ناعم صيغ من زبرجد يعلوه الدر الثمين.

أما باقى التشبيهات فهى مطروقة ، مثل تشبيه الوجه الجميل الذى يحفه شعر فاحم بالبدر يحيط به الليل ، وكذا قوله :

لاح والليل داج فغدا الليل نهارا

وقد تكررا غدا فى هذا المنظر الذى يستحيل عن غيره ، فقبله « غدا لهواها فى الفؤاد سكون » . وكون الورق من الطيور تعلمت الغناء من المغنية مطروق كذلك (ويدعى واقعا فى مثل هذه المناسبات السجية) وكذا الليل ولى أمام النهار .

ثم ان وصفه للروض فى نسجه على شاكلة وصف عياض للزرع كما تقدم فى البيتين :

انظر الى الزرع وخاماته تحكى وقد ماست أمام الرياح

وأجمل ما فى هذه المقطوعات ، ما ورد فى ذاك الاعتذار عن عدم الكتب الى المحبوب الذى يستكن بالصدور وكأن هذا الشاعر لم يكن يجيد الا فى المقطعات ، ولذلك اقتصر عليها ابن الطيب فى كتابه .

وأما محمد بن سليمان فيقول فيه ابن الطيب : شاعر مطبوع يقتدى به فى الصياغة التابع والمتبوع ، أديب همام ، يجب به الاهتمام . ثم أتى بنماذج من شعره ، وبعض ألغازه وحكاياته كما ساق كثيرا من انشاداته لها .

ومن آثاره الادبية النثرية ما نجد بهذه الرسالة ، التى كتبها وذيلها بقصيدة ، بعث بها الى صديقه الأديب التطوانى محمد العربى ابريل ، بمناسبة ورود صاحب « الأنيس » عليه ، وكتابه بذلك الى ابن سليمان ، يقول فيها : (1)

1) يقول ابن الطيب .... فاعترضنى بعض الاخوان ، والزمنى الوصول الى داره بتطوان .... ثم اتصل الخبر بصاحبنا الكاتب ، امام البلاغة الراتب ، الاديب المجيد ، الاريب المجيد ، أبى عبد الله سيدى محمد العربى ابريل ... وكان بسبتة ، وما رأيته منذ اعوام ستة ، فأنفذ الى من ساعته ، من يحضرنى لساحته ، فقصدت المحلة ، =

« الى أخينا النبيل الأوحد المثيل ، الخليل الجليل ، الفقيه الكاتب البارع ، المباده المرتجل المسارع ، أبى عبد الله سيدى محمد العربى أبريل ، كلأه الله ورعاه ، وأنجح بمنه مطلبه ومسعاه ، وسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ورضوانه الأعم وتحياته ·

هذا وان كتابكم العزيز ، وخطابكم الوجيز ، وافانا فقرأناه ، وأطربنا لفظه البديع ومعناه ، فسقانا من رحيق بيانه أروق مشروب ، والحالة انا معرسون بوادى الخروب ، وسرنا ما أنبأتمونا به ، من وفود أديب الوقت وشاعره ، ومعظم حرمات القريض ومشاعره ، آية البلاغة ، وحامل رايتها فى كل ازاغة ، ذى الأنفاس الرائقة ، والاختراعات الفائقة ، والانتزاعات التى أمست لها القلوب تائقة ، والخواطر شائقة · الاحسب الأنسب ، الذى ما وراءه منتسب ، الاجل الغطريف ، أبو عبد الله سيدى محمد بن الطيب الشريف ، فيالها من بشارة ما أعظمها ، وعلى النفوس والقلوب ما أكرمها ، يحق لنا أن نبذل فيها العيون بعد العين ، وأن نقضى من الأيام بحلولها كل دين ، فأهلا بمقدمه وسهلا ، ومرحبا بمن سلك من طرق الأدب حزنا وسهلا ، وأصبح بحمد الله للاكرام والصنيعة أهلا ، فسنقدره بحول الله قدره ، ونثلج بأنواع المسرات صدره ، ونجاسه انشاء الله من مجلس الاحسان صدره ، ونؤدى به من واجبه ما يتداول على مرور الأزمان والاحقاب ، وأريه عرائس الامانى حالية الطلا حاسرة النقاب ، فلتك عنا خير نائب فى لثم تلك الراحة البديعة الحبك ، الرفيعة السبك ، واقرائها جميل السلام ، وجليل التحية والاكرام ·

ثم انا لما أدركنا رفيع كتابك ، وبديع خطابك ، لم نزل نفكر فيما بين يدى اللقا ، ونجعله سلما للصعود نحو ذلك المنصب الأرقى ، فما سمحت القريحة الخامدة ، والعزيمة الجامدة ، الا بأبيتات لا تعد مقالا ، ولا تساوى

= حتى وافيت محله ... وفى تلك الساعة ، كتب الى صاحب الترجمة ، وكان مسافرا بقصر كتامة ، كتابا اخبره فيه انى يممت مقامه ... فسار الرسول كافة يومه ... فلما انتهى اليه اعاده برسالة ... ثم ساق نص هذه الرسالة · ومن القصة نفهم ان ابريل كان من جملة القواد المجاهدين ، المرابطين على سبتة ... فهو من « المورسكوس » مثل على منضوضة MANDOZA · ولابن الطيب قصيدة طويلة فى مدح محمد أبريل ، أثبتها بكتابه ، منها :

وساعدتنى اخوان وأفضلهم   محمد العربى المفضال ابريل

وان غلت عقالا ، فان وصلتك فاعتذر قبل انهائهـا عن ظاهر خطلهـا وخطأها ، وسل المسامحة فى انكماش باعها وقصر خطاها ، على أنـه كان يجب علينا أن نأخذ بقول من سبق ، ولنحن أولى به وأحق :

اذا لـم تستطـع شيئـا فدعـه وجـاوزه الـى ما تستطيـع

ولكن فضل من زفت اليه ، وأوردت عليه ، يوسعها اصلاحا ، ويورى زندها وان كان شحاحا ، والسلام (وفى مكمل محرم الحرام ، فاتح واحـد وعشرين ومائة وألف) .

وهذه هى الابيات التى ذيل بها رسالته المذكورة :

خليلى رأيت الجو مكتسيا طلقـا وهذا أريج المسك قد عطر الأفقـا
وهذى قوافى الشعر تجلى خرائدا وقد لبست تاجا به فاقت البرقـا
وهـذى رياض النثر تنثر زهرهـا وزهر سماء النظم أحكمت النسقا
واصوات أطيار القريض تتابعـت ومنصب ماء القول يصحبها الصعقا
أحـق أتـى سحبان فاس وقسها وفتح بنى الأقلام من أحرز السبقـا
وقطـب رحاهـا والملـك رقهـا اذا قيل هل من ماهر أحسن النطقا
سليل امـام الأنبياء ونجـل مـن به نستمد العفو والغيث والرزقـا
خلاصتنا ابن الطيب الحسن الرضى محمد ترب الفخر والحسب الأنقـا
امـام همـام فى اللغـات مقـدم فليس سوى من بحره الدهر يستسقى
أتانا بـآى مـن نتائـج فكـره هى السحر بل من بعضها السحر قد يلقى
أرتنا زهيرا وامرأ القيس والفتـى لبيدا وحبـك النابغى وذى أرقـا
فمـا ظفـرت فاس بمثل بديعـه ولا استوكفت من غير انشائه الودقا
فأهلا بـه من زائر بشـرت بـه رياح التهانى فاستطبنا به الذوقـا
ويا حبذا وصل أتى دون موعـد فما بسواه نطرد الحزن والشوقـا

(فهذه الرسالة الى جانب أدبها تطلعنا على ما كان عليه القوم مـن اقبال على الأدب ورجاله ، وسنرى لابن يعقوب رسالة فى نفس المناسبة الى محمد العربى ابريل كذلك ومذيلة بقصيدة أيضا .

ومن النماذج الادبية لبعض رجال الانيس المطرب ، واجهتنا ظاهـرة جديدة ، وهى مطالع الامداح النبوية بالخمريات . وسبق أن الخمريات فى حد ذاتها عرفت فى شعر أبى الربيع الموحد ، ثم عرفت فى شعر المتصوفة فى العهد

الوطاسى ، ثم عرفت خمرا رمزية عند ابن زاكور فى العهد الاسماعيلى ، ثم واجهتنا خمريات على الحقيقة ، فى هذا العهد عند ابن الطيب العلمى

أمـــا ما رأيناه بعد من خمريـــات ، كمطالع للامداح (1) والامـــداح النبوية بصفة خاصة ، فهذا هو الجديد عندنا ، ظهر فى العصر الاسماعيلى، كما تقدم ، متأثرا بشعر المتصوفة الشرقيين ، الذين رأينا تقليدهـــم ، فى قصائدهم ، كتائيتى ابن الفارض ، قلد احداهما الجعدى والاخرى الشرقى

وأما على منضوصة ، فقد قال فيه ـــ كما تقدم ـــ « شاعر مفلق ، فقير من التوقف مملق ، يقيد ما شاء من القوافى ويطلق ، ويفتـــح باب المعميات آونة وتارة يغلق رحل الى البلاد المشرقية ، فحل المشكلات النحويـــــة ، والاشكال المنطقية ، ومال الى المذهب ، وأذهب فيه من عمره ما اذهب ودخل الجامع الازهر ، فناهيك من علم اشهر ، وخفى علم فيها اظهر ...

ثم أورد له ابن الطيب قصيدتين طويلتين ، احداهما قالها بمناسبة ختم مختصر خليل ، ما دحا بهـــا شيخه عليا بركـــة ، ومطلعها :

بليت بهجر الالف ان طمحت عينى	وهجر الالىقد خيموا فىالحشا صعب
عفا الله عنك لـــم تلوم أخا هوى	وتتعب صبـــا مدنفا مسه الكـــرب
تراه اذا جر الدجا سجف مرطـــه	ونام الخلى ذا أسى هكذا الصـــب
رويـــدك انى مـــذ ثلاث بأربـــع	لفى وله قد شب نيرانه الحـــــب
فلم فى الهوى العذرى أو لا فديدنى	الى زخرف العذال ما عشت لا اصبو

والثانية فى مدح محمد ابن زاكور ، يقول فيها :

سر البيـــــان وزبـــــــده ورواؤه	ونهايـــة التهذيـــب فى التقريـــــر
ونفيـــس كـــل مـــدون الفتـــــه	كدلائـــل الاعجـــاز فى التحريـــــر
وخلاصة التلخيص والنكت التـــى	تـــزرى اذا حققتهـــا بالحـــــور

وهى أبيات ضمنها توريات بكتب فى فنون متنوعة ، كان هو أو عصره على اتصال بها ، وأهمها كتاب دلائل الاعجاز لعبد القاهر الجرجانى ولـــه شعر فى غيره كقوله فى وصف متنزهات كيتان ، الذى سبق وصفـــه لابن زاكـــور ، من أبيات :

(1) استعمل هذا ابن هانىء الاندلسى فى بعض أمداحه ، كما فى التى مطلعها :
اليلتنـــا اذ أرسلـــت واردا وحفـــا   وبتنا نرى الجوزاء فى اذنها شنفـــا

ان الصبـا لمـا سـرى سحـرا	نسمـاته بروضنـا الأشجر (1)
إذكـاه حتـى خلـت نسمتـه	سحيـق مسـك ضاع فى المجمـر
لا بل كـورد أصبـح الطـل فى	أوراقـه كالـدر والجوهـر
فاستنشقن عـرف الرياض التـى	تزرى بريـا المسـك والعنبـر
ترى الشقيـق شـق أجيابـه	مخافـة مـن ورده الاحمـر
والنرجـس الغـض همى جفنـه	فـوق بسـاط سندس أخضـر
والأرض تهتـز بأنوارهـا	كـم أزرق فيهـا وكـم أصفـر
والآس يشبـه الدلال عـلى	قـدود ظبـى أهيـف أحـور
سقـى الشمـال روض كيتاننـا	بنافـع وعـارض ممطـر

أما محمد بن يعقوب ، فقد قال فيه : مديد الباع ، كثير الانطباع ، رحيب الاندية فى الكلام والرباع ، له أبيات سهلة العبارة ، لطيفة الاشارة ، أخذت بمجامع القلوب ، وجاءت على أحسن منوال وأبدع أسلوب . ثم ذكر له رسالة ، وجهها الى محمد العربى أبريل التطوانى ، يهنئه بقدوم ابـن الطيب عليه كما تقدمت الاشارة اليها ويقول فيها فانى على ما تعهد مـن المحبة الراسخة ، والمودة الدائمة الشامخة ، وقد بزغت علينا شمـس البلاغة ، وفاض علينا ينبوع اليراعة ، المشهور بالاجادة ، شقيق أبـى عبادة ، ذو الاملاء الصيب ، أبو عبد الله سيدى محمد بن الطيب ... » وذيل الرسالة بقصيدة قال فيها :

أبدر الدجـا أم بان طالع سعـده	أم ابتسمت ليلـى سرورا بوفـده
وهل بزعت شمس المعالـى وانها	لشمس محياه على صحن خـده
علامة حـب كان يطـوى حديثـه	الـى أن اذاعتـه مدامع وجـده
سقيم الجفون كم صحيح به بكـى	مقيم الشجون فى الصدور بصـده
شجـاه أراه لا يبيـد فينقضـى	وان اصطبـارى لا يلـم لبـده
أعانى عيونـا لا تطيش سهامهـا	ومرانـة تهتـز مـن لـين قـده

الى آخر الأبيـات التى يبدو عليها التكلـف بتلك الحلية البديعيـة ، وخصوصـا منها الجنـاس كمـا رأينا ثـم الطباق بنحـو : « سقيم الجفون كم صحيح به بكى » . وفيها استغلال « ما أظن ان تبيد هذه » من القرآن ، كما استغل من الشعر « لا تطيش سهامها » الواردة فى المنايا

1) عن « تاريخ تطوان » لداود ، ناقلا عن « نشر أزاهر البستان » لابن زاكور .

واما عمر الحراق فقال فيه ــ كما تقدم ــ قوى العارضة ، لا يطمع الفتح أن يعارضه ، تقلد الوزارة وشد بها ازاره ، فألقت اليها الرياسة عصا الطوع ، وأمنت بسيوف أقلامه وسهام اصابته من الروع ، وجاءها من البيان بكل صنف ومن البديع بكل نوع ، من رجل يهاب سطوته الحجاج ، ويستفتيه فى العربية الزجاج ...

الى آخر الأوصاف التى بالغ فيها العلمى ، عفا الله عنه ، وذكر أن له ديوان شعر ، ومن شعره قصيدة يتشوق فيها الى بلدته شفشاون ، منها :

شفشاون ياشفاء النفس من وصب ... ومن عنا وشفاء الروح من وصب
حياك من لم يزل حيا وأحيى ربى ... ربيت فيها رهين اللهو والطرب
مسقط راسى وانسى مع جهابذة ... تربو على كل ذى علم وذى أدب
زدت جمالا على حمراء اندلس ... وفقت بيضاء غرب منتهى الادب
أرض تجمع فيها كل مفترق ... فى غيرها من أراضى العجم والعرب
ماء معين واشجار منوعة ... تعجز عن وصفها الاقلام فى الكتب
ما شعب بوان ما مرج دمشق وما ... نيل بمصر وما العاصى لدى حلب
فى جنب شفشاون الغراء ان فخرت ... بتينها وبزيتون وبالعنب

ومنها :

انت التى فى سواد القلب مسكنها ... يا بلدة تربها يروى بلا قرب
تسر من جاءها ظمآن فى تعب ... كما تسر عطاشا ليلة السغرب
قومك قومى ورهطى لست أنكرهم ... وكيف انكر أمى او اعق أبى

ومنها :

وقد تبواها دارا ومعتصما ... لولا رمته يد الاقدار بالنوب

ومنها :

فاعجب لقلبى غريق فى محاسنهم ... وقد جفونى فيا للناس من عجب

وقد ذكر له ابن زيدان فى الاتحاف شعرا بمناسبة فتح العرائش ، وهو لا يرتفع عن المستوى الذى عليه شعره المتقدم الذكر ، ويبدو أن اهتمامه كان موجها أساسا الى الأدب ، بخلاف غيره من السابقين . ولهذا نجده

ينشىء طفله على حفظ الأشعار وأخبار الادباء كما ذكر فى الانيس (حيث أخبر أنه دعا بولد له بعد ست سنين ، انشده لا مية العجم ، وقصائد أخرى، ثم أطرفه بقصة سعد الوراق وما كان له من هيام بعيسى ابن تاجر نصرانى ، وما نظم فى ذلك من أشعار ، نستغرب من الحراق تلقينها ابنه ، مما يدل على أن هؤلاء القوم تهالكوا على الأدب ، ولم يراعوا فيه ما يحتويه فكان شأن الحراق مع ابنه شأن البحترى مع ابنه الذى يذكر كذلك عن أبيه كثيرا من تلك المواقف الشاقة ·

وأما محمد الطيب ابن مسعود المرينى ، فقال فيه : واعظ المدينة المرتدى الوقار والسكينة جنح الى التقوى ، وتمسك بحبها الاقوى ونسك فى أيام الشباب ، وورى فى شعره بسعدى والرباب ، يشير بمعانيه الدقيقة، لما يشير له أهل الحقيقة ·

وقد ذكر أن له تآليف فى التصوف ، ثم اثبت من شعره قصيدة فى مناجاة الله ، استهلها بقوله :

يا رب انك موجدى ومكونى ... ومدبرى ومصورى ومشكلى
أنشأتنى ورزقتنى وكفيتنى ... وعليك صح بلا ارتياب توكلى

كما ذكر له اخرى فى الوعظ ، ثم ذكر له من قصيدة اخرى ابياتا منها :

طيف الخيال تعرضا ... اخذ المنام واعرضا
وأثار وجدا كان فى ... طى الاضالع أجهضا
بأحبة حلوا الحمى ... تركوا الغريب ممرضا
يا قلب هم فى حبهم ... فعذابهم عذبا رضا
فرض علينا ودهم ... يأبى الحجا أن يرفضا
لم لا وقد أموا النبـ ... ـي الهاشمى المرتضى
المرتضى قبل العوا ... لم نوره ملأ الفضا
صلى عليه الله ما ... لاح البريق وأومضا

وأما أحمد دادوش ، فوصفه بقوله : صاحب التعاريض ، فى الضروب والاعاريض · ومودع الاعجاز ، فى الصدور والاعجاز · وأربى على من مدح ومن هجا وغزل ، وجد ما شاء وهزل · فلم يخطىء الاصابة ، ولا هلكت له فى البيان ولا المعانى عصابة ·

هكذا وصفه ابن الطيب ، ثم أثبت من شعره تذييلا ، لأبيات خمسة فى مناجات الذات العلية ، لا تنبىء عن فضله ، كقوله :

تستر العيب تغفـر الذنب تعطـى	تمنـع العبد كـل حكمك عـدل
تجبر الكسر تبـدل العسر يسـرا	تكشـف الضر كـل ذلك بـذل
لـم تـزل محسنـا غنيـا كريما	أنـت هـو الخالـق المعـز المذل
عـم كـل الـورى امتنانك حقـا	فالموفـق مـن لـه الشكر شغل
فقـراء واغنيـاء علـى البـا	ب وقـوف لهـم خضـوع وذل

الى آخر القصيدة التى تخلص فيها للتشفع بالنبى وذكر شمائله ، وان كان فى هذا قد استوى شعره عما رأينا

وبهؤلاء نكون قد انتهينا من رجال الانيس وذكر نماذج من أدبهم ولم نذكر أحمد بن عبد الحى الحلبى ، لكونه غير مغربى وان أقام بفاس التـى توفى بها ، وكانت له جولات شعرية مع أدبائها وادباء تطوان وقد عد ضمن الاثنى عشر على حين ضم أحمد عمور الى صاحبه الشرقى .

كمـا لم نذكر ضمـن هـؤلاء محمد ابـن زاكـور ، لكونـه سبق ذكره فيما مضى ، مع نماذج من شعره وموشحاته ونثره .

وهكذا فان ابن الطيب فى كتابه قد اقتصر على ذكر اثنى عشر أديبا ، من معاصريه الذين اجتمع بهم ، وترك كثيرا من هؤلاء المعاصـرين ، وحتى الذين اجتمع بهم . وجميعهم يمثلون العصر الاسماعيلى .

لهذا نعرج على بعضهم باختصار فمنهم محمد المنبى السوسى شاعر ناثر عالم ، وهو من تلميذ اليوسى . كان قاضى القضاة ، كما يصفه ابن زيدان وتوفى عام 1120 . ومن شعره قوله يداعب تطوانيا يدعـى « سينـو » :

« تبـارك » الملـك تحمينـا « وياسـين »
مـن شـر ما نتقيـه منـك يا « سينـو »
بالامـس يشكـوك اسحـاق وجيرتـه
واليـوم ها هـى تشكـوك المواسـين

تألــف اسمــك مـــن ضديـــن وانتقضـــا
« نعم » ، « لا » وهو بمعنى قولنا « سى » « نو »

تذكرنا بنونية ابن هانىء فى اكؤل ، منها هذا البيت :

تبـــارك الله ما أمـــضى أسنتـــه كأنمـــا كـــل فك فيـــه طاحـــون

وفى البيت الاخير من هذه الابيات يعنى الضدين فى الاسبانية التـــى فسر معنى « سى » فيها بمعنى نعم ، و « نـــو » بمعنى لا ، مما يدل على شيوعها بينهم آنذاك ·

ومن العهد الاسماعيلى محمد بن الحسن الايلانى السوسى ، ومـــن شعره قصيدة يهنىء بها محمد بن اسماعيل عند نزوله بتارودانت يقول فيها :

سعد الزمـــان وطابـــت الأيـــــام لما بـــدا مـــن جيشـــك الأعـــلام
فالدهـــر عيـــد كلـــه ومـــــسرة وتعانـــــق وتحيـــــة وســـــلام
فكأن رغد العيش حين حللت يـــا خـــير الخلائـــق عندنـــا احـــلام

الى أن يقول :

هل جئـــت مولانا بجيشك قائـــدا فى جانبيـــك حمائـــل وحســـــام
أم جئتنـــا للـــدرس والتعليـــم فى أيمانـــك الصفحـــات والأقـــلام

وهى تنظر الى قصيدة لابن دراج فى منذر بن يحى التحيبى مطلعها :

اسعـــد كما سعـــدت بك الأيـــام واسلم كما بك يسلم الاســـــلام

ومن هذا العهد أيضا ، ابراهيم بن أحمد السجتانى السوسى ، القائل بهذه المناسبة ، قصيدة يستهلها بقوله :

حظينا بخير النـــاس علما وحكمـــة ورأيا سديدا حيـــن يشتبه الأمـــر
وافضل خريتى العلوم وكل مـــا يســـوده فى ظهـــر مهرقه الحبـــر
وافضل سواس درى كيف يلتقـــى غزال مع الضرغام لم يعره ذعـــر
وافضل مقدام اذا اشتجر القنـــا وماج ببحر الحـــرب جحفله المجـــر

وهكذا نجد فى سوس وحدها جمهرة من الشعراء بحق ، وكان الامير نفسه شاعرا ، يطارحها ويساجلها الشعر ، كما حصل فى مجلس شراب ، قال فيـــه :

هذى الكؤوس مشعشعات الراح فانهض ناب نداءها يا صاح

فقال السجتانى :

ما عذر من ترك العقار بروضة زهراء بين منادمات صبـاح

فقال الايلانى :

فالوقت طاب وبلبل الأغصان قد ملأ الرياض بصوته الصداح

فقال أحمد الرسموكى :

والروض أزهر ورده بخدوده والياسمين بلونه الوضاح

فقال محمد الزدثوتى :

فكأن مبيض الزهور منضرا حبب الرحيق أعالى الاقداح

وهكذا نجد الامير تلاه السجتانى ، فالايلانى فالرسموكى فالزدثوتى ثم عاد مرة أخرى ، فتلاه كذلك المذكورون ، الى أن جاء دوره من جديد فقال :

كل الملذات العذاب توفرت فانهض ولب الأنس عند الراح

وكذلك نجد الامير ، يساجلهم أول اتصالهم به ، فيقول :

خليانى « سبق السيف العذل » حشو أذنى صمم عمن عذل

فأجابه السجتانى ، ثم الزدثوتى ، ثم الايلانى ، بأبيات نجدها فى « سوس العالمة » .

ومنهم عبد الحق السحيمى :

يكنى أبا محمد كان من كتاب المولى اسماعيل قيل فيه : كان « اذا نظم سحر الالباب ، واذا نثر اتى باعجاز واعجاب » (1) ومن شعره قوله ، من قصيدة فى مدح مخدومه : بهذا الاستهلال :

أمن أرضهم ريح الصبا تتضوع ومن دونهم بدر الأسنة يلمع
وفى حيهم ثار الهياج عشية فبات زئير الأسد فى الحى يسمع

1) نقل هذا ابن زيدان من الدر المنتخب .

اذا ارتحلـوا ليلا فضوء رماحهـم لهم فيه عن ضوء الكواكب مقنـع
وبين اسود الغاب بيض اوانـس وهل فى اسود الغاب للناس مطمع

وفى هذه اصداء من قصيدة ابن هانى فى جوهر يقول فيها :

ويسحب أذيال الخلافـة رادمـا به المسك من نشر الهدى يتضوع
له حلـل الاكـرام خص بفضلهـا نسائـج بالتبـر الملمـع تلمـع

وقال مرتجلا وقد حملت سيفا جارية للسلطان فطلب ان يقال شعـر فى هذا :

حملت سيوف الهند وهـى غنيـة عـن حملها بلواحـظ الأجفـان
حسـب الفتـاة جلالـة ومهابـة عز الجمـال مهابـة السلطـان

ومنهم محمد اليحمدى شخصية عظيمة فى السياسة والعلم والأدب . وهو الوزير اليحمدى الزرويلى . يقول فيه ابن زيدان انه كان فى جيد الدولة الاسماعلية افخر قلادة . وافخم مأوى لأهل الفضل والسيادة . برعت فى فن البلاغة اقلامه . وتقدمت فى ميادين البراعة اقدامه وطابت فى عرش المعانى البديعية ثمرته . وخفقت فى آفاق البيان اجنحته . فلو رآه قدامـه لقدمه قدامه . ولو نظر اليه النضر بن شميل ، لرآه ابعد من السهـى واعز عليه من سهيل . ولو ادركه محمد بن يزيد . لكان له كالتلميذ والمريد . يحمده عبد الحميد ويعتمد عليه العماد وابن العميد . ولو بدا لشاعر بنـى حمدان أو لبديع همدان . لعداه بالخنصر من حسنات الزمان . وفرسان البلاغة والبيان ... استخدمت الاقاليم ورجالها . وهابت فحول الكلام نضالهـا ونزالهـا .

وهكذا يحليه بهذه التحليات . التى مهما قيل فيها من مبالغة ، فهى تدل على كعب هذا الوزير فى الأدب عامة ، وخصوصا الترسل وقد ذكـر له من مؤلفاته ، ما هو حفيل بكل نادرة وغريبة ... الف فيه نفائس تبهـر العقول ... وله عدة رسائل مختلفة الاوضاع . تشهد له بما منحه مـن غزارة الاطلاع ... ولد عام 1060 وتوفى فى حدود 1130 . (1) .

---

1) وهو ممدوح على بن احمد مصباح الآتى ذكره .

وهكذا راينا جمهرة عظيمة من ادباء العصر الاسماعيلى ، كــان فيها الوزراء والكتاب وغيرهم ناظمين وناثرين . ونلاحظ على هذا العهد ان القوم صاروا يهتمون بجمع اشعارهم فى دواوين تضمها ، فكان فيهم اليوسى وابن زاكور الفاسى وعمر الحراق وأحمد عمور وعلي بن أحمـد مصباح الخمسى ، وجميعهم الا الحراق وعمور ما زالت دواوينهم تعيش بيننا ، وكذا ديوان محمد الرافعى تلميذ على بركة الآتى ذكره .

وباستثناء اليوسى ومصباح ، فانهم قالوا فى المولى اسماعيل ، مادحين او مشيدين بأعماله ، ومنها الفتوح وتخليص البلاد . وكانت اشعار بعضهم تحلى بها جدران قصوره التى استحدثها بمكناس عاصمة ملكه العتيـد ،

وهكذا كما كان الجهاد فى الدولة السعدية عاملا قويا من عوامل النهضة الادبية وانتشارها بين مختلف المثقفين كان كذلك الحال بالعهد العلوى ، فوجدنا هذا الادب يطفح عند استرجاع المولى اسماعيل لبعض الثغـور المغربية التى كانت بيد النصارى ، فكان من ذلك ثغر العرائش الذى قال فى استرجاعه مفتى فاس عبد الواحد بن محمد البوعنانى كما فى النزهـة اليفرنى ثم الاستقصا (1) :

الا أبـشر فهـذا الفتـح نـور ... قـد انتظمـت بعزمكـم الأمـور
وطير السعـد نادى حيث غنـى ... قد انشرحـت بفتحكـم الصـدور
وضوء النصـر ساعده التهـانى ... ونـور الفجـر نحوكـم يـدور
وقـد وافتكـم الخيـرات طـرا ... وطـاب العيش واتصـل السرور
حميتـم بيضـة الاسـلام لمـا ... بعين الحق قد حـرس الثغـور
وجاهدتـم وقاتلتـم فانتـم ... لديـن اللـه اقمـار تنيـر
واطلعتـم صوارمكـم نجومـا ... لـدى هيجـاء صاحبهـا كفـور
فانت البدر يـوم السلـم حسنـا ... وفى يوم الوغـى الاسد الهصـور
وفى ثغـر العرائـش قـد تبـدى ... لقدركم عـلى الشعرى الظهـور
لقـد كان الملـوك يساوموهـا ... وراموهـا وبـان لهـم نفـور
فلمـا جئتهـا انقـادت وقالـت ... اليـك بحـق مولانا المصيـر

1) فيها ريح من القصيدة الشهيرة التى قيلت فى حجر :

ترفـع أيهـا القمـر المنيـر ... ترفـع هل تـرى حجـرا يسيـر

ملكت قياد عزتها ببذل ... فما اغنى الحصار ولا العبور
قهرتهم بابطال عظام ... على الهيجاء كلهم جسور
فكم راس من الكفار امسى ... قطيع الراس مجرورا يخور
وكم اسرى وكم قتلى بأرض ... وكم جرحى دماؤهم تفور
تمر بها الطيور فتنتقيها ... وبات الذئب وهو لها شكور
واضحى الناس كلهم نشاوى ... على طرب وما شربت خمور
فبشراكم بهذا الفتح نور ... وبشراكم بما من الغفور
به زادت مآثركم علوا ... وقد عظمت به لكم الاجور
الا يا معشر الكفار هذا ... يبددكم وليس له فتور
الا يا اهل سبتة قد اتاكم ... بسيف الله سلطان وقور
اذا ما جاء سبتة فى عشى ... تناديه اذا كان البكور
ووهران تنادى كل يوم ... متى ياتى الامام متى يزور
متى ياتى ويفتحها سريعا ... ويلحق اهلها منه الثبور
فيهزمكم ويقتلكم ويسبى ... وسيف الحق فى يده ينور
ايا مولاى قم وانهض وشمر ... لاندلس فانت لها الامير
وجاهدهم وحاربهم وفرق ... جموعهم فربكم النصير
ولا يمنع بفضل الله منها ... كما قد قيل بر أو بحور
لسان الحال ينشد كل يوم ... ومعنى الحال تفهمه الصدور
بقرطبة تنال المجد طرا ... ويأتى العز والملك الكبير

وقد ورد فيها ذكر لوهران ، لأن الاسبان كانوا قد عادوا الى احتلالها ، بعد ما أخرجهم الاتراك منها ، وكذلك اعادوا الكرة فأخرجوهم بعد .

فهؤلاء شعراء اسماعيل الذين كانوا ينظمون قصائدهم فى مدحه ويسجلونها على جدران قصوره . التى استحدثها بمكناس . كما كانوا ينظمون تلك القصائد بمناسبة انتصاراته فى الحروب التحريرية وفتوحاته بالسودان ..

ومن الحق ان يقال فى هذه القصائد بالذات انها لم تكن تصل الى مستوى تلك التى قالها شعراء المنصور السعدى فى هذه الفتوح . فهذا ما وجدناه منها فى قصيدة عبد الواحد بن محمد الشريف البوعنانى وهو اديب فاس ومفتيها كما فى الاستقصا والنزهة .

وكما كان الفقهاء فى العهد السعدى يشاركون بالأدب وينتجون فيه . كذلك كان هؤلاء على عهد المولى اسماعيل . فمن بعده من الملوك وهــذا الفقيه أبو محمد عبد السلام جسوس نجده يرفع قصيدة الى المولى اسماعيل يحضه على فتح سبتة واسترجاعها من النصارى بعد ما خلص السلطان العرائش منهم سنة 1101 قال فيها :

رفعت منــازل سبتــة أقــوالهــا تشكو اليكم بالــذى قــد هالهــا
مــع بــادرس وبريجــة فتشفوا وتنبهــوا كــى تسمعوا تسآلهــا
يا ابــن النبــى الهاشمى محمــد قل يا امير المسلميــن انــا لهــا
فلقــد قضيتم للعرائــش حاجــة مــع طنجة فاقضوا لذى آمالهــا
عار عليكــم ان تكــون اسيـــرة بجواركــم وجنودكم تغــزى لهــا
ان لــم تكونوا آخذيــن بثارهــا مــن ذا يفك مــن الوثاق حبالهــا
لا تسمعــن مــن جاهل ومثبــط ومصعــب مــن جهلــه احوالهــا
ان الذيــن تقدمــوا قد جاهــدوا بنفوسهـــم وبمالهـــم امثالهــا
فتملكــوا املاكهــا وديــارهــا وتقسمــوا اموالهــا ورجالهـــا
فابعث لها اهل الشجاعة عاجــلا حتــى تراهــم نازلــين جبالهــا
وامدهـــم بمؤونـــة ومعونــة كيمــا تقطــع بالمــدى اوصالهــا
وارفع لهــذا الغــرب راسا انــه فى الضعف ما دام العدى انزالهــا
أبقــاك ربــى للخلافــة عـــدة تقفو الشريعــة موثرا افعالهـــا
واقبــل هديــة من اتى بنصيحــة يبغى الثــواب ولا تقل من قالهــا

هذه قصيدة وان نزلت فى اسلوبها عن المعهود فى لغة الشعـــر . وصاحبها نفسه يشعر بذلك . فانها من القصائد الوطنية التى تعبر عن أحداث الوطن « المغرب » وظروفه . وما احوجنا الى كثير من امثالها . وما اغنانا عن قصائد المدح والملق .

لقد نطق الشهيد جسوس بهذه القصيدة وقلبه ينبض بحب بــلاده « المغرب » ولسانه ينطق بايمانه وصدق طويته ولكن الأيام الخؤون كانت تضمر له محنة ، يندى لها جبين المغرب ، ولا يعرف لها مثيلا فى تاريخه المجيد . فقد عذب هذا الرجل وطيف به ثم كبتت انفاسه ، بعد تاريخ هذه القصيدة بعشرين سنة . وقد ترك حينما احس بالهلاك وثيقة قال فيها معبرا عن

اخلاصه « انى ان وافقت عليه طوعا او كرها فقد خنت الله ورسوله والشـــرع » ٠

وهذا أديب آخر ، كان من جملة ادباء العصر الاسماعيلى ، وهـــو علي بن احمد مصباح الزرويلى ٠ كان كاتب الوزير اليحمدى ، وشاعره الذى قال فيه عدة أمداح ، كما تقدم ذكره (توفى عام 1150) ٠

ومن حر شعره قصيدة ، يرثى بها الشهيد الفقيه جســـــوس ؛ يستهلها بقولــه :

حــل بالديــن يالقومــى بـــــلاء ... احجمــت دون وصفــه الشعــراء
قتل اليــوم أعلــم الأرض ظلمــا ... فبــه للاســـلام حـــق العـــزاء
قتلـــوه من اجـــل أن كان أستـــا ... ذا أعزتـــه سنــــــة سمحـــــاء
قتلوه من أجل أن كان عن سبـــــ ... ــــــل الهـــوى فيه نفـــرة واباء
قتلـــوه أن كـــان للشرع شمســـا ... ليس تخفـــى ضياءهـــا الظلمـــاء
قتلوه أن كـــان حصنا بـــه تمـــــ ... ــنع عمـــا تريـــده الأشقيـــــاء
قتلوه مـــن أجـــل أن كـــان للشر ... ع حسامـــا تهـــابـــه الامـــــراء
قتلـــوه أن كـــان للحـــق قـــوا ... لا ومـــا ان تضلــــه الأهـــــواء

ويختتمها بقولـــه :

يابن جسوس ان يكن حبست للـــ ... خوف عنكـــم لسانهـــا الأدبـــاء
فأنـــا اليـــوم مفصـــح برثاكـــم ... مثلمـــا صخرهـــا رثـــت خنســـاء
فليقل من يشاء ما شـــاء وليفـــ ... ـــــعل فبى من بلواكم برحـــــاء
فعسى ان لقيتكـــم يـــوم حشـــر ... تشفعـــوا لـــى فانكم شفعاء (1)

ومن بديع شعر الأديب علي مصباح ، هذه الابيات من قصيدة طويلة فى مدينة تطوان ٠

دمشق مغانيها وزورا قصورهـــا ... وحتـــف عواليها وريـــح جيادهـــا
ونجد أراضيهـــــا أسود رجالهـــا ... نجوم دراريها شموس خرادهـــــا
ارى أرض تطوان تضوع نشرهـــا ... وأمواهها يطوى الهموم اطرادهـــا
فسقيـــا لها مـــن بلدة هضباتهـــا ... منـــاخ لأثقال العلـــى ووهادهـــا

1) رحم الله مصباحا فلقد نطق لسانه وقد خرست الألسن ، ورضى الله عن جسوس الذى ما رضى باضعف الايمان يوم رضى به الشجعان ٠

الى أن يقول فى قومها :

رعى الله اهليها الألى سمكوا العلا ... على عمد طال السماء امتدادهـــا
بهم أمن الاسلام من كل روعـــة ... يدوم بها فى كـــل عين سهادهـــا
ولم تنبرم يوما ولم ترخ عـــروة ... اذا كان منهم حلها وانعقادهـــا
ولولاهـــم أبقاهـــم الله فتحـــت ... من الدين عورات بطىء سدادهـــا

ومن شعره كذلك ، قصيدة مجيبا بها عن أخرى خوطب بها مـــن بعض الأشراف من أدبائها : يقول فيها :

أزهر سرت فاهتاج قلبى لمسراهـــا ... أم الروضة الغناء اهدت برياهـــا
أم الراح راحـــت فوق راح تقلهـــا ... غصون وقد علـــت بماء ثناياهـــا
مشعشعة لم يطفىء المزج نارهـــا ... تحامى الندامى أن تروق حمياهـــا
بلـــى درر مرت بهـــاروت بابـــل ... فلم ينج لبى اليوم من سحر نجواها

الى أن يقول فى وصفهـــا :

فلم تـــك الا روضـــة وحروفهـــا ... كمائم شفت عن أزاهـــر معناهـــا
والا كخـــود واصلت بعـــد فتـــرة ... من الوصل كان القلب والجسم يهواها

وهو شعر لا يصدر الا عن المطبوعين النهلين من معـــين الأدب ومعارفه ، وان كان الجسم الوارد فى آخر البيت ، نفضل أن يحل معـــه الروح ، ليتم تهذيبها .

وموضوع « الاخوانيات » قليل فى أدبنا جـــدا ، قلـــة الاخـــوان فيه ، وكان القاضى عياض حامل راياتها بنظمه ونثره وان كتاب « الانيس المطرب » نعده معرضا جميلا لهذه الاخوانيات . وقلما نظفر على ند لـــه فى هذا الباب ، الذى منه رثاء الاخوان ، كما للرافعى .

ولعلى بن احمد مصباح ابن كان شاعرا أديبا فى حاشية المولـــى اسماعيل ، وله فيه امداح ، اسمه أحمد ، ومن شعره قوله من مدحة له :

لئن مسها الاعياء أو شفها الظما ... فمكناســـة راحاتهـــا وارتواؤهـــا
بلاد هى الدنيـــا بأجمعها الـــتى ... أضـــاء عـــلى كل البلاد ضياؤهـــا
فجنتهـــا الزهـــراء والزهر أهلهـــا ... وأربعهـــا الزورا ودجلـــة ماؤهـــا
اذا ما رأت أعلامها نفس مدنـــف ... معنى تداعـــى للرحيـــل عناؤهـــا

وقصر علـــى افنائهـــا وقصورهـــا مزايا جسام ليـــس يخشى فناؤهـــا
(فتانوتها مثـــل السما وقبابهـــا بدور أمير المومنـــين سناؤهـــا)

ومن المعاصرين لهؤلاء ابو الحسن على بركة التطوانى المذكـــور فقد شهر هذا العالم بالفقه ، وله مكاتبات مع علماء الاسلام لعهده خارج المغرب . أما داخله ، فكان من جملتهم اليوسى وابن زاكور وغيرهمـــا وقد سبقت الاشارة الى كونه استاذا للأديب على منظومة الاندلـــسى التطوانى ، وابن الطيب وكان له نصيب فى الأدب ، ينظمه وينشـره فمـــن ذلك ، ارجوزة قالها ، مقرضا لارجوزة يوسف الشودرى فى فتح العرائش (1) يمد لها نثرا ، ثم يستهلها كما نرى :

(لما أوقفنى المصقع الأريب ، الجهبذ الاديب ، الالمعى العبقرى ، أبو المحاسن ، سيدى يوسف بن محمد الشوذرى ، أنجح الله سبحانـــه مسعاه ، وكلأه ورعاه ، على ارجوزته المشتملة على خبر فتح العرائش ، وما كان بها للمسلمين من أسهم غير طوائش ، الفيتها خريدة بضة ، وروضة غضة ، وغادة غيداء ، وخودا عينـــاء ، قد استأثرت بجميل المآثـــر ، واثارت من موات النفوس الاركزة الدوائر ، فنبست حينئد نبسة ذى فهاهة ، ونفثت نفثة من انضب العى من فيه مياهه ، بهذا القريض السمج ، المهلهل النسج)

احسنـــت يا أبا المحاســـن بمـــا سنيت من حسناء فاقت مبسمـــا
حكـــت بهـــا من الحبـــير حـــللا تزرى عـــلى حوك الصنـــاع كلـــلا
شنفت فيهـــا للـــورى المسامعـــا واخـــذت مـــن الحجا المجامعـــا
وبهـــرت مـــن لروائهـــا رنـــا وظهـــرت فـــوق السماك بسنـــا
وقرطـــت آذان مـــن قـــد أذنـــا وولجت مـــن غيـــر أن تستأذنـــا
وكيـــف لا وقـــد حـــوت خرائـــدا وقلـــدت نحـــر العـــلا قلائـــدا

الى آخرهـــا . وهى 23 بيتـــا .

وهذه التى ذكرت للشودرى تعد ملحمة فى هذا الفتح ، فليست مـــن نوع القصائد التى ذكرنا بعضها ، فيها اشادة وتمجيد فحسب ، بـــل فيها الى جانب ذلك سرد للملحمة التى حدثت لاستنقاذ المدينة ، وبـــث

1) كانت هذه العائلة تضم علماء وادباء ؛ منهم الاديب على بن محمد أثبت له داود شعرا .

للحماس فى الرجال ، واشادة بالبطولات التى اظهرها المجاهدون · شأنها شأن منظومة الكراسى الأندلسى ، فى وصف الحروب التى خاضها الوطاسيون لاستنقاذ البلاد من غزاة البرتغال · وهذه ابيات من أرجوزة الشوذرى المذكورة :

قد كتب السلطان للروم كتاب	الهمه الله به فصل الخطاب
خيرهم بين الرحيل والجلا	أو الاقامة على شر البلا
وانه يذيقهم سوء العذاب	ان جاوزوا الحد ولم يات الجواب
فأتلف الله العظيم رأيهم	وخاب فيما أملوه سعيهم
غرتهم الاهواء والامانى	واها لهم من صولة الايمان
وحسبوا الامر على ما قد سلف	ومن مضى من قائمين بالتلف

ثم يتحدث عن عمل المولى اسماعيل بعد :

فبعث البعوث والاجنادا	وللجهاد جيشه قد نادى
وجاء بالعدة من خزائنه	والفضل جل من ندا معادنه
وبعث البارود والأنفاضا	وسال بحر جوده وفاضا
واجتمع الراى المبارك السديد	ودبروا الراى الموفق الحميد
واشرفوا على الربى وكبروا	واستعملوا السنة فيما دبروا

ثم قال فى تلك الخطة :

وحل نصف الجيش أرض الساحل	مقابل المرسى لمنع الداخل
ونصفه حل على سور البلاد	طوقها بأسرها طوق القلاد
لما رأى الكفار ما أذهلهم	وشدة الأمر العظيم هالهم
وعظم الامر على الاعداء	وأيقنوا بالهلك والبلاء
وكان بالمرسى مراكب لهم	موثوقة دارت بها حبالهم
فطارت الكور عليها والرصاص	هيهات يرجى بعد هذا من خلاص
ارتقبوا الليل وقد جن الظلام	واختلسوا فى زورق مثل السهام

وعلى هذا النمط يتولى الواقعة معاصره وبلديه محمد الرفعى المذكور آنفا كما يتولى فتح طنجة قبلها ، ويشيد بالمولى اسماعيل ويقول على لسانه :

أنا الغيث حقا والملوك جداول	أنا البحر فيضا والكرام عناصر

أنا قمر بالغــرب قطب سمائــه — أنا سيد الاملاك عرفى عاطــــر
أنا تــاج أبناء الملــوك وفخرهــم — كمى شجاع فى الحــروب وظافــر
أنا الليث اسماعيل راية مجدهــم — وسيفى ماض فى العداة وقاهـــر
أنا فاتح الأمصار للكفر دامـــغ — فسل عن ثغور الشرك ينبك خابـــر
لنا المجد يعـــزى والسيادة حظنــا — فناهيــك فضــلا أن حوتها منابـــر
لنا ذلت الاعــداء بالسيف والقنــا — وكل رئيـــس عند ذكـرى صاغـــر
فمــن منكر فضلى وجــدى محمد — نبـــى رســـول هاشمـــى وطاهـــر
فما الفضـــل الا هكـــذا متأصــل — فروع وأغصان أصـــول عناصـــر

وهكذا كان عصر اسماعيل عصر انبعاث عام فى العلوم والفنون ، ولو أنه لا يصل الى عصر المنصور كما تقدم · وكان المنتظر منه أن يزداد ازدهارا واطرادا فيما بعد · لكن — للاسف — حصل بعد وفاة اسماعيل ما حصل بعد وفاة المنصور من نشوب الحروب وقيام الفتن بين أولاده ، مما عـــوق الحركة الادبية وكادالامر يفضى الى الهاوية · فلم نجد فيما بعد وفاتـــه من أدابائنا الا بعض الفقهاء المشاركين فى الثقافة الدينية وكان منها الأدب تبعا لها وكما سنرى فيما بعد ·

كانت الظروف التى لابست الحكم الاسماعيلى قد جرته الى أن يركتب الغلطة التى ارتكبها المنصور السعدى فيما مضى بنفس الدواعى فلقــد وزع المولى اسماعيل أقاليم البلاد على أولاده يحكمونها ، فكان من هؤلاء من سولت له نفسه ، وقد طالت الحياة ، التى من طبعها الملل ، أن يتلقف صولجان الأمر لنفسه ، فما كان من المولى اسماعيل ، رحمه الله ، الا أن وقف منه موقفه الصارم ، وأوقع عليه اقسى ما أوجبه الشرع الحكيم · فكان فى هذا ردع لغيره ، من الأبناء الولاة ، فلم يجرؤ أحدهم أن يجرب التجربة التى حاولها محمد العالم فى اقليم السوس ·

ولكن الداء الذى عولج علاجا مهدئا ، لم يلبث أن تفاحش أمره ، وأن يفتك بجسم الدولة ، فتكا ذريعا ، بعد وفاة المولى اسماعيل ، مباشرة ··· فكانت الفتن والأهوال ، اشد مما شاهدناها ، بعد المنصور ، ولكن بحمد الله ولطفه ، أن لم يقتحمها أحد ، لشخصه من غير أصحاب الشأن ، فبقيت دوامتها محصورة بين الأمراء ورجالهم الاتباع · ولهذا استمر الصراع المرير بين الاخوة ، الى أن عاد الأمر الى نصابـــه ، فانتهى الى مبدئـــه ،

واستقر الأمر للمولى عبد الله (وكان الفضل فيه عائدا الى ابنه البار المولى محمد العظيم ، الذى ثبت راسخا ولم يزحزحه أحد عن مكانه · فذهبت محاولات المستغلين مدرج الرياح ، وأعادهم الى رشدهم ، وان كره الكارهون للاستقرار والنظام) ·

وفى هذه المرحلة العصيبة ، شاهدنا التفكك ، الذى أملى على بعض الولاة أن ينطووا على ولايتهم ، كما سمح لآخرين أن يتحركوا تحركاتهم الطائشة فيغيروا على ولايات غيرهم ، المنتمية الى السلطان الذى كانوا هم أنفسهم ينتمون اليه · بل وجدنا من هؤلاء اقامتهم لعرش يجلس عليه من يتوسمون فيه نفعا لهم وتحقيقا لاغراضهم الشرهة (وتقويضهم للعرش الذى كانوا يأخذون بأطنابه ، فخانوه وأصلتوا سلاح خيانتهم تجاهه ، حتى سقطوا فى معركة الغدر ، وكفى الله المومنين القتال) ·

هذه عوامل ، نجم عنها أن تتقلص ظل الأدب عن العاصمة التى كانت تزخر به ، وسكت صوته الذى كان يصدح فى جو سلطانه ، فخرست الألسن او صارت تجأر بالشكوى من مصابها · ونجا بعض أصحابها الى الجبال والبادية ، فرارا من المدن التى كان الوطيس يحمى بها ، ولم نعد نسمع الا أصداء خافتة ، فى جهات نائية ، بعضها صارت تحلم بالاستقلال بالسلطان ، فتشعر بحلمها هذا ، وبعضها صارت تنصرف الى شئونها

لقد وجدنا العميرى وهو أبو القاسم سعيد المتوفى عام 1178 يهاجر من العاصمة الى البادية وكان من القضاة فأقام بالريف مدة ، نظم فيها أشعارا يتشوق فى بعضها الى وطنه وأهله بمكناس · وقد ذكر فى الاتحاف أشعارا كثيرة له ، منها هذه التى يخاطب بها والده وقد مرض مرضا أشفى به على الموت فقال :

حياتك منتهى الآمال عندى	فليت الموت يقبلنى فداء
ايجمل أن أراك رهين حال	وآمل — لاعدمتكم — بقاء
ولم اصبر وانت اليوم حى	فكيف اذا تخذت ثرى ثواء
صغرت عن التحمل ان مثلى	وحقك ، لا يطيق له عناء
وكيف ولى أخيات وقلبى	تقسم فيك بينهم سواء
ملأت صدورهم بشا غداة	فعادت فى مآقيهم مساء
وكم ارغمت فى انوف قوم	يرونى فى عيونهم قذاء

وما قصــرت فى التأديــب حتــى رفعــت يديــك للعليــا لــــواء
وانـــى وان بكيتــك مــلء عينـــى فهــل كـــان البكـــاء لنـــا غنـــاء
ولكـــن أعـــين ناحـــت عليكـــم بدمـــع احســـن الاغضـــا قضـــاء
فخفـــض ان لـــى ربـــا رؤوفـــا عطوفـــا ســـوف يمنحكـــم شفـــاء
وتفـــدى بالعـــدا من كـــل بأس يسىء وان هـــم قصـــروا كفـــاء

وله اشعار عديدة منها قصيدة عامرة ، قالها وهو مهاجر فى الريف ، يستهلها بقوله :

دعينى فوصل الغيد ليس من العدل ولا تعذلي فالاذن صما عن العذل
وكيف بمن ولى عن الوطن الـــذى تولت به الآمال فى الزمن المحـــل
وظنى به ان عف خير وان يكـــن جفاك فان المرء عنك لفى شغـــــل
بمكناسة الزيتـــون خلـــف أهلـــه وحل بقرب الريف فردا بلا أهـــل
حمى جانبا منها عـــداه وجانبـــا مخافة قول أن يصيـــر الى فعـــل

وكان يعاصره فى تلك المرحلة ، شاعر قاض كذلك ، كان يكاتبـــــه آنذاك ، وهو أبو سلام احمد الحميدى ، قاضى غمارة ، وكان العميرى قد ودعه بتلك الجهات ، وأرسل اليه أبياتا أجابه عنها ، الحميدى بقوله :

وان غاب عنـــا العلم من صدر والد فقد حازه من بعده ولـــد صدر
ولا عجب ان قيل انت تفوقـــــــه فان ضياء الشمس يسبقه الفجـــر
تسل عـــن الهم المبـــرح بالحشـــا فرب عسيـــر كان فى طيه يســـر
وان جاء عباس من الخطب هائـــل ففى اثره الضحـــاك يعقبه بشـــر
وان لفكم جور من الدهر برهـــــة فلابد بعد اللف أن يحصل النشـــر

فنلاحظ على هذه الابيات توريات علمية وغيرها من الصنعـــــة البديعية ، خصوصا فى البيتين الأخيرين .

وفى هذا العصر أيضا ، وعلى تلك الفتن ، وجدنا شعرا ينبعث مـــن تطوان ، على لسان المستقل بها عمر لوقاش ، فيقول من قصيدة :

بلغت من العلياء ما كنت ارتجـــى وأيامنا طابت وغنـــى بها الطيـــر
ونادى البشيـــر مفصحا ومصرحـــا هلم أبـــا حفص فأنـــت لها الصدر

الى ان يقول :

ظهرت لأحيى الدين بعد اندراسه	فطوبى لمن أمسى يساق له الأمر
ولم يبق ملك يستتب بغربنا	فعندى انتهى العلم المبرح والسر
أنا عمر المشهور فى كل غارة	أنا البطل المقدام والعالم الحبر
ضبطت بلادى وانتدبت لغيرها	وعما قليل يعظم الجاه والقدر

فأجابه محمد بجة الريفى العرائشى بقوله من قصيدة :

ليس التشبه بالعمرين قصدك بل	تبغى النبوءة لولا الصارم الذكر
ولو تعامى الورى عنك بأن غفلوا	لجاءنا بالتنبى فى غد خبر

وهى قصيدة طويلة ، أبلغ من قصيدة لوقاش ، وان كانت دون المستوى الرفيع فى الشعر .

والمهم أن هذه الفتن الفتاكة المبيرة تولد عنها شعر وأدب .

وهذا اديب آخر لم تكن له شهرة فى المغرب ، وهو ابو عبد الله محمد بن محمد الطيب التافلاتى ، نعته المرادى فى كتابه سلك الدرر بعلامة العصر الفائق على اقرانه من كبير وصغير ... كان فى الادب الفرد الكامل ، له الشعر الحسن مع البداهة فى ذلك ... ثم قال : ولد بالمغرب الاقصى ... وحفظ القرآن ، والمتون على والده ... وقرأ عليه ... وعلى الشيخ محمد السعدى الجزائرى ... ودرس السنوسية للطلاب قبل أوان الاحتلام ... وركب البحر الى الجامع الازهر فطلب العلم بمصر ... وأخذ عن شيوخه ثم ذكر أنه أبحر عائدا لزيارة والدته فأسره الملطيون الى أن كان تخلصه ونجاته من جزيرتهم ، فرجع الى مصر ومنها توجه الى الحجاز ، ودخل اليمن وعمان والبحرين والعراق وسورية ثم الروم أى تركيا الاروبية ثم صار الى بيت المقدس حيث نصب مفتيا للقدس الشريف ... وصنف تصانيف تناهز الثمانين ، كما يقول المرادى ، ما بين منظوم ومنثور فى مختلف الفنون ... قال : وأما نظمه فهو رائق جيد ، ثم ذكر له عدة أشعار وجميع شعره الذى بأيدينا تقليدى لا نفحة للتجديد فيه ، ولا ذكر لمعلم من معالم المغرب ، فمن شعره قوله من قصيدة :

فؤادى بنار الشوق يصلى ويضرم	ودمعى وحق العهد بالسفح عندم

ونار الغضا قد أججت بجوانحي ... على حبه والسقم عني مترجم
أراقب نجما في الدجى نابذ الكرى ... ولو شئته ما كان للجفن ينعم
كأن جفوني بالسما قد تشبثت ... كأن ليالي الوصل بالصد ترغم
أمن مبلغ عني سعادى تحية ... بسفح النقا والحب فيها محكم
سبت مهجتي لما أصابت حشاشتي ... بسهم وقيدى بالصبابة أدهم
تقضت لويلات التداني برامة ... رمت كل واش والفؤاد متيم
ومن بعد طيب الوصل شطت مراتع ... وعادت عواد للمودة تعتم
فلا وصلها يدنو فتبرد لوعتي ... ولا مهجتي تسلو عليها فأرحم
الى كم أراع العاذلون بوشيهم ... بصد وهجر من سعادى ونمنموا
وقلبي على العهد القديم وما صفا ... ثكلتهم ما الود مني مصرم
عجبت لها فالعهد مني مزور ... وعهدي بها من عالم الذر مبرم
فياليتها وافت بوصل لمغرم ... شجي ولكن وعد زينب مخرم
تصرم دهري والشبيبة آن أن ... يطيب لها الترحال والبين محجم

وهكذا نجد هذه الابيات الغزلية ، لا تختلف في لهجتها عن غزليات (1) القدامى من الشعراء الجاهليين أو الاسلاميين الأول ، والبيت الذى ذكر آخرها فيه نشوز في « آن أن » مما لا يصدر عن شاعر له حس موسيقي

ومن شعره هذان البيتان ، وكان قد وقع شتاء وثلج في نيسان :

كأن كانون أهدى من منازله ... لشهر نيسان أصنافا من التحف
أو الغزالة تاهت في تنقلها ... لم تعرف الثور والجدى من الخرف

وينسب للقاضي عياض شبيه بهذين وهما كما تقدم :

---

1) فيها ريح من ميمية ابن زنباع التى وجهها الى ابن خاقان :

هوى منجد يلقى به الليل متهم ... يصرح عنه الدمع وهو يجمجم
يبيت يدارى أو يدارىء ما به ... ويغلبه أمر الهوى فيسلم
لأجفانه من كل شىء مؤرق ... ومن أين للمشتاق شىء منوم
واجلد أبناء الزمان مرزأ ... يقاسى خطوب الدهر وهو متيم

كأن كانون أهدى من ملابسه ... لشهر تموز انواعا من الحلل
أو الغزالة من طول المدى خرفت ... فما تفرق بين الجدى والحمل

كأن محمد بن الطيب قصد بهما التضمين ، وهو قد فعله فى كثير من مقطعاته ، كقوله مضمنا المصراع الاخير :

الا يا غزالا فى مراتع رامة ... أجزنى حديثا صح عن طرك الاحوى
عن الغنج السارى بفاتر جفنه ... عن الدعج الداعى الى السقم والبلوى
عن الكحل الفتاك عن وطف به ... عن الحاجب النونى شفاء بنى الشكوى
فقال رويناه عن الكتم بيننا ... «وما كل ما تروى عيون الظبا يروى»

وقوله مضمنا كذلك :

أروم وقد طال النوى طيب نظرة ... واستخبر الركبان من كل وجهة
واستعطف الايام كيما تجود لى ... بحسن اتصال فى خيام العشيرة
وفى كبدى حراء هاج لهيبها ... ومن فرط ما القى جرت عين عبرتى
على أننى للدهر أغفر ما جنى ... وأنشد بيتا يقتضى حسن وصلتى
« وكل الليالى ليلة القدر ان دنت ... كما أن أيام اللقا يوم جمعة »

وهذا البيت من تائية ابن الفارض الطويلة ، التى مطلعها :

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى ... وكأسى محيا من عن الحسن جلت

وبعد ذلك البيت فى تائية ابن الفارض :

وسعيى لها حج به كل وقفة ... على بابها قد عادلت كل وقفة

وكذا كان من هؤلاء الذين عاصروهم محمد بن عبد الوهاب ابن عثمان المكناسى الأديب الناثر الشاعر كما وصفه ابن زيدان وقال ان له أمداحا كثيرة فى المولى على بن محمد بن عبد الله ، ومن شعره أبيات بعث بها من المدينة الى صديقه الغزى ، مفتى الشافعية بدمشق يحييه فى أولها بقوله :

أحيى مقاما خص بالرحب والبشر ... كما خصصت أنفاسه بذكى النشر
تحية حب لا تزال معادة ... بيوم اذا يجرى وليل اذا يسرى

وهى تحية متواضعة استعان فيها بقسم قرآنى ٠

ومن شعره ، يداعب بعض أصدقائه :

جد بوصل ولو بطيف خيال ان هوى النجم فى الدجى للغروب
وتدارك حشاشة القلب اذ كا ن لمثواكم من الموهوب
طمعى الآن فى الوصال قوى وشفيعى فى نيله المرغوب
يصدق الفجر بعد ما يتجلى كاذبا فى الآفاق غير مغيب

وقوله فى حوار لطيف :

جاء من طالما تشوقت النفـ ـس اليه بشرى لنا وهنيه
أنعش الروح شم رياه لولا ذاك لم تبق فى الحياة بقيه
اذ تداعوا بالأمس وسط نهار درة الملك قد أتتنا جليه
فتأخرت عن لقاه محققا فارتقاب الهلال يلفى عشيه
هكذا الشأن ما تقولون أنتم عن يقين قلتم وصدق ونيه
فأجابوا أما ترى الشمس ولى نورها كاسفا رأته البريه
قلت فى الفقه ان تبدى هلال فى النهار أعطوه حكم وليه

فهذه الأبيات الاخيرة ، لا بأس بها ، وان احتوت على الفاظ وتعابير غير شعرية ، أما الاخرى ، فلا تبدو عليها الرقة التى وصف بها شعره ٠ وله نثر متكلف كقوله ، من رسالة يخاطب بها صديقا :

ابقاك الله لطرفة تجليها ، وبنات افكار بدر نثارك تحليها ، ونادرة تردفها بأخرى تليها ، تلك رياض تفتحت عن أزهارها أكمام ، ولات حين للأزهار المام ، هذه يقظة أو منام ، عهدى بالرياض لم ينتج الآن لثمام ، أو ذاك مسك فض عنه ختام ، تحيرت فى ذلك أظنه سحرا ، الى آخر الرسالة ، المزدحمة بالاسجاع والصور المكررة التى زجت بها تلك الأسجاع ولاشك انها كانت جوابا عن أخرى وجهت اليه ٠

وهكذا نجد له نموذجا آخر من احدى رحلاته ، فى وصف القسطنطينية :
ان قلت بلد ، اتكالا على ما لها من التخصيص فى القلب والخلد فقد أضعت حقها ، ويبقى الاحتمال فى أن يكون هناك من هو فوقها ، وان قلت مدينة واقتصرت ، فلا منعت دخول غيرها ولا حصرت ، وان قلت اقليم

فقد يشتمل على عمران وخراب ، وبحران وسراب ، الحق أعلى ، وتأدية الحقوق من اخبارها أولى ، الى آخر الوصف الشبيه . توفى عام 1213 .

بقى أن نذكر اديبا من الذين ظهروا بعد وفاة المولى اسماعيل ، وحملوا راية العلم خفاقة الى الشرق ، فكان لهم فى آثارهم العلمية والأدبية ، كما طبع رجالا عظاما فى العلم ، اعترفوا بفضل أستاذهم عليهم ونعنى به الأديب العالم أبا عبد الله محمد بن الطيب الصميلى الشرقى الفاسى ، المولود بفاس عام 1110 وقد وردت ترجمته وبعض آثاره الادبية فى كتاب « سلك الدرر فى اعيان القرن الثانى عشر » لمحمد خليل المرادى المذكور والمفتى بدمشق لذلك العهد وفيه وصفه بالشيخ الامام المحدث المسند اللغوى العالم العلامة المتفنن ... أمام اهل اللغة والعربية فى وقته كان متضلعا فى كثير من العلوم له تآليف حسنة منها حاشية على القاموس ، وشرح نظم فصيح ثعلب ، الى غير ذلك من المؤلفات ، التى تعد بالعشرات ، ويهمنا منه ادبه فمن شعره ، قوله فى فوائد الأسفار ، وكان قد طوف البلاد عربيها وتركيها :

سافر الى نيل المعـ	ـزة ان فى السفر الظفر
وانفر لنيل المجد فيـ	ـمن للمعالى قد نفر
واعلم بأن المكث فى الـ	ـأوطان يدعو للضجر
ويورث الاخلاط والـ	ـأجسام انواع الضرر
أو ما رأيت الما لطو	ل المكث يعلوه الوضر
والبدر لو لزم الاقا	مة فى محل ما بدر
والدر لو أبقوه فى	قعر البحار لما افتخر
والتبر ترب فى المعا	دن وهو أفخر مدخر
والعود معدود لدى الـ	ـغابات من جنس الشجر
والباتر المغمود لو	لم يخرجوه لما بتر
هذا وكم مثل سرى	فى الناس من هذى العبر
أبدى البدائع منه من	نظم القريض ومن نثر
عن وجهها فى غالب الـ	ـأسفار أسفر من سفر
فآداب على الترحال فى الـ	ـأحوال اجمعها تسر

واعلـم بـأن البعـد عـن ... وطـن بـه تـم الوطـر
واغـرب بشـرق واشرقـن ... فى الغـرب أن تـك ذا نظـر
واجعـل جميـع النـاس از ... رك والثـرى طـرا فـذر
لا تؤثـرن بـدوا ولا ... حضـرا وكـن مـع مـن حضر
فالبـدو عـز واللطـا ... فـة والظرافـة فى الحضـر
فـاذا بـدوت فكـل عـ ... ـز بـاذخ فيـك استقـر
واذا حضـرت فكـل ظـر ... ف ظرفـه لـك مستقـر
لا تبـك الفـا لا ولا ... دارا ولا رسمـا دثـر
فالنـاس الفـك كلهـم ... والارض أجمعهـا مقـر
فمتـى وجـدت العـز والـ ... ـعيش الهنـى أقـم تبـر
ومتـى رأيـت الضـد والصـ ... ـد الخفـى فـدع وذر
واجعـل بضـاعتك التقـى ... مـع مـن أسـر ومـن جهـر
فـاذا اتقيـت اللـه فـز ... ت بكـل كنـز مدخـر

فهذا شعر يصدق عليه الوصف الذى وصفه به المرادى بأنه شعـر لطيف ، ينبىء عن قدر فى الفضائل منيف ، وهو من أندر ما صدر عـن ادبائنا ، من أثر فى موضوعه « الاسفار وفضائلها » ، واقدم مالدينا فى الاغتراب ، ابيات القاضى عياض السالفة التى ينصح فيها بتنكب الاسفار ، والابتعاد عن مضار الاغتراب واخطاره .

ومن شعره قوله متشوقا للبقاع المقدسة :

الا ليت شعرى هل ارى البيت معلما ... وهل أردن يوما على الرى زمزمـا
ومن لى بحج البيت فى خير معشـر ... حدا بهم الحادى وغنـى وزمزمـا
ومن لى بأن أمسى علـى حجراته ... وأصبح ممن للمغانـى به انتمـى
ومن لى بالخل الذى قد الفتـه ... فندعى جهارا أنتمـا القصد أنتمـا
نطوف بذاك البيـت طورا وتـارة ... نهم بهاتيك البقـاع فنلثمـا
وآونة ناتى الـى الحجـر الـذى ... سما قدره حتى تطـاول للسمـا
نعفر فيـه الخـد والوجـه كلـه ... ولست أرى من يخص بـه فمـا
وطورا نصلى ثم نسعى الى الصفـا ... لنصفى الفـؤاد المستهام المتيمـا
ونسرع كى نلقى المنى ولدى منـى ... نخيم فيمـن كان لليمـن خيمـا

ونجنى ثمار العرف مـــن عرفاتـــه ونغرف منه الخيـــر غرفا معممـــا

ونبرأ من كل العقاب اذا دنـــت عقاب جمـــار تحرق الذنـــب أينما

وتصبـــح فيمـــن بر للـــه حجـــه وأصبـــح فى تلك الريـــاض منعمـــا

ويا ليت شعرى هل أرى طيبة التى بها طابت الاكوان نجـــدا وأتهمـــا

وهل تبصر القبر الشريف محاجـــرى فأصبـــح فيـــه منشـــدا مترنمـــا

اخاطبه جهرا واســـأل ما اشـــا وارجو حصول السؤ ل منه متمما

ويسعدنى القـــول البليغ فأنثنـــى اذا ما نظمت القول فيـــه تنظمـــا

وارجع مملـــوء الحقائـــب غامـــرا بما شئت من علم وحلم وما ومـــا

وتخدمنى الدنيـــا واصبح فى غـــد لدى رتبة شمـــاء فى منزل سمـــا

تحف بى الامـــلاك من كل جانـــب لدى جنة الفردوس فوزا معظمـــا

فتربـــح هاتيـــك التجـــارة كلهـــا ويغنـــم مولاهـــا ابتداء ومختمـــا

واهدى الى خيـــر الانام محمـــد سلامـــا بعـــرف الطيبات مختمـــا

فهذه قصيدة عتيقة الاسلوب ، تقليدية الحلية البديعية ، كما نجد بالبيتين الأولين ، والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والرابـــع عشر والتاسع عشر ، وهذه كلها لفظية جناسية . أما المعنوية فلا نجد الا ما يمكن أن يدعى فى البيت الثالث من المقابلة بين أمسى واصبح ، وان كان الفعلان قدتجردا من مدلولهما الاول الخاص ، فلا يكون بذلك بينهما طباق ، وليس من صور البيان فيها الا ما اكل عليه الدهر وشرب ، من الاستعارات البسيطة ، ولا تشبيه نجده الى جانبها ، فالقصيدة اذن من قصائـــده المتواضعة ، المغرقة فى تصنعها ، المفرطة فى استعمال فعل الاصباح ...

اما القصيدة التى نسبها اليه المرادى فى الربيع ، ومطلعها :

ورد الربيـــع فمرحبـــا بوروده وبنـــور بهجتـــه ونـــور وروده

فجميلة حقا ، ولكنها فى الواقع ليست له ، بل لصفى الدين الحلى ، كما هى فى الديوان ، وفيها ابيات اخرى لم تذكر بهذه ، وكلها تنبى عـــن بطلان نسبتها الى ابن الطيب الشرقى ، وهى مشهورة للحلى وتعد مـــن جميلات قصائده .

ومما يحمد لابن الطيب ، انه بالرغم من تبحره فى اللغة ، لم يشأ أن يحشو شعره بالغريب منها ، كما فعل صاحب القاموس فى بعض شعره ،

بل ان اشعاره كلها تتسم بالبساطة والوضوح طليقة على عواهنها ، خصوصا القصيدة الاولى السفرية ، التى اقتصدت فى الصنعة جدا ، فلم نجد الا هذا البيت الذى تكلفها :

عن وجهها فى غالب الـ ـأسفار أسفر من سفر

وسواه على طلاقته كقوله :

واذا حضرت فكل ظر ف ظرفه لك مستقر

فلا تكلف فى هذا الجناس الأخير كما هو الغالب

هذا ما يتصل بنتاجه الأدبى ، اما نتاجه العلمى واللغوى منه ، بصفة خاصة ، فتقارب مؤلفاته فيه الخمسين ، واهمها حاشيته على القاموس التى أشاد بها الشرق ، واستفاد منها كثيرا تلميذه الشيخ مرتضى الزبيدى فى حاشيته عليه « تاج العروس » وينتظر من المهتمين بابراز التراث المغربى ، أن ينشروا هذا الكنز الثمين الذى قدره الشرق حق قدره ، ولم يعرف عنه المغرب الا القليل من وفره

توفى ابن الطيب سنة سبعين ومائة والف ·

ومن آخرين نجد أصداء الادباء من السوس ؛ بعضهم ادرك أواخر العهد الاسماعيلى · وبعضهم لم يدركه · وكلهم عاصروا الفتنة المبيرة التى نجمت بين أولاده :

فكان من هؤلاء الأدباء ابن زكرى الولتى ·

وهو الفقيه الولتى ، النحوى ، الذى نجده يفتخر فيقول متحدثا عن الهمم العالية والأعمال المنبعثة عن تلك الهمم الجليلة فى قصيدة :

المجد حيث مدار السبعة الشهب هيهات يدركه من لم يكن بأبى

وهمة المرء لا تعدو بصيرته بقدر نظرته يسمو الى الطلب

كل له ارب لكن اخو قصر فى الهم ليس له فى المجد من أرب

ان كان لابد للانسان من امل فليأمل المجد فوق السبعة الشهب

ومن شعره فى صباه قوله :

سعد الوقت وشف البرح وتبدى فى حلاه القدح

دارت الكأس على اهل الهوى — فى صباح ضاحك فاصطحبوا
والصبا قد عانقت بين الربى — زهرا ينـدى زهاه المرح
باكر الوسمى منه ناعما — وجهه من لونه ينشرح
فكساه حلة ناصعة — من رآها يزدهيه الفرح
تتدلى نقط الماء كما — اغرورق الدمع بجفن يضح
ونظيم الدر فى اغصانه — كأعالى النخل فيها بلح

فهذا شعر يدل على نبوغ صاحبه المبكر · وهو من النوع الذى يتحرر صاحبه من ربقة الناس ويشعر لنفسه بهذه الخمريات ومجالسها ولا يعتريه ضعف الا فى « يزدهيه الفرح » مع « زهاه المرح » ·

وكذلك نجد آخر لمحمد بن صالح القاضى ، حيث يقول فى الموضوع :

انى أعير مسامعى للاحى — والروض يدعونا الى الاقداح
والصادحات سواجع بغنائها — والزهر ينفح بالشذى الفواح
ثم واسقنيها صرخدا ممزوجة — واجهر بذاك على عيون اللاحى
وال الكؤوس وكلما ناولتنى — أصفع قفا لاح لحاك وقاح

الى آخر الابيات المذكورة فى « سوس العالمة » ...

ومن هؤلاء الادباء عمر بن عبد العزيز الجرسيفى ، القائل ضمن رسالة أجاب بها صديقا عن أخرى (كتبها شعرا) :

نفثت بأذنى السحر أو شعرك العرفا — ولفظك هذا أو مكالمة الذلفا
لقد أخذت منى قوافيك مأخذا — عظيما كأنى قد سقيت بها صرفا

الى آخر الابيات الخمسة ، التى لا تصل الى مستوى سابقتها الرفيع ·

ومنهم ابوزيد عبد الرحمن الجشتيمى القائل :

اذا لم يكن للمرء نحو العلى حزم — فلا الأب يعلى شأنه لا ولا الام
تنام وتبغى أن تنال مراتبا — زللت واخطا ما تحاوله الوهم
بغير الجناح لا تطير الى السما — بزاة فكيف الطامحون وان هموا

(ومن نثره لصديق : طالما اهمنى الاشفاق ، أن يقع بينك وبين اهلك شقاق ، لانى اتخوف منك الميل الى الابكار ، لما فى فضلها من الاحاديث

والأخبار مع أن من قدمك على الآباء والاولاد ، أحق بحسن صحبتك من سائر العباد ، ولا ينبغى أن تبيع وصله وصلحه ، ولو بجمال عائشة بنت طلحة ، والآن أمن الله خوفى ، وبرد بألطافه جوفى ، اذ فهمت من رسالتك ورسلك ، انك على شأنك ورسلك ، وأن تحيرك من اهل الجوار ، ينسيك تخير الجوار ، وان الاعجاز وتمنع الاقبال ، يذهلانك عن الاعجاز والتمتع بالاقبال وان مناغاة المتاعب ، تمنع من مغازله الكواعب » فهذا فى غاية الكلفة ·

وبعد تلك النكسة العامة التى واجهتنا عند وفاة اسماعيل وتنازع بنيه على السلطان ، الذى استقر فى نصاب المولى عبد الله ، نجد أن خلفه وابنه البار المولى محمد يعمل كل ما يمكنه لاستعادة النظام وتثبيت دعائم الدولة فى كل مجال ، وقد كان فى غير ما مناسبة يصرح بأنه يريد أن يعيد الى المغرب تلك النهضة التى عرف بها أيام المنصور السعدى · وفعلا فقد قطع هذا الملك اشواطا بعيدة فى تحقيقها ، وخلص بعض المدن التى كانت ما تزال مقتطعة من سيادة البلاد ، وهى مدينة البريجة أو « مازكان » كما كان البرتغال يسمونها · فطهرها منهم هذا الملك الهمام ، وسماها باسم الجديدة · ثم حاول استخلاص مليلية فحاصرها · ولكنه فك الحصار وفق معاهدة الصلح التى كان سفيره الغزال قد امضاها مع الاسبان (وشملت المسالمة فى البحر والبر « وكان المقصود من السلطان الا تشمل البر) ·

لقد ظهر فى عهده فقهاء علماء ، مثل عمر الفاسى ، كما كان آخرون من السابقين ما يزال حيا مثل القاضى العمرى · والى جانبهم كان علماء يستوعبون ثقافات واسعة ، كأحمد ابن الونان صاحب الشمقمقية ومحمد السكيرج ، والتهامى بن الطيب أمغار صاحب المقصورة المكناسية ·

أما عمر الفاسى ، فهو ابو حفص ابن يوسف ، العالم المشارك والاستاذ المجتهد ، مفخرة البيت الفاسى فى عهد المولى محمد بن عبد الله وقد كان هذا الفقيه الأديب ضاربا بسهم وافر فى النثر والنظم معا ، فهو من بقية الافذاذ الفاسيين ، الذين ظهروا فى العهد السعدى ثم العلوى · (1)

---

1) انظر ترجمته فى كتابنا « محاضرات فى تاريخ التشريع الاسلامى » ·

ومن شعر أبى حفص هـذه الابيات ، مـن بعض قصائده الفخريات التى يشمخ بها بيته الفهرى وما زال :

انى وان فاتنى صدر الزمان ففى — رد على الصدر من أيامه العجز
اخوض فى بحر أفكار الاولى سلفوا — واجتلى منه ما عن دركه عجزوا

وله من قصيدة نهج فيها منهج لامية العجم :

وللأعادى اياد جل موقعها — عندى فكم جنبونى موقع الزلل
وكم تجشمت طرق الجد معتجرا — ثوب الصيانة عن عجز وعن كسل
وكم لبست دروع الحزم ممتطيا — سوابق العزم لم انكل ولم أهل
وكم تسنمت أعلا ذروة قعدت — منازلى بهم تربى على زحل

الى آخر القصيدة التى تناهز ستين بيتا . تبدو عليها جزالة الشعراء ويتخللها جدول الشعر التقليدى اذ لم تبدع بصورها التى سبقتها فى ميدان الفخر وهو أهم ما اشتهر به هذا الاديب ، ولكنه فخر بالعلم ، وقد قيل انه كان اعلم البيت الفاسى الذى لما يفتر صدى الفخر يتردد فى جلباته وهذا الفخر لم نكن نعهده فيما قبل الا فى شعر الامراء وكتاب الدولة . أما من عداهم فلا نجد الا بعض الايماءات اليه فى نهاية قصائد المادحين للملوك ، وهى لا تعدو أن تكون مفاخرة أدبية كان أصحابها يضطرون اليها للدفاع عن أنفسهم ازاء المنافسين لهم وقد وجدنا قبل هذا العصر بالذات اليوسى يفخر بهذا الصنيع ثم أحمد الشادلى الدلائى كذلك .

ومن الغريب أن يكون هذا الفخر قاصرا على أدباء فاس أو الذين احتكوا بهم من قريب أو بعيد ومن قبل فخر عبد الرحمن المكودى الفاسى كما فاخر ابن عبدون المكناسى فاسا ببلدته .. فكان الفخر يحوم دائما حول فاس كما رأيت . والمكودى كما يبدو كانت المنافسة له تحمله على الافتخار ، فقد ذكرت كتب التراجم انه كان محاطا بالحسدة ، وانهم أتلفوا بعض كتبه .

وينم عن هذا القصد هذه الابيات التى نجدها له فى نظمه للتصريف :

فلو نهوا عن الهوى النفوسا — وجانبوا التمويه والتلبيسا

لسلمـــــوا أنى فيهــــم ماهــر ونــور فهمي فى العلــوم باهــر
لكــن كبـــار أهل هـــذا العلــم يـــدرون تحصيلـــى له وفهمـــى

(توفى عمر الفاسى 1188)

أما ابن الونان فقد حفظت له آثار شعرية كان فى مقدمتها أرجوزته الطويلة المعروفة بالشمقمقية · وهى موسوعة أدبية قل نظيرها فى الشعر العربى عامة والمغربى خاصة لما تضمنتها من لغة وتاريخ وسير وأمثـــال وحكم ، ومعلومات كثيرة غيرها ؛ مطلعها :

مهلا علـــى رسلك حادى الانيــق ولا تكلفهـــا بمـــا لــم تطــــق

وقد اعتنى بها أدباؤنا منذ القديم ووضعوا عليها شروحا أجلها شرح صاحب الاستقصا الناصرى فى مجلدين كبيرين (1) ·

---

(1) وكنت وأنا تلميذ بالسنة الاولى من الثانوى قد شرعت فى شرحها معلقا بما أوله :

الخميس 24 رجب عام 1351 هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

يقول الراجى عفو ربه المنان على قصيدة
احمـــد الونـــان رحمـــه اللـــه

(مهلا) مصدر نائب عن فعله الامر معناه ارفق يستوى فيه المذكر والمؤنث مفردا ومثنى وجمعا تقول ما مهل والله بمغنية عنك ا ه موس قال الكميت (*) ·
أقــول لـــــه اذا ما جـــاء مهـــلا وما مهـــل بواعظـــــة الجهـــول
وتبدل الميم باء على لغة ا ه ص ·
(رسلك) رفقك وتؤدتك كالرسلة والترسل موس (حادى) اسم فاعل من حدا يحدو حدوا الابل زجرها وساقها ا ه موس الحدو والحداء سوق الابل والغناء لها ا تا .
وقـــال :
فغنهـــا فهـــى لـــك الفـــــداء ان غنـــــاء الابـــل الحـــــداء
ويكون بالرجز غالبا · وأول من حداها عبد لمضر قصر فضربه مضر على يده فصاح : وياده ! وكان حسن الصوت ، فاسرعت الابل فى السير ، لما سمعته فكان ذلك مبدأ الحداء اه باختصار من هدى السارى · يقول البوصيرى (**) فى طرب الابل للحداء :
ما رنحت عذبـــات البان ريح صبـــا واطرب العيس حادى العيس بالنغم =

وهذا نموذج منها ، قد اخترناه من أوساطها وأيسر أبياتها بالنسبة الى باقى الابيـــات الغريبة :

لبنى وما أدراك مـــا لبنى بهـــا — عرفت صبـــا مغرما ذا قلــــــق
تسبـــى بثغـــر أشنب ومـــرشف — قـــد ارتوى مـــن قرقـــف معتـــق
وناعـــــم مهيكــــل وفاحــــــم — مرجــــــل وحاجــــب مرقـــــق
وعاقـــــب محجـــــل ومعصـــــم — مســــــور وعنــــــق مطـــــوق
ومقلـــة ترمـــى بقوســـى حاجـــب — لاحظهـــا بسهمهـــــا المفـــــوق
تمنـــع مـــس ثوبهـــا لجسمهـــــا — ثلاثـــة مثـــل الأثـــافى فى الرقـــى

الى آخر الأوصاف التى شأنها بيت أتى بعد هذه ، وظاهر فيها الهدف الى اللغة ، قبل الفن الشعرى ، ومنها قوله مفتخرا بأصله العربى اليمنى :

ســـل ابن خلـــدون علينـــا فلنـــا — بيمــــــن مآثـــــر لــــم تمحـــق
وسل سليمـــان الكلاعـــى كم لنـــا — مـــن خبـــر بخيبــــر وخنــــدق
ويـــوم بـــدر وحنــــين وتبــــو — ك والسويـــق وبنـــى المصطلـــق
بهـــم فخـــرت ثـــم زدت مفخـــرا — بأدبى الغـــض وحـــسن منطقـــى
وزان علمـــى أدبـــى فلن تـــــرى — مـــن شعـــره كشعـــرى المنمـــق

= (الأينق) جمع ناقة وتجمع أيضا على ناق ونوق وانوق وانؤق واونق وناقات وانواق ونياق اه موس ، أنشد ابو زيد للقلاخ بن حزن (***)

أبعدكـــن اللـــه مـــن نيـــاق — ان لـــم تنجـــين مـــن الوثـــاق

(فطالما) طال طولا كاستطال امتد فهو طويل وطوال ا ه

---

*) هو الشاعر الخطيب الراوية النسابة ابو المستهل الكميت بن زيد الاسدى الكوفى أشعر شعراء الشيعة الهاشمية ومثير عصبية العدنانية على القحطانية · ولد سنة 60 ونشأ بالكوفة وتوفى سنة 226 ه . وسيط

(**) هو الكاتب الشاعر شرف الدين بن سعيد بن حماد الصنهاجى البوصيرى ولـــد سنة 608 وتوفى بالاسكندرية سنة 695 ودفن بها اه الوسيط .

(***) السعدى ، القائل :

أنا القـــلاخ بن جنـــاب بـــن جـــلا — أبـــو الخنائـــــر أقـــود الجمـــــلا

وجناب جده ه قا موس ·

فان مدحت فمديحي يشتفي ... بـه كمثـل العسـل المروق
وان هجـوت فهجائـي كالشجـا ... يقف في الحلق ومثـل الشـرق

الى أن يقول :

وهل أنا الا ابن ونـان الـذي ... قربـه كم مـن مليك مرتقـي
احق مـن حلي بالاستاذ والشـ ... ـيخ الفقيـه العالـم المحقـق
وبالمحـدث الشهيـر والاديـ ... ـب والمجيـد والبليغ المفتلـق
واعلـم الناس بـدون مريـة ... سيان مـن في مغرب ومشـرق

وهكذا نجد أيضا في هذه الابيات هذا الفخر بالآباء والاجداد وبمواهبه وبعد هذا يقول في ابيه :

وان أردت ان تكـون شاعـرا ... فحلا فكن مثل أبي الشمقمق (1)
ما خلـت في العصر له من مثـل ... سوى أبـي في مغرب ومشـرق
لذاك كناه به سيدنا السلطـ ... ـان عـز الدين تـاج المفـرق

وبهذا تخلص لمدح السلطان محمد بن عبد الله ·

أما ما ورد فيها من غريب ، فكقوله في آوائلها :

ومـا ائتلت تذرع كـل فدفـد ... اذرعهـا وكـل قـاع قـرق
وكـل أبطـح وأجـرع وجـز ... ع وصريمـة وكـل أبـرق
مجاهـل تحـار فيهـن القطـا ... لا دمنـة لا رسـم دار قد بقـي
ليس بها غير السوافي والحـوا ... جب الحراجيـج وكـل زحلـق
والمرخ والعفار والعضاه والـ ... ـبشام والاثل ونبت الخربـق
والرمث والخلة والسعدان والشـ ... ـغر وشرى وسنا وسمسـق
وعشـر ونسـم والسحـل ... مـع ثمـام وبهـار مونـق
والسمع واليعقوب والقشة والسـ ... ـيد السبنتـي والقطا وجـورق

الى آخر الابيات التي عمد فيها الى ذكر هذه المفردات اللغوية الغربية ، ولم يرد من وراء ذلك شيئا آخر ·

توفي ابن الونان عام سبعة وتسعين ومائة والف ·

---

1) شاعـر امـوي ·

وأما محمد بن الطيب السكيرج فقد كان أعنف خصيم لابن الونان وهو المعنى بالحسود فى بيت الشمقمقية :

فبشرن ذاك الحسود انه   يظفر فى بحر الهجا بالغرق

نعم ان أديبنا ابن الطيب كان على حظوة لدى المولى محمد بن عبد الله لما كان يتمتع به من أدب بارع وشعر جيد سد على ابن الونان المنافذ فاتخذ هذا تلك الوسيلة المكشوفة التى أعلن بها عن نفسه للمولى محمد الذى عرفه بأبيه .

ويبدو أن السكيرج كان أشعر من صاحبه وأنه كان متمكنا من قرض الشعر فقد انشد بعضهم السلطان قول الشاعر :

سألت الندى هل أنت حر فقال لا   ولكننى عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثة   توارثنى عن والد بعد والد

فقال السلطان : ان ذلك لغاية فى بابه . فقال محمد بن الطيب السكريج : لو شئت لقلت أحسن منه ، وأنشد :

ولما رأيت الجود فى البحر فاشيا   ومن جوده الدر النظيم المنضد
فقلت ومن فى الناس علمك الندى   فقال أمير المؤمنين محمد

فتعجب السلطان والحاضرون لارتجاله وجودة مقاله ..

ومن أشعاره الكثيرة قصيدة يهجو بها ابن الونان ، ويفخر فيها عليه ، بمثل قوله :

تخبرك الايام عنى حقيقة   بأنى فى لخم أعز وليد

فهو أيضا ينتسب الى عرب لخم ، وقد هاجرت آباؤه من الأندلس قبيل سقوط غرناطة أو بعيدها (1) .

وله نثر الى جانب الشعر . وهذا نموذج من نثره ، وهو من رسالة كتبها لابن اخته احمد بن العربى العراقى الفاسى ، يقول فى استهلالها :

---

1) وما زال بعضهم محتفظين بمفتاح دارهم التى كانت لهم بغرناطة ، كما حدثت بذلك .

أجل من تحلى بأكرم الاخلاق ، واكمل من شرفت منه الاوصاف والاعراق ، الحال منى محل سويداء اماقى ، ابو العباس أحمد بن العراقى، لا زلت فى خفض عيش ناعم ، ما دام ثغر الرياض عن عرف أزاهره باسم، وعليك منى تحية يفوق شذا النسرين طيبها ، مستوفى من عبير العنبر نصيبها ، مشفوعا ببركات يملأ الخافقين نورها ، وتتوج محاسن الدهر سطورها ·

(هذا وقد طار الفؤاد للقياك ، وطمحت نار التشوق لاستطلاع محياك ، والاستمتاع برؤياك ، أذ كنت منى محل الزند للساعد ، كيف وفيك الغنية عن الأقارب والاباعد ، أبقاك الله محفوظ الجناب ، متبعا سبيل من أناب (1) · الى آخر الرسالة التى لا بأس بها ، وقد توفى سنة 1194 ·

أما التهامى بن الطيب أمغار ، فمن شعره تلك المقصورة التى استهلها بقوله فى موطنه مكناس :

لله ما أبهى عمائر الحمى	معالم الأنس مطالع المنى
معاهدا ما برحت محفوفة	بظل أمن من فراديس الهنا

الى أن يقول :

تأمل فى « أبى السلو » اذجرى	مسبحا لله فى در الحصا
كسا الرياض حللا من سندس	فسجدت لله شكرا للحبا
حلى السواعد سوار ذهب	والساق خلخال لجين قد صفا
يعشى عيون الناظرين نورها	من كل لون مشرق يذكى الحجا

وهذه المقصورة نعدها حتى الآن ثالثة ثلاثة من نوعها، نعرفها للمغاربة، فاثنتان منها كانتا فى العهد المرينى ·

أولهما المقصورة البديعة التى مدح بها صاحبها أحمد ابن عبد المنان ، الملك المرينى أبا عنان ·

وثانيتهما مقصورة المكودى فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ،

ومقصورة التهامى أمغار ، لا تقل فى جمالها عن مقصورة ابن

1) تضمين قوله تعالى « واتبع سبيل من أناب الى » .

عبد المنان ، فهى رقيقة السبك أنيقة النسج دقيقة التصوير (1) فتكون هذه اشبه بمقصورة حازم ، وان لم تأخذ بتلــك الحلية التى أخذ نفســه بها ، خصوصا من ذلك ما كان فى الالفاظ منها ·

ومن تضميناته ، ما أجاب به بعض اخوانه ، مذيلا على بيت أمرىء القيــس :

تفا نبك من ذكرى حبيب ومنــزل　　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل

بقولـــه :

لك الله يا حادى الركاب مغلســا　　　الى الحرم القدسى رويدك فانزل
ورو نفوســا بالمقام ولا تقــل　　　قفا نبك من ذكــرى حبيب ومنــزل
ودعنا على بسط المسرة والصفــا　　　بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وروح فـــؤادى بالوصــال هنيهــة　　　بمشهد مـــولانا الوجيــه المكمــل
حديقة فضــل بالمعارف أثمــرت　　　وشمس جمـــال بالمحاسن تنجلــى
بديــع بيان فى احتكــام تصــرف　　　باجمـــال تفصيل وتفصيل مجمــل
قضايــا عـــلاه بالكمـــال تسورت　　　ببرهان فضل عن قياس محصـــل

وهكذا نلاحظ فى الأبيات بعد هذا التضمين توريات بأسماء كتب ، ثم استعمالا للمصطلحات المنطقية فى البيت الاخير منها ،ثم تأتى ستةأبيات بعد هذه نجد فى بعضها توريات بمصطلح الحديث ، فالأبيات اذن عبارة عــن تصنع وحذلقة متعمدة ·

ومن مقطعاته قوله :

لهفى على وادى العقيق وبانــــه　　　وعريب نجــد أحكمــوا توثيقــى
شام الحداة الابرقـــين فأرعــدت　　　منى الجوانح من لظى التفريــق
يا جيــرة لكــم السيــادة اننــى　　　ارجو اصطبارى مبرد التشويـــق

وقـــوله :

هل لاح برق الغرب أو هب الصبا　　　أو صاح ورق بالأرائــك تصــدح
أو رنم الحادى الركاب مهيمـــا　　　فدموع جفنى كالسحائب تسفـــح

---

(1) نجدها فى الجزء الاول من الاتحاف تحتوى ثلاثة وسبعين بيتا ·

ما لى وللواشى العذول وفى الحشا يوم النوى نـار الصبابة تسـرح

ومن اخوانياته قوله مجيبا من راسله بأبيات مضمنا بها البيت :

ستبدى لك الايام ما كنت جاهلا ويأتيك بالاخبار من لم تزود

بقوله :

شهدنا خفايا السر منه حقيقة بحسن تلاقينا على غير موعد
عهدنا به صدق المودة والوفا نتيجة حق قد خلت عن تردد
وها قد بدت منى اليك بشارة تحوز بها العلياء فى كل مشهد
فلا زالت الأيام تهديك منحة بتحقيق آمال وابلاغ مقصد

فهذه النماذج العديدة كلها — كما رأينا — يطبعها الطابع القديم فى الشعر العربى وهى على كل حال تحفظ لأديب عالم لا نعرف عنه فى المصادر المغربية شيئا ·

توفى ابن الطيب رحمه الله بالقدس سنة أحدى وتسعين ومائة والف · فهو من الادباء الذين عاشوا فى عهد مولاى محمد بن عبد الله · ولكنه اشتهر بالمشرق وكان له شأن به بخلاف المغرب وكذلك كان معاصره ابن الطيب الشرقى الا ان هذا يعتبر من العهد السابق اذ توفى سنة وفاة مولاى عبد الله أو قبلها بسنة ·

ومن الادباء الذين عاشوا فى عهد مولاى محمد بن عبد الله نذكر — أيضا — أحمد بن المهدى الغزال ، فهو كاتب الدولة وسفيرها الى البلاد الاوربية (للمولى محمد) وهو الى جانب كتابته السلطانية ، شاعر من الشعراء التقليديين ·

وتقدم أن الغزال من أصل أندلسى عربى ينتسب الى حمير ، فهو كغيره من أدباء مغاربة كثيرين يمنى المنتمى ·

ومن شعره أمداح السلطان وقصائد ، منها رائية طويلة نجدها فى الاتحاف ، يقول فى أولها :

سلا بانة الجرعاء هل جادها القطر وهل أمرعت أجزاع ساحتها الغـر
وهل نسجت أيدى الحياء بروضها برودا لها من كف راقمها نشر
فيا لك روضا من بكاء غمامة تبسم من أثغار أكمامه الزهر

كأن بــه الادواح تهتــز نضـــرة	عرائس تزهو فوقهــا حلل خضــر
كأن بها ورق الحمائــم سجعـــا	قيان لها فى صوغ الحانها جهـــر
كأن ثغور الاقحوان مباســـم	تناســق فيها تحت قانئــها در
كأن الشفاه اللعس منها شقائــق	تناســق فيهــا تحــت قانئهــادر
كأن احمرار الورد فى ريق الحيــا	خدود غوانى الغيد لاح بها بشــر

وهكذا يستمر فى تشبيهاته العديدة ، وهى على تقليدها ، عليها رونق الشعراء المطبوعين ، وسياق تلك الصور بتشبيهاتها يشبه صنيع ابن هانى الأندلسى ، الذى والى بها ابياتا ، من قصيدة فائية فى مدح القائد جعفر بن على الأندلسى ، وان كان فى تلك التشبيهات تعلق بالنجوم والكواكب ، ثم ظلام الليل وعمود الفجر وضياء الشمس .

ولكن الغزال ، قد ترك السماء وارتبط بالارض ، فى جرعائها الممرعة ، ورياضها الزاهرة ، بنواويرها وأكمام ورودها ، ثم بأدواحهــا الغنــــاء النضرة ، التى تهتز فى خيلاء ، وكأنها عرائس مزهوة بخضرة حللها ، وعلى تلك الاشجار الباسقة ، ورق الحمام تلقى بأسجاعها ، وكأنها قيان تجهــر بفنون ألحانها ، وللاقحوان ابتسامات على ثغورها ، التى يتسلسل الخمر من ظلم رضابها ، وشقائق النعمان ، كأنها شفاه لعس وقد تناسق الدر فى نضيدها ، أما الورد باحمراره ، فكأنه خدود غوانى الغيد ، قد ســرى بها البشـــر .

وبعد هذه يأتى بتشبيهات أخرى من هذا القبيل ، ومنها يتخلص الى مدح المولى محمد بن عبد الله ، فيربط ، كعادة الشعراء ، بين هــــذه التشبيهات الجميلة وبين خلاله الحميدة .

وللغزال ما عدا قصائده العديدة فى مدح هذا الملك ، ثلاث رسائل ، دبجها بأشعار عجيبة ، نجدها فى الاتحاف .

ومما يحمد له أنه لم تستعبد فنه تلك الحليات البديعة وخصوصا اللفظية ، فقلما يعرج عليها ، اللهم الا ما يقتضيه السجع الذى أصبــح لازما للنثر الفنى منذ القديم توفى الغزال عام 1191 .

وبعد الغزال نتصل بأبى العباس أحمد بن الرضى ابن عثمان المكناسى ، الذى يصفه صاحب الاتحاف بأنه نابغة زمانه نقدا وبلاغة وذو ملكة واقتدار ،

ناظم ناثر ، محاضر مخبر ، نحرير وجيه نزيه ، ثم يذكر من شعره قصائد وقطعا كثيرة ، نختار منها ما ياتى يقول فى وصف مغن جميل :

واشنب ابدى الحسن فيه بدائعا — ازاهرها تجلى على غصن القد
ترى العود ان جسته منه أنامل — كغيداء قد تاهت فرنت من الوجد
على أنه مهما ترنم منشدا — أراك حلول الروح فى الحجر الصلد
فديتك بدرا فى سما الحسن كاملا — به بين أرباب النهى وريت زندى

ويقول مجيبا من خاطبه شعرا :

شعر نظامك أم رياض الآس — متهذب الاخلاق والأنفاس
فكأنما الفاظه نشر الصبا — أو كالمدامة طرسه بالكاس
لا زلت موفور المجادة والسنا — طودا على متن المكارم راس

وقوله فى المعنى :

أهذى سطور أم بحور تدفقت — فأكسبت البحر المحيط وجوما
وهذى معان أم مغان ترقرت — فأطلعها ليل الحداد نجوما
فتشرق نورا يهتدى بسنائه — وتحرق سراق القريض رجوما

وقوله فى وصف مجلس انس :

لهفى على تلك العشايا التى — قضيتها تحت وريف الظلال
ما بين أزهار زهت بالرذا — ذ أو بين أنهار جرت بالزلال
والورق فى الاوراق راقصة — وجامات الراح براح الغزال
قد أودعت فى خده لونها — وأثرت رقتها فى الشمال
وأكسبت ألحاظه فعلها — وطعمها المرشف عند النوال
لا زلت فى سكر لواحظه — فكيف أقوى سكر بنت الدوال
وكلما رمت اقتطاف جنى — من وجنتيه رشقتنى النبال
فان رجعت القهقرى لدغت — عقارب الصدغين منى القذال
وان أحم حول حمى ثغره — تلسعنى النحل فضاق المجال
من منقذى من أسر طلعته — من عاذرى فى حب بدر الكمال

فأبياته فى وصف المغنى وعوده جميلة على فقرها ، فهذا المغنى حسن الأسنان أبيضها ، فيه من الحسن بدائع تتجلى على قده المائس ، يحتضن عودا ، ان جسه بأنامله ، انبعث منه صوت سجى ، كأنه رنين غيداء ذات

وجد وهيام ، فان ترنم بأناشيده ، فانه يحرك حتى الجماد ، ويبعث الروح في الحجر الصلد . وهو يفديه بكل عزيز ، لجماله الذى كان به كالبدر كاملا في سماء الحسن ، فيهيم أرباب النهى والعقول ، ويفقدون زمام رشدهم ازاء هذا الجمال .

فهذه الأبيات في وصف المغنى أجمل من أبيات البوعصامى من رجال الانيس في وصف المغنى كما تقدم .

واما أبياته التي اجاب بها عن اخرى ، فلا شيء فيها (وسبق أجمل منها في شعر عمر بن عبد العزيز الجرسيفى) وله أبيات أخرى في هذا الموضوع وشعره عموما لا يخلو من الصنعة المتعمدة توفي قبل سنة 1208.

وفي هذه الحقبة ، ظهر شعراء ، زاولوا التوشيح الى جانب القصيد ، كما ظهر من زاول الزجل ، من العلماء . فمن الأدباء الخلص الحوات وهو الاديب ابو الربيع سليمان بن محمد العلمى الشاونى الفاسى ، يحليه صاحب الاتحاف ، بقوله « تاج الأدباء » ، كان شاعرا ناثرا « نسابة ثبتا » ، كما يصفه بالعلامة الاصيل » ، لقد اشتهر هذا الأديب ، بتراجمه التي على رأسها كتاب «البدور الضاوية في التعريف بالسادات أهل الزاوية الدلائية»(1) وكان الى جانب التاليف والانشاء ، يقوم بتدريس فنون الأدب ، وسنرى لأحمد الحكمى ، أبياتا مطلع قصيدة بعث بها اليه ، يطلب منه اقتراءه الخزرجية ، عند التعرض لهذا الاديب .

فمن انشائه قوله من مذكرته : فنزلنا مكناسة الزيتون ، على روض البلاغة المزهر الاحفل ، الكاتب الأديب الانبل ، العالم الاكمل ، أبي عبد الله سكيرج الفاسى ، وصل الله عنايته فألفيناه في مجلس منادمته، مع خاصته من أحبته ، على حالة أغناني عن وصفها باستطلاع مطلع أشرف منه على التخليص ، فقال :

لما أباح النوى راح الفراق وقد	ركبت ظهر الفيافي منضيا تعبي
يممت ربعا به للحسن معترك	وفيه روض لاهل الفضل والأدب

---

(1) مخطوط ، وله « قرة العيون في الشرفاء القاطنين بالعيون » و « ثمرة أنسى في التعريف بنفسى» و «الروضة المقصودة في مآثر بنى سودة» و «السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من اعقاب الشيخ عبد القادر » وكلها ما زالت كذلك مخطوطة .

ثم قال أجز ، فأجزت بقولى :

وكيف لا ودليـل الحب أرشدنـى ... والحب يرشد أحيانا الـى الأدب
فكان لى موقف على الحبور بـه ... فى مظهر الأنس بين اللهو والطرب
بحيث محيا « أبـى زيد » ورنتـه ... يستبعدان قريب الهـم والوصـب
ولابن زكرى جس فى مثالثـه ... أعربن فى نغمة «الحسين» عن عجب
يجيبها بمثانى الصـوت مبتسما ... فى وجه عاشقه عن بارق الشنـب
فى منتدى كعبة الجدوى سكيرجها ... والعلم«ينسل»من نجواهعن «حدب»

فلما وصلت الى هنا ، استعادنى انشادها ، وهو مقبل علي بمحل معه يهتز اعجابا وطربا ، ثم تنحى دسته جملة ، وأجلسنى فيه منفردا ، بعد ما كنت مشاركه فى جهة منه فقط . فلما استويت أنشدنى للصـاحب ابن عباد :

فلو كان مـن بعد النبيين معجـز ... لكنت على صـدق النبى دليـلا

ثم اجتليت عن يسارى ، بدر تلك الهالة « أبى زيد » المزدارى ، وهو يقول : كأن البرق يلمع علينا من أدبك ، والشمس تطلع من غـرة طربك » وكأنى المعنى عنده ، انشدته مغالطا فقلت :

البـرق يلمـع لكن مـن ثنايـاك ... والشمس تطلع لكن من محياكـا
فاحكم بما شئت فينا غير مكتـرث ... بقتـل أنفسنـا فالحسـن ولاكـا
والله يا عابد الرحمان ما نظـرت ... عينـى بمكناسة الزيتون الاكـا
أودعت سر غرام بيتـه خلـدى ... لديك فاجعله لى ببيت نجواكـا

فنشط للمدح وارتاح ، وناولنى مترعات الأقداح ، وبقى لا يلتفت الا الي ، ولا يقبل بحديثه الا علي (غير أنى بين حيات وحين ، من صوارمـه المصلتة من جفون العين ، والنفس تشتهى اقتطاف ورد الخدود ، النابت حول غاب قسى الحواجب واسل القدود . فكان ذلك ولله الحمد داعيـة العفاف ، وآية على حمد عاقبة الانصراف ، اذ من العصمة الا تجد ، وان وجدت فاتئد) فمكثنا على ذلك أياما بين تناشد الاشعار ، وتجاوب الاوتار ، وكؤوس حلال الشراب علينا تدور ، من راحات حسان كالبدور ، لم نستيقظ

من سنة المسرة ، الا بعد ان مضت من الشهر عشرة :

نزلنا على أن المقام ثلاثة فطاب لنا حتى أتممنا بها عشرا

وربّ المنزل المذكور ، وعلم الاجلال المنشور ، حملته الاريحية على المبالغة فى الاكرام ، بالتردد علينا فى كل برهة بموائد الطعام ، مختلفة الاجناس ، تستلذ مضغها الاضراس ، الى أن انفصلنا كل فى وجهته سعيد، وربك الفعال لما يريد (1) .

فهذا اسلوب وسط بين اساليب ذلك العصر ، فهو بعد أن استرسل فيه ، صار يتقيد بالسجع وقليلا ما وجدناه يتعمد غيره من محسنات البديع ، وان أشاد به القوم واعجبوا ، الا أن هذا الاعجاب ربما أتى من الارتجال ، كما انه ضم الفاظا قليلة ، نحو « ينسل من نجواه عن حدب » « وربك الفعال لما يريد » .

والمذكرات قليلة فى أدبنا ، لم يتقدم لنا منها الا مذكرة ابن حبوس التى نقلنا نموذجا لها من كتاب المعجب ، فيما سبق . وأسلوبها متخفف من الصنعة، ثم ان البيت الثانى من الابيات الكافية، مأخوذ من بيتى ابن الفارض :

ته دلالا فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاكا
ولك الامر « فاقض ما أنت قاض » فعلى الجمال قد ولاكا

مع قوله :

ما بين معترك الأحداق والمهج انا القتيل بلا اثم ولا حرج

وشعره وسط وان أشاد به القوم واعجبوا ، الا أن هذا الاعجاب ربما أتى من الارتجال ، وحق له ذلك ، فى تلك الابيات التى تطبعها الحلاوة، وتزينها الرشاقة كما رأينا توفى الحوات بعد عام 1233 أو عام 1231 عن نحو سبعين عاما ، وهو متولى نقابة الاشراف بفاس .

واما احمد الحكمى فهو قاضى سلا والرباط ، (المتوفى فى عام 1226) ، ومن شعره قوله ، فى مطلع قصيدته التى يخاطب بها شيخه سليمان الحوات :

كم ذا نعانى وفرط الشوق أفنانا وطالما بت أرعى النجم يقظانا

---

(1) من مذكرته المخطوطة بالمكتبة الزيدانية .

اكفكف الدمـــع حينا ثـــم أرسلـــه | جمرا على الخد يصلى القلب نيرانا
ذا لوعة برمـــاح الحـــب طاعنـــة | أسى ولم أر مثـــل الحب مطعانـــا
وفكرة بسهـــام الحـــب راشقـــة | وحيـــرة وزفيـــر ليـــس ينسانـــا
ولى اذا ما أناجى الربع عن شحط | انين صب يوارى الحـــب كتمانـــا
تلك الديار وما شوقى لساحتهـــا | الا لألقـــى منى قلبـــى سليمانـــا
بدر المعالى رياض الأنس لا برحت | اخلاقه تشتهـــى حسنا واحسانـــا
بحـــر طما فصفـــا للفكر مشربـــه | وعاد بالعلـــم فياضـــا وملآنـــا
يزرى بنظم اللآلـــى نظمه وكـــذا | نثـــاره لم يـــزل بالحســـن فتانـــا

وهكذا فان هذين الاديبين اقتصر انتاجهما على المعهود من جمهرة ادبائنا ، فسليمان الحوات ، ناظم ناثر ، فترجم للناس ولنفسه وتلميـــذه الفقيه الحكمى ، وجدنا له هذا الاثر الشعرى الرقيق ، وهو على المستوى المعروف فى المطالع التى تتعمد النسيب .

ومـــن الذيـــن نظمـــوا التوشيـــح لـــذلـــك العهـــد الـــزاهـــر محمد بن الطاهر الهوارى حفظ له شعر اتسم بالجزالـــة لكنـــه اشتهر بموشحاته الرقيقة تلك الموشحات التى لم نجد لها صدى بعد ابن الطيب ورفاقه الى أن كان عصر محمد بن عبد الله فوجدنا أديبنا هذا يشتهر بها . ومن الحق أن يقال ان موشحاته لا تصل فى مستواها الراقى الى مستوى ابن الطيب واستاذه ابن زاكور ولكنها مع هذا تكتسى حلة رقيقة كمـــا قلنا .

وهـــذه احداها قالها فى أحد الشرفاء :

شـــادن بالغـــرام يستفـــز الغريـــم
وصلـــه لا يـــرام والهـــوى لا يـــريـــم
اغيـــد لا يقيـــل مهجتـــى بالمقـــل
وبطـــرف كحيـــل حـــل فيـــه الكحـــل
وبخـــد أسيـــل فـــوق غصـــن الأســـل
بخلـــه بالســـلام أضنـــى قلبـــى السليـــم
ليتـــه بالكـــلام احيـــا صبـــا كليـــم
وحشـــة الهاشمـــى صيرتـــى هشيـــم
مـــن غـــدا لائمـــى فى هـــواه لئيـــم

ايهـــا الفاطمـــــــى صـــل محبـــا فطيـــم
لحظـــه كالحســـام لفـــؤاد حسيـــم
مظهـــر بابتســـام در ثغـــر بسيـــم

ففى هذه الموشحة نجد عنصر الخيال ضعيفا فاترا ، على حين نجــد التلاعب بالالفاظ متمكنا منها ، مثل الغرام والغريم ويرام ويريم واسيـــل واسل والسلام والسليم والكلام والكليم والهـــاشمى وهشيم ولائـــــم ولئيم والفاطمى وفطيم والحسام والحسيم ممـــا انبنت عليه نهاية المصاريع كلها فى هذه الموشحة ٠

أما الزجالون فمنهم عبد القادر بن محمد الادريسى العلمى ، المعروف باسم سيدى قدور العلمى :

وشهرته عند الشعبيين غنية عن كل ذكر ، وكان على حظ من العلم ،الا ان شهرته بالزجل غطت على ما عدا ذلك وهى فى الواقع ازجال ، طرق بها فنونا متعددة ، وتتسم ببلاغتها وحسن صوغها ، مما لا يصدر الا عمن له نصيب من الأدب الفصيح فى امداحها ومواعظها وحكمها وغزلياتها ٠ قالوا انه لو جمع ما عرف من ازجال لقدور العلمى لكان فى بضع مجلدات ٠ ولكن يد الاتلاف قد امتدت اليها فلم يبق منها الا عدد قليل من القصائد تشهــد لصاحبها ، ان صحت النسبة بالتفوق العظيم فى هذا اللون مـــن الأدب الشعبى الذى كان المغرب قد عرفه منذ خمسة قرون ٠ غير أنه فيما مضى ، لم يرتق عندنا عامة ، الا فى هذا العهد ، واستمر فيما بعد فى رقيه ٠ وهـــذا نموذج من الأزجال التى نسبت لقدور العلمى :

راح الوقت ولا بقـــا الا وقـــت المعانقـــا كب ورا وارخى رواق
والاشجار الباسقـــا والاطيار الناطقـــا عمرت بلغاها اسواق
كب الصاهبا الخارقا فى كيســـان بنادقـــا من زاج بلاد العراق
تظهر خمـــر بارقـــا فى الاوانـــى شارقـــا كاون سحيق الرهاق

اتينا بهذا النموذج من الزجل ونحن بصدد قضية الادب العربى الفصيح لان الفاظه عربية كلها وليس فى سبكها الا اختلاف بسيط للاعراب والصرف كما حدث فى الريهقان الزعفران فجاءت أخيرا بالرهاق ويمكن ان يكـــون جعله جمعا له وهذا غير شائع الا فى فعلان او فعلان وصفا كغضبان وخمصان جمعهما غضاب وخماص ٠

ولد عبد القادر العلمى سنة اربع وخمسين ومائة والف وتوفى سنة ست وستين ومائتين والف فيكون قد نيف على مائة سنة .

وهناك شعراء آخرون ، مثل احمد بن عبد الله ابن الطاهر الماسجنى) السوسى الذى نجد له قصيدة دالية طويلة فى مدح محمد بن عبد الله وهو امير ، يفتتحها بقوله :

ان السعادة الحفتك برودها وثنت اليها قريبها وبعيدها

وكان ابن الطاهر هذا من العلماء البارزين المشهورين على عهد المولى محمد بن عبد الله ، اخذ عنه كثيرون ممن اشتهروا بعلمهم بعده .

ومن هؤلاء أيضا محمد بن عمرو الاوسى الرباطى ، يصفه ابن زيدان فى الاتحاف ، بأنه اديب الرباط ، كانت له مراسلات نثرية ، مع الحكمى الآتى الذكر ، كما كانت له مساجلات شعرية معه كهذه التى بداها الحكمى بالبيت الاول فأجاز ابن عمرو بآخر ثم اتى الحكمى بمصراع أجاز ابن عمرو بمثله وهكذا دواليك :

اضاءت وقد طال انتظار عميدها تجلى سناء فى دياجى النوائب

فقال ابن عمرو :

وجاءت بفجر الصبح غرة وجهها تزاحم فجرا لاح فوق الذوائب

فقال الحكمى :

ومنت فما امتنت ونفسى فدى لها

فقال ابن عمرو :

وان مزجت صرف الهوى بالشوائب

فقال الحكمى :

فأبقت على الصب الكئيب تكرما

فقال ابن عمرو :

بقية شرب فى كؤوس الكواعب

فقـــال الحكمـــى :

فتاة سواد العالمين لوجهها (1)

فقـــال ابـــن عمـــرو :

كنقطة خال تحت ماضى القواضب

وهكذا فان عهد المولى محمد بن عبد الله ، كان عهد انتعاش للدولة ، بعد تلك النكســـة الفاتكة التى اصيبـــت بها ـــ كما تقدم ذكـــره ـــ وان تلك النهضة شملت مختلف المجالات ، وفى مقدمتها العلم والادب ، وتقدم ذكر ادباء عديدين ، اقتصر جل انتاجهم على المالوف فى الفصحى ، من شعر ونثر انشائى او تاليفى ، وتعدى آخر الى الموشحات والأزجال ·

ولما توفى المولى محمد خلفه من ابنائه وأحفاده ، من ساروا على دربه فى الأخذ بيد العلوم والفنون ، وكان فى مقدمتهم الابن البار ، المولـــى سليمان ، الذى كان كأبيه عالما اديبا ·

وقد ظهر على راس الحلبة لعهده ، عالم اديب ، كان صاحب مدرسة انجبت علماء أدباء كان لهم شأنهم العظيم بعده ···

هذا العالم ، هو أبو الفيض حمدون ابن الحاج ، الذى كان المـــع هذه العائلة ، التى اخذت بزمام العلم والأدب الى يومنا · وقد كان مـــن ابنائه ، من خصه بالتاليف مترجما كتابه باسم « رياض الورد الى ما انتهى اليه هذا الجوهر الفرد »

ويهمنا من هذا العالم الأديب شعره فى الدرجة الاولى ، فقد تجلى نظمه ، فى مجالين تجليا قويا : نظم العلوم المختلفة ، ونظم الامداح ، خصوصا منها الامداح السلطانية ·

فمن الأول منظومته الميمية فى السيرة وهى منظومة ضربت الرقم النهائى فى الطول ؛ فلقد وصلت فى عدد أبياتها الى أربعة آلاف · ولا نعلـــم أن قصيدة فى السيرة النبوية وصلت الى هذا العدد من الأبيات · وقد شرحت فى ست مجلدات ·

واما الأمداح فكان من اهمها تلك المجموعة التى جمعها فى ديـــــوان

1) فى الاتحاف انهما يريدان يوح ·

سماه (السليمانيات) لأنه قالها فى المولى سليمان وهذا نموذج منهـا فى مطلـع لهـا :

زارت سليمى فهات الكأس ساقينا ... ولا عليك فـرب العـرش واقينـا
مرت عـلى غفلة منها فعـم بهـا ... نور ونشـر كأنه مسـك دارينـا
فقلت يا ربـة القرط الخفـوق اذا ... لم تسعفينـا محبـة فـدارينـا

الى ان يقول :

لا تنسـين عهـودا بيننا سلفـت ... تؤكـد الود انـا غيـر ناسينـا

يقول :

قالت وقولتها للحـب زارعـة ... فى قلب سال وانـا غير سالينـا
لا ذنب لى ــ واطالت فى معاتبتـى ... والعتب يخـرق ستر من تدانينـا
فقلت للصب عـذر فـى تنفسه ... واعظـم الذنـب فى ود لقالينـا
ودب من لحظنـا فى خدها خجـل ... مبـد لورد مخالـط رياحينـا
ولحظها فاتـك فينـا بنظرتـه ... وطالمـا فتكـت عين المهـا فينـا

ثـم يتخلص الى مدح المولى سليمان . والقصيدة يبدو عليها التأثير العلمى فى بعض تعابيرها لان صاحبها كان عالما معلما لم يستطع أن ينسى نفسه ــ كذلك ــ فى انتاجه الادبى ، وخفف « كأن » وهو مروى للنحاة .

وفى هذه القصيدة ريح من نونية ابن زيدون وبشامة النهشلى توفـى ابو الفيض عام 1232 .

ومن تلاميذه الأديب ابو عبد الله محمد ابن ادريس الذى حفظت له رسائل سلطانية وغيرها كما حفظت له بعض المقامات وكلها تشهد له بمكانة لابأس بها فى النثر الفنى كما حفظت له بعض الأشعار المتنوعة الاغراض المعروفـة فى الشعـر منذ القدم .

كان ابو عبد الله ابن ادريس معلم صبيان ثم كاتب للمولى عبد الرحمن وهو خليفة على فاس فلما بويع استوزره فحرر عدة رسائل عنـه كما نظم فيه اشعارا وأنشأ مقامة ، يقول فيها :

حدثنى الفتح بن سلامة عن نصر بن كرامة قال الحفنى السعد ببرده واتحفنى بحلو عيشه وبرده وبوانى من حمى الخلافة العلوية العلية ظلالا

وعلق كفى من خدمة الحضرة المولوية العبد الرحمانية حبالا فى دولـــــة علوية أعلى العلاء أعلامها وحمى الاله حماها وعقد السعود على التناصر عقدها وذمامها واليمن قد واخاها فبلغت بطلعتها أمنها ومرامها وتوطت لمناها وبنى الأيمة من قريش مجدها ومقامها بـين الورى وعلاها . حمـــــوا الشريعة بالسيوف واوضحوا أعلامها وتنوروا بسناها فكنت منتظما فى سلك كتابها ومعهودا فى خدمة أعتابها وصحبت ركاب مولانا العلى العلـوى وجيشه المنصور المولوى ، فى احدى قدماته من الحوز ، فى سفر أسفر طالعه عن وجه الظفر والفوز .

فى عسكـر مـلأ القلوب مهابـة والأرض خيلا بالعوارف يفهـــق
للفتـح والتمكـين فيــــه دلائـل وعليه ألوية السعــادة تخفـــق

نهض لهــــا أيده الله غـرة ذى الحجة متم عـــام (ناشـر) والسعد لمعهود العناية ناشر ، والرعب يقدم جنوده ، والسعد ينشــر بنوده ، والنصر تحت ظلال أعلامه ، وحفظ الله من خلفه وأمامه .

والدهر معتـدل الآنــاء مقتبـــل والشمس حلت ببرج السعد والشرف

ومطارف السندس بالآفــاق قد نشرت ، وجيوش النور حشـدت الوانهـــا وحشرت .

والارض تجلى عروسا فى ملابسها وشت حلاها يد الانواء بالزهــر

والنسيم قد عطر بنشره الاندية ، وغازل الاغصان فنازعها المطارف والاردية ، وجر ذيل دلاله فى الآكام والأودية .

والريح تلطم فيـــه أرداف الربـــى مرحـــا وتلثـم أوجــه الأزهـــار
ومنابر الأغصـــان قد قامت بهـــا خطبــاء مفصحـــة مـــن الأطيـــار

والسن الحال تهــدى الى التفكر فى مصنوعـــات الله وترشـــد وكأنها تتمثل بقول أبى نواس وتنشـــد :

تأمـل فى نبـات الأرض وانظـر بدائـــع ما بهـــا صنـــع المليـــك
عيــون مــن لجـين شاخصات على اطرافها الذهـــب السبيــك
على قضب الزبرجــد شاهــدات بــأن الله ليـــس لـــه شريـــــك

والناظر الاديب المتأمل ينشد قول المجنس الممثل :

ان هـذا الربيـع شيء عجيـب   تضحك الارض من بكاء السمـاء
ذهـب حيثمـا ذهبنـا ودر   حيث درنـا وفضة في الفضـاء

والجيش المنصور بحر متلاطم الامواج ، يسير فيملأ الفضاء ، ويغص الفجاج ، ويقيم فيكون هالة على بدر سعود وشرف ، وسور حفظ لا يلفى له طرف ، قد رصت صفوفه ، وتعددت ألوفه ، وتنوعت أجناسه وصنوفه

من كل أبيـض قد تقلـد أبيضـا   عضبـا وأسمر قـد تقلد أسمـرا

والخيل تمرح في أعنتها ، وتمضي في الخيلا ، على سنتها . قد حليت من الأسلحة بما راق وراع ، وأعجز وصفه ألسن اللسن وأسلة اليراع

مؤصلة من ذي العقال (1) وداحس   وآل الوجيه والنعامـة والخيفـا

فمـن أشهـب لبـس النـور رداء ، وسابـق البـرق عـداء

فكأنـه في حليـه وسلاحـه   صبـح تقلـد حليـة الجـوزاء

ومن أدهم خلع الليل عليه اهابه ، وأثبت بين عينيه شهابه .

فكأنمـا لطـم الصبـاح جبينـه   فاقتص منـه فخاض في أحشائـه

وأحمر فأما وصفه فمطهم عتيق ، وأما لونه فعقيق ، وأصفر كأنمـا صيغ من ذهب ، أو خلق من لهـب .

ألقى الاصيل عليه من نضارتـه   غلالـة وشت الظلمـا حواشيهـا

ومن أزرق قد تسربل حلة السماء وتحلى بالنجوم ، أو حاول استراق السمع فرمته بشهب الرجوم .

ثم يتخلص الى مدح مخدومه بأبيات ينتقل منها الى باقي المقامة الغريبة في أدبنا والشبيهة بتلك المقامات التي أنشأها أبو محمد ابن مالك القرطبي في القرن الخامس مخاطبا بها ابن صمادح . ولكن هذه تختلف عن تلـك بوقائعها التاريخية المحددة باليوم والشهر والسنة . وهي هنا كما تقدم فاتح

---

1) حمزة :

ليـس عنـدي الا سـلاح وورد   قـارح مـن بنـات ذي العقـال

ذى الحجة متم عام 1251 فكأنها مذكرة تسجل الاحداث التاريخية وهى ظاهرة لا عهد لنا بها فى مختلف المقامات التى انشئت فى الشرق والغرب على قلة المقامات فى أدبنا قلة لاتعدو عدد الانامل

أما رسائله فهذا نموذج منها ، يقول فيه عن السلطان مولاى عبد الرحمن الى ولده الامير مولاى محمد بعد الايقاع بقبيلة ازمور :

ففى كل يوم تثمر العوالى رؤوس رؤسائهم ، وتتخطف ايدى المنايا اهل بأسائهم ، وكلما زادوا اقبالا وطلبا ، ازدادوا توغلا فى الجبال وهربا ، حتى نهكتهم الحرب ، وضرستهم موالاة الطعن والضرب . وضاع بالحصار الكسب والمال ، ولحق الضرر الأولاد والعيال . فجعلوا يرحلون لقبائل جوارهم ، طالبين لحلفهم وجوارهم . وبلغ فيهم البؤس غايته ، واظهر الله فيهم آيته ... الى آخر الرسالة التى تطالعنا بارتقاء فى الرسائل السلطانية للعهد العلوى .

ومن شعره كذلك هذه القصيدة التى رثى بها المولى سليمان يقول فيها :

نبأ عرى أو هى عرى الايمان	وابان حسن الصبر عن امكان
شقت لموقعه القلوب وزلزلت	أرض النفوس ورج كل مكان
فقد الامام أبى الربيع المرتضى	جزعت لعظم مصابه الثقلان
وبكت عيون الدين ملء جفونها	وجدا عليه وكل ذى ايمان
لما نعى الناعون خير خليفة	وعرى الفؤاد طوارق الاحزان
مزقت ثوب تجادى من فقده	ونثرت در الدمع من أجفانى
عجبا لموت غاله اذ لم يخف	فتك الملوك وسطوة السلطان
وسما لمنصبه المنيف ولم يهب	غضب الجنود وغيرة الأعوان
لو كان يمنع خاض فرسان الوغى	حرصا عليه مواقد النيران
وحموه بالنفس النفيسة انما	يحمون روح العدل والاحسان
لكن قضاء الله حم فلا يرى	للمرء فى دفع القضاء يدان

وهى كعادة الشعراء ، موغلة فى مبالغاتها ، وتجاهل معارفها .

ومن قصائده للمولى عبد الرحمن وأجودها فيه قصيدة جميلة استهلها

بالغزل والنسيب فقال :

عرضت لنا كالظبية المغناج ... تختال فى حلل من الديباج
هيفاء فوق قضيب بان أطلعت ... بدر التمام بليل شعر داج
ورنت بعين مها الى فاودعت ... فتنا تنسى فتنة الحلاج

الى أن يقول :

ان التى سفكت دمى بلحاظها ... وسبت فؤادى بطرفها المغناج
حيت فأحيت صبها بمكحل ... أحوى ووجه أبلج وهاج
وتبسمت فأرتنا سمطى جوهر ... بمفلج لمدامة مجاج
لم أنس وقفة عيسها يوم النوى ... والظعن فى الالجام والاسراج
والقلب من ألم الفراق على لظى ... والعين تسخو بمدمع سجاج
تشكو النوى لمحبها بلواحظ ... نعس الشفار ومقول لجاج

وهى أبيات كما نرى ، تتحكم فيها الصنعة ويطبعها التأنق البيانى العتيق ، ولا غرابة فى هذا وخصوصا أنه صادر عن كاتب للبلاط السلطانى ٠ ومن أشراط هؤلاء الكتاب أن يتأنقوا وأن يحافظوا على طقوس السلف ٠ مثلا البيت :

حيت فأحيت صبها بمكحل ... أحوى ووجه أبلج وهاج

نجد ابن ادريس فيه يفتتح مصراعه الاول بما سبق لاحمد بن الغرديس الكاتب أن افتتح به المصراع الثانى من البيت :

لما سرت للروح منه رويحة ... حيت فأحيت مبتلى بفراق

وكلا البيتين من القصائد التى توجهت بالمدح للامراء ، وان قيلت فى مناسبات الموالد النبوية وغيرها كما وقع لابن ادريس فى هذه وهى طويلة ، وله أمداح كثيرة وقصائد طوال غيرها ، يستهلها غالبا بالغزل الرقيق ، والشكوى من برحاء الوجد والهيام ٠ وقد يستهلها بوصف المظاهر المختلفة الطبيعية والمناظر الجميلة منها ، كما نجد ذلك فى عدة قصائد ، ذكرها له صاحب الاتحاف ٠

ومن المطالع التقليدية هذا المطلع من قصيدة مولدية أنشأها بحضرة

المولى عبد الرحمن :

أعد الحديث عـــن الحمى وظبائه	فالسمـــع مشتـــاق الـــى انبائـــه
وصل الحديث عن اللوى وعقيقـــه	والنازلـــين الجزع مـــن جرعائـــه
فهناك معترك النواظـــر والنهـــى	ومجال أفراس الهـــوى وظبائـــه
كم من صريع هوى بأفنية الحمـــى	فتكـــت عيون العين فى أحشائـــه
ومتيـــم لعـــب الغـــرام بقلبـــه	لما سقـــاه الوجد مـــن صهبائـــه
وأسير وجـــد فى اســـار جمالهـــم	قادته مرسلـــة العيـــون لدائـــه
« ان القتيل مـــن الغرام ودائـــه	مثل الشهيد مضرجـــا بدمائـــه »

والبيت الاخير للمتنبى من قصيدة اجاز بها أخرى افتتحها بقوله :

عذل العواذل حول قلبى التائـــه	وهوى الأحبة منه فى سودائـــه

ثم استزاده سيف الدولة فأتى بأبيات أخرى افتتحها بقوله :

القلـــب أعلـــم يا عذول بدائـــه	واحـــق منـــك بجفنـــه وبمائـــه

وفى هذه الابيات الاخيرة ورد البيت الذى ضمنه ابن ادريس قصيدته المولديـــة .

وفى آخر القصيدة قد تخلص الى مدح السلطان فقال :

فاق الثواقـــب بالمناقب والحبـــى	وزرى بطيب المســـك طيب ثنائـــه
قد فاخـــر الأعصـــار عصر وجوده	وتنافس الأمـــلاك فى استصفائـــه

ومن أجمل أشعاره قوله فى العنب بكرمه :

عرائس الروض تزهو فى عرائشهـــا	لها خدور لصون الحسن والحسب
قد ربيـــت فى مهـــاد مـــا يحركـــه	الا النسيم اذا يهفـــو عـــلى كثب
وأرضعتها ثـــدى السحب درتهـــا	فى كل حين ولـــم تبرز من الحجـــب
فأصبحت بعد ما تمت رضاعتهـــا	تعزى الى الكرم لاتعزى الى السحب
تكاد تسقـــط سكـــرا فى أريكتهـــا	لو لم تقم بسرير العـــود والقصب
فيها لأهل التقـــى شكر ومهملـــه	وزر لأهل الهوى وذا من العجـــب

وهكذا يذكرنا بمطلع قصيدة مولدية لعبد القادر بن شقرون من رجال الانيـــس كما تقدم .

وقوله من قصيدة على لسان مولاى الحجازى العلوى يداعبه ، وقد مات له غلام يسمى « بيدق » وجارية تسمى « شويطرة » :

أصابت بيدقا ورمت جهارا ... شويطرة ولم تشفق لما بى
فهذا كان يتبعنى نهارا ... وتلك خديمتى عند الاياب
فتحسن عشرتى وتقم بيتى ... وتحرسه وتغسل لى ثيابى
وذلك كان يحفظ لى مغيبى ... وامتعتى ويحرس حول بابى
وكان الصدق شأنهما ولكن ... جيوش الموت تولع بالرغاب

الى آخر القصيدة الفكهة ، التى تخالف باقى قصائده فى تخلصها من الصنعة البديعية اللفظية ، والتأنق أو الحذاقة فى التعبير (كما نجد فى جل أشعاره) ومن احسن اشعاره كذلك هذه القصيدة التى تغزل بها ، وهى من طوال قصائده أيضا يقول فى مطلعها :

سحرتك بالطرف الكحيل الساحر ... وبحسن قد كالقضيب الزاهر
وبغرة كالفجر تحت ذوائب ... كدجنة فاعجب لحسن باهر
وبنقطة مسكية فى وجنة ... وردية ذات الأريج العاطر
وبريقها المعسول الا انه ... يشفى الحشا من كل داء ضائر
ريق أعز على من نيل المنى ... والذ من رشف الرحيق لخاطرى

الى آخر القصيدة التى تقل فيها الصنعة البديعية فى أبياتها السابقة بخلاف ما يأتى بعد هذه من أبيات مثل قوله :

ولأنت يا قلبى فكم أصليتنى ... ورميتنى فى بحر حب زاخر
ادخلتنى فى وسط معركة الهوى ... ما بين جيش قواضب وبواتر
وتركتنى فى حي ليلى مثخنا ... بظبى ظباء لم أجد من ناصر
يا سعد هل لى فى الهوى من مسعد ... بشفا شفاه اللعس تحت غدائر
أم هل بنجد هواهم من منجد ... لمتيم فى حاجر بمحاجر
فتكت عيون العين فى أحشائه ... بشفار الحاظ رمت بخناجر
وسطت عوامل قدهن بقلبه ... فغدا أسير عوامل ونواظر

ومن شعره قوله ، من قصيدة ، فى الربيع ملتزما فيها ما لا يلزم ، وهى فى معرضها أجمل من سابقتها ، بالرغم من التزاماتها المذكورة :

بسط الربيع بـــه بساط زبرجـد قد احسنت أيدى السحائب طرزه
قد كان كنزا فى التراب مطلسمـا فتحــت رقى كنـز الغمائم كنـزه
أبدت خبايا الأرض من بركاتــه ما أوضحت رسل الكمائم رمــزه
طلعــت طلائعــه بكـل ثنيـــة تهـدى بدائعـه وتنـشر بــزه
وجيوشه النــوار تظهر فى الربـى أعلامـه تبـدى عـلاه وعـزه
ملـك الفصول له التقدم بينهـا من رام شأو سنـاه منهـا عـزه
فاخر الزمــان بصيفـه وخريفـه وشتائـه يـوم الفخـار وبـزه
متـصرف فى الارض عنـد وروده فأشـب نرجسـه وشيـب لوزه
تتنفس الجنات فيــه أما تــرى ارجا سرى أحيــى الفؤاد وهــزه

توفى ابن ادريس سنة 1264 ·

وفى هذه الحلبة نتصل بأديب ، يختلف عن أولئك جميعا ، بأنه كان من رجال التصوف ، قبل أن يكون من رجال العلم والادب · وهو ابو عبد الله محمد بن محمد الحراق · ألف فيه محمد بن العربى الدلائى كتابا سمـاه « النور اللامع البراق فى ترجمة محمد الحراق » جمع فى هذا الكتاب ، ما له من نظم ونثر ، فى التصوف والحكم · ويهمنا من ادبه شعره الصوفى فى الدرجة الاولى ، خصوصا منه الخمريات والغزليات · فمن أجمل غزلياته رائيته التى اشتهرت فى الآفاق (والتى استهلها بقوله) :

أماطت عـن محاسنهـا الخمـارا فغـادرت العقـول بها حيـارى
وبثـت فى صميم القلب شوقـا توقد منه كـل الجسم نـارا
وقالـت فيـه سرا ثـم قالـت أرى الافشـاء منـك اليوم عـارا
وهل يسطيع كتم السـر صـب اذا ذكـر الحبيب لديـه طـارا

ومن أشهر خمرياته ، تائية قلد بها تائيتى ابن الفارض اللتين تقدمت الاشارة اليهما ، فيما سلف ، وأستهلها بقوله :

اتطلب ليلـى وهى فيك تجلـت وتحسبها غيرا وغيرى ليسـت
وفى حانها دارت عـلى كؤوسهـا فصرت بها أسمـو على كـل ذرة
وما أبصرت عيناى للخمر جامهـا لأن جامها منها لها عين حكمتـى
تلألأ منهـا كـل شىء فمـا أرى سوى نورها الوقاد فى كل وجهـة

وله همزية جميلة ضمنها اشطارا من همزية أبى نواس :

دع عنك لومى فان اللــوم اغراء وداونى بالتـــى كانت هـــى الداء

وكان كسابقيه ، له الى جانب الشعر الفصيح ، موشحات وازجال ، فمن مطالع احداها قوله :

جاد الزمان واستبشر قلب الهايــم وتحلى بالسعد حين صاب منــاه
نكى الحسود وظفر بالعز الدايــم واصبح يتبخـــر فى ثياب هنــــاه

طـــاب الســـرور
مـــع البـــدور
بيـــض النحـــور
فاغنـــم كـــاس الـــراح هـــــا حبيـــــك زار
اســـق ودور
وانـــف الشـــرور
طـــول الدهـــور
ساعـــــة السلـــوان فايـــــدة الاعمـــــار

وكما قلنا فاننا نأتى بهذه النماذج ، وان كنا بصدد الفصيح ، لان الفاظها عربية فصيحة لا تنقصها الا القواعد النحوية والصرفية ، توفى الحراق بتطوان سنة 1261 .

ومنهم التهامى المدغرى المسعودى وهو شاعر عالم كذلك ، ومـــن شعره قوله ، من قصيدة ، قالها بمناسبة ختم كتاب « اقيلدس » : قبل وفاته بسنتين :

برزت عــلى قــدر لها اشكالهـــا من صدرهـــا فى طيهـــا أشكالهـــا
وحكت مقالتها المقـــادر بعدهـــا صحـــت نتائجهـــا وصح مقالهـــا
أشكالهـــا تحكـــى قبـــاب محلـــة نحـــت الخليفـــة خيلها ورجالهـــا
أو خلتها شجرا صغيـــرا مثمـــرا فاجـــن الثمـــار ولو بدت عذالهـــا
أو خلتهـــا خيـــلا بـــدت عربيـــة برباطهـــا قتـــل العـــدا ابطالهـــا
ما شئت من قـــوس رنت أوتارهـــا ترمى البغاة سهامهـــا ونصالهـــا
رنـــت وأنـــت فى فنـــا اقطارهـــا وحمت مناصلهـــا الحمى ونضالها

لكنها قــد خيمــت بمعاقـــــل	صفت بمشكلهــا فعــز وصالهــا
واستوطنت تننن الجبال صعابهــا	فعلت بها بين الجبال جباههــــا
ورقــت مفاخــر مجدهــا فى منعة	فتكبــرت وتجبـــرت أقيالهــــا
ظنت بان الجو خــال من مــدى	ظفر البزاة فــلا تطيش سهامهــا
فعلــت معاقلهــا الرجال وفلهــا	سيف الحجــا فتمزعت أوصلهــا

وفى رسوم الهندسة هذه يشيد بابن السلطان فيقول :

لولا الخليفــة بثهـــا فى ارضنــا	غربت حقيقــة شمسها وخيالهــا

الى آخر القصيدة ، التى استطاع الشاعر من موضوعها أن يأتى بصور شعرية وفى اسلوب فنى جميل ، وهذه مهارة تدل على تمكنه من أدبه توفى هذا الأديب العالم عام 1273 ·

وكان يعاصر هؤلاء محمد اكنسوس المراكشى زميل ابن ادريس فى العمل بالدولة كما كان زميلا له فى التلمذة على ابن الحاج المذكور ولد أكنسوس عام 1211 وتقلد الوزارة وهو شاب فى عهد المولى سليمان ثم أقصـــى عنها أوائل تولية المولى عبد الرحمن واستبدل به صديقه ابن ادريس ، وبعد محن مرت عليه قضى أيامه الاخيرة فى مراكش متنسكا زاهدا فى الحكم ، ممتنعا عن اكل اللحوم ومع هذا فقد رصد حياته الادبية على مدح الملوك والروساء ، فعاش بجوائزهم التى كان ينالها على أمداحه ·

والى جانب آدابه الانشائية من نثر ونظم ، فله أثر آخر لا يقل أهمية عن هذه ، وهو تاريخ الدولة العلوية فى كتابه المسمى « الجيش العرمـــــرم الخماسى فى دولة أولاد مولانا على السجلماسى » ألفه وهو فى ســـــن السبعين ، باشارة من المولى محمد بن عبد الرحمن وأسلوبه فى هذا الكتاب طليق الا فى تحلياته لبعض الذين تعرض لهم بالذكر الخاص ، فانه فى هذا يستعمل الوانا من البديع ولا عجب أن نجده بذلك التصنيع ، فان هذا صار ـــ كما قلنا ـــ لازما لازبا ، شقيق الشعر لدى المتأنقين خاصة فى أمداحهم وغيرها ·

وهكذا نجده حينما يتحدث عن زميله ابن ادريس يقول :

كان عصام الدولة وحلية جمالها ، ومجلى محاسنها ، ومظهر كمالها ، بآثار تزرى دولة مولانا هشام ، بدولة مروان بالشام ساعدته احكـــام

السعود ، وعاملته بانجاز الوعود ، فادرك فى ظلال دولة المؤيد ، مولانا عبد الرحمن ، من الجاه والعز والصولة ، ما لم يدركه الوزير المهلبى مع ملوك الدولة ومعز الدولة ، فضحكت له الايام بعد عبوس ، واركبته أعز المراكب ولبسته افخر ملبوس ...

ففى هذه الفقر المتراصة الجمل نجد تعمدا للمحسنات البديعية ، خاصة نجد سجعا ملتزما ، وتكرارا تقضيه الصنعة ، للتفنن فى استعمال المترادف ، كما فى قوله : « حلية جمالها ومجلى محاسنها ومظهر كمالها » وهو أسلوب الكتاب فى انشائهم منذ القديم فى الشرق والغرب ، كما تقدم له نظراء منذ القاضى عياض فابنى عطية فمن أتى بعدهما .

ونحو هذا ما نجده له فى افتتاحية كتابه ، كما فى قوله :

(اللهم انا نبرأ اليك من الحول والقوة ، اللهم انا نعوذ بك وبآياتك المتلوة والمجلوة ، من شرور أنفسنا وسيآت اعمالنا ، واتباع أهوائنا . اللهم انك تعلم عجزنا وفقرنا ، وذلتنا وضعفنا . اللهم انا لا ندعى ان يكون شىء من العزة والقوة أو الكمال وصفنا . « الا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » . اللهم انا نستوهبك سكينة تنعش القلوب والارواح ، وطمانينة يتجلى بها علينا فى ظلمات هذا الزمان ضوء الصباح . وانا نحمدك اللهم حمدا كثيرا كما أنت اهله ، ونصلى ونسلم على بذرة الوجود ، وقبلة السجود . (سيدنا ومولانا محمد) .

فالى جانب السجعات نجد الترادف بنحو الحول والقوة ونبرأ اليك ونعوذ بك والشرور والسيآت والعجز والفقر والذلة والضعف والعزة والقوة والكمال والسكينة والطمانينة فيجعل هذه فى جمل يقلبها على وجوه ويديرها على محور تحوم حوله لا يختلف فى ذلك عن طريقة عرفت فى القديم لابن المقفع ثم الجاحظ . ولكنه قد يتخفف من هذا فى بعض الرسائل التى يقصد الى الغرض منها ، بادىء ذى بدء ولا يأبه للحلية والزينة فيها . خصوصا اذا كان المرسل اليه فى غير مستوى عال من الأدب والثقافة كما نجد فى هذه الرسالة التى وجهها الى الحاجب موسى بن أحمد ، فيقول : وبعد فقد بلغنا كتابك الاعز المتضمن لامر مولانا المنصور بالله بتصفح الكتاب الموضوع فى شأن المعادن وما يناسبها . وقد تصفحت الكتاب المذكور من

اوله لاخره فلاشك أنه من الذخائر والنفائس الملوكية التى ينبغى الا تخلو منها الخزائن السلطانية ، التى تعتدها عظماء السلاطين ، لا سيما العلماء منهم والاساطين . لانها لابد أن يوجد فيها ما ينتفع به فى الجملة . ولكن كنت أظن أنه قد بين فيه ما يتوقف عليه الامر من بيان كيفية استخلاص المعادن من مقارها والذى لابد منه فى ذلك من الآلات والعقاقير والتناكير التى تسيل القاسى منها وما يخرج متعاصيا عن السبك والذوبان . الى آخر الرسالة التى قليلا ما تصادفنا فيها تلك السجعات .

هذا ما يتصل بنثره أما شعره فغالبه متحرر من سلطان البديع . وصور البيان فيه مطروقة .

كما نجد ذلك فى هذه المولدية :

عهدى بكم جيرة البطحاء موصول	يا ناسى العهد ان العهد مسؤول
اشيم برقا سرى من نحو ربعكم	وفضل ذيلى بوبل الدمع مبلول
فيلهب الشوق أحشاء مروعة	منى وللشوق ترويع وتهويل
يا ليت شعرى والأيام شيمتها	تمنع وضمير الغيب مجهول
هل من وفاء بوعد من أحبتنا	والوعد عند حسان الدل ممطول
وهل ترى مقلتى دارا عهدت بها	بيضا يلاحظها سمر بهاليل
سقيت حبهم قدما على ظمأ	فحبهم فى ضمير الروح مجبول

الى أن يقول متخلصا لمولده عليه السلام :

نعم فلى كبد تهتاج لوعتها	اذا دنا من ربيع النور تجليل
شهر تشرف بالاسلام حق له	بين المواسم تعظيم وتبجيل
شهر تعاظم مجدا أن يماثله	عيد ولا زمن بالفضل مشمول
شهر غدا غرة فى كل مكرمة	وأين من غرة فى الفخر تحجيل

ثم يقول :

فيه البشائر قد لاحت اشعتها	فيه تعين للخيرات تسهيل
وزخرفت لعباد الله جنته	واستبشر الملأ الأعلى وجبريل
فى ليلة المولد الاسمى وسحرته	يا أمة سعدت بالمصطفى قولوا
قولوا وتيهوا على الأكوان وافتخروا	فقولكم لمكان الصدق مقبول

أهلا بمولد خير المرسلين ومن　　له على الكل تشييد وتمويل

وهنا يتصل بمدح النبى عليه السلام وذكر شمائله ومعجزاته

ثم ينتقل من ذلك الى مدح المولى عبد الرحمن فيقول :

هذا حفيدك سلطان الملوك ابو　　زيد امام بنصر الدين مشغول
سبط الخلائف بانى العز فى شرف　　عال على مجده للناس تعويل
قرم تداركت العليا سعادته　　لما غدا واليه الأمر موكول
ما زال مجتهدا فى الله منتصرا　　بالله والسيف فى يمناه مسلول
حتى استنارت نجوم للهدى فلها　　والحمد لله تقويم وتعديل
فهو المؤمل للسمحا يجددها　　من بعد ما عز للتجديد تأميل

وهذا نموذج آخر من مولدية له قالها سنة تسع وسبعين ومائتين والف وهنأ فيها المولى محمد بن عبد الرحمن بالمولد النبوى فقال فى مطلعها :

حنانيك ان الشوق قد بلغ المدى　　اما ترحم المضنى الكئيب المسهدا
ورحماك ان المستهام من النوى　　له حالة سواى ترق لها العدا
فلا تسأل الولهان عما أصابه　　وسل حاله ان شئت ذاك فتشهدا
هو الصب لا تزداد لوعة حبه　　اذا حاول الاطفاء الا توقدا
فما تركت فيه الصبابة والهوى　　على حمل اعباء الغرام تجلدا
وكم عاث فى أهل الغرام هيامهم　　وحرق أحشاء ومزق أكبدا
وكم سلب الحب الرجال عقولهم　　وحب الفتى يعميه عن سبل الهدى
فلا تعجبوا من عبرة قد سفحتها　　على زمن قد كان بالجزع مسعدا
فيا حسن ذاك العهد يا طيب ذكره　　سقاه الغمام الجود غيثا مرددا
ولله عيش بالحمى سمحت به　　ليال ملاح ما الذ وارغدا

الى آخر القصيدة التى تبلغ نحو ثمانين بيتا ٠

وهذه ابيات من قصيدة هنأ بها المولى محمد بن عبد الرحمن بالبيعة ، فقال :

هذى لعمرك راية مرفوعة　　بيد السعود يقلها التوفيق
رفعت على خير الملوك محمد　　ملك الى كل المجال سبوق
خضل البنان بنائل من دونه　　وجه يجول البشر فيه طليق

ورث الامامـــة كابـــرا عن كابـــر — عالـــى المجـــادة بالعـــلاء خليـــق
افضـــت اليـــه خلافـــة نبويـــة — مـــن دونهـــا للمشرفـــى بريـــق
فرحت ببيعته القلوب فلـــم يمـــل — عنها الـــى أحد ســـواه فريـــق
فاختـــال منبرها بـــه وسريرهـــا — وكلاهمـــا طـــرب اليـــه مشـــوق

الى آخر القصيدة .

وهكذا نلاحظ على أسلوبه العتيق أن الشاعر لم يكن مثل معاصره ابن ادريس يتعمد تلك الزخرفة البديعية وهى ظاهرة نجدها عامة فى جميع قصائده . بل حتى فى النادر من أبياته كان مقتصدا فى استعمال تلك المحسنات المعنوية خاصة .

فى كتاب فواصل الجمان ذكر كثير من اشعاره ومنها ما كان على لسان السلطان المولى عبد الرحمن ، فى خطابه لباى تونس توفى عام 1294 .

ومنهم ادريس بن محمد العمروى ، يصفهصاحب الفواصـــل بأنـــه « فريدة عقد الكتاب » ، فيصل فيه الفصول الكعاب ، اديب تنفث الدر اقلامه ، ويخجل الزهر نظامه ، كان من كتاب المولى عبد الرحمن ، ثم تولى أيام ابنه الشئون الخارجية مع غيره ، حتى عزل عنها ثم أعيد الى الخدمة الشريفة وتوالت عليه تقلبات الاحوال ، الى ان توفى عام 1296 .

ومن نثره ، ما كتبه عن المولى الحسن ، لقضاة مراكش :

وبعد فقد بلغنا من أخبار متعاضدة ، وطرق عن التحامل متباعدة ، ان خطتى القضاء والافتاء صارتا ملعبا ومتجرا ، لا يعرف أصحابهما فيهما سآمة ولا ضجرا ، وان الرشى فيهما تقبض سرا وعلانية ، والاحكـــام تصدر بنية وبلا نية ، قد عدل فيهما عن منهاج العدل ، من غير اكتـــراث بتأنيت ولا عذل ، والحقوق نزلت بمعرض الضياع ، والمراتب المعظمة بهذه البقاع ، كسراب بقاع ، وان بعض القضاة حمله ما حمله ، الى التطاول للدعاوى البعيدة منه ، واستجلاب القضايا المصروفة عنه ...

وهو نثر متكلف ، ويبدو أنه لم يكن على حظ فيه ، ولكن قال صاحب الفواصل فيه : « لم يبلغ كاتب بعده فى الصناعتين مداه ولا نصيفـــه » فلعل هذه الرسالة بطبيعة توجيهها الى رجال الفقه والقضاء ، أتت هكذا

واجمة وجوما همدت بها انفاس الاساليب الحية البهيجة المونقة ·

ومن شعره قوله بمناسبة ابلال المولى محمد بن عبد الرحمن من مرضه:

بشرى بها الدين الحنيفى ازدهى　　　الله هيأها وانجز وعدها

وهى طويلة تقارب الأربعين بيتا ، ختمها بما بداها به فقال :

تتلى بحضرتك السعيدة دائما　　　بشرى بها الدين الحنيفى ازدهى

وله من مطلع مولدية نبوية :

اذا لم يكن وصل فوعد بزورة　　　وان أنتم لم تسمحوا فابعثوا الطيفا
على انكم مذ غبتم هجر الكرى　　　فما نام طرفى بعدكم لا ولا اغفا
احبة قلبى هل تعود عهودنا　　　وهل تنظرن عينى المحصب والخيفا

وهى طويلة جدا ، ذكر منها صاحب الفواصل ما يزيد على ستين بيتا :

ومن هذا القبيل تخميس له على القصيدة البكرية فى مدح خير البرية استهله بقوله :

غوث الورى اذا دهى معضل　　　خير الانام المصطفى المفضل
فالفضل منه وبه موصل　　　ما أرسل الرحمن او يرسل
من رحمة تصعد او تنزل

وكل قدر قد سما حده　　　ولاح فى أفق العلا بنده
وكل نور قد سرى جنده　　　الا وطه المصطفى عبده
نبيه مختاره المرسل

وشعره يمتاز بخفة الروح وسلاسة الأسلوب ومن نماذجه قوله متغزلا :

يا راحة القلب مالى　　　عن حسن وجهك راحه
وكيف ابغى سلوا　　　وانت للقلب راحه
فلا تردى محبا　　　ان مد نحوك راحه
تخذت وجهك روضى　　　وروح قلبى وراحه

بالهجـر كلمـت قلبـي داوى بوصـل جراحـه
وطـال بالصبـر سجنـي فلتطلقـن سراحـه
فالبعـد عنـك عـذاب والقـرب منـك اراحـه

ولا شك انه تعمد فى هذه الأبيات استعمال المتشابه بكلم ·· راحـه ·

وله من قصيدة فى مدح مولاى المامون اخى السلطان المولى الحسن يتسهلها بهذا الغزل :

عـذر المتيـم فى عيـون العـين وفتورهن على الغـرام معينـى
كم من شهيد بـين ارجاء الحمـى بفتـور الحـاظ وسحر جفـون
ومسهـد مـن نومهـن ومنتـش مـن سكرهـن وهائـم محـزون
لم الف فى زمر الأحبـة مسعـدا فى حبهـن سـوى عيون عـين
وخشيت من قلبى التقلب فى الهوى لمـا اكتـوى فطابتـه بضمـين
دينى عليهن الوصال وقد وفـى شرطى فهلا تركـن مطل ديونـى
يا عاذلى كن عاذرى فى حب مـن قد طال شوقى نحوهـا وحنينـى
لو أبصرت عينـاك اقمار البهـا من فوق كثبـان سمـت وغصون
ورايت طعن خناجر بمحاجـر من تحـت ليل ذوائـب وقـرون
وشهدت بـرق مباسم كالدر فـى اسلاكـه والطلـع فى العرجـون
وشممت عرف مواسم بمباسـم لشفاههـا كـالأرى والزرجـون
لعذرت من ملك الجمـال قيـاده ولدنـت فى شرع الهـوى بالهون
وعلمت أن لا شىء يفضله سـوى مـدح الخليفـة سيدى المامـون

والملاحظ عليه أنه تستهويه الالفاظ فيتلاعب بجناسها كثيرا · وان لم يستعبد ذلك فنه الجميل ، كما نرى فى هذا الاستهلال الرقيق الحاشية :

ومن شعره قصيدة رثائية يستهلها بقوله :

عش ما تشاء واكثرن أو اقصـد ما ذى الحياة على الأنام بسرمـد

ثم يقول :

فتكاتهـا فى العالمين شهيـرة بالقهـر تعبث فى العباد وتعتـدى
لو كان يدفع بالعشائـر مكرهـا خلـدت عصائـب تستعز بأجنـد

ويستمر فيقول :

لكنهـا الأعمـار تطوى سرعـة ... كملاءة بأكـف جلـد أيـد

والمرء تحسبـه مقيما وهـو فـى ... سفـر يخلـف فدفـدا فى فدفـد

أين البرامكـة الكرام وأين مـن ... سـادوا وجـادوا بالمبرة واليـد

ويختمها بما بداها :

ما قـال محـزون علـى الافـه ... عش ما تشاء واكثـرن أو اقصـد

وهى طويلة تناهز الاربعين بيتا ، ولكنها ليست فى بابها من المراثـى التى نعرفها فى العربية منذ الجاهلية ، لأن العقلية المغربية فى باب الرثاء عقلية تقليدية ، عند الرجال خاصة ، وقلما يجود فى الرثاء شاعر مـن شعرائنا ، وحتى الذين وجدنا لهم نماذج طيبة فيه كابن رشيد فى العهـد المرينى وأبى سعيد الجزولى فى العهد الاول السعديين ، انما كانوا مقلدين محتذين لقصائد سبقوا بها فى الشرق أو الاندلس · وهذا ليس نقصا فى أدبنا ، كما أنه ليس نقصا فى الآداب الأوربية ، أو الهند أوربية عامـة ، ومنها الآداب الفارسية (1) ·

نعم وجدنا فى الأوربية تابينا ولكن التابين غير الرثاء ، فذاك يعتمد على ذكر المحامد بادىء ذى بدء ، وهذا يعتمد على التوجع والتفجع والحسرة والبكـاء ، مما هـو من شأن النسـاء ، قبـل أن يكون مـن شأن الرجال · ولهذا فان المغربى لم يجد فى نفسه استجابة لاظهار التحسر والتولع ، فهو يضم جوانحه على حسراته وأحزانه ، وان ذرفت عيناه ففى صمت وكآبة دفينة ، يكفى أن يعبر عنها بكونه حزينا ، كما حصل قبل من النبى عليه السلام ازاء فقدانه لفلذة كبده ابراهيم « ان العين لتدمـع وان القلب ليخشع وانا بك يا ابراهيم لمحزون ، انا لله وانا اليـه راجعون » ·

وعلى كل حال فان الرثاء أصبح فى العهد العلوى شائعا جـدا ، بخلاف ما كان عليه عندنا فيما قبل ، فهو نادر أو لم يحفـظ كثيـرا (2)

---

1) التى نجد فيها لمحمود الغزنوى رثاء لجارية كان يحبها ، ترجمناه :

لما احتـواك الثرى يا أيها القمـر ... لـم يبـق للفلك الـدوار مفتخـر

فقلـت للقلـب صبرا حينما جزعـا ... هـذا قضاء مـن الرحمـن مدخـر

من التـراب الانـام والمصير لهـم ... تـرب ، وكل الـى أصل له يـذر

2) وتقدم منه لابى الربيع سليمان الموحد المقتدى بالاندلس ·

سوى هذا فله موشحة يتوجه بها الى المولى الحسن ، وهى طويلة كقصائده ، وتعد قصائده وموشحاته تسجيلا لحركاته ، وهذا استهلالها :

يا حاديـا يقطـع السباسـب ينشـد طبعـا مـن النسيـب
استـدم السيـر فى الغياهـب لا تخش مـن حـادث مهيـب
سـق المطايـا تلـق المزايـا واطـو فيافـى البعـاد طـي
حتـى تـرى النـوق كالحنايـا وارم بهـا نحـو أرض طـى
نعـم وحـاذر وقـع المنايـا ان جـزت حـول الحمى بحـي

* * *

وارع هنـاك الغـر الغرائـب الصائـدات القـرم الاريـب
بوتـر الغنـج والحواجـب تستعبـد الاروع النجيـب
عـرب بتلـك البطـاح حلـوا دم المعنـى لهـم حـلال
عـن الخنـا والخـلاف جلـوا للسعـد فى ربعهـم مجـال
وهجـر مضناهـم استحلـوا ولـم يخـن عهدهـم بحـال

الى آخر الموشحة الجميلة كما رأينا ، وهو طابع عام يغلب على شعره وموشحاتـه .

وكان العمرى هذا سفر عن مخدومه المولى محمد بن عبد الرحمـن الى فرنسا حيث أقام بباريز ، نحو شهر ، فألف رحلته التى سماهـا « تحفة الملك العزيز بمملكة باريز » وصف فيها سفارته وما استرعـى نظره فى هذه البلاد ، كما وصف بعض المشاهد بتفصيل .

وأسلوبه فى هذه الرحلة متحرر من تلك القيود البديعية غالبا ، شأن رحلاتنا السالفة ، على قلتها ، كرحلة ابن رشيد والعبدرى ، وقد أورد جزءا منها صاحب الاتحاف ، كما أورد له أشعارا كثيرة .

ومن الادباء الذين عاصروا المولى محمد ثم ابنه الحسن ، العربى بن على الشرقاوى ، ومن شعره قصيدة هنأ بها المولى الحسن وعزاه فى والده ، استهلها بقوله :

ضحكنا سرورا بعد ما عمنا الحزن وخفنا وعن قرب تداركنا الأمـن

وكان الطاهر بوحدو المكناسى ، قد قال فى هذه المناسبة ايضا ، قصيدة

افتتحها بقوله :

سعد الزمان وساعدت أيامه فلك البشائر
والجيد منه قد تحلى بالعقود من المفاخر

كما قال محمد بن المعطى المسطارى فى المناسبة ، قصيدة استهلها بقوله :

خرت بنصركم النجوم الطلع وعنت لمجدكم الجهات الاربع

وهى فى لهجتها تذكرنا بقصيدة سليمان الموحد فى مدح المنصور :

هبت بنصركم الرياح الاربع وجرت بسعدكم النجوم الطلع

ومنهم العربى بن محمد السايح العمرى وهو شاعر ناثر مؤرخ عالم ، ولد بمكناس عام 1229 وتوفى بالرباط عام 1309 ، ومن شعره قوله متغزلا :

وشادن أبلج المحيا تغار من حسنه الدرارى
يقدمه ان مشى سناه كأنه صيغ من نضار
ان رام فى مشيه انطلاقا لج به السكر فى العثار
لاموه فى الكأس اذ تردى وهو من الزهو فى الخمار
واكثروا عذله وراحوا عن جانب العدل فى ازورار
بكى للدغ الملام حتى بكى لما نابه القمارى
نأى فعاد النهار ليلا وعز من فقده اصطبارى
فقلت والقلب فى اضطراب عليه والدمع فى انهمار
ونار وجدى به تلظى وكبدى منه فى انفطار
مهلا فعذر المليح باد مالت به نشوة العقار
فظن كأس المدام قلبا من حبه ظل فى انفطار
وهو بكسر القلوب مغرى فكلها منه فى انكسار
فكسر الكأس وانثنى من دلاله ساحب الازار
وهل على الظبى من ملام اذ مال للتيه والنفار
أبقاه ربى فريد حسن يعنو به جؤذر القفار

فهذه أبيات على جمالها وخفة وقعها نجد فيها هذا التكرار مع الايطاء فى الشطرتين : « وكبدى منه فى انفطار » و « من حبه ظل

فى انفطار » والبيت الاخير من قبيل لغو الكلام وخصوصا الشطر الاخير : « يعنو به جؤذر القفار » .

وله فى الشاى هذه القصيدة :

واصل شـــراب حليفة الأمجـــاد	واتـــرك مقـــال اخى هوى وعناد
صفراء تسطع فى الكؤوس كأنهـــا	شمس تبدت فى ذرى الأطـــواد
وكأنهـــا مـــن حسنهـــا وصفائهـــا	من عسجد عـــصرت بأعصر عـــاد

والوصف بكونها صفراء كأنها شمس هو لابى نواس وزاد هو عليـــه كونها فى ذرى الاطواد . وكذلك تشبيهها بالذهب ، وانهـــا فى تدمهـــا عصرت بأعصر عاد وان استعمل الجناس فى هذا :

ما ان بـــدت فى موضع الا بـــــدا	فيـــه الســـرور يناط بالاسعـــاد
لا يعتـــرى ندماءهـــا نـــــدم ولا	يشكـــون من ملل بطـــول تمادى
فكأنهـــا أم بهـــم قـــد انجبـــت	لكريـــم فحـــل فى نقى مهـــاد
فغذتهـــم در الصفـــا وسقتهـــم	منهـــا لبـــان محبـــة ووداد
فتناسقـــت أخلاقهـــم وتوافقـــت	آراؤهـــم فى عفـــة ورشـــاد
تدعى الاتاى وذاك رمـــز ظاهـــر	يدريه من يدرى مـــن الامجـــاد
ايقاظ فكـــر ثـــم تهذيب الحجـــى	مـــع يســـر انفـــاق بدون نفـــاد
فاداب عليهـــا مـــا حييت فانهـــا	تجلو متى جليـــت صدا الانكـــاد
واترك رواية معضـــل فى شأنهـــا	وارو المسلسل موصـــل الاسنـــاد

ولاول مرة نجد الشاى يذكر فى شعرنا ويستفاد من القصيدة ان المغرب كان حديث عهد به وان ضجة قامت حول تناوله من قبل الفقهاء بين محلل ومحرم فكان من الفريق الاول شاعرنا العربى بن محمد السايح الذى رد عليهم بالبيت الاخير مستعملا فى ذلك القابا معروفة للمحدثين فى مصطلـــح الحديث . وهى ما تضمنها البيت الاول فى « غرامى صحيح » .

ومن الأدباء الذين كان لهم شأن فى الدولة ، كوزراء (مثل ابن ادريس وأكنسوس) الاديب أبو عبد الله محمد غريط كان من وزراء عبد الرحمن ثم ابنه (الخليفة عنه) وهو أندلسى (1) الاصل ، اديب شاعر له الـــى

1) هذه العائلة الأندلسية ظهرت على مسرح السياسة والعلم والادب ، منذ قرنيـــن تقريبا ، ولعل آخرها محمد بن المفضل صاحب « نواصل الجمان » .

قصائده رباعيات وأزجال ، وكانت له صداقة للزجال ، قدور العلمى الذى عد فى مشيخته وكان فنه شائعا لعهده (توفى عام 1280) .

ومن شعره قوله من قصيدة مجيبا الأديب أكنسوس عن أخــرى خاطبه بها وكانت ولاشك على وزنها ورويها :

ومن عجائب ما أبداه ذا الوقت أن	يعــز شرط ولا يعــز مشــروط
ومن تحقق فيه الشرط ثمت لــم	يفز بمشروطــه لا شك مغمــوط
يا فاضلا فوق هام النجــم أخمصه	ماذا يكافى بــه ثناك غريـــط
البستنى منـــه أبهـــى حلة فغــدا	بها لنفــسى تفريــج وتنشيـــط
كأننـــى قــد شربت من معتقـــة	ما ان يمس بها الاعضاء تثبيــط

وهى قصيدة ناقدة لماكان عليه الوضع ازاء الاكفاء وغيرهم . وقد وصفه حفيده محمد بن المفضل بأنه « شاعر تنبع الحكم من لسانه ، وتمد أكــف التسليم لاحسانه ، كاتب حسن الشمائل » وله كما قيل شعر جيد فى احتلال تلمسان ، التى كانت تابعة للمولى عبد الرحمن ، وتطوان التــى احتلها الاسبان ، أيام ابنه محمد (الذى كان غريط فى معيته ، حين كائنة « ايسلى »، وهو خليفة لأبيه والمتولى قيادة الجيش آنذاك) كما ياتــى .

ومن حكمه قولــه :

وعار على الحــر المقــام ببلــدة	يكــون بها نذل العبيــد شريفــا

ومن المعاصرين له ، وهو من رجال الفقه والادب الطيب بن ابراهيم بسير الاندلسى المكناسى . يقول فيه صاحب الاتحاف : « له نظم رائق ونثر فائق ، لو جمع ما له من المنظوم والمنثور لجاء فى مجلد ثم قال ابن زيدان وقد رويت له فى مجموعتى فى الامداح النبوية من سهل النظم المتنع ما يسحر الالبــاب » .

ومن شعره هذه الموشحة الجميلة :

ما أحســـن اللـــين فى القـــدود	والسحـــر فى العـــين والفتـــور
واعـــذب الوصـــل عـــن صـــدود	ورشفـــة الخمـــر فى الثغـــور
فى ذاك يحلـــو الغـــرام جهـــرا	وعـــاذل الصـــب ما عـــدل

لو ذقت كاس الرحيق عــذرا — مشمولــة والدجــا انســدل
ابديــت للشـاربــين عــذرا — ولمــت مــن مــال للعــذل

* * *

فارتــح لــراح بــراح غيــد — حــور قصــرن علــى القصــور
يبسمــن عــن لؤلــؤ نضيــر — غنــين عــن جوهــر النحــور
ان مســن يوما هــززن رمحــا — فوقه شمس عــلى قضيــب
يسدلــن مــن شعرهــن جنحــا — يكــاد أن يستــر الكثيــب
وان رنــا لحظهــن لمحــا — أتــين بالسحــر العجيــب

* * *

يا طالــب العــز والسعــود — مبتغيــا ربــة الخــدور
اجمع عــلى الشرب نقــر عــود — واسدل علــى ســرك الستــور

ومن شعره قوله :

يا مــن اذا الصبــح أقبــل — حكــى ضيــاء جبينــه
ومــن اذا الليــل أسبــل — حكــى ســواد جفونــه

وقوله في موطنه :

سلا بسلا قلبى فشد ارتباطــه — ولولا سلا ما جاء قلبــى رباطــه
على التزامات الرباط بثغــره — ولو شق عن قلب المشــوق نياطه

وقوله في الورد والاقحوان :

ولمــا بــدا الورد الجنــى كأنــه — خدود العذارى قد حمتها السوالف
أتى باسما ثغر الاقاحى مقاومــا — فقالت خدود الورد هل لك سالــف
فلم يــر الا أن تناثــر عقــده — يقبل ســاق الورد والعقد تالــف

فهذا شعر متأنقكغيره من اشعار الأندلسيين ، وله شعر آخــر لا يختلف عن هذا اللون ، توفي عام 1271 برباط الفتح رحمــه اللــه

ومن هؤلاء المعاصرين صالح بن أحمد الحكمى القاضى ابن القاضى الذى تقدم ذكره ومساجلة له مع ابن عمرو الاوسى الرباطى .

كان الى جانب فقهه شاعرا ، ومن شعره هذا التخميس :

الا من لخـود قـد تجرعت بينها ولو أن ربـات الخـدور رأينهـا
لكبـرن اجـلالا وقبلـن عينهـا « رمتنى وستر الله بينى وبينهـا
عشية أحجار الكنـاس رميـم »
توارت وقلبـى بانتسابى بيتهـا ولو أننـى أهـل لقلـت فديتهـا
وحسبى فخـرا أن اكون وقيتهـا « ويارب يـوم لو رمتنى رميتهـا
ولكن عهـدى بالنضـال قديـم »
(توفى عام 1251) ·

ومنهم محمد بن محمد غريط :

كان كاتبا للمولى محمد بن عبد الرحمن ، ثم لابنه مولاى الحسن ، ومن شعره قوله من قصيدة مدح للمولى الحسن بمناسبة قضائه على بعض العائثـين :

سيـف اعتصامك بالالـه مجـرد ومنهـد وممهـد ومؤيـد
سيف الحقيقة بالشريعة يزدهـى ونجاده بضمـان نصـرك يعقـد
قلدتـه للفتـح ارثـا خالصـا مع ما سواه من السيوف معـدد
متخلـف النور المبـين وحسبكـم المصطفى المختـار جـدك أحمـد
جاه لـه دون الوجـود بأسـره جـاه عظـيم بالشفاعـة مفـرد
مـا ان يبـارى بأسهـا متـورط فى بغيـه أو ظالـم متبلـد

الى آخر القصيدة التى يختمها بقوله :

دوخـت مولانـا البـلاد جبالهـا وسهولهـا بسياسـة تتأكـد
ونصرت حزب المرسلين فما ونـى عـن شكر بـرك بالدعاء موحـد
وكسرت شوكة كل عاث ناكـث الغـدر فيـه سجيـة لا تنفـد
حتى وصلت الى صحاريها التـى لخلالهـا بـدا التنقـل يحمـد
فشددت أزر الديـن فى أقطارهـا وعرا العدا من ذاك غم مجهـد
هـذا وحقكم الصـلاح وأجـره جـم الثـواب من الالـه معـود

نعود الى عهد المولى محمد بن عبد الرحمن ، ففى هذا العهد كانت كارثة تحل بالمغرب فتنطق شعراءه وخطباءه وكتابه بمكنونهم المتعدد الالوان ، تلك الكارثة هى انهزام الجيش المغربى من وجه الاسبان واحتلال هؤلاء

لتطوان بعد سنة من هزيمة اخرى حلت بهذا الجيش فى موقعة ايسلى بالجزائر وهو يحارب الفرنس ، أواخر الأيام التى كان المولى عبد الرحمن يعيشها ‥ ولا شك ان كثيرا من الأشعار والخطب قد جادت بها قرائح اصحابها ، فى موقعة ايسلى المشؤومة ، ولكننا لا نعثر عليها ، أو على نصوصها ، كما عثرنا على ما قيل ، أو كثير مما قيل فى كارثة تطوان ·

لقد كان خطباء الجمع لا ينون يحرضون الناس على القتال ، ويبعثون فيهم الحمية ، وينعون عليهم تكاسلهم أو تقاعسهم · وكانت هذه الخطب تكتسى عدة أساليب ، بعضها يطغى عليه الطابع الوعظى والنهج الدينى يعضده القرآن ويستحثه الحديث النبوى ، من غير ما يكون فى هذا صور بيانية ادبية تسجل فى موضوعها · وبعض تلك الخطب كانت تتجلى فى حلل أدبية ، تختلف فى قوة ازدهائها ·

ومن هذه الخطب ، ما نشره (الاستاذ داود) فى كتابه تاريخ تطوان ، لمجهول يقول فى احداها :

أين الهمم الأبية ، والنفوس العلية · التى لا ترضى بنعيم الدنيا ، اذا لم تكن كلمة الله هى العليا · ولا تعطى الدنية فى دينها لعابد صليب ، ولو وقفت على نشر المناشير وقرض المقاريض وضروب التعذيب · فاغضبوا أعانكم الله للدين الحنيف ، واركبوا متن الغيرة والزموا الذب عن النفس والمال والضعيف · ولا تقتصروا على نصر كنصر النساء من البكاء والتحسر ، والتشكى والتضجر ، وسلوك سبل التوانى ، والاغترار بالامانى · فقبل استؤصلت الجزائر واعمالها ، وذهب دينها وملكها ومالها · ولم يقع منا اتعاظ واعتبار ، بل اتخذناه قصصا وخبرا من الاخبار · ان من الناس من لو مات نصف احدهم ما اتعظ النصف الآخر ، بل ادبر وانثنى وهز عطفه وتفاخر ...

وهى خطبة كما نرى على مستوى رفيع فاسلوبها من الاساليب الأدبية الراقية ولهجتها الخطبية قوية مؤثرة والسجع فيها مثنوى ، منوع الحروف وهذه أخرى ، يقول فيها صاحبها المجهول :

عباد الله ، ان الطريق الى الله واضحة ، ولكن طريق الجهاد أقصرها ، وان فروض الكتاب لازمة لائحة ، ولكن فرض قتال ذوى الالحاد

أوكدها . فما بال الجهاد منكم مهملا ، وباب الاجتهاد دونكم مقفلا ، كأنكم لا تجدون عن الفشل معدلا ، ولا ترون غير الحياة الدنيا منزلا . فياحسرتاه على نفوس بالذل راضية ، وأمة على غير سمت الهدى ماضية ، قد أمكنت العدو منها معاصيها ، واستحكم البلاد على دانيها وقاصيها . وغلبت عليها العادة ، حتى نسيت الدين والعبادة . واستحوذ عليها الشيطان والأهواء ، وانهمكت فى الشهوات وحب النساء ..... أين الناشئون تحت خفقان البنود والرايات ، أين حملة السور والآيات ، أين أصحاب الفتح والحجرات . هيهات هيهات ، أصبح والله أهل هذه الصفات ، فى بطون الفلوات ، وأصبحتم بعدهم رهائن الشتات ، ضلالا فى مهالك الشهوات مستسلمين لحلول المثلات ، أحياء ولكن فى الحقيقة كالاموات .

لقد أسمعت لو ناديت حيا   ولكن لا حياة لمن تنادى

وهى خطبة تلى الاولى فى منزلتها البيانية والفنية ولكنها فى سجعاتها لا تلتزم مثنوية ولا عددا تقوم عليه فقرها كما هو الحال فى سابقتها ويتخللها شعر كما نرى .

وهذه أخرى ، يقول فيها صاحبها ، كذلك :

افيجمل بنا يا أهل لا اله الا الله أن نتركه سدى ، ولا نجعل بينه وبين الاعادى سدا . ولا نستعد لتحين ما نجده ذخرا ، وبه شرفنا على الامم دينا وأخرى . أو نرضى الدنية فى دنينا ، مع كثرة عددنا وعديدنا . أولا تحرك منا حمية الاسلام لنا عزما ، أو لم يكن ذلك واجبا علينا جزما . فننهض الى الذب عنه نهوض أهل اليقين ... الى آخر الخطبة التى تبث الحماس الدينى وتحث على الاستشهاد بالتذكير النافع وهى كالاولى مثنوية فى سجعها وان كانت دون سابقتيها فنا خطابيا ، وفيها اقتباس قرآنى .

أما الاشعار التى قيلت ، فهى قصائد منها هذه القصيدة للفقيه مفضل افيلال يندب حظ تطوان أيام الاحتلال ، استهلها بقوله :

يا دهر قل لى علامه	كسرت جمع السلامه
نصبته للدواهى	ولم تخف من ملامه
خفضت قدر مقام	للرفع كان علامه

ملكتـــه لأعـــادى ... ليسـت تسـاوى قلامـه
فالديـن يبكـى بدمـع ... يحكيـه صـوب الغمامـه
علـى مساجـد اضحـت ... تبـاع فيهـا المدامـه

وهذه قصيدة اخرى مطلعها :

حلـت بقلبـى كآبـه ... أعظـم بهـا مـن كآبـه
غطـت شمـوس انبسـاط ... ولا كمثـل سحابـه
ودمـع عينـى كعـين ... تـرى بخـدى انسكابـه
علـى صنيـع لدهـر ... ابـان فيـه انقلابـه

وكذلك نجد اخرى لعلها له ، ومطلعها :

يا عينـى جـودى بدمـع ... علـى تفـرق جمـع

وهذه القصيدة كغيرها تستعمل الاصطلاحات النحوية ، وفى بعضها يقوى هذا الاستعمال ، فكأن صاحبها لم يكن يتوفر الا علـى النحو وما هو بسبيله من صرف وعروض فى فنه الادبى ، الذى انطقه بهذا الشعر (1) ·

اما فيما عدا ، فقلما نظر بزينة تتسم بها الاشعار عادة · وقـد حـاول البيـت :

ودمـع عينـى كعـين ... تـرى بخـدى انسكابـه

ان يتحلى بهذا الجناس الفاتر ، حيث الاشتراك الذى يعرفه الاطفال ، فى كلمة العين ، بالبصيرة والجارية ·

ثم ان هذا البحر المجزو كثيرا ما يلجأ اليه الذين يجربون قدرتهم على نظم الشعر ، واستعمال أساليبه القصيرة النفس ، ولهذا فالقصيدة هذه لا تتطلب نفسا طويلا ، كما وجدنا الشاعر فيها يضطر الى التضمين ، فى نحو قوله :

فالديـن يحكـى بدمـع ... يحكيـه صـوب الغمامـه
علـى مساجـد اضحـت ... تبـاع فيهـا المدامـه

---

1) فان هذا العلم له تدخل فى النحو من حيث الضرورات الشعرية التى يواجهها النحاة ، فيخضعون لها نزولا عند موازين العروض وحركات القوافى ·

ولأفيلال قصائد أخرى قالها بعد تحرير تطوان أول احداها :

جاد الزمان عـلى الاحبة بالمنـى   رغما على أنف العدا فلنـا الهنا

واول اخـرى :

يا معشر الاسلام قد وجب الثنـا   ولنا الهنـا تطوان عادت لأهلهـا

وكلتا القصيدتين تتسم ببساطة التعبير وخفة الوقع في أجراسـه وله من غير الفصيح قصائد من الملحون ، يستهل بعضها بقوله :

صبـروا لحكـام ربنـا   يفقـر ويغنـى
كـل يـوم في شـان   مولـى الملـك حكيـم

وهكذا ففنه في الفصيح والملحون ، لطيف بسيط ، يتخلل الفصيـح أحيانا الفاظ عامية ، كما يتحلى ببعض الحليات البالية والمحسنات العتيقة، حتى في الادب الشعبي الذي كن قد شاع لعهده في أطراف البلاد عامة .

والمهم أن الكوارث التي كانت تحل بالمغرب ، كانت تجد لها الأدباء من يندد بها ، ويرفع عقيرته بالصراخ من أجلها ، فكانت أصداؤها قوية في الادب ، وخصوصا الشعر والخطب منه .

ومن الاشعار التي قيلت في هذه الكارثة ، ما قاله جزائري — كمـا يبدو — كان مقيما بتطوان ، وتخلف بها عند الاحتلال ، أولها :

أروم سلـوا والزمـان يعوقنـى   واطلب قربا والمصائـب تقصينـى

واسلوبها على كل حال ، أمتن من الاساليب السالفة .

ومن القصائد التي قيلت في هذا ، ما يربو ابياتها على المائة بيت ، أما عدة القصائد التي ذكرها صاحب الوثيقة التي نشرناها بالعدد الاول من مجلة تطوان (1) ، وكان صاحبها قد كتبها بعد ما مضى على الاحتـلال ثمانية اشهر فقط ، فهي عشر قصائد ، وجميعها لتطوانيين معاصرين ، بعضهم معروف ، وبعضهم ليسوا كذلك ، وقد ذكر الاستاذ داود في تاريخه

---

1) كنا نتولى اصدارها في الخمسينيات والستينيات وأوائل السبعينيات .

غيرها ، مثل ما نظمه المكى ابن ريسون ، على وتيرة همزية البوصيرى ، وان كان صاحبها لم يتقيد بأصول العروض ، مثلا يقول فى أولها :

قـد أصيبـت تطواننـا الغـراء	بدواهـى ليـس عندهـا دواء
ملكهـا الكفار اخبـث جنـس	جـال فيهـا رجالهـم والنسـاء

ويقول فى أواخرها :

يا تطوان لست احـول عن عهـد	ما دامـت للعهود منـك وفـاء
يا تطوان لست انساك طول عمرى	مـا دام للحيـاة فى بقـاء
يا تطوان ليس لى عليـك من صبر	ففـؤادى نـار وصـدرى لظـاء

ومع هذا فان اسلوبها اخاذ شعرى ، بالرغم من كونه ينقصه الوزن العروضى .

ومن قصائد الملحون قصيدة الفقيه السنانى ، والد المرحوم الراضى الحنش ، ومطلعها :

نبـدا باسـم الجبـار	واسم المولـى ربحى مـع تجـارا
اخيـار ما يقـول القايـل	مفتـاح كـل قـول أو ذكـارا

وهكذا فلا شك ان اشعارا كثيرة كانت قد قيلت فى وقعة ايسلـى السابقة ، وما سبقها أو لحقها ، كما حصل من غريط الجد ، وقد راينـا الاشارة الى سقوط الجزائر فيما سلف ذكره ، وفى هذه الظروف العصيبة ، كان ابن ادريس واكنوس على قيد الحياة ، ينظمان اشعارهما ويحبران رسائلهما .

وعند انتهائنا الى عهد المولى محمد بن عبد الرحمن ، لم يكن معنـى هذا اننا قد انفصلنـا عن العهد السابق ، عهد المولى عبد الرحمن ، بل ان جل الادباء الذين ذكرناهم أو نذكرهم عاشوا فى العهدين ، ومنهم مـن طال به حبل الحياة ، فأدرك العهد الحسنى وقد وقفنا عند حادثة تطوان بصفة خاصة وما كان لها من انعكاسات على الأدب شعره ونثره ، فى خطبه وتآليفه .

ونعطف النظر بعد الى ادباء من تلك الحقبة التى ذكرناها ، فتجـد

منهم جمهرة تضم عديدين مختلفين فى مستوياتهم الأدبية نذكر فيهم أبا العباس احمد الجشتيمى السوسى الفقيه ، وهو من الذين عايشوا العهود الثلاثة ، فمن شعره فى المولى عبد الرحمن قوله :

من لـم يكـن مستلئمـا متكميـا ... انـى يصاول فى مجـال طـراد
هذا الامام أبو البسالة ما ارتضى ... الا بحــزم فـل كـل أعـادى
رأى كمـا جالـت نوافذ بيضـه ... فتقد كـل الغلب أعلـى الهادى
فكأنما سجف الغيـوب مزحـزح ... عنهـا فيبصر رائحـا من غـادى
ورث المجـادة والسيادة والعـلا ... عن ساسة ساسوا الورى امجاد
خلقوا من انوار النبوة ما هـم ... الا الشموس سمت على الأنـداد

الى آخر القصيدة ، التـى نجد أبياتا منها فى « سوس العالمة » ، كما نجد له أخرى من قصيدة يتوسل فيها على لسان المولى عبد الرحمن بالنبى عليه السلام استهلها بقوله :

شوق يذوب القلب من جمراتـه ... وجوى يغيـب الرأى فى غمراتـه

ويقول فيها :

مـاذا تـرى فيما نكبت فاننـى ... من لم ينـاد سواك فى أزماتـه
تهفـو لربـك ما نأيت صبابـة ... روحـى وتحيـا من شذى نسماته
أشكو اليك وكـم كشفت ملمـة ... ما حار فيه القلـب مـن ظلماتـه
شكوى حزين حلف جرم لا يـرى ... الا بـك الانقاذ مـن كرباتـه
فلأنـت أحنـى مـن أناخ ببابـه ... مثلى ثقيل الظل من هفواتـه

ومن شعره قصيدة قالها على عهد المولى الحسن يلتمس منه الأذن بالانصراف الى أهله ، وكان يؤم به ، فقال :

لـولا حقـوق لا تعـد عظيمـه ... للأهل دمـت لذا المقام مقيمـه
لو مت مـن ظمأ بقيـظ محـرق ... والقفر يرسل فى السماء سمومـه
وانا بوسـط مجاهـل لا يهتـدى ... فيها الظليـم اذا أضـل حميمـه
وانـا وج نقع الأخامـص مبـدع ... بى لا يرى سمعى هناك كليمـه
وانا أرجى من هناك رضاك كـا ... ن الكـل عنـدى نعمة مغنومـه
لا راى للعبـد المطيـع اذا راى ... من كان طول حياته مخدومـه

مر يمتثل ياخير مولى راى من — منه الانابة دائما معلومه
راى الملوك منارة الارشاد امـ — ـا غيرهم فمزاعم مركومه
مولاى يامن لى رضاه جنة — ولزومه أزهارى المشمومه
انى عرضت على مسلمع سيدى — من قبل بعد صلاتنا المعلومه
امرا يقلقل عبده ويقيمه — ويطيل بالسهر الطويل خديمه

الى ان يقول :

فالزغب فى الأوكار ترسل طرفها — من راس شاهقة تكل البومه
فى كل صبح أو زوال أو مسا — ء ترتجى ممن يغيب قدومه
لكن اذا ارضى الامام اقامتى — ابدا هنا كنت الحياة مقيمه
فعلى امير المومنين تحية — بدموع شوق اخى النوى مختومه

والأدباء الذين كانوا على عهد مولاى الحسن كلهم أو جلهم كانوا من رجال العلم والفقه بصفة خاصة ، وهم بذلك عديدون جدا بحيث ان عهدهم الأدبى لا تستقل بحصره ودراسته عشرات بل مائات الصفحات ، كيف وهو بكثرة ادبائه على تلك الدرجة التى كانت فى مناسباتها تنشد من القصائد ما تربو على خمسين قصيدة ، وكلها صدرت عن شعراء ، ذوى شهرة وجودة ومكانة مرموقة ·

وحسبنا أن نفتح صفحة من صفحات مولاى الحسن ، فنجد فيها عدة قصائد قد انشدت من افراد عديدين ، ونجد من ذلك فى كتاب الاستقصا امثلة عديدة ·

ومهما يكن فاننا سنقتصر على ايراد بعض الأدباء مجتزئين بعرض نماذج قليلة من شعرهم ، غالبا ·

فمن هؤلاء الطاهر بن العنايه بن عبدو المتوفى عام 1306 وهو ابن الحاج الجزار السلاوى الاصل المكناسى النشأة ، ومن أساتذة الغالى السنتيسى الآتى ذكره بعد ·

ومن شعره قصيدة اجاب بها احمد بن قاسم جسوس الرباطى ، يقول فى مستهلها :

وفتنى ذات الخال تختال من سعد — بحالى فوفت للغريم بلا وعد

مهفهفـــة تحكى النسيـــم لطافـــة شمائلهـــا أكرم بمنشئهـــا الفـــرد
تبدت كشمس فى الظهيرة اشرقـــت وليست تكل الطرف فى القرب والبعد
تسير بقد البـــان قد دق حصـــره وقد قد منى البان أفديـــه من قـــد
مبدى دلالا فى الحلـــى بجلالهـــا بأفق العلا فى ذروة العز والمجـــد

الى آخر القصيدة التى يهتم بجرس كلماتها لدرجة ازدحامها هنا .

ومنهم الاديب التهامى بن المهدى المزوار المتوفى سنة عشر وثلاث مائة والف . ومن شعره قوله فى مناسبة ختم البخارى :

حيـــاك ما املـــت من اوطـــــار فاهنـــأ بعـــز شامـــخ المقـــدار
وبشير سعـــدى قد اتاك مبشـــرا بسعـــادة الايـــــراد والاصـــدار
فلذكرها فيه ارتيـــاح القلب والـــ ـــأرواح والأشبـــــاح والافكـــار

الى أن يتخلص الى مدح المولى الحسن الذى ختم بمحضره الكتاب المذكور فيقول :

فى حضرة الملـــك الهمام المرتـــدى بردا النـــدا والجـــود والايثـــار

الى آخر القصيدة الشاحبة بأسلوبها وان حاول صاحبها أن يتأنق بالبيـــت الثانى :

وبشير سعـــدى قد أتاك مبشـــرا بسعـــــادة الايـــراد والاصـــــدار

ومن شعره قوله ، من ميلادية انشأها عام 1298 :

هذى السعادة قد مدت اليك يدا والوصل انجز عزما ما به وعدا ؟
ام هذه نفحة الأحباب قد وفـــدت من نحو ليلى وهذا عطفها وفدا ؟
اهدت لنا طربا اهـــدت لنا اربـــا اهدت لنا قربـــا لا تنتهـــى أبـــدا
قد طال ما كنـــت أرعاها وارتبهـــا قد ما وأطلب منها الوصل والرغـــدا
حتى غـــدوت بها فى كل آونـــــة اهفو والهج لا أخشى بها احـــدا
هيهات لى كيف اسلو عن هواها وهل اقوى وهل أستطيع الصبر والجلدا

فهذا المطلع المتأنق نلاحظ عليه تكلفا فى سياقه ورص نظامه ، كما نلاحظ عليه بعض الحشو فى الاتيان بالكلمات المترادفة الواحدة بعد الاخرى بلا داع للتفسير ولا غيره ، الا أن يكون ملء فراغ الوزن والقافية .

وبعد ما يذكر الرسول عليه السلام بمولده وبعض شمائله ، فى ستة ابيات ، يتخلص الى مدح السلطان ، كذلك ، فيقول :

هذا الامـــام الذى جلـت مآثـره ... عن ان يحيط بها من رامها عددا
هذا الامام الشريف الطيب الحسن الـ ... ـبر الذى صهوة الاحسان قد صعدا
هذا ابن فاطمة الزهراء من شرفت ... اخـلاقه وعـلا فى المعلوات يـدا

الى آخر الابيات السبعة عشر التى خصص بها ممدوحه السلطان ، وهى لا تختلف عن غيرها من حيث الحشو واستغلال تناسب الحروف غالبا وقليلا ما يعمد الى الحلية المعنوية فيها وتذكرنا الأبيات الثلاثة الاخيـرة بابيات الفرزدق ، فى مـدح ابن زين العابديـن ، من ميميته الشهيـرة

ومن ادباء العهد الحسنى ، احمد بن قاسم جسوس ، القائل فى مـدح صديقه ، مولاى الغازى ابن الحسنى ، والد مولاى المدنى (هذه الابيات) من قصيدة طويلة جدا :

اس الوقـار ومنبـع المجد الذى ... تلقى مكـان الحمد فيـه فسيحـا
ذاكى العقول اذا كبت آراؤهـم ... اضحى العويص برأيـه مفتوحـا
ان عـدت الأمثـال كان اجلهـا ... بل نورها وسـواه كان الشيحـا

ومن الأدباء الذين كانت شهرتهم قبل العهد الحسنى ، ثم امتدت الى ما بعده

ابوزيد عبد الرحمن الشرفى الاندلسى الاصل ، اذ هو من شرف العقاب ، هاجر قومه الى المغرب — كما يقول غريط — فاستقروا بفاس ، فرحب بيتهم وسلك حيهم ، فى طلب الظهور ما سلك ميتهم ، ووجدوا فى شأنهم رفعة ح وفى عيشهم خفضا ودعة ، ثم قال ، وابوزيد هذا وسطى عقدهم ، ومجدد مجدهم ، رفيق جدى وشيخ أبى ، وممده من بحره الادبى .

وكان قد تولى الحسبة أيام مولاى عبد الرحمن بن هشام ثم تولى أيام محمد ابنه بعض الشئون الخارجية ، بدل تلميذه محمد بن ادريس ، وتوفى عـام 1304 .

ومن شعره قوله ، من قصيدة يمدح بها مولاى ادريس الأكبر :

حط الرحال بأهل الله وانشرح واقرع بهم باب فضل الله ينفتح
هم صفوة الله بعد الانبياء فسل من ربهم بهم ما شئت واقترح

الى آخر الأبيات الستة عشر ، المذكورة فى فواصل الجمان ·

واستجازه الوزير محمد بن احمد غريط ، بقوله :

اصبح الجو لابسا ثوب دجن عنبريا يجر فى الروض ذيلا
والندى قلد الغصون عقودا كالعرائس فى المنصات تجلى

فقال الشرفى :

روض سعد زهى بصوت مغن ينعش الروح اذ يحرك ذيلا
لا تقسه بشعب بوان حسنا ان مدحت فذا اجل واعلا
بين ادواحه ارتشفنا كؤوسا للسرور من المدامة احلى
حبذا نزهة بروض اريض لم تزل آى شكر ربه تتلى

وبعد هذه أبيات اربعة مذكورة كذلك بالكتاب المذكور مع اشعار اخرى ، تنبىء عن قدرة له على النظم وحظ من الشعر لا بأس به ·

ومنهم الأديب محمد بن الامين المسطارى المكناسى المتوفى سنة خمس وثلاثمائة والف ·

ومن شعره :

رشأ تفرد فيه قلبى بالهوى لما غدا بجماله متفردا
قمر هدى اهل الضلال بوجهه واضل بالفرع الأثيث من اهتدى
مغرى باخلاف المواعد فى الهوى يا ليته جعل القطيعة موعدا
سلبت محاسنه العقول بناظر يصلى القلوب وباسمه يروى الصدى
يا صاحى الاعطاف من سكر الطلا ما بال طرفك لا يزال معربدا
تاسوك بالغصن الرطيب جهالة تالله قد ظلم المشبه واعتدى

الى آخر القصيدة البالغة فى تأنقها بالمقابلات وغيرها وان كان فى تأنقه بعض الفتور كما نجد بالبيت :

سلبت محاسنه العقول بناظر يصلى القلوب وباسمه يروى الصدى

فهو يورى بالعين الواقع فيها الاشتراك ، بالعين الجارية مع غيرها (1).

وفى البيت الاخير اسعان بنحو ابن هانىء ، أو ابن الوردى القائل فى هذا المنطلق :

يقولـــون حقـــف فوقـــه خيزرانة | أما يعرفون الخيزرانة والحقفـــا

مع قوله :

حسبوا التكحل فى جفونك حليـــة | تالله ما بأكفهـــــم كحلـــــوك

وهذا آخر أدرك العهد العزيزى وهو مؤرخ المغرب بالاستحقـــــاق ، أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى السلاوى وكتابه الاستقصا ما زال حتى الآن وسيظل لأمد طويل من الاجيال القابلة هنا الكتاب العمدة القوية فى تاريخنا منذ بزوغ فجر الاسلام فى مغربنا الى أوائل هذا القرن وللمؤلف كتب أخرى مطبوعة طبعة فاسية ، مثل « طلعة المشترى فى النسب الجعفرى » (يقصد نسب البيت الناصرى الى جعفر ابن أبى طالب) وشرح منظومة الشمقمقية ، كما تقدم . تناول شرح أبياتها ، بمختلف الفنون العربية وآلاتها ، على التوزيع فيها ، كما تناول ما تحتويه من أمثال وقصص وتاريخ وفنون غيرهــــــا كالموسيقى ، ولعبة الشطرنج ونحوهما .

وقد ذكر له ولداه فى ترجمته التى نشرت مع النشرة الثانية لكتابه ، عدة مؤلفات جلها أدبية ، سبعة وعشرين مؤلفا ، فيها ديوانه الشعرى ، كما أن فيها ما يتصل بسياسة الحكم والادارة والقضاء ، تأليفا أو شرحا وتعليقا ، وكانت وفاته عام 1315 .

ومن شعره قوله مخاطبا جماعة من الطلبة ، أتوا لوداعه بفاس :

غدا الشمل بالتوديع وهو مشتت | وسيف النوى بين الاحبة مصلــت
اسكان قلبى لست أنفك بعدكـــــم | نجى الاسى يملـــى على فأنصـــت
ولو انتى أعطيـــت حظى منكـــم | لما خلتنى عـــن جمعكم أتلفـــــت
فها أنا سرت اليوم عنكم ومهجتى | تذوب وكبـــدى بالفـــراق تفتـــت
وأيسر ما ألقى من الشوق أنـــنى | أسيـــر وقلبـــى نحوكـــم يتلفـــت

---

1) وربما كان « باسمه » محرفا عن « باسم » وان كان فى هذا ما فيه ...

فهذا شعر على طلاقته ، ردد فيه بعض ما قيل فى الوداع ، ويلاحظ عليه بعض الفتور ، فى تكرير التلفت فى القافية أولا : أتلفت وثانيا يتلفت وهو قريب من الايطاء الذى يرتكبه فى غير هذا ، كما سنرى بعد .

وله من قصائده الطوال ، لامية يخاطب بها جماعة من الأدباء السلاويين ، وهو متأهب لسفر عام 1277 ، مطلعها :

لا ترم منى سلوة يا عذول ... فالذى رمت ما اليه سبيل
شرح حالى لديك فقد ووجد ... وسهاد ورقة ونحول
واصفرار ولوعة وولوع ... أترى ذا مع الملام يزول

وهى قصيدة تقليدية ، حتى فى أسماء وردت بها ، كما فى قوله بعد تلك :

كل يوم من أم أوفى عتاب ... ومن القلب حيرة وذهول
كيف أسلو ودونها فلوات ... وجبال تضل فيها الوعول
أقطع البيد خلفها وحظوظى ... تقطع الحبل بى ودهرى يحول
حر شمس وقر نحس وعيس ... غالها تحتنا السرى والذميل
كلما داس خفها ربع حى ... داسنا الشوق فالحداء عويل

على أنه الى جانب ذلك يحتوى بعض الصور المتحررة ، وان كانت المقابلة المتصنعة قد خلقتها ، مثل قوله :

« وحظوظى تقطع الحبل بى » جاء مقابلة « أقطع البيد »

وداسنا الشوق » (انبثقت من « حر شمس وقر نحس ») (لتقابل « كلما داس خفها ») .

وبقية الاشعار تكاد لا تختلف عن هذه ، ومنها أمداح السلطان والاولياء عند زيارة أضرحتهم ، وهو ما شاع فى هذا العهد ، كما تقدم .

ومن اخوانياته أيضا قصيدة قالها ، لما ورد على سلا الاديب محمد الطاهر بوحدو المكناسى فنزل بها ثم عبر الى الرباط فنزل على العربى الشرقاوى المكناسى ، فكتب الشرقاوى المكناسى شعرا يخاطب به بعض علماء سلا وتعرض لذكر أديبنا ، فأجابه بقوله :

يا أديب غدا بحسن اتفاق ... ينفث السحر فى المعانى الرقاق

قــد أتتنــا حدائــق مــن ثناكــم جــددت أرسمــا لعهد التلاقــى
وعلمنــا منهــا بأنــــك لا زلــــت بنــا ذا صبابــة واشتيــاق
لســت ادرى أهــى قلائـــد در أم نجــوم محت دياجــى الفــراق
توجــت مفرق الزمـــان على فتـــرة شعــر من الورى والمحاق
ولقد ساءنى الذى قلت من جهـــل وانت الفتى الكريم الوفـــاق
انت تحكى النسيم فى الخلق والصارم فى العزم والطلا فى المـــذاق
وبنا مــن فراقــك الصعب مالــو كــان بالبدر لاكتســى بالمحــاق
فأزل ما بالقلــب من وحشة البيـــن ومــا بالجفــون من ايــراق
ما محيــاك حــين تغدو علينــــا غــير يــسر اتى عــلى املاق
فعليــك الســلام مــن هائــم لا زال من فرط وجدكم فى احتــراق

وبعد هذه ثلاثة أبيات يعطف بالسلام فيها على آخرين ٠

ويلاحظ فى القصيدة عيبان أحدهما فى القوافى وهو الايطاء باعادة كلمة الروى « المحاق »٠

والثانى استعمال لازال فى غير الدعاء أو التكرار مرتين فى هـــذه الابيات . والعربية لا تسيع ادخال لا على الماضى الا اذا كرر النفى أو خرج عن زمنه أو خبره كقول ذى الرمة :

الا يا سلمى يا دار مى على البــلا ولا زال منهــلا بجرعائك القطــر

فهذا دعاء وكقول غيره :

حسب المحبين فى الدنيا عذابهــم تالله لا عذبتهــم بعدهــا سقــر

فهذا للزمن المستقبل وأديبنا الكبير يرتكب هذا اللحن فى عدة صفحات من كتابه العظيـــم ولا يستغـــرب هذا منه فلكل جـــواد كبوة أو كبـــوات ٠

ومن شعره قصيدة قال انه أنشأها فى غرض ، ثم حولها الى مدح مولاى الحسن ، مطلعها :

قلــب كواه من النــوى مقبــاس فغدا بــه الوسواس والخنــاس
ونحول جسم يشتكى ألم الضنــى وجوى بــه تتصاعــد الأنفــاس

والدمع فى الوجنات محمرا غـدا ولدى الوشاة بـه انتفى الالباس
ان الألـى يستعذبـون ملامـه ما ان لهـم بعذابـه احسـاس
قدما عذلت ذوى الغرام سفاهـة حتى غـدوت بمنسميـه أداس
وحسبته حلـو الجنى فأساغنـى مـن باسه ما لا يسيغ البـاس
ان الذيـن علقتهـم قد انجـدوا بمها الخدور ودونهـا الحـراس
أبـدا أؤمـل فى حياتى وصلهم واليوم قد غلب الرجاء اليـاس

ومن نثره قوله فى تقديم كتابه الحافل « هذا ـ بعون الله ـ كتاب الاستقصا ، لاخبار دول المغرب الاقصى ، كتاب جمعته لنفسى ، ولمن شاء الله من ابناء جنسى ، ذكرت فيه دول هذا القطر المغربى من لدن الفتـح الاسلامى الى وقتنا هذا الذى هو آخر القرن الثالث عشر سالكا فيما انقله من ذلك سبيل الاختصار وآتيا منه بما تسمو اليه النفوس من حوادث الامصار ملمعا بما لابد منه من وفيات بعض المقتدى بهم فى الدين ، متبركا اولا بذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ...

وهو نثر طليق لا تعمل فيه ولا تقعير . وهكذا نجده يقول فى آخر كتابه الذى انهاه اوائل العهد العزيزى .

واعلم أن أحوال هذا الجيل الذى نحن فيه قد باينت أحوال الجيل الذى قبله غاية التباين وانعكست عوائد الناس فيه غاية الانعكاس ، وانقلبت اطوار اهل التجارة وغيرها من الحرف فى جميع متصرفاتهم لا فى سككهم ولا فى أسعارهم ولا فى سائر نفقاتهم بحيث ضاقت وجوه الاسباب علـى الناس وصعب عليهم سبل جلب الرزق والمعاش ، حتى لو نظرنا فى حال الجيل الذى قبلنا وحال جيلنـا الذى نحـن فيه وقايسنا بينهمـا لوجدناهما كالمتضادين ، والسبب الاعظم فى ذلك ملابسة الافرنج وغيرهم من اهل الاربا للناس وكثرة مخالطتهم لهم وانتشارهم فى الآفاق الاسلامية ، فغلبت أحوالهم وعوائدهم على عوائد الجيل وجذبته اليها جذبة قويـة وبعد ما ساق حكاية فى هذا ، قال :

فانظر الى هذا التفاوت العظيم الذى حصل فى الجيل ، فى مدة من ثلاثين سنة أو نحوها ، فقد زادت السكك والاسعار فيها كما ترى نحـو تسعة أعشار ، والعلة ما ذكرناه ويكثر بكثرة الاختلاط والممازجة مـع الفرنج ويقل بقلتها ، والدليل على ذلك أن أهل المغرب أقل اختلاطا بهم ،

فهم ارخص الناس اسعارا وارفقهم معاشا ، وأبعدهم زيا وعادة من هؤلاء الفرنج · وفى ذلك من سلامة دينهم ما لا يخفى ·

بخلاف مصر والشام وغيرهما من الامصار ، فانه يبلغنا عنهم ما تصم عنه الآذان ، فليتأمل هذا الذى ذكرناه ، وليعرف منه سر الله فى خلقه ·

واعلم ان امر هؤلاء الافرنج فى هذه السنين قد علا علوا منكرا ، وظهر ظهورا لا كفاء له ، واسرعت احواله فى التقدم والزيادة اسراعا متضاعفا كتضاعف حبات القمح ، بيوت الشطرنج · حتى كاد يستحيل الى فساد ، وعلم عاقبة ذلك وغايته الى الله ···

ومنهم احمد ابن الحاج كان كما فى الاعلام فقيها عالما أديبا حافظا محررا لبيبا ··· ذا معرفة بنوادر التاريخ من كتبه « الدرر المنتخب الحسن فى بعض مآثر أمير المومنين مولاى الحسن » ومن شعره قصائد فى المولد النبوى منها هذه الميمية التى استهلها بقوله :

نور الهدى قد بدا فى العرب والعجم	سعد السعود علا فى الحل والحرم
نور السعـادة أشرقت مطالعهـا	من قبل فتق الثرى ورتق مرتكـم
نور به العرش والكرسى قد بهـرا	حسنا وما لاح من لوح ومن قلـم
نور السماوات والارض استضاء به	نجم وبدر وشمس وهى من ضرم
نور به دارت الافلاك وابتهجـت	وروضة الكون لم تشمم ولم تشم
بمولد المصطفى أصل الوجود ومن	لولاه لم تخـرج الدنيا من العـدم

وهكذا نجد هذا الشعر فى غاية التواضع والبساطة وكذلك بقية موالده كالتى مطلعها :

معشر المسلمـين حـق الهنـاء	وتوالـى السـرور والعليـاء

والتى مطلعها :

بشرى بمولد خير العرب والعجـم	بشرى بأحمد طه المفرد العلـم

والتى مطلعها :

هنيئا لـك البشرى بنجم الهدايـة	وبالعـز والاقبـال فى كل لحظـة

وهكذا كانت الموالد الى جانب الفتوحات مناسبات طيبة لانشـاد

القصائد الطوال كماتجد في الاتحاف والاعلام والفواصل هذا المطلع للقاضي بن الحسين الصقلي في المولد الشريف عام 1298 :

ضحك الربيع بمبسم النوار ... اذ هنأته بوارق الانوار
وأتى النسيم مجررا أذياله ... تيها يدوس عمائم الاشجار
وبجيبه مسك النوافج عله ... قد ضاع بين كمائم الازهار
والنهر يجري كالمدام بمفصل الـ ... ـأغصان فهي تميس من اسكار
والعندليب مجود الحانه ... غنى فأغنانا عن المزمار
والدوم ترقص في غلائل أطلس ... طربا بلحن مصوت الاطيار
والغور قد بثت زرابي نبته ... والنجد أسدل سندس الأستار
وأتت ندامى كالنجوم وجوههم ... تبدى السبيل اذا خفى عن سار
من غض روض كالخدود ملاحة ... والمسك في تفتيقه المعطار
وشقيقه من في صحيفة خده ... حسنات حسن قد بدت للقارى
وقريبه النسرين ذي العرف الذي ... تسري به النسمات في الاغوار
أو نرجس كضعيف جفن فاتر ... يرنو بمقلة فاتن سحار
وطرى ريحان يريك حواجبا ... مثل القسي في رقة الأوتار
وبنفسج ياقوتي يحكي عذا ... را باقلا عن مخجل الأقمار
أو اقحوان مثل ثغر باسم ... عن لمع برق خاطف الأبصار
وقضيب بان مثل قد اهيف ... متمايد بتدلل ووقار
أو ياسمين قد تدلت من سما ... ء زبرجد كالشهب للانظار
يحكي تدليها تدلى أنجم ... زهر بمولد أحمد المختار

وبعد تخلصه لمدح النبي انتقل لمدح الحسن وهي طويلة في 90 بيتا . وعلى مستوى من الجمال في هذه الابيات المتأنقة بوصفها للربيع ومباهجه وملابساته العديدة التي نجد عناصرها في قصيدة ابن زنباع السالفة ؛ بما في ذلك الندامى ، وتغريد الطيور ، وغير ذلك .

ومن هؤلاء مولاي أحمد الرباطي صاحب القصائد العديدة التي تسجل حركات المولى الحسن ووقائعه الكثيرة ، منها هذه التي يقول فيها :

شابت بمعترك الوغى شبانهم ... لولا الحروب لما صرخن ثواكل
دوخت أرضهم بقصد هنائهم ... فتهنأوا حتى المحل الهائل
بعد الشتات جمعت شمل فراقهم ... أطفالهم أمنت كذاك أرامل

فالحيف مهزوم حسمت ذراعه   بنصال عدل اذ سطوت تناضل
ما خاب ساع فى المصالح انه   مشكور سعى بالسعادة آيل
تبدى البداية عن جميل نهاية   وعلى الأواخر قد تدل الاوائل
فبسائس نيل المراد « بسايس »   والحق بان به وغاب الباطل

(وهى على تلاعبها يضعفها نحو : اطفالهم أمنت كذاك)

ومنهم الكاتب محمد الصنهاجى الوزير ، كما فى الفواصل ، لغريط (1) .

ومن شعره قوله من قصيدة فى المولى الحسن :

لسان الكون يلهج بالثناء   ويسفر عن علا بدر السماء
وينبىء سائلا فتحا قريبا   وعزا قد تسربل بالبقاء
بأن الله قد أسدى جميلا   وأن النصر خيم بالفناء
وأن السعد قد اضحى خديما   وكف المجد حاملة اللواء
وأن اليمن ناقلة خطاها   الى ركن السعادة والسناء
أمير المومنين أبى على   وشمس الدهر فى برج الهناء

الى آخر القصيدة التى تنيف على العشرين ، وتبدو عليها البساطة فى النظم بالرغم من كونها صادرة عن شاعر له مزيته الفنية وان انث اليمن ، وهذا شعر آخر له ، مهنئا عاملا بالشفاء :

حى الرفاق وسائق الاظعان   وأنخ بمربع راحة وتهان
واجنح الى سلمى ويمم حيها   تجد المسرة فى رياض غوان
واليمن يشدو والسرور متوج   والسعد يرقص فى بساط أمان
والمجد يرفل فى برود بشائر   يمنية مكلوءة بمثان
والكون يطرب والهناء معانق   والعز ينصع فى سماء معان

كذا الابيات البقية لا تختلف عن سابقتها ، وان اتت بعض الصور الجميلة ، على رتابتها ، وفى « بمثان » اشارة الى « ولقد آتيناك سبعا من المثانى » . توفى عام 1309 .

---

1) فيه أنه طلب الكتابة للخليفة مولاى اسماعيل واستكتبه مولاى الحسن ثم استنابه عن الجامعى .

ومنهم التهامى المزوارى المكناسى .

قال فيه صاحب الفواصل « شاعر أمجد ، اتهم فى الادب وانجد ، حاد اللسان والفكرة ، فيما أحب شكره ، أو أراد نكره ، سريع الاجابة ، لداعى الكتابة ، الا انه كان يعتريه اعجاب ، فيضرب بينه وبين الصواب بحجاب ، وتخامره انفة وخفة ، تحمل منه القلوب كلفة ، عطل لذلك مرارا ، وأذيق من العتاب مرارا ، وهذا احد أعوان حرفة الأدب التى ما برحت تجور ، جور المقدم الخائن على المحجور ، والحبيب البائن على المحب المهجور

ومن شعره قوله فى جواب ورد من علماء فاس :

لله در جـواب زانـه أدب	من أفق فاس أتى تحدو به النجب
وثغره افتر عن نبل وعن حكـم	نيطـت بها قرب سمت بها رتب
أسرار غرته الغراء قد كسيت	من الرضى حلـلا قد حاكها أدب

الى آخر الأبيات التسعة عشر الواردة فى الفواصل .

وله فى استعطاف المولى الحسن على زمرة الكتاب الذين كان منهم طالبا الكسوة من قماش كان يدعى البحر الكبير كما يبـدو :

يا من بعزته الشريفة قد كسـا	كل الورى حلل الرضى والسندس
وصفان بابك موكـب الكتاب هـا	هم يطلبون من الجناب الاقـدس
ما قد تعوده الجميـع بعطفـة	من كسوة البحـر الكبير الانفس

الى آخر الابيات السبعة ، التى لا تدل مع غيرها ، الواردة فى الكتاب ، على قدرة صاحبها فى هذا الباب (وأن قال غريط بانجاده واتهامه فى الادب) توفى المزوارى هذا بعد عام 1320 .

ومن شعره قوله من قصيدة ، يهنىء بها المفضل غريط ، بمناسبـة اسناد الوزارة اليه :

نسخـت آية الضيـاء ظلامـا	فانجلـى الحق وانتفى التغليـط
كانت النـاس قانطـين حيـارى	فبك استبشروا وزال القنـوط

وختمها بقوله :

فلنا السعـد والهنـا اذ تولـى	قطب فضل مفضـل « غريـط »

ومنهم محمد الغالى السنتيسى :

ومن شعره ما قاله من قصيدة ، فى تلك المناسبة :

السعـــد والاقبـــال والاسعـــاد والـيمــــن والتبشيــر والامـــداد
نشـــرت على جبل الوزارة والندى اعلامهـــا اذ بــــادت الأنــــداد
وتلا لسان الحـــال منا قائــــلا هـــذى بضاعتنـــا لهـــا تـــرداد
ردت الينـــا فالهنـــاء لنا بهـــا والمكرمـــات لنا بهـــا تنقـــاد

ويلاحظ فيها تضمين الآية « هذه بضاعتنا ردت الينا » .

وقوله ، مستهلا قصيدة :

زهر الرياض تناسقت أفنانــــه ولـــدى العيان تتابعت الوانــــه
اضحى يصافحه النسيم بكفــــه اذ زانـــه مـــن عرفه أمزانـــــه
يهتز من فـــرط السرور تواجـــدا يدنو اليه وان نـــأت أوطانـــــه

وهو من الأدباء الذين عاشوا بعد المولى الحسن ، اذ توفى عام 1338

ومن الأدباء الذين كانوا على عهد المولى الحسن بالصقع السوسى على بن عبد الله الالغى الشاعر الناثر .

ومن شعره مجيبا عن آخر :

فما روضة جاد العهاد وهادهـــا وغنت بها الاطيار فى ملد اشجار
وأبدت ونور الشمس قابل نورها جداولها كالأيـــم فى حين ادبـــار
وتصبح فى برد تشيب منمـــــق وشته يد الوسمـــى وشيا بازهـــار
بأحسن من شعر يعز علـــى أن ارى رقمه فى غير صفحة افكـــارى

وله مخاطبا بعض كتاب المولى الحسن بأبيات منها :

للـــه اخلاقه الغـــر التى سقيت ماء الحياة فرقت رقـــة الغـــزل
غارت مصانعه فى الناس فاشيـــة وانجدت ففدت فى مضرب المثـــل
فمن يجاريه فى الاحسان تنشـــده « وهل يطابق معوج بمعتـــدل »

والشطر الأخيرة من لامية الطغرائى :

غاض الوفاء وفاض الغدر وانفجرت مسافة الخلف بين القول والعمـــل
وشان صدقك عند الناس كذبهـــم وهـــل يطابـــق معـــوج بمعتـــدل

وهذا النوع من المراسلات الشعرية الاخوانية عهدناه عند القاضى عياض ثم بعثه عندنا من جديد ابن الخطيب فى اقامته المغربية . ثم وجدنا فى القرن التاسع أواخره همزية مفتى سجلماسة ابراهيم بن هلال وقوى هذا اللون فيما بعد ، فى العهد العلوى خاصة .

وله من اخرى :

حيوا فأحيوا نفوسا طالما قبرت — واستأصل البعد من أرواحها الرمقا
وفى لى الدهر مذ وافوا وجدد لى — من وشى برد التهانى كل ما خلقا
ما كنت أقضيهم الحق الذى لهم — وان فرشت لهم من جفنى الحدقا

وهو شعر متأنق شبيه بما للمسطارى ومن الزينة العتيقة التى طالما ردها شعراؤنا قوله : « حيوا فأحيوا نفوسا » .

ومنهم محمد بن العربى الادوزى .

من شعره قوله ، بمناسبة وفوده على مولاى الحسن عام 1293 .

دواعى المنى قادت زمامى الى الحمى — وتحدو الرجاء المستجد المصمما
بكرت الى المامول مثل الغراب ان — نوى فى رجى ما يرتجيه فيمما
فجلت على كور تسنم ذروة — كقطعة مزن فوق يذبل خيما
تناوح وجهى العاصفات واننى — أمد لها حر الجبين المعمما
اخوض بحور الثلج بالماء فى ذرى — جبال النفيس والظلام المقتما
وما القصد وصل الغانيات وما أنا — — وأحمد ربى — الزير أتبع الدما
ولكن قصدى وهو افضل مقصد — يشرف أن ألقى الامام المعظما

ومن شعره قوله من أبيات تنشد فى أمداح الرسول عليه السلام :

بهجة القلب فى اجتناء الأمانى — واجتلاء المقسمات الحسان
وغصون الرمان فيها ثمار — بل نهود على قدود الغوانى
وورود الرياض تنفح من شـ — ـم بمنسم نوافح الغزلان
وجميع الاحباب قد حضروا فاسـ — ـتجمع المنتدى شتيت الأمانى
قد اهابت بهم دواعى التهانى — فأجابوا طرا دواعى التهانى
فشدوا بالمديح شدو حمام — طاب منه الهديل فى الأفنان
وبخار العود الرفيع تعالى — حينما العود صادح بالاغانى

وهو شعر يعتريه بعض القلق كما فى قوله : بكرت الى المامول مثل الغراب ان ، مثل « تنفح من شم بمنس نوافح الغزلان » وان حاول أن يتأنق بالجناس الفاتر فى البيت الذى ذكر أخيرا ٠

ومن أدباء هذا العصر ابو فارس الادوزى السوسى ، الشاعر الناثر ، فمن شعره ، قوله من قصيدة ، يرثى بها ابن العربى الادوزى :

مــاذا تؤمــل من دنــاك وانمــا ... آمــال نضرتهــا ســراب سارى
فالــى الزوال نعيمها فاذا حبــت ... سلبت وان نفعت فنفع معـــار

الى أن يقول :

شأن الزمان كذا وليس بنافـــع ... لهف الفتــى من منــزل الأقــدار

ثم يتعرض للمرثى بقوله :

مــن للفهــوم ودقــة الأنظـــار ... من بعد فــارس سوسنــا الكرار
من للعلــوم يبثهــا ويمد ألـــ ... ــباب الرجــال بثاقــب الأفكار
من للقصائد ينتقــى درر الكـــلا ... م لهــا ويرسلهــا كمــاء جـــار
ما شئت من لطــف ورقة منــزع ... ومتانــة فى أحــرف كـــدرارى

ثم يقول :

أمحمد أسفا لهذا الصقــع بــل ... للغرب مــن نبراســك المتــوارى

والبيت « شأن الزمان » مقتبس من البيت :

ولســت براجــع ما فات منــى ... بلهــف ولا بليــت ولا لو انـــى

وأسلوب المرثية مؤثر كما نــرى ، وكذا باقى النماذج المثبتة فــى « سوس العالمة » ٠

وهذا نموذج من نثره ، نقطفه من رسالة :

اصلح الله حالك ، وأراح عنك أوحالك ، انى رايتك تمد الزند بلا كف ، وتريد أن تسعى وأنت ملتف ، فما فضل يد لا كف فيها ، واهتمام بمساع لا تنبعث لمجاريها ، فمتى طير بغير جناح ، أو خيضت هيجاء بغير سلاح ، فما هكذا يكون من الى العلم يرتحل ، « وما هكذا ياسعد تورد الابل » الخ

وهو من قول الشاعر :

أوردهـا سعد وسعـد مشتمـل ما هكـذا يا سعـد تورد الابـل

ولمح الى الشطر الاول بقوله « وتريد أن تسعى وأنت ملتف » .

ويقول من أخرى :

سيدى حرس الله بدرك من المحاق ، وطيب ذكرك فى الآفاق ، ان اتفقت معك فى الانتساب الى العلم ، فلم اساوك فى الفهم لأن لك قلما بليغا لا يلحق شأوه ، ولا يشق غباره ، وانى للبغاث ان يطاير الطير العتاق ، « وللسكيت ان يجارى الخيل السباق » ... عياذا بالله أن يرانى سيدى حيث يكره ، او اجتنى مكره ، اذن رمى الله سلعتى بالكساد ، وصرفنى عن الرشاد ، بل انا سهمك ان رميت به العيوق انتظمه ، أو اقحمته البحر اقتحمه ، فأنا أطوع من بنانك ، وأنفذ من سنانك » .

فهذا نثر على مستوى رفيع فيه تضمين الامثال وغيرها .

ومن أولئك الادباء ابن الحاج الافرانى الذى نجد له اشعارا كثيرة ، بسوس العالمة ، منها هذه التى يخاطب بها ابا العباس الجشتيمى

فيا بدر أفق الدين يا ليث غابـه ويا غوث ملهوف ويا خير منجـد
تدارك ذماء الدين واسمع صريخـه وشمر الى نصـر الهدى وتجلـد
فقد انشب الكفـر المداهن نابـه ومد الى سـرح الهدى كف مفسد
وكاد بأنـواع المكايد اهلـه وصـار ينـادى خامرى وتلبـدى
أسر احتساء فى ارتغاء وما لـه سوى الدين من مرمى يرام ومقصد
وقد بلـغ السيل الزبـى بظهوره وان لم يـداو العر بالكى يـزدد
فقد طبق الصحراء بالنحس شؤمه واعدى نواحى التل بالخبث الردى

الى آخر القصيدة التى يذكر بها ما كان يهدد المغرب من جيش الاحتلال النصرانى ، وهى طويلة كما فى المعسول تتسم بصدق اللهجة الوطنيـة وتتضمن كثيرا من الامثال .

ولا شك انه يعنى بهذا الاحتلال الاسبانى للصحراء المغربية ، ثم استمر فى تصوير هذا الاستفزاز الاجنبى بقوله :

وجاش على هذى السواحل كلها ببحر سفين بالقـوارب مـزبـد
وغص به الدين الحنيفى فاكتسى لما يشتكى مـن بثه ثوب مكمـد

ويستصرخ من يتصدى لجهادهم بقوله :

يتود اليـه كـل أصيـد قـارم الحم العدا مخشـوشن متمعـدد
يجاهد فى الله العظيـم عـدوه باقدام ليث فى الكريهـة محـرد

وهى قصيدة طويلة وردت فى ترجمة الجشتيميلى بكتاب المعسول .

أما هذه اللهجة فهى فى الواقع لم تكن غريبة على المغرب ، فقد عرفها طول جهاده وكفاحه لاعدائه الذين كانوا تتطلع اعناقهم من الخارج اليه او تمتد أيديهم الاثيمة لاقتطاع بقعة مقدسة منه .

لقد كانت هذه الصرخة عام 1325 ، وهى السنة التى حصل فيهـا الانشقاق الذى انتهى الى خلع المولى عبد العزيز ومبايعة أخيه المولـى عبد الحفيظ ، وكأن الشاعر قد استروح من هذه النهاية ، فاستنام الـى هذا الملك وصار يقرض فيه القريض فيقول مثلا فى وصفه :

ورأى اذا طاش الحليم وأخرس الـ فصيح مضى منحيث تنبو ظبا الهند
ونور يقيـن مشـرق وعـزيمـة كما سل مسنون الغرارين من غمد

ومهما يكن فان هذا الشاعر كان من الذين عاصروا المولى الحسن وأدرك العهد الذى تلاه ، كما رأينا ومن أجمل أشعاره هذا المطلع من قصيـدة خاطب بها الشيخ أحمد الهيبة بن ماء العينين :

دعت للهوى بعد الصبا أعين العين فلبيت اذغانا وطـوع المها دينى
خرائـد أبدى الخدر منهن غـادة كشمس على غصن على حقف يبرين
غزالية وحشيـة غيـر أنهـا تتيـه على الغزلان بالدل واللين
تميس بعطف كالقنـا متـأطـرا وتسطو بسيفمن ظبااللحظ مسنون
وتسفر عن أبهى من الصبح زانه أزجكعطف القوس أو عطفة النون
وتبسم عن أحوى اللثات مؤشرا كدر نضيد فى القـلادة مكنـون

ومن هذه المطالع قوله فى قصيدة يخاطب بها على بن عبد الله الالغى

مـــن اشيـــاخـــه :

أيا نسمة من نفح ريح الصبا روحى بأطيب انــواع السلام على روحى
فقد فارقتنى حين فارقت ساحــة رمتنــى عيون العين منها بتبريــح
وخلفتهــا بين الربـــوع أسيــرة لكل مليح لا يمــن بتــســريح
وبـــؤت بجسم دون روح تمجــه بحكم النوى فيح الفجاج الى فيح
فلله كم قاسيت مـــن مضض الاسى وبرح همـــوم لا تبان بتشـــريح
فمن غربة تضنــى وبيـــن احبـــة تـــروح عنى الهم ايـــة ترويـــح

ولهذا الاديب عدا شعره الكثير نثر فنى يتمثل فى بعض رسائله الاخوانية، التى نجد فى ديباجة لها ، قوله مخاطبا شيخه الالغى (المذكور بعد الابيات):

سيدى الذى تقيدت بمحاسنه وانا المطلق ، واستفتحت بفاتحة يمنه فانفتح كل مغلق ، ونصبت شباك سعده فاصطدت بيض الانوق ، وأدركت الابلق العقوق ، واستبصرت به فى ليل الهموم فما رأيت من غير جبـــين احسانه طالع الفلق ، ولا استرقيت بسوى سورة ذكره متى عس طائف الغسق ، أو اعتاد القلب من جن عائد الاولق ، قبلة وجهى اينما توجهت، ومولى نعمتى الذى عن غيره تنزهت ..

فهذا نثر على تقليده المطعم بالامثال والتوريات القرءانية وغيرها ، فيه لمحات جميلة ، مثل « تقيدت بمحاسنه وانا المطلق » ومثل « واستبصرت به فى ليل الهموم فما رأيت من غير جبين احسانه طالع الفلق » وان كان ليل الهموم مقتبسا من بيت امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله علـــى بأنـــواع الهمـــوم ليبتلـــى

كما أن تقييده بمحاسن مخاطبه وهو المطلق ، انما اقتبس من بيت المتنبى فى مدح سيف الدولـــة :

وقيدت نفسى فى ذراك محبـــــة ومن وجد الاحسان قيدا تقيـــدا

ومن الادباء الذين عاشوا فى العهد الحسنى ، وامتدت بهم الحياة الى ما بعده ، الادب الكاتب الطاهر ابن احمد البلغيثى .

ومن آثاره الادبية ، رسالة وصف فيها الهدية التي وجهتها الملكة فيكتوريا ، ملكة انجلترا الى المولى الحسن ، وكان ذلك قبل وفاته بسنتين .

قال فيه في الفواصل (1) :

فرع أربى على أصله ، في حدة نصله ، وسرعة سعيه للظهور ووصله . استكتب في الداخلية مدة ، ثم استخلصه الوزير احمد بن موسى ، واستند الى كفايته ... وكان يرسله على الاغراض بازيا ، فلايرى له في النشاط موازيا ، الى أن صار حليف سقم وكآبة . وهوى نجمه من سماء . الكتابة ، وكان بعدما أشفى على شفا ، وأيس من العلاج والشفا ، آنس من نفسه خفة ... فاحتفل لنزهة ... فبينما هو على المائدة ينشر فوائده ... اذ مر به طيف الحمام بغتة ، فذهبت نفسه فلتة ، في عام سبعة عشر وثلاث مائة وألف .

اما الهدية فكانت عبارة عن فيل ، مكسو بالجلال الملونة المجركسة . وكان سائس الفيل رجلا هنديا ، استوطن المغرب بعد وقد تصدى لهذا الحادث كتاب وشعراء ، فألف فيه أربعة منهم ، رسائلهم التي كانت من بينها رسالة البلغيثي المذكور (2) وسماها صاحبها « رسالة الدرر السنية في الهدية الفيلية من فخيم الحضرة الانجليزية ».

أتى فيها بعد الديباجة والتنويه بالعلاقة الطيبة التي كانت بين الدولتين لعهده ، بقصيدة في مدح دولة الانجليز واستهلها بقوله :

أعظم بها من دولة ما نالها ملك ولو كسرى أنوشروان

وهذا جديد في أدبنا فلاول مرة نراه يفسح صدره لمدح دولة غير مسلمة

---

1) كان وأبوه أحمد من الأدباء الكتاب الذين ترجم لهم صاحب الفواصل أيضا فقال في أبيه : « أحد الكتبة الكبار ، أهل النباهة والاعتبار صاحب .... قلم يقذف دررا ، ويطلع المعاني غررا ... كان خطيبا بجامع الرصيف ... ثم نقل الى الاستكتاب بشريف الاعتاب ... صنع لبعض حفدته عقيقة ... استدعى لها الوزير الصدر أبا عبد الله الجامعي ... فمن شدة سروره بقدومه ... اعتراه فالج سكنت به أوصاله ... الى أن وافاه حتفه ... عام 1307 .

2) ونشرناها عام 1386 بدعوة الحق .

ووصفها بالاوصاف التى لا تقل عن وصف غيرها من الدول الاسلامية وكذا ملكتها ثم ذكر أن الملكة فيكتوريا « دعا داعى المحبة الى انتخاب هدية لمولانا السلطان ،،، فوجهت فيلا وهو لعظيم السلطنة من احسن فال (1) » وبعد وصفه ، ذكر أن هذا الفيل « قدمه سفيرها لدى الاعتاب الشريفة ،،، فصادف وروده من ثغر طنجة ،،، نهوض الركاب السعيد من ثغر الرباط ... قاصداً بلاد آزمور » فألحق بالموكب السعيد ، وان المولى الحسن) أمر من حفته محلته السعيدة ،،، بالحضور تجاه السياج،، بعد أن عمر المشور ، وادارت به قلعة العسكر ، على صفة مخصوصة بصفوف مرسوسة ، وكيفية عجيبة فى دواوين الحرب منصوصة ... » محتوية بالموسيقى الغريبة الاشكال ، العديمة المثال ،،، وبزواياها الاربع صواعق مدبرة ، وقطع نارية مصورة ... بوسط تلك القلعة جياد مسومة ، لها زئير كالاسود) ثم صار يصفها بألوانها المختلفة وشياتها العديدة والاسلحة التى كانت تحملها اصحابها ، من رماح ومكاحل مذهبات ، ثم قال : وبعد أن عمر المشور وتم فيه المراد ، ولزم كل مركزه من أهل ذلك الناد، وجلس ايدالله نصره وأدام فخره على منصة ملكه ،،، وحيا الكل جلالته السنية ، بالتحية العرفية ، ودعا لهم بالاعانة وصلاح الحال ،،، وارعدت الطبول والابواق ، وصدح قمرى الموسيقى بنغمة « الماية » و «العشاق » ، أمر باشخاص ذلك السفير بباب ايوانه ، مصحوبا بفيله واعوانه . فورد السفير ، والفيل على صفته العجيبة وهيئته الغريبة ، يتمشى مشى الخيلاء ويلمح الحاضرين لمحة النبلاء ، يقلب خرطومه كيف شاء ،، » واستمر هكذا فى وصفه ووصف القلائد والحلل التى كانت تكسوه والخلاخل التى بقوائمه « حتى دخل الموكب العجيب ،،، قاصدا تحية الجلالة السامية ، فلما وصل (الفيل) لباب السيوان ، وعاينته الطلعة البهية أوضح عيان حيا تلك السيادة بخرطومه كأنه من نوع الانسان ، ثم تقدم السفير المذكور، وادى التهنئة بوجه مشكور ،،، وعند تمام المعاينة ووداع السفير ،،، انشد لسان المقال . وهنا أتى بقصيدة نونية كذلك ، مطلعها :

---

1) محترزا بهذا مما ورد فى سورة الفيل واصحابه بالقرآن الكريم .

قـرط سماعك مصغيـا لمعـان   متلـذذا بطـرائـف الالحـان
واصغ لما يبـدى السماع مجاريا   بتـرنم الاوتـار والعيـدان

وهى فى وصف الحفل الحافل والاشادة بمقام الملك العظيم ، ثم العودة الى وصف الفيل نظما كما وصف نثرا ، وكيف تلقى وسط الجم الغفير ،،،

وبعد القصيدة ، عاد الى النثر واصفا لهيبة الموقف وجلاله ...

وتـوفى الطاهـر عـام 1317 .

ومن اولئك الادباء السيد خليل الخالدى ، الذى انشأ مقامة فى هذا الوصف ، منها الفصل الذى أثبته صاحب الاتحاف يقول فيه :

ذو جسم جسيم ، وشكل وسيم ، ظريف بهى ، نبيل شهى ، مـن اعظم الحيوانات ، وابهر المصنوعات ، منظره بديع ، وهيكله رفيع ، طويل الخرطوم ، واسع الحلقوم ، مبسوط الاذنين ، حديد العينين ، طويـل الانياب ، واسنانه تبلغ ثلاثمائة فى الاستيعاب ، كأنه طود علاه سحاب ، يحسبه الناظر اليه ربوة تمشى على ساق ، او سحابة اظلت الآفـاق . يهرول فى مشيته ، ويسارع فى خطوته ، كثيف فى المرأى ، خفيف فى الموطا لو فاجأ عنترة وسليكا ، لعجزا عن الاقدام وهلكا ، ليس فى سيره انزعاج ولا اضطراب ، تحسبه جامدا وهو يمر مر السحاب تفزع منه الطيور ، وتتقى صدمته النسور . وخرطومه يتقلب تقلب الافعى ، يتلقف به الملتقم حين يدعى ... » الى آخر الفصل الذى قارب الوصف به لموضوع كان بالنسبة لادبنا جديدا عليه كل الجدة . فلثانى مرة يشاهد المغرب هذا الفيل فى بلاده ولاول مرة يجد الادباء انفسهم مطالبين بوصفه وصفا فيه بعض الدقـة بنواحيه وبعض الابهام بنواح اخرى سواء فى ذلك وصف البلغيثى ووصف الخالدى وان كان هذا على ما يبدو قد التجأ الى رصف الجمل القصيرة اكثر من امعانه فى استشفاف حالة المعنى . وما أضعف قوله : واسنانه تبلغ ثلاث مائة فى الاستيعاب وقد استعان بالقرآن فى قوله : « تحسبـه جامدا وهو يمر مر السحاب » لم يغير منه الا التذكير بـدل التانيث فى « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » . ومن الضعـف فى الاسلوب تكرار فعل الحسبان .

ومنهم محمد بن محمد بن محمد غريط .

وصفه سميه صاحب الفواصل بأنه « أديب نافذ البراعة ، نافق البضاعة ، شاعر مليح المساجلة ، رجيح المجاملة ... بيد ان نظمه أجود من نثره ... كتب للسطان سيدى محمد ولابنه مولاى الحسن » .

فهو اذن يمثل العهدين ، وكذلك نجد له شعرا فيهما ، فمن شعره فى الاول قوله يهنىء المولى محمدا بانتصاره « على آيت يوسى » :

هز سيف النصر مولانـا الامـام	من له بالعدل عـون واعتصـام
فقضى الله لـه فيمـن بغـى	بوبـال ونكـال وانتقـام
وحوى فتحـا مبينـا لم يكـن	لسـوى آبائـه الغـر الكـرام
اسسوا مجـدا عـلاه فبـدا	مـالك العـز الـذى ليس يرام

الى آخر القصيدة التى تنيف على الثلاثين ، ويبدو أن الشاعر فيهـا كان حديث العهد بقرض الشعر ، ولهذا نجد أشعاره على العهد الثانى ارقى بالنسبة الى هذه المنظومة وكذا قوله ، يهنىء المولى الحسن ، بانتصار جيوشه وقضائها على فتنة « الغياثيين » :

سيـف اعتصامك بالالـه مجـرد	ومنهـد وممهـد ومـؤيـد
سيف الحقيقـة بالشريعة يزدهى	ونجاده بضمان نصرك يعقـد
قلدته للفتـح ارثـا خـالصـا	مـع ما سواه من السيوف معدد
متخلف النور المبيـن وحسبكـم	المصطفى المختـار جـدك احمـد
جاه له دون الوجـود بأسـره	جـاه عظيم بالشفاعـة مفـرد
ما ان يبـارى بأسهـا متـورط	فى بغيـه أو ظـالم متبلـد

الى آخـر القصيدة التـى يختمها بقوله :

دوخت مولانـا البـلاد جبالهـا	وسهولهـا بسياسـة تتأكـد
ونصرت حزب المرسلين فما ونى	عن شكر بـرك بالدعاء موحـد
وكسرت شوكـة كل عاث ناكث	الغـدر فيـه سجيـة لا تنفـد
حتى وصلت الى صحاريها التـى	لخلالها بـدا التنقـل يحمـد

فشددت أزر الدين فى اقطارها　　وعرا العدا من ذاك غم مجهد
هذا وحقكم الصلاح واجره　　جم الثواب من الاله معود

وهذا البيت على منوال : « هذا وجدكم الصغار بعينه » ومن القلق قوله : « مع ما سواه من السيوف معدد » .

ومن شعره قوله :

جرد « الذابح » سيفا　　من حشا ثلج الغيوم
وبرى أوداج من لم　　يعتنق بنت الكروم

وقوله : من قصيدة مجيبا بها محمد اكنسوس :

أهيم اذا ما قلدتنى يمينه　　لالىء فى أسلاكها الروح ترغب
فيغبطنى فيها حبيب ملاطف　　وخدن مداج مستريب مذبذب
اتتنى جوابا لا ترجى جزاءها　　وفاقا ولا تنفك قلبى تطلب
فقات أجل قلبى وهبت ومهجتى　　اليك فتات أنت عندى مجرب

وعلى كل حال فشعر غريط هذا ليس بالستوى الذى جعله فيه سميه صاحب الفواصل ، فان كان نثره ــ كما قال ــ دون ذلك ، فهو نثر متواضع وان كان صاحبه لا يعرف الا بوصف « الكاتب » ، توفى رحمه الله عام 1296 .

ومن الادباء الذين كان أدبهم تقليديا محضا الشاب الناظم الناثر عبد السلام بن محمد المهدوى العلوى المتوفى عام 1331 ، عن نيف وعشرين سنة عاشها قال فيه صديقه صاحب فواصل الجمان :

كاتب اديب ، شاعر لبيب ، جر ذيول الفخر على البحترى وحبيب ... أسفر صبح أفكاره ، عن الشعر الرسيم وما سجى ليل عذاره ، ولا قضى حكم التعليم بتلومه واعذاره ... ولما اينعت دوحة شبابه ، وزهت ثمرة آدابه ، استكتب فى الداخلية ، بعض الايام العزيزية والحفيظية ...

هكذا يذكره غريط ، الذى سنجد له فيه مرثية عند تناوله .

ويذكر ابن زيدان فى اتحافه ، انه ذهب مذهب القاضى الفاضل ،

وابن نبيه وغيرهما ، ثم ذكر له قصائد طوالا .

ومن شعره ، هذا المطلع من قصيدة مدح بها النبى عليه الصلاة والسلام ، وهى ضمن مولدياته العديدة :

اشجى فؤادى بارق الانواء	أم ذكر رامة أم نسيم قباء
أم ذكر وجرة أم جئاذر جاسم	والمنحنى أم ساكنى البطحاء
سقيا لهن معاهدا وملاعبا	لمهى محجبة وعين ظباء
لله أيام لنا سلفت بها	جاد الزمان بشربها بصفاء
جريت فيها الى الصبابة والصبا	رخو الاعنة أصهب الصهباء
سكران سكر مدامة وصبابة	خلع العذار اجر فضل ردائى
قضيتها أضغاث أحلام نائم	قد ايقظته اشارة الرقباء
باعاذلى لو كنت تدرى ما الهوى	أبدلت لامك — عاذلى — بالراء

ويلاحظ عليها التكرار وبعض القلق كما فى « أحلام نائم » .

ومن شعره قوله متغزلا :

يسعى بها حمراء مثل خدوده	وعيونه وثغيره البراق
يمشى على رود يميد تأودا	فكأنما يمشى على الاعناق
وكأنه الف كغصن مائل	مترنح يختال فى الاوراق
رقت شمائله وراق شموله	فتشابه الاقداح بالاحداق

ومن تورياته قوله :

أيا من زاده قد وصدغ	مضاعفة وزادا فى ملامى
افادانى به التعريف حقا	فلم انكره من الف ولام
بقدك أو بصدغك أن تنادى	أيا مولاى عبدك يا غلامى
وان تفش السلام على مجاز	فانى حقيقة عبد السلام

وله فى هذه التوريات كثير من الاشعار ، كما له اخرى فى الاكتفاء والتجنيس والتقسيم .

ومن قصائده ما خاطب به اضرحة الاولياء

والصلحاء ، وهو باب فتح على مصراعيه ، فى هذا العصر العلوى ، واعظم ما قصد فيه الشاعر الى جانب المديح النبوى .

وله مقامـــات منهـــا :

حكى الفتح بن سعد ، قال وافانى المطهر بفاس ، الارجة الارجاء الطيبـــة الانفـــاس ، والزمـــان ربيـــع لا خريف ، والهـــواء ظـــريف ، والطعم غير حريف فى مقام شريف ، وعيش رخيف ، وظل وريف ، فقضيت بها شهر الصيام ، وشفعت المقام بالقيام ، وشاهدت فى جباه الليالى غرر الايام ، وتجافيت عن مضجع النيام ، وكنت ممن وفد لتهنئه شمس الخلافة العلوية والامامة ، التى لا تحجبها غمامة ، ولا يروع فى حرمهـــا شاهين حمامة ، حيث الوفود لهم دار المقامة ، والضيافة على طول الاقامة، وعرض المقامة ، فلما كانت صبيحة العيد ، وقال المغلس « سعـــد ام سعيد ؟ » ، وقد اخذ الناس بالتجمل ، بعد اخذهم بالتأمل ، وبدا وجه الفطر أوضحا ، وحشر الناس ضحى ، وأفاق النهم من سكرته وصحا ، التحمت بسدى هاتيك الحاشية وراءنا المشاة والغاشية ، على عتـــاق فراس ، تميس ميس العواتق باعراس ، وتزرى بحماحمها وصهيلهـــا بسجع الحمائم بين الاغراس ، وبغال فارهة للمشاة ودودة وللهماز كارهة، من كل مطية وطية ، غير مجفال ولا بطية ، انشط للعطو من الكريـــم للعطية ، ذوات سروج مفضضة ومذهبة واعنة مفوفة ومهذبة ، وقرابيس لا مقعرة ولا محددة ، وأدوات ليس بغيرها معلمة ولا مؤدبة ، بعد أن لبسنا الجديد والثمين ، وأكلنا السميذ والسمين ، واثرنا بالمفرحات والمفرجات الكمين ، وتقارضنا الثناء والمصاحفة مع من بالمصافاة تمين ، من قريـــب وقرين ، وامير وامين ، فلما خرجنا الى المصلى ، وانتظمنا فى سلك من جلى وصلى ،برز السلطان تقفوه المراكب والمواكب ، وتحف به الملا كما حـــف بالبدر الكواكب . فى أبهى ابهة ، رغبة ورهبـــة ، وابهـــر بهجـــة هيبـــة واهبة ، وقد جرت بناة الخيول ، وجرت طواويسها الذيول ، وشلـــت بخراطيمها الفيول ، وسالت بأعناق المتفرجين السيول ، والاعلام خافقة ، والاسواق نافقة ، والينابيع دافقة ، والطبول طافقـــة ، والاصـــوات

والبوقات والمزامير متوافرة وكأنما الربيع عاد عنفوانه ، ولم يفت ابانه واوانه ، وقد تفتحت من الحلى والحلل أكمامه ، وتفتقت أزهاره واختلفت ألوانه ، وكسا الآكام والبطاح ورده ونرجسه واقاحه واقحوانه ، وآسه وياسمينه وسوسانه ، وبنفسجه المسلول من قفاه لسانه ، واطربت من المعازف والاغانى ، على أعواد ورقه من ورقه فى عيدنا عيدانه ، وخدمتنا احراره وعبدانه ، الى أن وصلنا الى المصلى ، وترجل الناس للصلاة وضجوا لها ، ولا ضجيج الحجيج بالملا، وتقدم السلطان يتلوه الوزراء والكتبة والقضاة والولاة ...

وهى طويلة ، ذكر فيها خطبتى العيد ، وارتكب فيهما الحذف الذى هو من أنواع البديع ، ثم أشاد بهما على لسان الراوى، واستمر فى وصف انشاء الموكب السلطانى وما أحاط به من ازدحام الشهود والمصلين كما وصف مصافحة الناس بعضهم بعضا ومرافقة الاصحاب . الى أن يمم دار الخطيب التى اكتظت بالتلاميذ والغلمان ، وقد تفرد هو فى بهو مزخرف على سريره فلما وصلته جوائز السلطان وصلاته ، انشد قصيدة على سبيل الثناء ، تحتوى على عشرين بيتا ، فعلم الفتح أن أمامهم « خطيب مشاعر ، » .

وله مقامة أخرى على لسان الحارث بن همام ، يقول فى أولها :

لم أزل أتقلب فى البلاد ، تقلب الطارف والتلاد ، واتلون فى أطمار الغرباء ، تلون الحرباء ، يوما بالعرب العرباء ، وليلة فى العجم العجماء ، وطورا أندلسيا ، وتارة طرابلسيا ، وحينا جنيا وساعة انسيا ، الى أن طوحت بى لامغرب الاقصى سفرة ، كادت أن تحطنى الحفرة ، فصغت الاهوال من معادن البر والبحر ، وغصت ظلماتها غوص اليراعة فى الحبر ، فدخلت فاس حمئة شمس النبوءة ، وخيمة المكارم المكلوءة ، اجمة ادريس بن ادريس ، الجمة ليوث الاقراء والتدريس ، والحمة اللاذعة بمعيارها التدليس ، مجمع البحرين العلم والمال ، وهامة النحرين العمل والمنال ، والصر قد حل بها والخصر ، وبكت السماء ولا بكاء الخنساء على صخر ، والبرد قد أرغم الانوف ..

وهـي طويلـة أيضـا ، يذكـر فيهـا انـه دخـل مسجـدا فوجـد شيخـا حولـه طلبـة يقرؤهـم ، وهـو يعظهـم ويحثهـم على الاجتهاد والتحصيل ، فلما انفض عنه الجمع ، تأمله فاذا هو أبو زيد السروجـي ...

وسمـى مقامته هذه بالمقامة الادريسية ، وهى تقليـد للحريرى

وهناك مقامة أخرى له ، يديرها حول الوزير محمد المفضل غريط ، وهى دون الاوليين اهمية وجمالا ، يقول فيها :

حكى الضحاك بن بشير قال : ضمتنى يد الرفقة والعشـرة ، مـع أصحاب بفاس كالنجوم عشرة بلوت شجرهم مرا وحلوا وخطبت صحبتهم فوجدتها من الموانع خلوا ، رضعوا من الادب الاخلاف والافواق وفطموا عن ضرعها الخلاف بالوفاق ، طالما حنكتهم التجارب رغبة ورهبـة ، وسامتهم الايام فرقة وغربة ، حتى ألفتهم الاسنمة والغوارب ، واختصمت فيهم المشارق والمغارب ، وصارت جميع البلاد لهم أوطانا ، والمنـازل كلها أعطانا . وكان لى فيهم صاحب هو واسطة عقودهم وحبة عنقودهم، امتزجت روحى بروحه امتزاجا ، واعتدل طبعى بطبعه مزاجا ، اخلص كلانا لصاحبه جهره وسره ، ووثقنا بخير مودتنا فلم يتق شرى ولم أتق شره ؛ وبينما القينا عصا الترحال بفاس وتخلصت الرحال بوضع ثقلها من معرة النفاس ، أصبحت الطرق بالقطاع شاعرة ، وعوادى الفساد لافواه الفتن فاغرة ، وأمست السهول وهى وعرة ، وأعثرت الخيول بعرة . واستنسرة بغاث الطير ، وانتشرت بغاة الضير ، وذلك بشغب شيطـان يزعم انه من الملائكة ، وأشداته لحنظل الباطل لائكة ، فأعوزتنا السيوف ففزعنا للاقلام ، وأرهفنا بصحائف الكلام صفائح الكلام ، فاذا نحن جعنا لاقراص الاوراق رجعنا ، واذا نظما ، نظمنا نظما ، وترانـا نشـرى ، اذا نثرنا نثرا ، فنظم ذلك الصاحب قصيدة ميلادية انتحل فيها من المديـح النبوى ، الى المدح السلطانى المولوى ، وأشار فيها الى ذلك الفتـان الخارجى الذى شاب الموارد لما شب نار شبيب ، وعقد للفتنة فى الدين والدنيا كل سبيب ، الخارج من الهدى بالضلال ، والشبيه فى اخلاقـه

الشيطانية بالضلال ، الدعى الشاق للعصا ، الداعى الشقى بما لم يطع الله به بل عصى ، واستشارنى فيها ، هل يثبتها او ينفيها ، فأمرته أن يقصد بقصيدته تلك دار الخلافة وليأت من الباب ، من له من الرياسة والسياسة اللباب ، دستورها ، المبجل المعظم ، وعقد وزارتها ، الامثل المنظم ، من اذا وعد فالسموال ، واذا اعطى فحاتم اذا يسأل ...

ومن هنا يتخلص لمدح محمد المفضل غريط فيقول :

وزيـــر يود السيف والسهم عزمه ورأيـــه فى امضائـــه وســـداده
وصـــوب الندى كقطرة من نواله على صبه أو نقطة مـــن مـــداده

فارصد ليلة الاحتفال ، فلك عند ملكها أيمن فال ، حيث الالسن باسرار المديح بائحة ، والمباخر بالند فائحة ، والانشاد يرجع ويردد ، والعهود القديمة تذكـــر وتجدد ، وكواكب الشمـــوع والمشاعـــل تزهر ، والجفان والاجفان هذى تكسر وهذى تسهر ، والموائـــد تنصب وترفع ، والعوائد الكريمة صلتها للموصول تدفع ، قال الراوى ، فكتب القصيدة بما شخلب خط ياقوت المستعصمى ، وكان عنه ابن مقلة عمى ، وانتظر ليلة المولد وورد صافى ذلك المورد ، « وربيع » أمامه « وصفر » وراءه ، وكرم الصدر الوزير حفظه الله يضمن عند صدوره ووروده رؤاءه ٠

وتقدم أن المقامات من النماذج الادبية القليلة عندنا ، وحتى الآن لا تعدو عدد الانامـــل فيما بيدنا منها ٠

الفصـــل الثانـــي

عهــــد الحمايـــــة

لم يكن القرن الرابع عشر يهل على هذه البلاد حتى كانت تباشير بل نذر التدخل الاجنبى توذن بخطر الاحتلال ، وكان المولى الحسن الذى ادى القسط الاعظم من الضريبة الفادحة التى ضربت على البلاد من قبل الاسبان الذين واجه المغرب جيوشهم الكاسحين أوائل جلوس المولـــى محمد ، يعمل ما يمكنه ليتنكب النزاع المسلح مع الاسبان خاصــة ودول اوربا بصفة عامة ، فكان الاعتماد على المال لدرء أخطار هؤلاء المدلين بقوتهم والمشمخرين بأنوفهم . فهذا اشتباك مسلح يقع بين رجـــال مـــن الريف وبعض نصارى مليلية ، يقتل فيه رجال منهم ، فيفديهم السلطان باربعة ملايين من الريال ، وهو مبلغ يفوق فى قيمته الشرائية الآن أربعة ملايير من الدراهم ، وهؤلاء الانجليز ، على صداقة ملكتهم فكتوريا لعاهلنا رحمه الله ، أقاموا مغتصبين بطرفاية تحصينات بحرية يستغلونها . فكان استرداد هذه البقعة منهم بمبالغ باهظة ، طلبوها أولا دون هذه بكثير ، فلما تأخر الاتفاق اشتطوا على قاعدتهم الانتهازية . فأدى المغـــرب مـــا اشتطوا به من تلك المبالغ المجحفة واسترد بذلك بقعة من بلاده .

أما الاموال التى كان سفراؤه يحملونها الى ملوك أوربا ورؤسائهم ، فى صفة هدايا ، فلا يكاد يصدقها العقل ، كل ذلك لتفادى ضررهم ولشراء ما تفرضه العدالة والحق والضمير عليهم فى اجتماعاتهـــم الدوليـــة او مؤتمراتهم التى كانوا يعقدونها على سيادة بلادنا .

ولقد عانت الخزينة المغربية منهم عناء عظيما ، مما حمل المولى الحسن على الانصات الى اولئك الذين ادعوا انهم يتمكنون بعلومهم الكيماوية، كما قالوا ، من تحويل المعادن الخسيسة الى معادن شريفة ، كالنحاس ادعوا فيه قدرتهم على تحويله ذهبا ، والرصاص ادعوا فيه هذه القدرة على تحويله فضة . فكان ادعاؤهم هذا ، حملا آخر ثقيلا على خزينة الدولة،

التى انفقت فيه ما لا يعد ، وبدون طائل من هذه الادعاءات المتدجلة .

لقد ترفى المولى الحسن — رحمه الله — وهو يجوب البلاد طولا وعرضا ، ليحقق الاستقرار بها ، ويضفى الامن على ربوعها وبدا التذمر من الوضع الذى كان عليه المغرب . فهذا لم يكن وليد الاحتلال ، بل وجدنا الناصرى فيما قبل ممتعضا منه ومتشائما من مصيره ، وكانت اصبع الاستعمار تلوح بالخطر الداهم ، وكان المفكرون على حذر من ممثلى الدول آنذاك وتوجس من أعمالهم الخفية وقد افصح عن هذا الناصرى ، بامتعاضه من جماعة نواب الاجناس الذين اتوا لتهنئة المولى عبد العزيز ، عند اعتلائه على العرش فأقاموا بالعاصمة فاس مدة أربعة اشهر ، يتجسسون الاخبار ويتطلعون العورات ويترصدون الغفلات ، كما قال :

ومهما يكن فان هذه البلبلة التى تعرضت لها البلاد فى القرن الرابع عشر وانتهت بالتدخل الاجنبى ، فتحت لادبنا نافذة على العالم الخارجى وحضاراته ، فكان لها أصداء فيه ، سنامسها فيما بعد ، عند شعرائنا

فقد صور هؤلاء بعض المنشآت أو الاصلاحات ، كما دعوا الى التعليم والتربية الخلقية ، أو ناهضوا الاستعمار وعبروا عن ذلك فى أدبهم ، كما سنرى او استغلوا بعض المواقف والاحداث فى هذا السبيل أو عزفوا بأنفسهم عن رغائب الحكام الفرنسيين كالبلغيثى ويلحق بهذا ما كان متعلقا بالشرق العربى وغيره ، كرثاء المنفلوطى ، وتأبين شوقى ، وكتناولهم بالذكر ، ولادنى ملابسة مما يجرى فى الحقل المعاصر ، وما يتناوله الكتاب فيه ، من ترجمات لشخصيات غربية ، فى مختلف الاصوات ، وتتخذ لها مفرقعات تتفجر بكتلة واحدة ، كتلة الوطنية ، فى شتى أنحائها .

ومن أوائل هذه الاصوات ما انبعث من أديب موهوب ، هو : أبو عبد الله محمد السليمانى الغريسى الاصل الفاسى المولد عام 1280 ، والمتوفى عام 1344 .

ومن شعره فى موضوعنا الوطنى قصيدة ذكرت فى الادب العربى فى

المغرب الاقصى (1) يشحذ فيها الهمم ، وينعى على العلماء تقاعسهم ، بل ينعى على المغاربة عامة ، وهو يرمقهم متكاسلين متواكلين ، امام هذا العمل الدائب والنشاط المستمر ، الذى شاهده فى هؤلاء الذين كانوا قد شملوا البلاد بسلطانهم ، ولفوها فى ملاءة حمايتهم السوداء ، فيقــول هــذه الابيات من تلك القصيدة :

دعينــى مــن مراشفــة الرضاب ... وعــدى عــن ثنايــاك العــذاب
وخلــى عنك أيــام التصــابــى ... فتلك خديعــة الغــض الشبــاب
فــلا مدح يصيــخ اليه سمعــى ... ولا غــزل لــدى بمستطــاب
ولست الــى النسيــب اهش كلا ... فان وراءه لمــــع الســـراب
ولا وصف المجــانس يــزدهينــى ... ولا جس المثــانــى والــربــاب
ولا الازهــار ينعشنــى شذاهــا ... وكيف يعيــش مهمــوم الجنــاب
ولا لــى فى الوغــى والطعن راى ... ولا مشق الحسام لــدى الحراب
اليست أمتــى فقدت حجــاهــا ... وهذا عزهــا وشــك الذهــاب
وهــذا صبحهــا يحكــى مساء ... غزالتهــا تــوارات بالحجــاب
حمــاة الديــن هبوا من سبــاة ... فمزكرنا يــؤول الــى الخــراب
تركنــا الديــن خلفنا لا نبــالى ... ولم نتــرك لنــا غيــر انتســاب
يقــول الشامتــون هــم أضاعوا ... كتــابهــم ويــا حسن الكتــاب

الــى ان يقــول :

رضينــا العى حتــى لا فصيــح ... اذا مــا قــال ســرك فى الجواب
ولا احد من اهــل العلــم منــا ... يقيــم لسانــه عنــد الخطــاب
وفخفخــة المعمم كيــف تجــدى ... وهــل تغنــى القشور عن اللباب
فوالسفــا علــى حــال حدتنــا ... الى أن أوقعتنــا فــى الخــراب
فلا مال يصــون لنــا حيـــاة ... ولا عضــد يساعــد فى الصعــاب
مصانعنــا الــم بهــا فســـاد ... فأصبحت الصنائــع فى اضطراب
وساد علــى تجارتنــا كســـاد ... فــراس المــال منخــرب الحساب

---

1) لصديقنا وزميلنا المرحوم محمد بن العباس القباج .

وزاحم في فلاحتنا اناس … جنوا من ريعها عجب العجاب
ونحن ازاءهم فقراء نلقى … بانفسنا باحضان المرابي

الى آخر الابيات التي كانت صرخة مدوية في ربوع البلاد ولا شك أنها صدرت عنه بعد الاحتلال الاجنبي وظهور نشاط المعمرين فيها .

والملاحظ انه انث المساء في البيت التاسع توهما منه أن الالف للتأنيث.

وفي هذا الطور ادرك الناس جليا قيمة العلم ، الذي حينما سلبوه وقعوا في هاوية الاستعباد ، فصاروا جميعا يدعون اليه ، وكان منهم شاعرنا فقال ضمن ابيات :

ان الحياة مع الجهالة ضلة … تردى الفتى ان لم يكن فكأن قد
ومغفل ملا الجمود فؤاده … ومهذب متضائل ومهدد
ومؤخر رضى الخمول لغاية … وموفق لمعاده بتزهد
اهفى على من لا يميز نفعه … من ضره والدهر منه بمرصد

ويقلب الشاعر نظره في واقع عصره فيحزنه أن يرى الامور تسند لمن لا يحسن القيام عليها فيقول :

عداها الردى قد دنستها يد الخنا … وعادت بنو الانذال عالية الرتب

الى ان يقول :

بسيرتهم ضاق النطاق وأصبحت … زعانفهم بالمصر أغدر من كلب

ولا نرى كيف تأتى له ان يجعلهم أغدر من كلب ، مع أن هذا يضرب به المثل في الوفاء (1) .

ويبدو من القصيدة ركونه الى الاصل العربي . ولهذا يقول :

وهل من بقايا الفاتحين ذوي السنا … بهم تسعد الاوطان في زمن الجدب
وهل من بني الانصار فضل بقية … تناضل بالاقلام طورا وبالعضب
وهل لبني بر بن قيس حماسة … فحفظ ذرى استقلالكم غاية الحب (2)

---

1) ومدح الخليفة العباسي بالبيت الوارد فيه :
« أنت كالكلب في الوفاء » معروف مشهور جدا شهرة صاحبه
2) من كتاب « الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية » للدكتور ابراهيم السولامي .

وهكذا تطل علينا كلمة « الاستقلال » في مدلولها الوطني الجديد ، كما ان أسلوبه جديد .

والى جانب أولئك الذين تأثروا في أدبهم بالوضع الطارىء عليهم في الحماية أو قبلها هناك آخرون لم يظهر في ادبهم جديد واستمروا على التقليد العتيق .

ومن هؤلاء عبد الرحمن بن زيدان العلوي .

وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن ، نقيب الاشراف العلوية، ومؤرخ دولتها ، وجامع وثائقها وظهائرها ، ومن تآليفه المفيدة « اتحاف اعلام الناس بجمال اخبار حاضرة مكناس » طبع منه خمسة اجزاء ، حافلة بالتراجم ، كما طبع له كتاب « الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزهراء » وكتاب « العز والصولة في معالم نظام الدولة » ، يسجل فيه نظام البيت الملكي العلوي ، بكل دقة وتفصيل ، وهو من الاهمية بمكان ، ومما لم يطبع له حتى الآن .

المناهج السوية في مآثر الدولة العلوية .

النهضة العلمية في عهد الدولة العلوية .

العلائق السياسية بين الدولة العلوية والدول الاجنبية .

المنزع اللطيف في مفاخر مولانا اسماعيل بن الشريف .

جنى الآس ونور البهار (في تاريخ الجيش النظامي البواخرى) .

اليمن الوافر الوافي في امتداح الجناب اليوسفي .

زيادة على ديوان شعر له ، ورحلة الى الحجاز ، وفهرسة لشيوخه .

توفي رحمه الله عام 1363 .

وذلك بعد ما اثرى الخزانة المغربية بهذه الكتب القيمة ، التي لها الاهمية الخاصة ، بالنسبة لتاريخ الدولة العلوية ومآثرها المختلفة .

وقد كان يحاضر في هذا ويجالس المثقفين به من مختلف الاعمار والميولات ، فكان قصره منتدى لهؤلاء ومدرسة لهم والى جانبهم مكتبته التي

لم يكن يضن بها ، وقد تقدم له نماذج من نثره ، فى تلك التحليات التــى كان يحلى بها مترجميه .

امــا شعـــره فمن نماذجه هذه الابيات :

علمى غدا روحى وراحــة بنيتى ... وتفكرى فرضى وخيــر مجــالسى
وتدبـــرى راحى وريحانــى وكــ ... ـبى فــى انفــرادى مجالســى
وارى حياتــى دون ذلك ما لهــا ... نفــع كغشيــة عابث متقــاعس

ولـــه فى مكنـــاس :

مكناســـة الزيتون تيهى وافخــرى ... حزت الشفوف على بلاد المغــرب
بمناظــر يسبى العقــول جمالها ... وزلال مــائك والهــواء الطيــب
واريـــج ارجــاء ولطف حدائـــق ... بك احدقت وربيع ربـــع مخصب
وفواكـــه كالشهـــد الا انهـــا ... مسكيـــة تـــزرى بثغــر اشنــب
اعظم بمـــا قـــد نلته من رونـــق ... يصبـــو له فى الناس كل مهـــذب

ومن شعره ايضا مولدية استهلها بقوله :

نـــزه الطـــرف فى رياض المعانى ... وتنعـــم بنـــور تلـــك المغـــانـــى
وادر لاستمـــاع صـــب معنـــى ... ذكـــر مـــن فيهم جميـــع الامانى
وصف الحسن اننـــى ذو ولـــوع ... وغـــرام بوصف ذكـــر الحســـان

ولـــه فى المدينـــة المنـــورة :

هـــذه طيبـــة بهـــا كـــل طيـــب ... طـــاب حيث الرسول فيها ضجيع
روضـــة من جنان خلد اتت احـــ ... ـــمد والشان فى عـــلاه رفيـــع
طيبـــة يا منـــى النهـــى وغراما ... لنفـــوس لهـــا اليهـــا نزوع (1)

ومن الذين ادركوا العهد الحسنى ، ثم العهود الاربعة بعده والتزموا القديم ، العالم الاديب الطاهر بن محمد البكرى ، اشاد بأدبه الادب العربى فى المغرب الاقصى ، وساق له نماذج عديدة من شعره ، نختار منها هذه ،

---

1) ومن شعره قصيدتان يقدم بهما كتابيه « الدرر الفاخرة » و « اتحاف أعلام الناس » الى الملك الراحل محمد الخامس طيب الله ثراه . وشعره ، عموما ، دون نثره ، الذى تقدمت نماذج منـــه .

قال متشوقا الى بلدة ايلغ :

نسيم الصبا هبى بنشر ربى الغ	ففى نشرها للعاشق الصب ما يبغى
تعلل شلوا لم تغادر يــد الهوى	به غير سمع للملامة مــا يصغى
يحن الى تلك المنـــازل انهـــا	منـــازل بدر التم لا منــزل الفرغ
ربـــوع رباها المسك طيبا ونبتها	بوجه الفضا منها عذار على صدغ
تخال أذا ما الزهر نــور ارضها	سماء حبا اثوابهــا الفجر بالصبغ
اذا اشمست أرجاؤها قلت انهـــا	فتاة على أعطافها صفرة الـــردغ
هى السؤل والمامول لو سمحت بها	يد الدهر لكن شيمة الدهرأن يبغى

وبصرف النظر عن كلمة الردغ ، فى هذه القافية ، فان الشاعر وفق فى استعمال هذه القافية ، مع أن حرف الغين من الحروف الحوشيـــة التى يتنكبها الشعراء فى قوافيهم ، وبلدة الغ جرته الى استعمال هذا الحرف فى قافيته ، وان كانت له مندوحة عن ذلك كما أن الابيات فى حد ذاتها جميلة التصوير مليحة السبك وان كانت لا تصافحك ــ شأن غيرها للسوسيين ــ أول وهلة ، باستثناء المعاصرين منهم ، كالمختار واخيه ابراهيم ·

وقد لاحظنا ولعه بالمتشابه ، مثل يبغى فى الابيات الاولى ، بمعنـــى يحب ثم بمعنى يظلم ·

واخيرا نذكر من الملتزمين لذلك العهد ، اديبا توفى فى نفس السنة التى تنحى فيها المولى عبد الحفيظ عن التربع عـــلى عرش البــــــلاد وهو أبو محمد المختار بن على المسفيوى المراكشى الاصل · يصفه غريط بأنه « كاتب نجيب ، ذو ذكاء عجيب ، وفراصة لعروق الاغراض جساسة، شاعر لم تلجئه الضرورة ، الى نقب البيوت المعمورة » ثم ذكــر تقلب الاحوال يعنى خدمة الدولة ، فى مختلف الوزارات ·

ومن شعره قصيدة على قافية الزاى ، وهو حرف من الحروف التى لا تستساغ غالبا فى بناء القافية عليها ، ومع هذا فانه بحسن تصرفـــه واختيار الجرس الخفيف ، سهل لقافيته القبول ، وراض السمع على استحسانها وهى فى الاشادة بانتصار جيش السلطان وقضائه علـــى الثوار استهلها بقوله :

لقد زاد الوجـــود بك اعتــزازا	ومن طرب به اهتــز اهتـــزازا

وصبح النصر اسفــر بالتهانــى	وعـــزك فى البريـــة لا يـــــوازى
ووجـــه الافـــق منبسط المحيـــا	حكـــى فى وشيـــه الابهـــى طرازا
وقد غنـــى لسان الكون شكـــرا	وانشدنـــا الغريبـــة والحجـــازا
واعلـــن بالهنـــاء لعظم فتـــح	بشيـــر يبتغـــى البشرى جهـــازا
الا بشـــراك يا ملك المعـــالـــى	ومـــن ملك الجـــدود الغر حازا
فقد نصرت جيـــوشك اى نصـــر	وحلـــوا مـــن سعادتكـم بتـــازا

الى آخر القصيدة التى تربو على ثلاثين بيتا ختمها بما استهلها به ، ولا شك أن كلمة « تازا » أيضا ، هى التى جنحت به الى اختيار حرف الزاى لقافيته فوفق فى هذا الاختيار وقلما وفق قبله شعراء فيـــه ، (خصوصا الذين زادوه ثقلا على ثقل ، بكسرهم للحرف ، كما وقـــع فى قصيـــدة للمتنبـــى .

كفرندى فرنـــد سيفـــى الجـــراز	لـــذة العيـــن عـــدة للبـــــراز

واخف من هذا قصيدة للحصرى فى رثاء ابنه ، استهلها بقوله :

زخارف دنيانـــا الاسيفة أصبحـــت	هشيما كمـــا رث الـــرداء المطرز
زمان الصبـــا لله درك لم تـــزل	مواعيد من نهوى لنا فيك تنجـــز

وكما نرى ، فقد استعمل هذا الشاعر الفحل ، حرف الزاى مبدوءا به البيت ومنتهيا به ، وهو باب طرقه فى جميع حروف المعجم فوفق غالبا ولكنه وقع فيما وقع فيه المتنبى ، حينما استعمل هذا الحرف مكسورا ، فقال فى مطلع قصيدة :

يا زمـــان اتئـــد الى كم تـــرزى	جـــد وجـــدى وانت بى متهـــزئ

وكما تقدم وقع فى هذا الثقل ، الشاعر ابن زاكـــور ، فى قصيـــدة

تعـــززت بـــــذى العـــــز	مـــــن الشيطـــــان ذى الاز

توفى عام 1331 .

ومن هؤلاء العالم المشارك والاديب المتفنن مولاى احمد بن المامون البلغيثى .

ولد هذا العالم فى العقد الثامن من القرن الفارط ، وتوفى عام 1348، بعد ما قضى حياة مليئة بالنشاط العلمى والادبى ، وكان من العلماء الذين

لا ينكفون بجدران بلادهم ، بل كان طلعة الى الخارج ولهذا نجد له ترجمة حافلة فى كتاب تونسى « هو شجرة النور الزكية » لمؤلفه محمد بن حمد مخلوف ، ورد فيها وصفه بسلطان النجباء وسحبان الادباء ، العلامة المؤلف المطلع المفضال ،، الى أن قال : اقتبسنا من لطيف حديثه وجزالة عبارته فوائد جمة ،،، رحل للمشرق مرات ثلاثا . (1) وله فى رحلته للحجاز تاليف نظما (وهو جديد بأدبنا) وهــذه الرحلة طبعت منــذ ستين سنــة . ومن كتبه المطبوعة شرح أرجوزة العربى المستاوى فى آداب المتعلم والعالم ، سماه « شرح الابتهاج بنور السراج » وهو فى مجلد ضخم فيه كثير من الاستطرادات والفوائد المتنوعة ، وآراء له عديدة فيه ، كرأيه فى الغناء والموسيقى وأثرها على النفس وقال فيه المترجم المذكور « أنبأ عن غزارة مادة وقريحة حادة ومنزلة سامية فى علم الادب .

وله ديوان شعر فى جزأين ما زال مخطوطا ، منه نسخة بالخزانــة العامــة بالرباط ، يضم موضوعات شتى ، وجلها تقليدى ، من غزل ورثاء ومــن شعره فى اباء النفس :

اغالى بنفسى أن تســام بوقفــة	بباب ولو بــاب الاميــر المحجب
أرى كل مجــدود بحظ من الغنى	فقيرا حقيرا لا يقــوم بمطلــب
ابت همتى الا المعــالى دائمــا	وراثة نفس مــن جدود ومن أب
فان عن فى نهــج المناصب ذلــة	تنكبت ذاك النهج حفظا لمنصبــى
فتاتى المعالى نحو بابــى سريعة	وأدرك منها وفق قصــدى ومطلبى
اذا لم تكن نفس الشريف شريفة	فما شرف الاجداد عندى بنيسبــى

وهذا الموضوع قليلا ما طرق فى شعرنا خاصة وفى أدبنا عامة ، وهو نابع من شخصية صاحبه ، الشريف النقيب ابن نقيب الاشراف بفاس .
ومن شعره الرصين قوله من قصيدة :

مــا نظمت القريض أبغى به الفخــ	ــر ولا سائــلا فضول نــوال
شغلتنــى عنــه العلوم ولــم أر	ض أسمــى بشاعــر ســوال
انمــا قلت ما نظمت من الشعــ	ــر ولــوعا ورغبــة فى الكمــال

1) وقد اكتسب شهرة فيه ، خصوصا بين المصريين .

ان اتانــى للخــوض فيه رجــال كنت تاجا علــى رؤوس الرجــال
او بــدا لى الاديب يومــا بقول يــر منــى محيــر الاقــــوال
أو تشوفت للحبيــب تــرانـــى مظهــرا حبــه بسحــر حــلال
ليس نظم القريض بالحبر عيبــا بــل كمــالا مكمــلا للمعــالــى
انمــا العيب أن ترى شاعرا خلـــوا من الفضل والعلوم العوالى

وكان هذا القريض عام 1312 ورحم الله أديبنا العالم ، فانه مــا استطاع ان يتخلص من الفخر حتى فى الابيات التى نفاه فيها عن نفسه ، فقــال كمــا رأينــا :

ان اتانــى للخوض فيه رجــال كنت تــاجا علــى رؤوس الرجال
أو بدا لــى الاديب يــوما بقول يــر منــى محيـــر الاقـــوال

والفخر من شيم أهل فاس ، سواء منهم القديم والمعاصر ، ومن هو مقيم بها ومهاجر ، فمن المعاصرين عبد الله الفاسى وعلال الفاسى ومحمد القرى وعبد الاحد الكتانى .

ومن شعره ايضا قصيدة رائعة قرظ بها كتاب الاستقصا لاول طبعته بمصر ، استهلهــا بقوله :

أخبار أهل الهوى ما زال يرويها أخبار كاس رحيق الراى يرويهــا
حتى اذا سمــع العشاق مخبرها هامــوا وقامــوا بألحان يرويهــا
لكنهم أبدا فى الدهر ما سمعــوا ما نالنى فى هوى فــرد أفديهــا
خود بها الصب قد لذ العذاب له لما غدا وهو مطــروح بناديهــا
يرجو رضاها ولم تسمح بوصلته وبالتذلــل والشكــوى ينــاديهــا
قد استرقته فى شرع الغرام وما رقت لما به من نــار يقاسيهـــا
حتى استبان لها انى على تلــف وان ما بى منهــا ليس تمويهــا
جاءت الى علــى فــور تعللنــى بالعطف من طلعة سبحان باريهــا
فاتحفتنى بحتف الرمز من مقــل السيف حاجبها والحسن كاسيها
ان أومأت بلحاظ جرحت كبــدى أو أعرضت بلغت روحى تراقيها (1)

---

1) كأنه ينظر الى قوله :

ويلاه ان نظرت وان هى أعرضــت وقــع السهــام ونزعهــن اليــم

لقد كان مولاى احمد ــ رحمه الله ــ عالى الهمة لا يطئطىء راسه للواقع الذى كان يحياه ، وكان افقه واسعا ، فى نظرته الى عالم الاسلام، وسجل ذلك كله فى اشعاره ومنظوماته ، فمن ابائه قوله ، وقد طلب منه مدح رئيس الجمهورية الفرنسية :

فان يك غيــرى أرسل المدح خفية ... فان الذى قدمت مدحى له جهــرا
كتبته فى جذع مــن النخل باســق ... وقلت له (ذا فيك مدحى) فقل شكرا

وشعر هذا الاديب فيه كثير من هذه التوريات اللاذعة نعثر عليهــا بديوانه ، الذى عزم بعض الاساتذة من طلبتنا على اخراجه ، ووضــع دراسة عليه (1) وهو قمين بذلك كله ، لما فيه من ثراء فى صراحته بالاضافة الى تلك التوريات التى يتحدث بها صاحبها عن نفسه ، وبعض مواقفـــه وقلما نظفر بذلك من غيره ، لانه بقوة شخصيته كان مطمئنا الى نفسه ، يتحدث عن نواحيها المترامية ، فى دروسه لطلبته ، وفى مجالسه مع اصدقائه ويسجل بعضها فى ديوان شعره

أما رحلته المنظومة فبالرغم من جفاف السرد الذى يسودها ، تحتفظ بجدتها (كما قلنا) وتقع فى 565 بيت من الرجز .

ومن الادباء الذين ظهروا بالتجديد بعد العهد الحسنى الزاهر الفقيه الاديب ابو العباس احمد السكيرج المولود بفاس عام 1295 وقد عاصر العهود الاربعة بعد المولى الحسن . ومن شعره ما اختاره صاحب الادب العربى فى المغرب الاقصى له وهو عبارة عن ثلاث قصائد يخاطب باحداها الاغنياء يستحثهم على التعلم فيقول فى مطلعها :

من الاغنيا أستنهض الهم والهمــم ... ليقتطفوا العلم الذى شــرف الامم
فهذا زمان العلم فيــه تقــدمت ... ذووه وفيه الجهــل مضطرب القدم
وعار على مــن فيه أهليــة لــه ... وعن نتل حظ منه لم يحظ بالقسم
فالبعلم تنويــر الصــدور فلم تقف ... بكل صدور او ورود مــع الظلم
وبالعلم تدبيــر الامــور لاهلهــا ... محكمة الاحكام فى الحكم والحكم
وبالعلم تسخيــر البحور فسيرت ... بها سفن لم تخش موجا لهاالصطدم

1) أعنى الاستاذ امحمد العلمى ، وقد اخبرنى اخيرا انه نجح فى عمله بدرجة « حسن »

وبالعلم سار الطائرون الى العلى مع الطير حتى زاحموا النسر والرخم

وعلى جدتها فأسلوبها متخلف متضعضع

وهذه أخرى في الاتحاد والاقبال على التعليم يستهلها بقوله :

دعوا الافكار سالمة اعتقاد ولا تشقوا بأقبح الانتقاد
فكم من فتنة في الناس كانت بسوء الانتقاد للاعتقاد

الى أن يقول :

فان أنتم تعلمتم جميعا فقد فزتم جميعا بالمراد
وحصلتم على سر التآخي وتم لكم مقام الاتحاد

وهي في أسلوبها متواضعة كذلك .

والاخيرة يدعو بني الوطن الى العلياء والتعليم والاتحاد ويستهلها بقوله :

الا زاحموا أهل العلى بالمناكب ولا تقعدوا من بعد نيل المراتب
فمن طلب العليا بعزم ينالها وذو الحزم فيما يبتغي غير خائب

الى أن يقول :

وشدوا حبال العلم بين جموعكم بغير انفصال في اتحاد الرغائب
وان طريق الاتحاد لاهله طريق وفاق مع خلاف المشارب
قد اتحدوا فيما يعم انتفاعه وما لم يعم النفع احدى النوائب
ولا تدعوا حسن اتحاد قلوبكم بعارض أغراض لكل مشاغب
دعوا الناس مع أفكارهم واعتقادهم وما انتحلوه من جميع المذاهب

وهذه لهجة عجيبة بالبيت الاخير ، صادرة عن ذلك العالم القاضي ، وكأنها لهجة اليوم من الذين يتحررون ويريدون أن يتركوا غيرهم احرارا في افكارهم واعتقادهم

ومن هؤلاء المجددين الاديب أبو العباس احمد الصبيحي السلاوي المولود عام 1300 ، وهو معاصر لسابقه . ومن شعره قوله :

بني الاوطان هبوا من رقاد وجدوا في المعاش وفي المعاد

الى الديـــن القويم اخ المعالـــى   الـــى العلـــم المبلـــغ للـــرشـــاد

ويقول آخـــر الابيـــات :

وسيـــروا فى مراقـــى العز عزما   لكيمـــا تبلغـــوا اقصـــى المـــراد

ويبدو انه كان مقلا فى شعره ، وأطول مقطوعة له اتى بها صاحب الكتاب المذكور ، نونية فى تقريظ كتاب عبير الآس من تاريـــخ مكنـــاس ، والظاهرة العامة على شعره فقر الخيل فيه ، فهو مثـــلا يقـــول فى ذلك التقـــريظ :

عرج على مكنـــاســـة الزيتـــون   متيمنـــا بالتيـــن والـــزيتـــون

وانخ مطيك حيث منطلق الهـــوى   يشفى الجـــوى والجسم بالتعيين

حيى المـيـــاه الدافقـــات تـــرقرت   وجرت بأودية لهـــا وعيـــون

حيث البساتين الكثيفـــات التـــى   كالغـــاب تحسبهـــا بـــلا تخميـــن

حيث الزيـاتيـــن الكثيـــرات التـــى   لا حـــد يدركهـــا الـــى زرهـــون

ومن الادباء الذين عاصروا عهد مولاى الحسن ومن خلفه من ابنائـــه وظهر فى أدبهم صدى الحضارة ، عبد الله بن عبد السلام الفاسى فألف فى السنة التى توفى فيها المولى الحسن رسالة ضمنها رحلات السلطـــان التى انتهى فيها للاقاليم الصحراوية ، ونال بها حظوة فى الدولة ، استمـــر يتمتع بها فى القابل من السنوات ، فكان من رجالها الكتاب الكبار المستشارين فيها ، واستمر على ذلك فى العهود الاربعة التى تلت العهد الحسنى .

ومن شعره قصيدة رائية ، كانت منبثقة عن العهد الذى فرضت فيه الحماية الاوربية ، وهى فى المدنية الحق ، كما عنونت فى كتاب الادب العربى فى المغرب الاقصى ، يقول فيها :

ان التمدن ان يقصده منتبـــــه   فحول من يكسب العليا لمن سهرا

وينهض الوطن المحبوب عن عجل   بهمة لا ترى بطئـــا ولا ضجـــرا

بهمـــة فى علوم جـــل مـــوقعهـــا   وكانت المركز الاقـــوى لمن سبرا

ان التمدن مـــا الاسلام لايمـــه   وقـــوم الفكر العوجـــاء فانتصرا

ان التمـــدن من يجنيه قد شرفت   منه المبادى فحاز القصد والوطرا



حسن السلوك بتهذيب وتربيـــة — وحب علم أبـــاد الجهل فاندثـــرا
وحب عدل له الاعناق قد خضعت — مع اتحاد ينيل النصر والظفـــرا
هذا التمدن حقـــا ان عنيت بـــه — لا غيره فاترك الاوهـــام والخـــورا
ليس التمدن مـــا يلهيك عن عمل — يرقى البلاد ويعلى الفكـــر والنظرا
ليس التمدن بالتزويـــق مسخـــرة — ان التمـــدن مـــا أولاك مفتخـــرا
ليس التمـــدن فى عيب الذين مضوا — بل التمـــدن في اجلال من غبـــرا
ليس التمدن مـــا تهواه من بـــدع — وما له شرعنـــا والله قد حظرا
ليس التمدن ما ان شمتـــه برزت — لك الخلاعـــة فى أرجائه قمـــرا

الـــى أن يقـــول :

فضيلة السبق حازوهـــا تمدنهـــم — منهـــا التمدن قدما ذاع وانتشرا

ثم يقول مخطبا أبنائه :

فابـــغ التوسط لا تصبو الى شطط — وانظر الى القول لا من لام أو عذرا
والبس لكـــل زمان حـــل حلتـــه — فالشهم من يعرف الادوار والعصرا
ترى المناصب والغايـــات يدركهـــا — ذوو اقتدار وأنت الطرد والكدرا

هذه قصيدة تمثل الجديد فى أدبنا سواء ما ورد فيها من أفكار وما تردد فيها من الفاظ وعبارات لـــم يكـــن لأدبنا سابق عهـــد بها فيما قبـــل . وكان صاحبها على اتصال بما يروج فى الشرق العربى من كتب جديدة ومجلات وصحـــف .

ومن هذا القبيل لامية عجيبة فى عصرها عنونها بلامية النصائـــح يقـــول فيهـــا :

هذى المناطـــد فـــوق الجو تنشدنا — هذى المآثر والآثـــار فى الـــدول
هذى المراكب تطوى الارض تتحفنا — قرب المزار ويمـــن السيـــر والنقل
هذا القطار يخد الارض ممتطيـــا — متن البسيطة فى سهل وفى جبل
هذى الجسور تقى من كل نائبـــة — هذى الملاجىء فيها راحة النـــزل
هذا التمدن هذا الفضل فاعن به — ليس التمـــدن بالالحـــان والغـــزل

فلا شـــك أن هذه « المناطـــد » جاءته من قول الشاعـــر الشرقى : « به صيروا المنطاد فى كبد السما » .

وكان من هؤلاء الاديب محمد بن المفضل غريط ، صاحب كتاب « فواصل الجمان » والمولود عام 1298 ، وبهذا يكون قد عاصر العهود الاربعة ، بعد العهد الحسنى ، وشارك فى عدة انشطة حكومية وهو من اصحاب النثر والنظم ، فمن نثره قوله فى مفتتح مقدمة كتابه الفواصل :

ان انفس ما تتوجت به عقائل الوسائل ، وتبرجت به صور الكتب والرسائل ، ولهج به لسان المتذلل السائل ، العظيم الفضل السائل ، حمد من أمتع أحداق العقول ، فى حدائق النقول ، وأودع راحة الملول ، من معناة الدال والمدلول ، وابانة « الصحيح » و « المعلول » ، فى استجلاء مخدرات النوادر ، ومبتكرات الخواطر ، فترشف من ريقهـــا المعسول ، كؤوس الشمول ، واستنشق من ردنها المسدول ، ارج القبول ، اذا جرت على البطـح الذيول ، فأصبح فكره كعين الديك صفاء وزهـــوه كوعـــد الكريم وفاء ، ليس « بمصروف » ولا « بمعدول » ، ولا فى مضمار المساجلة بمخـــذول .

وبهذا نرى السجع مطلوبا له وان لم يات بجديد فائدة ، بل ربما حصل به ملل التكرار ، وقد شرح سبع كلمات بتعليقه على كلماتها الغامضة أو الغريبة - وهى ازدحامها تجعل سياقها منحبس النفس ، ضيق الصدر ، حرجه ، خصوصا فى الجنسات الفترة فى نحو « تتوجت » مع « تبرجت » ثم « الوسائل » مع « الرسائل » و « السائل » مع « السائل » ثم المصطلحات العلمية المختلفة .

ومن الطريف فى مقدمته قوله :

رأيت الادب والتاريخ آخذين حظهما من الاحتفاء .. بتخلص الشبيبة العصرية الناهضة ، من ربقة تقليد العوائد ، وتجردهم لتحصيل ما يعـــود بالفوائد ، وجزمهم بأن الادب ملبس جمال ... »

وهذه نغمة جديدة تبدو فى أدبنا ، لاول وهلة وستكون لها أبعـــاد واصراء فى النماذج الادبية التى ستواجهنا .

أما شعره فنجد فيه من ذلك قوله يخاطب الشباب فى مقدمة كتابه :

يا شباب العصر نلتم عروة الفخر الوثيقة
ولكم مستقبل تبـ ـدو به شمس الحقيقة
ويرى من كان حر الـ ـفكر محمود الطريقة
وينال الوصال من كا نت له العليا عشيقة
هـذه تحفـة ود غضة الحسن أنيقة
ضمنت رائق أخبا ر وأشعار رشيقة
فاجعلوها للذى الـ ـف فى العصر رفيقة

وكذا نجد له نشيدا مدرسيا ، ربما كان أول نشيد عرفته مدارسنا ؛ يسهله بقوله :

يابنى العصر أجيبوا داعى النصح المنيـر
واستجدوا كل قطـر كان ذا صيت شهيـر
كـان للقطـر جمال وابتهـاج وكمـال
وازدهاء واحتفـال لـم يضق فيه مجال
اذ بأهل العام صال وبهـم فخره طـال
برجال قـد أنيلـوا منـة المولى القديـر
يابنى العصر أجيبوا الخ ...
جددوا للغرب مجـدا واركبوا كـدا وجـدا
واقدحوا للعلم زندا والبسوا الحزم بردا
وابتغوا هديا ورشدا تسمعوا شكرا وحمدا
وتروا رعيا جميـلا من ذوى القدر الخطير
يا بنى العصر الخ ...
خالفوا أمر النفـوس لا تملوا مـن دروس
واحرسوهامن دروس فهى للعقـل شموس
وهى للفكـر غروس تتراءى مـن طروس
وبحسن الظن تعطى عون ذى الملك النصير
يابنى العصر ....

فهذه محاولة ، لنظم الاناشيد المدرسية ، ولا شك أن ناظمها تعمـد البساطة فيها ، لتدركها أفهام الصغار من التلاميذ ، وان كـان فى بعض

تعابيرها ، ياتى بما هو بعيد عن مستوياتهم وعقلياتهم .

ومن شعره قوله ، من قصيدة يرثى بها عبد السلام العلوى السالف الـذكـر :

نغـالط بالآمـال والحكم واجب	ونستمهل الامهال والعمـر ذاهب
ولـولا امانينـا وحجب نفوسنـا	عن الغيب ما لذت لدينـا مشارب
حيارى فلا ندرى بيـوم انتقالنـا	كما ضل بين النجح واليأس هائب
وما الحـى الا طعمـة لمنيـة	براثنهـا لم ينج منهـن هـارب
فبينـا تـراه ايـدا متمـاسكـا	اذا به منحـل العزيمـة شازب
واى محب لـم تنلـه كـريهـة	واى زمـان ليس فيـه مصائـب
كأن بنى الانسان بل كل محـدث	علـى لجنـة الايام طاف وراسب
هو الموت ــ جل الله قاهر خلقه	يروع من ذكراه ضـار وضـارب
فاين الملوك الصيد اين عـديدهم	وايـن القصور الشم اين المواكب
واين أباة الضيم ايـن اقتـدارهم	واين بناة المجـد ايـن المناصـب
وايـن بنـو الآداب ايـن سراتهم	وايـن رجال الشعر اين الحبائب
وأين ذوو الاقلام ايـن خيـارهم	واين ذوو الاحلام اين العصائب
محاهم من سفر الوجـود معيدهم	لاصل الثـرى والفرع للاصل آيب
وأعظم رزء تشتكـى النفس حره	نـوى من اليه تدنى وتناسـب
خليلى امـا الصبر عنك فخائـن	وامـا فؤادى فهـو بالوجد ذائب

الى آخـر القصيدة التى تحتوى على أربعين بيتا .

ومن هؤلاء الذين حاولوا التجديد فى ادبهم الاديب ابو عبد الله محمد بو عشرين ، المولود بالمدينة المنورة ، عام 1297 قبل ميلاد غريط بسنة واحدة ، فنشأ بها نشأته الاولى ثم عادت اسرته الى المغرب ، فتولـى وظائف فى العهد العزيزى ثم الحفيظى ثم اليوسفى فالمحمدى (وكان ذلك فى مختلف العواصم المغربية ثم أولاد جامع) .

ومن شعره مناظرة بين الضوء والماء وكانت فاس قد عرفت الكهرباء لذلك العهد يقول فيها :

المـاء والضوء فى فاس قد اجتمعا	فماثلا حسنهـا باللطف والشنـب

ومن طبيعة حال العنصرين بدت ... تعلوهما غيرة من غير ما سبب
قد سبح الماء فى أنبوبه سحرا ... فقطب الضوء كالمزور من غضب
فقهقه الماء اعجابا وقال له ... كاد الصباح يضىء الكون فاحتجب
اجابه الضوء يامهذار ويحك قد ... نطقت بالسوء عن طيش ولم تصب
يابارد الطبع قد جبت الفدافد من ... خبث الطوية مجبولا على نصب
اما علمت بأن الكهرباء سمت ... ونال صانعها فوزا بمنتخب
فولول الماء تنكيتا وقال لقد ... فخرت باللؤم والتدليس والكذب
الكهرباء أراها قوة جبلت ... على الحرائق والاسراف والعطب
حديثة الشكل فى العصر الاخير وهل ... يخفى الوضيع على ما نال من حسب
فى سائغ الماء انعاش الفؤاد بما ... اوتيه من لذة جلت عن الضرب
فأعرض الضوء تيها ثم قال له ... زعمت بالزور والبهتان والغصب
تاريخ واقعة الطوفان اخبر عن ... حال السفينة فى الاخطار والرهب
والسيل من عرم كان الهلاك به ... وكم بجورك قد افسدت من نشب
الست ماء غمام جاد وابله ... فان جرى طاب او لم يجر لم يطب
فخرخر الماء من غيظ وقال له ... ان العقوق دليل الطعن فى النسب
هل انت الا رضيع الماء حاسده ... مكفوله الخائن المصحوب باللهب
تبا لنساك ان الله أبرزنى ... ماء الحياة كما فى أصدق الكتب
اقمت للدين والدنيا شعارهما ... من الفرائض والارزاق والارب
الماء فيه صلاح العالمين وكم ... فى ذوقه العذب من طيب ومن حبب
هلا سمعت بعرس قال شاعره ... زوج ابن سحاب بابنة العنب
فأظلم الضوء ارهابا وقال لقد ... جهلت فضلى وكم فى الجهل من وصب
ضوء الزيوت وضوء الشمع قد محيا ... من آية الايل اذ اشرقت عن حجبى
وقد جعلت مصابيح المعالم عن ... رغم المعاند اقمارا بلا سحب
أما رأيت عقود النور لامعة ... نبراسها يزدهى بالانجم الشهب
الكهرباء بأرباب القصور غدت ... مكفولة أبدا منهم بخير أب

وبعد ما يرد عليه الماء حجته يذعن الضوء اجلالا لوالده الماء لانه مولد منه بالكهرباء ، وينتصر الماء عليه فى النهاية .

فالضوء الذى يعينه الشاعر ، هو ضوء المصابيح الكهربائية . ومن هنا كان توهين ضوء الزيوت والشمع كما قال ، والمهم ان هذه المناظرة كانت استجابة لما حدث بالمغرب ، او فاس حيث كان يسكنها الشاعر أخيرا .

وفى هذا العهد كان العالم الحافظ المتفنن ، أشتاذ جيله فى العدوتين ، المدنى بن الحسنى ، الذى لا تفى بحقه الصفحات العديدة ، والاقلام المتشابكة ، فهو الى جانب دروسه العلمية والاصلاحية ، كانت له صيحات شعرية فى كل مناسبة من المناسبات التى كان يستغلها المصلحون لبث دعواتهم الى الاصلاح الاجتماعى والدينى والاقبال على التعليم لرفع شأن البلاد والعباد فمن ذلك قوله من قصيدة ، القاها على تلاميذ مدرسة فى احدى الاحتفالات المقامة بها :

بنى قومى افيقوا من منام	وجدوا فى المعالى باهتمام
فما نيل المعالى بالتوانى	ولكن بالعزيمة والنظام
لقد كنا وكان العرب قدما	هداة الحق من سام وحام
اناروا الكون والاقطار طرا	بهدى لاح فجرا فى ظلام
وكنا حائزى قصبات سبق	بميدان المكارم فى الزحام
لقد سادوا وساسوا الملك دهرا	بمصر والعراق مع الشآم
واندلس ومغربنا وصين	وسودان وهند باعتزام
فسل فاسا وقرطبة ومصرا	تنبك أو فسل دار السلام
وسل غرناطة الحمرا وشاما	وتونس حيث تونس بالمرام
وفاز الغرب بالقدح المعلى	اذ استبق الجميع الى السهام
فطارق قد بدا علما تسامى	بحد سنانه وظبا الحسام
قد أعترفت شعوب الارض طرا	بفضل من مآثره الجسام
وحاز لسان صدق فى البرايا	تضوع نشره بعد الرجام

الى آخر القصيدة ، التى استعان فيها ببيت شوقى :

فما نيل المطالب بالتمنى	ولكن توخذ الدنيا غلابا

كما انها يشفع لما بها من تكرار وانشطار ، كونها

القيت لهذه الناشئة المدرسية ، كخطبة حماسية تبعث فيها الاعتزاز بالقومية العربية الاسلامية ، وتذكرهم بالماضى المجيد ، الذى فاز به القوم بكل حميد من الافعال والاقوال ، فاتحين وهادين فى مشارق الارض ومغاربها ، فكان المغرب سباقا الى المكارم ، يتقدم الصفوف فى كل الميادين .

ومنهم الكاتب الشاعر الماهر ، محمد بوجندار ، المولود بالرباط عام 1307 والمتوفى عن نيف وثلاثين ، عام 1345 .

ومن شعره : ما وجهه الى الدار البيضاء وتحية أصدقاء أدباء يخاطبها ؛ فيقول :

صدق الذى سماك بالبيضاء ... من اجل ما لك من يد بيضاء

الى ان يقول فى وصفها :

ذات الحضارة والنضارة والتجا ... رة والعمارة من بنى حواء
ذات المعانى والمغانى والغوا ... نى والاغانى من لذيذ غناء
حياك ثغر الانس من بلد تبا ... هت بالمبانى الضخمة الشماء

ثم يخاطب ساكنيها :

يا ساكنى البيضاء قلبى عندكم ... كوديعة يا ساكنى البيضاء
فمتى يعود الدهر يسمح باللقا ... رغما عن العذال والرقباء

الى قوله :

ورعى الاله زيارتى لمنازل ... ومنازه كمنازه الزوراء
دارت كدارات الاهلة دورها ... وتشيدت فى هامة العلياء
طالت فطاولت السما بسموها ... حتى تملت صهوة الجوزاء
فكانما رفعت على عمد من النـ ... ـورين نور سنى ونور سناء
تهوى الثريا والنجوم الزهر ان ... يطلعن فيها لا بأفق سماء

وهى طويلة يختمها بقوله :

سقيا له من معهد بل مشهد ... بل مقعد بل روضة غنناء

بـل منـزه زاه وقصـر زاهـر	ينسيك قصـر التـاج والزهراء
منـى عليك فى الختـام تحيـة	تغشـاه بالانـوار والانـواء
ما قلت فى البيضـاء لمـازرتهـا	« صدق الذى سماك بالبيضاء »

وهكذا ختم القصيدة بما بدأها به ، وهو تقليد تقدم نحـوه لادريس العمراوى والمختار المسفيوى . والملاحظ أن الشاعر ينساق الى أجـراس الكلمات وتشابه أوزانها « الحضارة والنضارة والتجـارة والعمـارة » و « المعانى والمغانى والاغانى » و « زيارتى لمنـازل ومنازه كمنـازه » و « طالت فطاولت السما بسموها) و « نور سنى ونور سناء » و « معهد بل مشهد بل مقعد بل روضة » و « بل منزه زاه وقصـر زاهـر » و « الانوار والانواء » ويكرر فى هذا السياق ، وفيما عدا ذلك فالقصيدة يسرى فيها روح الشعر ويجرى فى جداولها ماء الخيال ، بخلاف قصيدة الصبيحى فى وصف مكناس .

وما لاحظناه نجده كذلك ، فى قصيدة افتتحها بقوله :

يـا ليلـة أمرهـا عجيـب	بالرغـم عـن هجمة الرقيب
نلت بهـا غايـة الامـانـى	حتـى زمـانـى غدا يطيب

وفيهـا نجـد :

طالت وطابـت واسفرت عن	حسـن وانس وخيـر طيـب
ليلـة بـدر وكـل بـدر	طلـع فيهـا فلـن يغيـب
كنـا بهـا والحسود خـاف	وغافـل زورة الحبيـب
فنـم طيـب الحبيب عنـا	والطيب كـم نـم عن حبيب
ولم نـزل نحـن بين كـاس	وغصـن آس ولا رقيـب
سفـرن صبحا ولحـن بدرا	ثـم تلفتـن كالـربيـب
جبيـن نـور وثغـر نـور	يفتـر عـن لـؤلـؤ رطيب
طـرة مسـك وخـد ورد	نكهـة عطـر وريح طيـب
لحظ مهـاة وجيـد ريـح	وقـد رمح حتـى القضيب
وكـم جمـال وكـم كمـال	يعجـز عن وصفـه الاديب

في ليلـــة البـــدر قـــد تجلى   « يـــا ليلـــة أمرهـــا عجيب»

ففي هذا الاعتماد على أجراس الكلمات وأوزانها في وصفها ، ثم الختام بما بدأ به والقصيدة تذكرنا بأبيات الحباك . خضرة آس وجمع ناس .

والحق أن بوجندار من الشعراء المطبوعين لعهده . وقصيدته السينية التي وجهها لاستاذه الحافظ شعيب الدكالي لا يتنفس بها الا ذوو الانفاس الزكية (1) .

وهذا محمد الجزولي الرباطي ، المولود عام 1307 نجده في مقدمة هؤلاء الشعراء ، ومن شعره نونية نحو المائة بيت يقول فيها :

وان السر في التشـــريـــع سيـــف   تصـــان بـــه حقـــوق القاصرينا
وان البغـــي مصـــرعـــه وخيـــم   وان الظلـــم يخلي الدور حينـــا
وان الـــديـــن عنـــد اللـــه قـــول   وفعـــل لا كرقص الـــراقصينـــا
ولا نهس اللحوم ولا بشـــدخ الـــ   ـــرؤوس ولا بشرب الما سخينـــا
وان الذكـــر ليـــس بقـــرع طبـــل   ومزمـــار عـــلا ذقنـــا لعينـــا
وان الديـــن مـــن هـــذا بـــراء   وان اللـــه يخـــزي المـــدعينـــا

والقصيدة على نمط نونية عمرو بن كلثوم ، يتجلى هـــذا قـــويا في نحـــو قولـــه :

فنحـــن القاسمـــون اذا غضبنـــا   ونحـــن القاسمـــون اذا رضينـــا

وفيها من تضمين لما سبق به في قوله :

« وان البغـــي مصرعه وخيـــم » وهو « والظلم مرتعـــه وخيـــم » من القصيدة الشهيرة :

يابـــــدر والامثـــــال يضـــــ   ـــربها لـــذي اللـــب الحكيـــــم

ولعل « مصرعه » محرف عن « مرتعه » وهو الاوفق لوخيم .

ومن شعره دالية في انتصارات الاتراك بالحرب البلقانية وكان هؤلاء قد احتلوا « ازمير » واستعدوا للاستيلاء على « الاناضول » . فشن عليهم

1) من آثاره الادبية تأليفه في تاريخ الرباط « مقدمة الفتح من تاريخ رباط الفتح » .

مصطفى هجوما كاسحا وطردهم من جوار « الاناضول » وغيرها ، فقال شاعرنا الجزولى من قصيدة :

ضراغمة الاسلام ارعبتـم العـدا   وأسخطتـم شيخـا وراهم ترصدا
صددتم بكف الحزم صدمة جيشهم   وأصليتم سيفا صقيـلا مهنـدا
طعنتم به اليونان فى القلب طعنة   تداعى لها من جيشهم مـا تشيدا

وهى طويلة اختتمها بالتوجه الى القائد مصطفى كمال (وهو أتاترك بعد) بقولـه :

أيا مصطفى من بين صفوة قومه   ويا منقذ الاوطان من قبضة العدا
ويا بطل الاسلام يا حاقن الدمـا   بسيفك دماء من على الوطن أعتدى
ليهنك ان قد قمت فردا بحمل ما   به ناء ذو تاج فصـار مقيـدا
ومن عدم أبـرزت جيشا وقـوة   سحقت بها جيشا وأرهبت من عدا
سحقت بقسطنطين عرش جلالـة   وأشقيته مـن بعد ما كان أسعدا
وأضحكت ثغر الشرق بعد تجهـم   وأنسيته مـن همـه ما تكبـدا
سيذكره التاريخ ذكـرا مخلـدا   وحسبك مجدا أن تكون مخلـدا
ليهنكم يا أمـة التـرك عـزكم   اذا ما نأى عمن الى الذل اخلـدا
وحسبكم منـى الدعـاء بنصركم   أمد به عند افتخارى بكـم يـدا

وهى قصيدة كذلك فيها طابع القديم ، كما يقوى هـذا فى البيت ، مخاطبا اليونان :

وما الحـرب الا ما رايتم وذقتـم   ومـا ذقتموه اليـوم تلقونه غدا

فالشطرة الاولى من معلقة زهير لم يغير منها الا علمتم ، فجعلـه رايتم ، ومطلع القصيدة على تيرة قول ابن الخطيب :

« أيا مصطفى من قبل نشأة آدم » .

وله من صيحاته الوطنية قصيدة تختلف عنها فى جدتها يقول فيها :

يا أمة رقـدت فى كهف غفلتهـا   متـى يهب من الاحداق غافيهـا
طـال المنام بكم حتـى تقدمكـم   مـن كان قبل ضعيف الحال واهيها

قوموا اسلكوا الارض وامشوا فى مناكبهـا
ثم انظروا كيف صارت حال مـن فيهـا
قومـوا انظـروا القوم فى أسمى تقدمهم
قـد مهـدوا الارض قاصيهـا ودانيهـا

وشاركوا الطير فى اعلى مسابحها ... واقلقوا الحوت فى اقصى مجاريها
جرى البخار بهم كالبـرق مؤتلقا ... بأمرهم ينشر البيـدا ويطـويهـا
واوجـدوا من عجيب الكهرباء سنا ... وقـوة خفيت عنكـم مـآتيهـا
فى كل يوم تروا منهم عجـائب لا ... ينفك حاضرها يزرى بمـاضيهـا
اليس هم بشرافى الارض مثلكـم ... وانتم قبلهـم كنتـم مـواليهـا

الـى ان يقـول :

العلم قدمهـم والجهـل اخركـم ... حتى نأى شقـة شسع فيافيهـا
ترى مدارسهم مثل المعامـل فـى ... سبك العقول وفى تثقيف ناميهـا
صاروا بهـا قادة الافكار وامتلكوا ... بهاالعروش التى اندكت صياصيها

ويختم القصيدة بقولـه :

فيا رعـى الله اياما لنـا سلفت ... تبكـى معاهدها حـزنا ونبكيهـا
كانت دمشق وبغـداد وقرطبـة ... مـن كل فج وفود العلم تاتيهـا
فلم نحافظ على ذلك التراث ولا ... على مآثـر شادتهـا بأيديهـا
لما فشت بـدع لم تروهـا كتب ... لهـا ولا سنن تروى دعاويهـا
مـا انـزل الله سلطانا بها ابدا ... ولا نبـى بمأثـور يـزكيهـا
قد سودت من جبيـن الدين غرته ... وسربلتـه رداء مـن مخـازيها
يا قوم ان طريق الدين واحـدة ... ولن يضـل الذى يمشى بواديهـا
سيروا على نهجها نهج الصحاب ومن ... شادوا بعزمهم اسمـى مبانيهـا
لتجعلوا فى طريق العلم سيرتكـم ... صفـو مناهلها خصب مـراعيهـا
هذى نصيحـة مفتـون بحبكـم ... والله يعلم مـن نفسى امانيهـا

(ومطلعها يذكرنا بقول المتنبى : يا أمة ضحكت من جهلهـا الامـم
يخاطب بها اهل مصر بعد قوله : اغاية الدين ان تحفى شواربكم ؟)

وهكذا نجده يدعو الى التعلم والتشبث بأهداب الدين الاصيلة وطرح ما عداها ·

ويلاحظ عليه أنه حذف النون فى « تروا » وهو مسموع كثيـــرا والبيت بعده ينظر الى قول الحماسى :

القـــوم امثالكـــم لهـــم شعـــــر ‏ ‏ ‏ ‏ فى الراس لا ينـــشرون إن قتلـــوا

ومن الاناشيد التى كنا نحفظها هذا النشيد ، الذى علمت اخيرا انه ناظمه (1) ، على طريقة الرباعيات أوله :

زمان المجـــد هل لك أن تعـــودا ‏ ‏ ‏ ‏ وتنشـــر فـــوق مغربنـــا بنـــودا
نمجـــد فى تحيتهـــا الجـــــدودا ‏ ‏ ‏ ‏ بـــآيـــات نخلـــدهـــا نشيـــــدا
عجيـــب أن ننــــام ولا نئـــــن ‏ ‏ ‏ ‏ ومنحـــرنـــا بـــه ظفـــر وســـن
ونصـــل فى الحشاشة مستكـــن ‏ ‏ ‏ ‏ ونحـــن فى مضاجعنـــا رقـــــودا

وكذا نجد من هذا القبيل اديبا كان من رواد هذا الجيل الذي تملـــى بتاريخ قومه واطلع على افاق أدبهم القديم ثم جدد فى دعوته ، وهو أبـــو العباس احمد النميشى الفاسى المولود بها عام 1308 ·

فمن شعره فيما تقدم ، هذه القصيدة التى يقول فيها :

العلـــم اجمـــل حليـــة الانســـان ‏ ‏ ‏ ‏ فاسعـــوا اليـــه معـــاشر الشبان
وردوا بشوق مترعـــات حياضــــه ‏ ‏ ‏ ‏ متسابقـــين تســـابـــق الظمـــآن
واسعـــوا باسراع لقطف ثمـــاره ‏ ‏ ‏ ‏ من قبل فوت الوقت والابـــــان
وتنافسوا فى نيـــل كـــل فضيلـــة ‏ ‏ ‏ ‏ وتشبثـــوا بأوامـــــر القـــــرآن

الـــى أن يقـــول :

فالديـــن أس صلاحنا ونجاحنـــا ‏ ‏ ‏ ‏ والدين اصـــل سعادة الاوطـــان

ويختمهـــا بقولـــه :

لكن فقـــد العاملين هـــو الـــذى ‏ ‏ ‏ ‏ أدى بنـــا لتـــواكـــل وتـــــوان
ومتـــى وجدنـــا عامـــلا فوجـــوده ‏ ‏ ‏ ‏ لرقينـــا اذ ذاك كالـــعـــنـــــوان

وهى قصيدة منظومة اكثر منها شعرا بديعا ، وكذا القول فى ميلادية

---

1) ومن شعره قصيدة رثى بها الصبيحى المذكور ، وهى دون المستوى الذى عليه باقى شعره.

له فهى عبارة عن سرد شمائل وذكر مواقف المسلمين بعد الرسول :

قفــا الخلفاء الراشدون سبيلــه ... وهاديهــم القرآن والسنــة الغرا

وساسوا رعايا هم بعــدل ورأفــة ... وشادوا قصور العز سامية الذرى

وجاء رجال بعدهم تبعوا الهوى ... وما فعلوا الا التقاطع والهجــرا

فآت أمــور المسلميــن لــذلــة ... ويسرهم قــد آل من بعد للعسرى

ومالت دراري مجــدهم لغروبهــا ... وكم طلعت فى أفق علياهم زهــرا

فواها علــى مجــد أضاعه قومه ... وكنز ثمين بددتــه يــد الاسرى

وهكذا نجد هذه الحسرة ، وان كنا لا ندرك سرا لاضافة اليد الى الاسرى ، اللهم الا أن يكون بالكسر وبالطويلة ترخيم اسراف ، وهذا النوع من الترخيم سماعى ، لا ينقاس ، كقول الشاعر : « ذم المنا ... » يريد المنازل

وعلى كل حال فان هذه اللهجة الاصلاحية وهذه الصرخة لم يكن لنا بها سابق عهد فى مولدياتنا التى كانت تفضى الى السلطان بدل أن توجه وتهيب الى الطريق المستقيم :

فيا أمــة الاسلام يا خيــر أمــة ... اليكم كتــاب الله قد أسند الخيرا

أما لكم عن مهيع الغــى متــرع ... فقد ذقتم مــن سوء فعلكم الصبرا

كفى الدهر فينــا واعظا ومذكرا ... اذا كان فينا من تنبهــه الذكــرى

والحقيقة أن الشعور بالعودة الى تعاليم الدين وسيلة من وسائــل الاصلاح الاجتماعى ، كان شعورا عاما يذكيه ويؤرثه علماء سلفيون كان فى مقدمتهم حفاظ الحديث وجهابذة التفسير ، كما سنرى فيما بعد ، وكذا نجد هذا التلهف يشتد ويفور خارج الحدود والاجناس وهذا فى الواقع كان صدى للتحول الجذرى الذى حصل فى كيان الامة ، بمواجهتها للخطر الاوربى من ناحية ، وبتلقيها لما ينبعث فى الشرق من ناحية أخرى . فكــان التوجس أولا (حتى فى العهد الحسنى الذى توجهت فيه البعثة العلميــة الى أروبا) وهو ما تقدم لنا عن صاحب الاستقصا ، حيث النفور حتــى من مد الخط الحديدى للقطار ، الذى عبر عنه ببابور البر ، كما هو معررف به فى مصر الآن بابدال الحرف اللاتينى وأول بدل الباء عندنا من كلمة البخار

1) وأبعد من هذا أن يكون بالثاء ، مفتوح الهمزة أو مكسورها مع الألف الطويلة ، كذلــك والجميــع متكلــف .

وكان النفور مما يجرى فى مصر والشام ، كما رأينا للمؤلــف المذكـــور ولكننا سرعان ما وجدنا هذا التوجس يتحول الى اقبال ، على ما كان يصدر عن هؤلاء الاوربيين من اختراعات برية وبحرية وجوية وكهربائية ، فصار هذا الاقبال يرفع عقيرته بالاشادة لمنافعها ، ثم الدعوة الى التعلم الــذى أفضى بهذه الامم الى هذه الاختراعات الباهرة ، التى تطالعنا ، كل يوم بجديد

فى كــل يوم تروا منهــم عجائب لا ينفك حاضرهــا يزرى بماضيهــا
ومــا الذى عاقكم عن مثل سيرهم وصرتم ككسيــح الرجل حافيهــا
كــذلك كنا وكان الدهر يخدمنــا أيامنــا غــرر بيض لياليهــا

وكان التطلع الى الشرق والتحسس لخطواته والتشمم لنفحاتــه ، والانصات الى ما يجرى فى أنحائه ، فهؤلاء الاتراك يواجهون خطر المسيحية الذى كان يمتد سرطانه أولا من البلقان ، وما كان اليونان الا بادرة مــن البوادر ، التى تخفى وراءها دواهى وبواتر :

عدو أتى الاسلام مــن خلف ظهره فبيت فيه سيف بغيــه مغمــدا
لقــد ترك اليونان فى يــوم نحسهم مشجعهم لمــا بــدا لهم مــا بــدا
ولم تكن اليونان فى حربهــا سوى قنــاع توارى خلفه مبعث العدا
ولم تغلب اليونان ، كلا ، وانمــا قوى على الشرق الضعيف تمردا

هكذا يحذر من خطرهم الجزولى فى قصيدته الحافلة .

لم يقف هذا التطلع عند الغايات ، بل صار يتخذ نفس الوسائل ، حيث بدأ بالمدرسة ، وكانت البداية من نقطة مصب أبى رقراق ، بين ســلا والرباط ، كما قال :

ترى مدارسهم مثــل المعامــل فى سبك العقــول وفى تثقيف ناميهــا

وسارت الاناشيد المدرسية تنظم لهذه الناشئة لحدوها الى الغايــة المتوخاة منها ، يقول غريط فى نشيده السالف .

لذوى العلــم ظهـــور ليس تفنيــه دهـــور
ولهــم جــل الامـــور تتجلــى مــن ستـــور

فهـم اهـل الصـدور وشمـوس وبـدور
ولهم كشـف الخبـايـا بسنـا العلـم الغـزير

وهذه كتب المنفلوطى ، تنسل الينا ، فتكون المعجزة ، بما مهدت لهذا الجيل من سبل تجاه العربية التى كانت تقف دونها عقبات كأداء · فلاول مرة صارت العربية تقرأ فى سهولة وتفهم عندنا فى يسر ، بل كانت تفعل فـى سامعها وقارئها فعل السحر (1) · كان لقصص المنفلوطى ، وخصوصا بعبراته ونظراته الفضل الاول فى نضهتنا · وهو ما جعل الاديب المرحوم محمد بن اليمنى الناصرى المولود عام 1308 يذرف الدموع الحارة علـى وفاة هذا الكاتب ، الفاتح بقلمه ، ما عجز عنه غيره :

مـا للمعارف ترسل «النظرات» نحـو الثرى وتسلسل «العبرات»
مـا لامعالـم نكست أعـلامهـا فتنـاست التصفيـق بالعذابـات
هل «فى سبيل التاج» خان العهد من بـاع الحمـى بخسائس الشهوات
مثل الذى حرم السعادة والرضى اذ كـاد للحرمـين والحرمـات

فنراه فى توريباته بكتب المنفلوطى ، كالنظرات والعبرات وفى سبيـل التاج قد انتهى الى التضية الكبرى وهى قضية الخيانة الوطنية والتفريط فى الاستقلال بحمل عروشها ، والذب عن حمى حوزتها · ومن هنا تخلص الى سياسة الانجليز بأرض الكنانة والسودان ، وما اتهموا به من تسليط بعض المغتالين ، للقضاء على زعماء النهضة بمصر ، وفى مقدمتهم سعد زغلول ، ثم يضرب عن هذا ويقول :

كلا ولكن مـات سحار النهـى سلابهـا بروائـع النفثـات
المنفلـوطـى الـذى اقـلامـه مـن دونهـن رواعف القنـوات

الـى ان يقـول :

وثب المنون عليـه وثبـة خاطف قـد هابه فاحتـال فى الوثبـات
صدقت عليه «الاربعون» بما نعت فنعتـه وهـو الحى للامـوات

---

1) فى الاعماق ، وتجعل العواطف تنفعل انفعالا متأججا لا تطفئـه الا الدموع المنهمـرة · نعم ، الدموع المنهمرة من الرجال القساة ·

يشير بهذا الى مفاجأة الموت للمنفلوطي اثر كتبه لمقاله « بعد الاربعين » ونعيه لنفسه فيه ، وكأنه كما قيل شعر بقرب أجله ·

ثم قال الشاعر :

ان غـــاب عنـــا لم تغب آثـــاره   فالســـر فى آثـــاره العطـــرات
بـــل لم تـــزل آياتـــه مرسومـــة   فى الصحف تدعى منتهى الغايات
فالمغرب الاقصى يعـــزى مصر فى   ذاك الابـــى مذلـــل العقبـــات

ثـــم يخاطبـــه مناجيـــا :

يا مصطفـــى وليت عنـــا لابســـا   حلـــل الثنـــاء موفق الخطـــوات
لم تـــات فيما قـــد علمنا وصمـــة   ابـــدا ولم تدنس مـــن الـــزلات
بـــل كنت فينـــا مرشـــدا ومهذبا   ومشذبا بالخيـــر خيـــر نبـــات
حتـــى بنيت علـــى أساس محكم   صرحا مـــن الاخـــلاق والهمـــات
ألقت بـــه العليـــا عصا تسيارها   لتنـــاشد الفتيـــان والفتيـــات

فهو يشير بهذا الى أن كتب المنفلوطي لم يكن تأثيرها قصرا علـــى تلاميذنا ورجالنا ، بل تعدى ذلك الى ذوات الخدور من فتياتنا ويقول :

فالانس للاحـــرار بعدك وحشـــة   تحشـــى الحشا بلواعج الجمرات
لا غـــرو أن لقى المصاب جميعهم   بطويـــة تطوى علـــى الحســـرات
فعليك من اهـــل السلام تحيـــة   يزرى شذاهـــا أطيب النفحـــات
تلقـــى بمنزلك الجديـــد رحالهـــا   وتؤمـــه فى ســـائـــر الآنـــات
وتحوطـــه أســـرارهـــا وتمـــده   بالـــروح والريحـــان والرحمـــات

هذا ما يتصل بأديبنا ، ابن اليمنى ، من ناحية المضمون ، أما من ناحية الشكل ، فان هذا الاديب كان ــ رحمه الله ــ تتفجر بالشعر جوانبه ، فى كل مناسبة (وما اكثرها فى حياته الحافلة) وكان يشبه المرحوم بوجندار فى الانسياق نحو أجراس الكلمات وموازينها ، كما راينا وكما نراه فى قصيدته التى وجهها الى الملك الراحل محمد الخامس طيب الله ثراه ، وكان ذلك اثر ابلاله من مرض ألم به فخاطبه بقوله :

(اهنـــأ بعافيـــة لبست رداءها   واللطف لبى حيث كنت نداءهـــا
قد رعت من ألـــم الـــم رعيـــة   صارت بنفسك مـــا حيت رداءهـــا

حيتك بالاخــلاص خيــر تحيـــة لمــا قدمت وامحضتك اداءهـــا
ورأت مــآلا مسعــدا آمــالهــا يعلــى مراتبهــا ويشفــى داءها

الــى أن يقــول :

اذ أنت روح الشعب منعش روحه والمستلــذ الى الامــام حداءهــا
كم مــن عوارف بيننــا أسديتهــا ومعارف يهــوى العلا اسداءهــا
ولكم يد لك فى المكــارم والعلــى لم تجــد أيدى من مضى اجداءها
بزمانك « الاصلاح » أثمر غرسه اذ فيه كفك فجــرت أنداءهــا
وبه «السعادة» أشرقت فاستنهضت هِمما تحث الى العلى سعداءهــا

وهكذا يورى بالاصلاح والسعادة ، وكانا عنوانين لجريدتين ، تصدر الاولى منهما بتطوان والثانية بالرباط ، كلسان للحكومة آنذاك .

ونعود الى ما كان للحضارة الاوربية من أصداء فى أدبنا ، حيث نجد قصيدة للسيد جعفر الناصرى ، ابن صاحب الاستقصا ، يتحدث فيهــا عن باريس فيقول :

دع الوقوف على الاطلال والدمن وما تهيــج من شجو ومن شجــن
وعد عن ذكر جيران بذى سلــم وعن بكاء اللواتــى رحن فى الظعن
ولا تهــم بزمــان زال رونقــه وعيشه قد مضى أحلى من الوسن
واليوم قد درست عنــا معالمــه كــأن بهجتــه الغراء لــم تكــن
ان المنازل من سلع ومــن اضــم معاهــد أقفرت فى سالف الزمــن

وهكذا نراه يتناول القديم بما تناول به أبو نواس وقد داهمت عصره الحضارة الفارسية ، كما داهمت الشاعر هنا الحضارة الفرنسية ، فصار يسخر من معالم وردت فى ميمية البوصيرى :

امــن تذكــر جيران بذى سلــم

ويقبــل بنــا على باريس فيقــول :

واذكر محاسن باريس وما جمعت مما يسليك عن أهل وعــن وطن

الى أن يقول فيها :

لله أنهارهـــا الملتف جـــانبهـــا ... ذات الخمائل والادواح والغصـــن
أمـــا القصور فقد أضحت مصافحة ... نجم السماء وقد أزرت على القنن
كم فى جوانبها مـــن كـــل آنسة ... بين الحسان أنت كالبدر فى الدجن

وبعد ما أفاض فى ذكر مفاتنها ، بأوصاف لا جديد فيها ، لم يستطع فى نهايتها ، أن يتخلص من القديم ، فقال :

والقد يحكيـــه غصن البان فى ميس ... وخصرها ضامر والردف ذو سمن

على أن « ذو سمن » هذه لم يواجهنا بها القديم ، كما هـــى ، والا لجعلنا نشعر بأنفسنا أمام جزار ، يعرض على وضمه جزورا .

وكذا نجد هذا الوصف عند صنوه السيد محمد ، حيث يقول :

فالعين عين مهى والقد قد قنـــا ... والردف مثل كثيب الرمـــل فى سمن

فما أنفر هذا السمن لأذواقنا ! ، وخصوصا فى هذا العهد المرهـــف الحس والنازج المزاج ، ومع الاعتذار من هذا النشاز .

والاديبان من مواليد هذا القرن الهجرى ، فالاول ولد عام عشرة منه والثانى بعده بثلاثة ، فهما على ذوق هذا الجيل ووجدانه ولهذا لا نعجب اذ رأينا الاول يختم قصيدته الباريزية بقوله :

باريز قد حزت فى ذا العصر منزلة ... وتهت عجبا علـــى الاحياء والمدن
لا زال ربعك مأهولا يطيف بـــه ... أهل انخلاعة والمجـــون والـــددن

ومن قوله فى بلده مدينة سلا :

هـــذى سلا مـــأوى الســـــرور ... والمجـــد عـــن مـــر الـــدهـــور
أرض بهـــا الـــرومــــان قـــــد ... شادوا المصـــانـــع والقصـــــور
وبهـــا الحضـــارة قـــــد زهـــت ... بالعلـــم فى مـــاضى العصـــــور
أحســـن بهـــا مـــــن بلـــــدة ... فلـــك السعـــود بهـــا يـــــدور

فالبيت الثانى لا يصدر الا عن طبع هذا الجيل الذى اتسع أفقه لمثل

الافتخار بالرومان ومبانيهم الشاهقة ولا شك أنه قد ارتوى من معين العلوم الدينية خاصة والعربية عامة ، والا فانه ما كان ليصدر عنه مثل قوله :

صب براه الشوق فهو مسهد ... وبقلبه نار الجوى لا تخمد
والدمع من فرط الصبابة مرسل ... فوق الخدود فمطلق ومقيد

فالاطلاق والتقييد من عبارات الفقهاء والاصوليين منها على الخصوص.

وقد كان الاخوان على ثقافة فرنسية جيدة ، فهما من أوائل الجيل الذى جمع بين الثقافتين ، وكان أصغرهما ضاربا بسهم أوفر فى اللغة الفرنسية وآدابها ، بل كان على ضلع فى اللغة اللاتينية وأصول الفلسفة الحديثة ، التى لم تكن آنذاك قد طرقتها العربية .

ومع هذا فشعره الذى بأيدينا لا ينم عن شىء من ذلك كله ، وقصائده فى سلا والرباط ومكناس مثلا ، لاتختلف فى محتواها عما يصدر عن المكتفين بالعربية وحدها يقول فى سلا :

لسلا معال شأوها لا يلحق ... من دونها سور المهابة محدق
وبها ترى غصن المعارف مثمرا ... وبها بدا نور العلوم المشرق
بلد به حل الكرام وخيموا ... بلد به أصل الفصاحة معرق
بلد لاهل العلم أضحى موطنا ... من علمهم متلاطم يتخفق
أهل البلاغة والبراعة والندى ... ما منهم الا فصيح مفلق
فهم الالى طاب المديح بذكرهم ... وبشعرهم جيد الزمان مطوق

ويقول فى الرباط :

ان الرباط له فضل على المدن ... لان فيه سلو الروح والبدن
ما شئت من روضة غناء مونقة ... فيها الطيور شدت زهوا على فنن
والغيث منسجم والزهر مبتسم ... والماء فى جريه كالمنصل اليمن
وفيه ما تشتهى من كل غانية ... حوراء تسبى فؤاد العاشق السجن
اذا بدت خجل البدر المنير ولم ... لا يخجل البدر من ذى المنظر الحسن
ان أعرضت قتلت وان بدت فتنت ... وان مشت قدها فى اللين كالغصن

أو أرسلت فرعها من فوق عاتقها — وقد بدا وجهها كالبدر فى الدجن

وفـــى مكنـــاس :

امنـــازل الاحبـــاب مـــن مكنـــاس — مأوى السرور ومعهـــد الايـنـــاس
افديك مـــن مغنـــى فسيح آهل — بشموس انس أو ظبـــاء كنـــاس
عذبت مناهلهـــا وطاب هـــواؤها — فغـــدا يفوق شذا عبيـــر الآس
للـــه أيـــام تقضـــت لـــى بهـــا — مـــع فتيـــة وأحبـــة اكيـــــاس

وكذا الشأن فى قصيدته حول سياحة بنهر أبى رقراق :

راق العشى علـــى أبـــى رقـــراق — ورقـــا ورق بمـــائـــه الرقـــراق
وصفا الزمان وتـــم أنس جميعنا — وسقـــاك من خمر المسرة ســـاق
مع فتيـــة طابت محاسنهم وقـــد — فاقوا بحسن الخلـــق والاخـــلاق
مـــا منهـــم الا اديـــب شـــاعـــر — ذو عفـــة ونـــزاهـــة ووفـــــاق
او مؤنس ينسيك طيب حديـــثه — مـــا فى بطون الكتـــب والاوراق

فهذا شعر كله تقليدى متين السبك رصين الوصف ، وكذا سينيته التى خاطب بها صديقه المرحوم عبد الرحمن حجى :

غبت عنى فغاب بعـــدك انسى — واستوى فى الحيـــاة يومى وامسى
كنت منـــى كالـــروح افضى اليها — بخفيـــات مـــا يجـــول بحـــدسى
كنت لى كالســـراج اعشو اليـــه — ان دجـــا حالك الهمـــوم بنفسى

وبهؤلاء ننتقل من للرعيل الاول لادباء القرن الحالى الهجرى الى الرعيل الثانى ، وان كان فى الرعيلين اشتباك وامتزاج (1) .

ومهما يكن فاننا — على العموم — نجد هـــذا الرعيـــل الاخيـــر قد تفتحت آفاقه اكثر من ذى قبل ، واقبل بكليته على ما فى الشرق العربى يدرسه ويهضمه ويمتثله ، فهذا تفسير الطنطاوى العلمى المبسط المزدان بالصور ، تتلقفه الايدى وتلتقط ما فيه الافهام ، وتتحدث عنه الالسن ، ثم هؤلاء المصلحون وزعماء الوطنية ، من جمال الدين الافغانى والشيخ عبده ومصطفى كامل وسعد زغلول ، جميعهم معروفون لا يحتاجون الى تعريف

1) تاركين ذكر شعراء من هذا العهد ، مثل عبد الرحمن اليعقوبى التطوانى الذى له همزية فى مكناس وأهلها رائعة ذكرت بالاتحاف حيث عناه صاحبه « ببعض نبغاء الثغـــر التطوانـــى » .

وهؤلاء الادباء وخصوصا منهم الشعراء كالبارودى وحافظ وشوقى ، تقرأ أشعارهم وتحتذى ، ويتوفى أحمد شوقى فيقام له حفل تأبين (1) . وبدأ الشعراء يواجهون الشباب بالوطنية الصريحة وجها لوجه ، بدل أن يضمنوها شعرهم الذى يحض على التعلم والمعرفة ، واتسع آفاق التعبير ، وراجت الكلمات الجديدة ، بمضمونها الجديد ، بعدما كانت تلائل لا تعدو عدد الانامل ، كما وجدنا فى شعر ابن اليمنى الناصرى . فأصبح الشعر بصفة خاصة خديما للوطنية ، فى أجلى مظاهرها ، فكان علال الفاسى رحمه الله والشيخ المكى الناصرى حفظه الله يصدحان بأشعارهما الوطنية ، ويصدعان بأناشيدهما الاصلاحية .

يقول الفاسى المولود عام 1326 :

ولى أمة منكودة الحظ لم تجد	سبيلا الى العيش الذى تتطلب
عذيرى من قوم أتوا بسفاسف	ووجهم بين البرية صلب
بلوت بنى أمى سنين عديدة	فألفيت أن النشأ للخير اقرب
ولكن أين النشأ فهو مولـه	وأين ضمير النشأ فهو محجب

ويقول :

حنانيك يا وطنى ما اعترا	ك كم ذا أصابتك من مفجعات
اضاع بنوك عقولهم	وجاءوا الى القوم بالمضحكات
الا ينظرون الى شعبهم	أما عندهم له أدنى التفات
ولى أمة فقدت مجدها	سأخدمها بسنى الخدمات
وأنفخ فى نفسها نهضة	تروق على سائر النهضات
والقى على نشأها نظرة	ترقى البنين وتعلى البنات
وانى على مبدئى سائر	فاما حياة واما ممات

وعلال — رحمه الله — خدم القضية الوطنية ، بشعره أولا ، قبل

---

1) شارك فيه بفاس الى جوار شعرائنا بعض المهتمين به من رجال الحكم الفرنسى ، وهم بملابسهم العسكرية ، فلم ير حشد جمع فيه بينهم غيره .

أن يخدمها بنثره (1) وهو يرى هذا الشعر :

قد مثلته يد الالوهة كتلة — جمعت من الآلام والاحزان
وكسته من أيدى الطبيعة حلة — نسجت من الاقلال والحرمان
يبكى مع الاطيار فى دوحاتها — وينوح نوح العاشق الولهان
ويئن للصوت الضعيف وينثنى — ليشارك المشتاق فى التحنان
عجبا له كالعود فى احراقه — طيب يلذ بباهض الاثمان
أو كالشموع تذوب فى سيلانها — كيما تنير مسالك الانسان
أرايت قلبا ذاب من تحنانه — هو ذاك قلب الشاعر الفنان

انه شعره كان يوتى أكله طيبا ، فى قصائده وأناشيده العديدة ، وفى مجالات مختلفة ، منها تعليم البنت الذى اعتورته العترة :

فالام مدرسة الشباب فجاهدوا — أن تخرجوا منها الشباب المقدما
وضعوا لهذا الجهل حدا انه — أضحى به حلو المسرة علقما
عار علينا أن تظل فتاتنا — فى الجهل غرقى لا تطيق تقدما
فابنوا لها أس الفلاح وجاهدوا — حتى تمد الى المعالى سلما

وهى دعوة رددها جلهم لان تكتلهم كان تكتلا شاملا للقول أولا والفعل ثانيا .

وبهذا الشعر يخاطب الشباب :

يا شباب البلاد أحييتمونا — فلنا فيكم رجاء متين
ولنا فى الشباب خير ظنون — حققت فى الشباب تلك الظنون
اخبروا القوم أعلموهم بأنا — قد حيينا واننا سنكون
قد بعثتم رجاءنا فأديموا — سيركم واعملوا ولا تستكينوا
واحفظوا ما ورثتم من لسان — فهو روح الحياة « والاكسجين »
ما يضير الشباب شىء اذا ما — رضى الشعب عنهم والدين

---

(1) وقد شهر فى الناس به والقدرة عليه ؛ فقيل انه نظم قصيدة وهو تحت سياط أعوان الباشا بوشتة البغدادى ، فى محنة الظهير البربرى .

هكذا شعر علال وهو لم يزل فى عنفوان الشباب ، ولم تكن صيحته تخفت عند حدود البلاد ، بل كانت تحملها الاجواء خارجها :

الـلـه أكبـر ان الدين دين هدى	له مع المجـد عهـد غير منقضب
لـو ابصروه كما ابصرته لـراوا	كـل التمـدن فى الاسلام والعجب
بنـى الجزائـر هبوا من رقادكم	ولتستضيئوا بنور أزهـر الشهب
دعوا التفرنج دوما فى عـوائدكم	ان التفرنج قد يدنى مـن العطب
لكـل قوم شعـار يعرفون بـه	فان مضى أصبحوا فى منظر شحب
وابغوا التدين من أبوابـه شغفا	لا تحسبوا نيلـه بالقول والصخب

وعلى هذه الوتيرة نرى المكى الناصرى ، وهو من مواليد عام 1324، يخاطب الشباب فيقول :

يـا أيهـا الشبـان سيـ	ـروا انكـم جنـد النجـاه
سيـروا أمـام الشعب حتـ	ـتـى تبلغـوه ذرى عـلاه
ضحـوا بكـل جهـودكـم	حتـى يـرى فيكم منـاه
لا تيـأسـوا او تسـأمـوا	بـل فاذكـروا أبدا رجـاه
لا تحسبـوا شعبـا يمـو	ت اذا غنـا فيـه انتبـاه
ان النفـوس كـريمـة	فيهـا جـراثيـم الحيـاه

ويلاحظ انه استعمل جراثيم جمع جرثومة ، فى معنى لم يكن قد انتهى الى ما انتهى اليه اليوم ، ومن قبل استعمله أبو تمام كذلك فقال :

خليفة الله جازى اللـه سعيك عن	جرثومة الدين والاسلام والحسب

وان كان المكى استعمله فى مداوله الاوربى الطبى ، أى الميكروب ، الذى بقى على سلامته عند أصحابه ، وتعرض عندنا لما تعرضت له جرثومة

والشيخ المكى يتسم شعره بالوضوح والطلاقة ، كما يتسم نثره بها ، بل ان دروسه العلمية تتسم بهذا كذلك ، ومن شعره أيضا قوله :

أنـا فـى مصـر وقلبـى	أبـدا ثـم مقيـم
ان يهـم بالنيـل قـوم	فبـوديـانـى أهيـم

تلــك اوطانـــى وهــــــذا وطــن المصــرى الكــريــم
كــم يسلينــى صــديـــق مــن بنــى مصــر حميــــم
غيــر انــى لســت ارضــى عــن سوى وكــرى القــديم
انـــــه مــوطــن انســـى انـــــه مــــأوى النعيـــم
انـــــه راحــــة نفســـى وهــــواه فـــى الصميــــم
هل عجيب فى الفتــى النــا زح احســــاس اليــــم

فهذا اللون من التعبير المتحرر ما هو الا صورة من صاحبه ، فى مقالاته وخطبه ، وفى سلوكه الذى لم يحصنه بالتمويه ، وهو الى جانب وطنيته ذو عاطفة مشبوبة بلهيب الدين ، نجد حرارتها فى هذه القصيدة :

هــذا كتــاب اللـــه يدعونـــا الى سبــل الرشـــاد ونصح كل موحد
هــذا كتــاب الله يغرينـــا علـــى جمــع الخلائــق مثل جسم مفــرد
هــذا كتــاب الله فيــه شفــاؤنا من كــل ادواء علينـــا تعتــدى
هــذا كتــاب الله منــه رواؤنـــا فى كــل عصر فهو عــذب المورد
هــذا كتــاب الله فيــه محاسن ليست بخافيــة علــى المسترشد
هــذا كتــاب الله فيــه محجــة بيضاء سالكهـــا يقينـــا يهتــدى
هــذا كتــاب الله بــاد وجهــه لم يخف الا عــن لحاظ الملحــد
هــذا كتــاب الله منه قد استقت اسلافنـــا مـــاء الحيـــاة الاحمدى
هــذا كتــاب الله منـــه تعلمــت خلق العلى حتى علــوا فى الفرقد

وهكذا يستمر فى هذه البساطة المستملحة .

وبهذه البساطة والوضوح فى التعبير ، كان نشيده محفوظا للخاص والعـــام ، وحافظتـــى تملـــى منـــه :

فــؤادى الى وطنـــى قــد صبـــا تعشقتـــه منـــذ طـــور الصبـــــا
ودينـــى فـــى حبـــــه رغبـــــا فيـــاوطنـــى عنــك لــن ارغبـــا
ويـــا وطنـــى لا تخف اى اميــن واخلــف وعــدك انـــى اميــن
كفيــل بنيــل منـــاك ضميـــن
خــذ العهــد منـــى على اننـــى اوحــد قـــومـــى يـــا وطنـــــى

وابـــذل فى رشـــدهـــم منتـــــى ومالى وروحـــى مع بدنـــى (1)

ومن ادبائنا الاديب الشاعر عبد الرحمن حجى السلاوى ، المولد بها عام 1318 ، اشـاد صاحب الادب العربى فى المغرب الاقصى بموهبته الغزلية.

ويهمنا منه ما كان متجاوبا مع عصره أو ما هو جديد فى شعره ، فمن الاول، قطعـــة يقـــول فيهـــا :

اری امتـــى طاشت فمات شعورها فان ذوى الارماس منهـــا لافضل
رمتهـــا جيوش الجهل ذلا بنبلهـــا وان نبـــال الجهـــل اقسى واقتل
اراها وقد فاضت دموعـــى حسرة وانـــى على صب الدموع يعول ؟
اراها وقد ذب الذبـــاب بجسمها يـــروح ويغدو وهى لا تتملـــل
مصائبهـــا جلت على العد جملـــة فعاصفة الاتـــراح دومـــا تزلـــزل
توالت عليهـــا نكبـــة بعد نكبـــة فلون نهارهـــا من الليـــل الكحل
فما تهتـــدى(2) الى المفر بنفسها كشاة حيال الذئب او هى اذهـــل
فهل من طبيب يعلمـــن بضرهـــا فان فؤادهـــا مـــن الداء يسعـــل

وقد لاحظنا عامية فى استعماله (اكحل بمعنى اسود) كما واجهتنا الجملة الاخيرة ، فؤادها من الداء يسعل ، وهى من الابتذال بمكـــــان وله بعنوان « نظرى فى الشعر » :

اجلـــى للـــورى سدف المغـــازى واجتلب الحقيقـــة فـــى المجـــاز
علـــى انـــى اقـــول الحق بحتـــا ولست اقـــولـــه دون احتـــراز
ولـــى فى ذاك مقـــدرة وبـــــاع طويـــل شانـــه قمـــع المخـــازى
انقب عـــن جـــذور الداء نقبـــا وبيـــن انامِلـــى مثـــل الجـــراز
اذا استنطقتـــه يـــاتـــى بفصـــل لـــه تعنـــو البريـــة فى البـــراز

1) اذكر انى دعيت سنة 1960 الى كلية الحقوق (بصفة كونى أستاذا سابقا بملحقها فى تطوان) عند انعقاد دورة امتحانية بها ، واستمعت الى أسئلة الاستاذ الناصرى ، فكانت من التبيين والتبسيط ، ما جعلها تحمل الاجابة عنها فى نفسها ، وتلك فطرة فطر عليها.

(2) كذا بالاصل « الى » ولا يستقيم الا بنحو « نحو » أو بكلفة الحمل على الهمزة . وللشاعر من نحو ذلك مثيل فى هذه القطعة ، كما فى « نهارها » فى البيت قبل و « فؤادها » بعد.

ويسبك فضة الالفاظ سبكا — بها المعنى مدبجة الطراز
انظمها عقودا من جمان — بها العلياء تحظى باعتزاز
وليس الشعر الا ما استنارت — معانيه محلقة كباز
بدون تكلف يبدو عليه — وكان عن السفاسف فى انحياز
اذا طرق المسامع ترتضيه — وعند النقد يظفر بامتياز
ويسرى فى النهى سريان روح — فتنفعل المشاعر باهتزاز

هكذا يتحدث بلسان الشعر أولا ، وعنه ثانيا ، ويبدو أن قضية ماهية وقد ارتكب الشاعر خطأ لغويا فى اعتبار المعنى قليل من الشعراء عنه كثيرا .

وقد ارتكب الشاعر خطأ لغويا فى اعتبار المعنى — وسبق لبعض الشعراء — مؤنثا « بها المعنى مدبجة الطراز » . وهو وان ركب الصعب فى استعمال حرف الزاى رويا لهذه القطعة الجميلة ، فان هذا الحرف النفور لم ينل من جمالها بالرغم من كونه مكسور الحركة) وهى منه مهارة ، قليل من الشعراء فازوا بها .

ومن الجديد فى شعره قصيدة ، يتحدث فيها عن لندن ومقامه بها ، فيقول فى اولها :

ساقنى الدهر لامتطاء البحار — واقتحام الاخطار فى الاسفار
ورمى بى الى مكان سحيق — رغم أنفى مقيدا باضطرار
حيث لا علم لى بما سألاقى — من شقاء وصدمة وانكسار
واعتلال قد استقر بجسمى — مستتبا بأزمة الاعسار
ليس ينجاب او يرانى ضجيعا — بين شق موسد الاحجار
لست أدرى أين المفر بنفسى — من رداها ولات حين فرار
كنت انقاد للزمان اغترارا — بوعود كانت سراب برارى
لم تكن هكذا ظنونى وحتا — ليس ينجو ذو غرة من عثار
اننى فى ارض أراها كسجن — او كمنفى لعصبة الثوار
جللت بالسواد حيطانها مذ — اسست فهى قطعة قار

وكأن السواد ثوب حداد   لبسته على مدى الاعصار
جوها قاتم عبوس توارت   منه خوفا شمس الضحى بستار
سحب فوقها تروح وتغدو   بهواء رطب ونقع مثار
تستحيل المساء بالليل نارا   ودخانا من دكنة واحمرار
فهى لا ظلمة ترى كظلام   لا ولا نورا راق للابصار
لا تطل النجوم منها علينا   حيل من دونها بسد غبار
حظها من سر الطبيعة برد   قارص منذر بكل بوار
ليس يكفى لمتقيه لباس   او عقار ولا اصطلاء بنار
ولديها الزكام امر لزام   شائع بين اهلها بانتشار
يتوالى دمع السماء عليها   بين طل ووابل مدرار
ولقد تنزل الثلوج ركاما   فتعم البلاد بالاضرار
لو تراها والثلج يسقط فيها   قلت زنجية ارتدت بازار
او عجوز شمطاء ذات ارتعاش   فوق سطح على شفير هار
تتبدى الى الغريب بانف   مشمخر وسحنة اكفهرار
ذاك والناس ينسلون اليها   كل حين من سائر الاقطار
واليها تجبى البدائع من كـ   ـل ثمين يروق اهل اليسار
ان هذا فيها لشىء عجيب   وغريب محير الافكار
من يرد ان يرى العجائب طرا   فليزرها لخبرة واعتبار
ويرى من لا يكتفى بسماع   ليس مرأى العيون كالاخبار
ويرى مثل ما وقفت عليه   بعد ما جلته من الاسفار
فهى مكتظة فيلفى لديها   كل ذى نحلة وكل شعار
بعضهم جاء للعلوم وبعض   يرتجى أن يفوز بالدينار
وانا فى الذين جاءوا اليها   لتعاطيهم مهنة التجار
غير انى لاقيت فيها الرزايا   شأن من لم يحط بكنه السفار
لم أجد فيها من ولى حميم   او نجى ابثه اسرارى
ولهذا شقت على خطوب   اثقلت كاهلى فعيل اصطبارى

هذا وصف حى للندن ولما يضطرب فيها ، وما يعترى الغريب من

أجوائها ، وخصوصا ان كان من الاقطار التى تتمتع بجو بديع ومجتمـــع طليـــق (1) .

ومن الناحية الفنية فى هذه القصيدة ، التعبير فى هذا البيت :

جوهـــا قاتـــم عبـــوس تـــوارت منـــه خوفا شمس الضحى بستار
لو تراها والثلـــج يسقط فيهـــا قلـــت زنجيـــة ارتـــدت بـــازار

والازار فى سلا كتطوان لا يكون الا ابيض اللون باى هذا التصويـــر البديع ما فى البيت يليه :

أو عجوز شمطاء ذات ارتعـــاش فوق سطح علـــى شفير هـــار

ولا يدرك وجه الشبه فيه الا من علم أن العجائز فى الزمان الغابر ، كن يضعن على رؤوسهن بنيقة مسنمة فوقها شربية سوداء على حوافيها سبنية ، مقصبة من أسداء ذهبية وحمراء (كونهن فوق سطح لان دور السلاويين والتطوانيين مجيرة مبيضة بنصاعة خارجها) وهذا البيـــت المبنى عن الاستغراب عند الشاعر حيث قال فى دور لندن :

جللت بالســـواد حيطانها مـــــذ اسســـت فهـــى قطعـــة قـــار

وسطوح الانجليز مبنية مثل باقى البلاد فى أوربا الوسطى والعليا ، واخلاق الانجليز من الانقباض والعبوس معروفة مما يبعث الوحشة فى الغريب عنهم . ويلاحظ أنه حذف التنوين من « زنجية » ضرورة .

ومن الادباء الذين مثلوا دورهم أواسط هذا القرن الهجرى ، الاديب الحسن الداودى المولود بفاس عام 1317 ، ولكن تمثيله هذا كان خارجا عن نطاق الذين انصبوا بكليتهم الى خطاب الجيل نحو التحرر والانعتاق، وان وجدناه ، احيانا ، يدعو الى الاصلاح كما فى قوله من قصيدة :

أرى كل شعب هب من سنة الونى بقلب قوى العزم لا يعرف الرعبـــا

---

(1) لقد قال لى سفيرنا بلندن سنة 1958 : عجيب ! كلما رجعت الى بيتى وجدت يـــدى متسختين . فتذكرت أنا وصف حجى لتلوث الجو فيها ، ولم أجرؤ على التعليق بذلك .

أرى أمما من بعد أن عسفت بهـا	جهالتهـا بالعلم قد شغفت حبـا
أرى امما أحيت معالـم مجدهـا	وان قام داعى الرشد كلهـم لبـى
وما لى من ابنـاء قومـى لا أرى	فتى قام للاصلاح يستنهض الشعبا
الم يان أن نسعى ' لاصلاح شأننا	فقد مر حين امتدع شمسنا الغربـا

وهو شعر كما نرى متعثر فى سيره ، مرتبك فى بيانه ، وفيه مـن الاستعانة بالقرآن ، قوله :

« ومالى من أبناء قومى لا أرى » فهو من الاية « ومالى لا أعبد الذى فطنى » وقوله :

« ألم يان أن نسعى لاصلاح سعينا » فهو من الآية « ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله » .

وكذا آخر القصيدة ، حيث يقول :

بنى المغرب الاقصى انشطوا من عقالكم
وفكوا قيـودا أوسعـت شعبكـم ثلبـا
وقومـوا بنشـر العلـم بـين شبيبـة
عقولهـم صـارت لهـذى الونـى نهبـا

ولا ادرى لماذا أنث الونى ، الذى اعجبه فذكره أولا للشعب الـذى هب من سنة الونى .

وباقـى الابيـات فـى تفكـك لا ينتظـم بـه أسلـوب رصـين وان كان فى غير هذه ، قد يلتئم أمره ، ويسلس شأنه ، كقوله من قصيدة :

وأنـا لا يـروقنـى غيـر فتيـا	ن لهـم خدمـة العلـوم شبيـة
لبسـوا خشيـة التطرف درعـا	سردتـه يـد الكتـاب العليـة
وأصافـوا الـى مقـدس علـم	عربـى معارفـا عمريـة
لم يسقهم نزق الشبـاب الى مـا	يصـم المرء مـن فعـال دنيـة
يتبـارون فـى اقتنـاء المعـالى	يارعـى اللـه تلكـم الاريحيـه
خلـق كامـل تجنـب مـا لا	تقتضيـه الشهـامـة العربيـة

بألاء الكرام يحسن وجدى لا بسلمى ولا بدعد ومية

وله من مطلع قصيدة فى عذراء فاس :

حليف السقم ذو جفن مسهد كثير لومى والصبر ينفد
اسير هوى فتاة ذات ظرف لطلعتها سراة القوم سجد
صبا قلبى اليها مذ رآها تجلت فى سماء الحسن فرقد
وكنت أخال قلبى حين تدنو الـ قلوب من الهوى عن ذاك أبعد

فما أبعد هذا البيت عن لغة الشعر .

ومن أدباء هذا العهد الاديب عبد الملك البلغيثى المولود بفاس عام 1322 ، وهو نجل العالم الاديب مولاى أحمد بن المامون السالف . هذا الاديب من جملة الذين ضموا الى ثقافتهم العربية اثارة من الفرنسية ، ويذكر فى ترجمته المثبتة بالادب العربى فى المغرب الاقصى انه جمع كمية وافرة من أدباء المغرب للقرن الرابع عشر ، ضمنهم فى تاليف سماه «المنار»

وبالرغم من أن شاعرنا كان موظفا فى عهد الحماية ، فانه لم يكن بمنأى عن الحركة الوطنية ، ولهذا نجده على أحداث الظهير البربرى يقول

ان سجنتم عن دفاع رتبا نتلم سنية
أو منعتم من حقوق هى بالمجد حرية
أو ضربتم فى سبيل هى انهاض البرية
فلانتم خير نشء حركتهم وطنية
ليس حبس المرء عارا فى شعوب مدنية
بل هناء بعد ذكرى لا تروها مختفية (1)
كل عيش دون عز هو والله منية

وله ضمن أبيات :

لن نستكين ونحن اكرم أمة عرفت بعرش لا يزال عتيدا

(1) عن الشعر الوطنى للدكتور السولامى . وكذا الأبيات تلوها .

أعطوا البلاد حقوقها من قبل ان | تعطى لها وكفى المليك شهيدا
أشبال هذا الغيل حان زئيرها | ولسوف تزار فى الوجود أسودا
ماذا ترون وللعتو نهاية | ستسلم الشعب المنى المنشودا

وله بمناسبة وثبة الشهيد علال بن عبد الله :

ايقنت انا على أبواب معركة | فيها ندك للاستعمار بنيانا
فى ذمة الله يا علال أول من | قد سل خنجره فى وجه من خانا

ومن شعره قصيدة تحت عنوان « حب الوطن من الايمان » يستهلها بقوله :

خدمة الاوطان من خير العمل | فهى كالقوت فما عنه بدل
حبه امر علينا واجب | كم بقوم لذرى العز وصل

وهى فى نسجها شبيهة بلامية ابن الوردى ، واختتمها بقوله :

كيف نرجو العيش فى طى الهنا | واتحاد القول منا قد افل
قد جعلنا الصمت وردا كاما | همنا أمر وخطب قد نزل
واختلاف القول فينا سنة | كيف نرجو لرقى من أمل
وكؤوس اليأس فينا ملئت | فشربنا علا بعد نهل
لا نؤيس طامعا فى أمل | ربما نال علاء من سفل
جد فى الامر فما من أحد | جد الا نال ما عنه سأل
راقنا العيش بذل وحلا | اذ نرى الآن بحلى وحلل
موتنا عزا حياة أبدا | وحياة الذل موت بالشلل
هكذا الجهل علينا قد قضى | وعيون الرشد منا قد سمل
ما برى الجهل أناسا ونما | فيهم الا أتاهم بالاجل
حاربوا الجهل والا تفعلوا | فايقنوا بالذل ما بين الدول

فهى أذن منظومة نصائح أكثر منها شعرا لشاعر .

ومن شعره فى رثاء سعد زغلول ، قصيدة مطلعها :

ان غاب سعد هل يروق وجود | فالقول دون وجوده مردود (1)

---

1) مما كانت المرحومة أم كلثوم تنشده فى هذا الصدد :
« ان يغب عن مصر سعد | فهو فى الذكرى مقيم »

أوما سمعت مقالة مـن عـارف « قلم البليغ بغير سعد عـود »
لا تعجبوا لغروبـه فى مشـرق فالكل للاصـل الاصيـل يعـود
ذهب الهنا وأتى العنـا فكأننـا بمصاب سعد فى العبـاد ثمـود
يا مصر لو تدرى أسانا تـدرى كيف العيون على العيون تجـود

والقصيدة طويلة جدا وعلى ما فى البيت الاخير ، ختمها بقوله :

ولتبـق مصر فى البلاد رئيسـة والتـاج فوق أميرهـا معقـود
والفكـر حـر واليـراع مهنـد والقول ماض مـا لـه ترديـد
أرخ وفـاة زعيـم مصـر قائلا فى شمسهـا تاريخهـا معـدود

وحروف (فى شمسها) تساوى 1346 ، كما هو معروف .

ومن شعره قصيدة ، فى الورقة البنكية ذات الالف فرنك ، وكانـت لعهده ، كما يصف ، شكلا وموضوعا ، فى قيمتها الشرائية :

مـا لى وحقك فى نهج الهوى عمل ما همتـى أبدا رسـم ولا طلل
ولا شغفت بكأس مـن يدى رشأ ولا غـدا لى فى رشف اللما أمل
ولا بكيت علـى حب نأى زمنـا سيان عنـدى ان صدوا وان وصلوا
ولا أعـرت لاصوات الحدا أذنـا ولا الى مطرب سارت بـه المثل

الـى أن يقـول :

قـد كدت أقضى غراما فى مزخرفة غيـداء فيها العلى والعز والامل
عجزت عن وصفها اذ كنت أنظرها ولو نظرت تساوى العشق والخلل
علقتهـا بنت الف مـا لهـا شبه فى الحسن والوجه منها ناعم جدل
فكلما كبـرت الا وزدت جـوى وشفنى العشق حتى كـدت أنتقل
محرابهـا قبلة لكـل ذى أمـل فأينمـا جئتهـا الا وتقتبـل
كـل يهـاب بهاهـا أينما خطرت وأمر مالكهـا فى الخلـق ممتثل
لا تعجبـوا من غرامى فى محاسنها بل فاعجبوا للالى فى غيرها هبلوا

ومن أدباء هذه الحلبة من المعاصرين المرحوم محمد المختار السوسى، الذى ولد عام 1319 ورفع من شأن اقليمه بتاليـف الموسوعـات ذات

العشرات من المجلدات وابان عن اقتدار فى العربية وآدابها ، بما لفت له الانظار وحل محل الاجلال والاكبار .

ومن شعره الذى يتوجه به الى معاصريه ، قصيدة يستهلها بقوله :

بأى خطــاب أم بأى عظـــات	أوجــه وجــه الشعب شطر لغاتى
بأى فعــال أم بأيــة حكمـــة	أنشــرهــا مــن اعظــم نخرات
وكيف وأنــى يالهــى واننـــى	عييــت وعيــت حيلتــى وأداتــى
فأى لسان أرتضيــه لنشــرهــا	والسنتنــا صيغت مــن العجمات
تركنــا بها كنـــزا نفيسا فأقبلت	على غيرهـــا الافكـــار مبتــدرات
نمــد أكفا قطــع اللـــه راحهـــا	الى غيرهـــا مـــن اللغى السمجات

ولا شك أن قصيدته هذه مستوحاة من قصيدة حافظ :

رجعت لنفسى فاتهمت حصاتــى	وناديت قومــى فاحتسبت حياتى

ومن وطنياته الملتهبة قصيدة يستهلها بقوله :

حتى متى شعبى يعبده الجهــل	كأن لم يكن قطب السيادة منقبل
كأن لم يكن يوما مديرا لتلكم الما	لك يحمـــى مـــا يشاء ويحتــل
كأن لم يكن بين الشعوب محكما	اذا قال يحنى الراس من راسهيعلو
كأن لم يكن فينا المرابطى الذى	به تم الاستعلاء للشعب والطول
وأبنــاء عبد المومن الطالعون فى	سما «الارك» شوسا لا ينهنهمصول

ويستمر فى ذكر الامجاد متسائلا على هذه الوتيرة ، ثم يجيب :

أجـــل اننـــا كنا وكنا وهكـــذا	يقول لسان العام من قوله القول
ولكن اذا ألقيت يومك نظـــــرة	فكم لوعة تذكو وكم زفرة تعلـــو
تشاهــد مـــا يرفض قلبك حسرة	عليــه ويستذرى الدموع فتنهــل
لتسقط على الارض السماواتولتقم	قيامـــة شعبى فالهلاك ولا الجهل
فقد ضاق بالشعب الجهول خناقه	وقد ساء محيـــاه وقد طفح الكيل
فهام يريح البال أولى من أن ترى	ملايين سبعـــا لا شعور ولا عقل

وفى العناصر الجديدة التى دخلت فى أدبنا ، هذه الحقبة ، وجود التمثيل

المسرحى ، فقد مثلت عام 1345 تمثيلية صلاح الدين فقال :

وفاس وأهلها جذل وبشر كأنهم تميد بهم رحيق
رأوا فى مسرح التمثيل ما لم ير المراكشى المستفيق
رأوا فيه صلاح الدين حيث يسوق من السلاطن ما يسوق
يعلمهم بتلك الحرب عدلا به تحمى الممالك والحقوق
يدفعهم عن الاسلام كيلا تداس لاهل دعوته حقوق

وهكذا يستمر فى استكناه ما تحتوى عليه التمثيلية ، مهيبا بهمم الشباب الى العمل والتناصر والتعاضد والاتحاد اذ يختمها بقوله :

ألا فلنتحد فى السير جنبا لجنب ايها النشأ المفيق

وكان انبعاث هذا التمثيل عندنا ، وان كان معروفا عند الشعب على طريقة بوجلود ، تجاوبا لما كان قد عرف بالشرق الذى كانت النظرة اليه نظرة حادة ، وهذا ما نجد شاعرنا يعبر عنه فى صدق اذ يقول :

انا الشرق قوموا يابنى لتعرفوا مقامى وهبوا لا ابا لكم هبوا
افيقوا ترونى رافع الرأس طامحا عزوفا عريق المجد ما شيب لى شرب
ملات تواريخى بكل عظيمة تميد بها الدنيا وترتعد الشهب (1)

وهذا نموذج آخر من شعره ، مطلع قصيدة يقول فيها :

لم لا اقول الشعر كيف أريد وأنا بنيران الشعور وقود
لم لا أقول واننى متململ فى حين أن القائلين رقود
وأتاهم السحر الحلال وما انتحى قلمى أنا الا صفا وحديد

---

(1) رحم الله محمدا المختار ، لقد كان ينطق بما يعتقد حين يعتقد وكأنى به قد رابه الامر ، فقال لى ذات يوم ، وهو ينتقد جنحنا عن الفقه الاسلامى فى تقاضينا ، وارتأيت الحل من الشرق : ليتهم يتركوننا ...
كان الرجل ذا نفاذ فى نظره ، وحدة فى مزاجه ، وكان الصدق يطبعه فى أعماله وأقواله .

فكــرى يجيش ومرقمى فى أصبعى — لم لا يخط الشعــر كيف أريــد
أيهــز عـــلال وقــرى ومــكـــ — ـــى بشعــرهم السمـــا فتميــد

الـــى أن يقـــول :

مـــا الشعـــر موزون بقافية لـــه — معنـــى بأسمـــاع الجليس سديد
لكنمـــا الشعر الذى ان جال فى الـــ — ـــأسمـــاع يذهب بالفتـــى ويعود
ويـــرن أثنـــاء الضميـــر بـــرنـــة — نغمـــاتهـــا يحيـــى بهـــا المـــؤود
فيثيـــر مكنـــون الضميـــر كأنـــه — وحى من أكناف السمـــاء جديـــد

هكذا يرى أديبنا الشعر ، وهو صادق فى رؤيته ، وقد رأيناه يشيـــر الى مكانة علال والمكى الناصرى والقرى فيه ، وسنرى أنه طرق بعض الموضوعات التى طرقها القرى معاصره وصديقه ، كما نظن .

ولد القرى بفاس قبله بسنتين ، فقال قصائد طوالا منهـــا قصيدة عنونها بالعنوان « ما لقومى » ودعا فيها ضمن ما دعا الى تعليم البنت فقـــال :

تعلـــم البنت مـــا تعلمـــه الابـــ — ـــن وديـــن الاسلام أبدى اتحادا
مـــا لهـــا لا تعلم العلم واهـــا — لكـــم قـــد الفتـــم الالحـــادا
وبقـــاء الفتـــاة جاهلـــة عـــا — ر عليكـــم لا ينقضـــى الآبـــادا
أى ديـــن أتـــى بحرمانهـــا منـــ — ـــه ضللتـــم لا تعرفـــون الرشادا
انهـــا ان تعلمت ســـدتم بالـــ — ـــعلم فيهـــا وتستزيدوا ســـوادا

ويقلد الشاعر حافظ ، فى قصيدته التائية عن اللغة العربية فقال :

رويـــدك قـــد طبعت علـــى أنـــاة — وظلـــم مـــا تـــلاقـــى مـــن أذاة

ويذكر مزاياها وقدرتها ويختمها بقوله :

بنى وطنى استردوا ما مضى مـــن — علـــوم فى الصنـــائـــع واللغـــات
فان العلم أضحـــى اليـــوم سهـــلا — تعاطيـــه عليكـــم يا لـــداتـــــى
ألـــم تـــروا المطابـــع أتحفتنـــــا — بهـــاذى الكتب جامعـــة الشتـــات
فجـــدوا فى اللغى ودعوا التراخى — فـــلا تتـــوقفـــون علـــى أداة

الى آخر الابيات التى لا تهدف الى جمال تعبير فى الشعر ، بقدر مـــا تهدف الى غاية النصح والتوعية للشباب الناشىء .

وفى هذه القصيدة كان محاولا ان يخاطبنا بجديد عصره فيقول :

يمثـــل مـــا يبينـــه عيانـــا	كتمثيـــل المصـــور للفتـــاة

وتكررت الفتاة والفلاة واللغات ، ولا اراه الا ضعفا .

وله قصيدة فى الشعر يقول فيها :

والشعـــر كـــم تبـــدو بـــه	للمصلحيـــن حقـــائـــق
والشعـــر كم تحيـــى بـــه	بيـــن الشعـــوب خلائـــق
والشعـــر وحـــى سائـــل	متنـــاســـب متنـــاســـق
مهمـــا صفت نفس الحكيـــ	ـــم صفـــا الشعور السائق
ومتـــى صفـــت مـــرآتـــه	جـــاء القريض الشـــائـــق
ان الـــدواعـــى للكـــلا	م تجـــىء وهـــى شقائـــق
فاذا نفـــرن فـانـمـــا	ذاك القـــريـــض منـــافـــق
او مـــا تـــرى الماسور ينـــ	ـــطـــق مكـــرهـــا فيماذق
ولـــو انـــه حـــر لمـــا	ضـــاقت عليـــه مضايق

وهكذا نجد جل شعر القرى لا يحتفل فيه برصف العبارة وتنميقها بل يجرى فيه على طلقه ، واذكر انى انصت اليه فى ذكرى شـــوقى ينشـــد قصيدة طويلة على هذه الوتيرة :

شـــوقـــى ! وما ادراك ما شوقى	اميـــــر الغـــرب والشـــرق (1)

ومن ادباء نهضتنا المبكرين الاديب عبد الكريم السكيرج المولـــود بفاس عام 1322 ، وهو ابن الاديب السكيرج السالف الذكر . لقد كان مثقفا بالفرنسية الى جانب العربية ، وشعره سيال نابع عن طبع متوارث فى هذه الاسرة الاندلسية الاصل ، ومن شعره قوله فى الفتاة :

---

(1) فى البيت خزم ، بزيادة « شوقى » وذلك كما زيد « اشدد » فى قول على :

اشـــدد حيازيمـــك للمـــوت	فـــان المـــوت لاقيكـــا

مـــا للفتـــاة تغيـــرت أحوالهـــا ... وتضاعفت مع ضعفهـــا أهوالهـــا

فكأنها شعـــرت بهضم حقـــوقها ... لمـــا تصدر فى العـــلا أمثـــالهـــا

فبكت وقالت ليس لى من غيـــرة ... ان لم أفـــق غيرى وهذا حالهـــا

مـــا لابنـــة الغرب التفوق وهى من ... جنسى ولكـــن أصلحت أحوالهـــا

وأنـــا الخليقة بالكمـــال لان لـــى ... فى الخلـــق أخلاقا تتـــم خصالها

لو يعتنى قومى بترقيتـــى ارتقت ... رتبـــى التى عندى يتـــم كمالهـــا

أو بالجهالـــة ظـــن قومى عفتـــى ... والنـــاس أقرب للخنـــا جهـــالهـــا

ان التـــى لـــم تحتفـــل بمـــروءة ... ولـــو انهـــا صينت تسوء فعالهـــا

الـــى أن يقـــول :

واذا الفتـــاة تدرعت فى قومهـــا ... جهـــلا ففيهـــم للبـــوار مآلهـــا

واذا تقلـــدت المعـــارف بينهـــم ... سجـــدت لها بين الـــورى اقيالها

من موقظ الآبـــاء مـــن غفلاتهم ... لتقـــر منهـــم أعينـــا انجـــالهـــا

أابـــا الفتـــاة اذا أبيت رقيهـــــا ... فلتـــات يـــوما مـــا بـــه اذلالهـــا

هـــى بنت صلبك ان تصلبها على ... جـــذع الهـــوان أهنت حين تنالها

وفى هذه القصيدة ما يعكر صفوها ويعوق انسيابها بتزاحم الخليقة والخلق والاخلاق فى بيت ، وتصارع الهمز فى « أابا » أول بيت ، كذلك.

ومـــن شعره قوله من قصيدة :

هذى أوربا فى حضارتهـــا ارتقت ... لكن بهـــا قـــد حفت الاخطـــــار

هاذى المشارق والمغارب سعرت ... مـــن حولهـــا الانـــوار لا بل نار

كنـــا نظـــن بأن عصـــر العلم لا ... يقضى علـــى أربـــابـــه الاكثـــار

كنـــا نظـــن الجهل سفـــاك الدما ... لكـــن تحقق فى العلـــوم دمـــار

فكأن طـــور العلـــم علـــم أهلـــه ... عمـــلا بـــه تستعبـــد الاحـــرار

فتنـــافسوا فى غرسه وتنفسوا الـــ ... ــصعداء لمـــا اجتيحت الاثمـــــار

فما أصدق أبياته هذه ! وماذا كان يقول ، فى القاء القنابل الذرية ، على شعب اليابان ، حيث أهلكت مائات الآلاف من البرياء ، من شيوخ ونساء وصبيان ؟ !

ومن المعاصرين الذين ولدوا فى نفس التاريخ بفاس الاديب محمد المهدى الحجوى ، وهو ابن العالم الشهير ، ومن الذين تثقفوا باللغتين ومن شعره القومى قوله فى مطلع قصيدة ، وهى وقفة على أطلال :

جددوا المجد فما هذا الخمول | يا بنى المغرب أبناء الفحول
جـددوا عهد جـدود كرموا | جـددوا بهجة هاتيك الطلول
يمموا نحو نداه وابحثوا | عن بقايا لم يصبها من حئول
لم تـزل فيها حياة شهدت | أن روح العظما ليست تحول

الى ان يقول بعده :

نقل التاريخ عن طلعتهم | غررا ليست تـوارى وحجول
دوخوا بالعلم وانقاد لهم | عز ملك لسواهم مستحيل
فتحوا الدنيا وساسوا ملكها | بمباد وضعوها واصول
سل أقاصى الارض عن قادتهم | كم تخطوا من جبال وسهول
سل بحار الغرب والمشرق كم | جر اسطولهم فيها الذيول
تلكم آباؤكم فاسترجعوا | ارثهم واستنهضوا كل خمول
واربطوا الوصلة بالماضى فما | عز من كان بماضيه جهول
ارجال الغد هبوا دفعة | واستعدوا للقا الخطب الجليل
أرجال الغد هبوا هبة | واطرحوا قول حسود وعذول
ارجال الغد هبوا هبة | وانهضوا بالامر والعبء الثقيل
ارجل الغد هبوا انه | طال هذا الصمت والنوم الطويل

الى أن يقول فى خطابهم :

ولتكونوا عصبة يجمعكم | نفع هذا الوطن الغالى الجليل
واحفظوا الوحدة فيما بينكم | ولتكونوا كجماعات النصول

وختم القصيدة بالبيت :

واجعلوا العلم أساسا فبه | يدرك المرء المعالى ويصول

وله أشعار كثيرة نقتطف منها هذه الابيات :

وان حيـاة الشعب حسن خلاقه بـه يرتقـي لا بالنباهة والحذق
ولا ينفع العلم الـذى لا تقيمـه دعائـم أخـلاق تقيه من المحق

وهذا المعنى كثيرا ما ردده شوقى ، ويلاحظ انه استعمل كلمة الخلاق بمعنى الخلق ، وهو كثيرا ما يقع فى خطاه الناس ، مع انه الحظ كما فى الآية « لا خلاق لهم فى الاخرة » اى لا حظ لهم فى نعيمها .

وبعـده :

واعظـم آمـال البـلاد رجالهـا واصدقهم من قام يدعو الى الوفق
يقدس للاوطـان كـل حقوقهـا ويفدى مناها بالتغـرب والشنـق
ارى امـلا للغـرب ابيض افقـه يلوح بليل اليأس منه سنى البرق
عليه من العليا بشائـر نهضـة تهـدد اركان التسلـط والـرق

واستعمل هنا تهدد بمعنى تهد ، وهو وان كان يجيزه القياس ، لكنه لم يعلم بمعنـاه .

ويقـول مـن اخـرى :

الى متـى نترك التعليم مهجـورا ونحسب العلم فى الافرنج محصورا
الى متـى نستلذ النوم واحزنـا وغيرنا يطلب الدستـور والشورى

ويقـول مـن غيـرهـا :

ارى نفسى غـريبا فى بـلادى فريـدا فى الطريقـة والمبـادى
انـادى بالتقـدم كـل حيـن وامـلا مـن مقالى كـل نـاد

ومن مليح شعره وخفيف وقعه قوله :

اغصـون البـان ميلـى واشربـى مـن سلسبيـل
بيـن جنـات ونهـر فى حمـى ظـل ظليـل
هـذه جنـة فـاس حفهـا كـل جميـل
هـذه جنـة قـومـى كيـف ادعـى لـرحيـل
هـا معيـن المـاء يجرى تحـت فـىء مستطيـل
نسـج الـريـح عليـه بـردة الـزرد الصقيـل

واكتسى منه لجين ... بدنانير الاصيل
هذه جنة قومى ... كيف أدعى لرحيل
خبر الزهر روته ... نسمة الروح العليل
سلسلته عن غصون ... رافلات فى ذيول

الى آخر الابيات التى واجهتنا هنا باصطلاحات يعرفها علماء الحديث .

وله مناجيا للبحر :

فيا بحر حدثنى فانى شاعر ... خبير بأسرار الطبيعة والجهر
اناجيك والامواج يعلو هديرها ... تردد من شعر الطبيعة ما أدرى
أرى كل هذا الكون شعرا منظما ... توضح فى شطر واشكل فى شطر
ومن مشكل الاشطار أنت وكم على ... مشاكل هذا الكون مثلك من ستر
ففيك اضطراب دائم وتقلب ... وفيك مثال للحياة وللدهر
فيا هذه الامواج حولى تلاطمت ... تخالها بالمد طورا وبالجزر
وما لى أراها مقبلات تسابقت ... منظمة تسعى الى غاية النثر
عجبت لها كيف استطارت مسوقة ... جموعا وأفرادا الى حتفها تجرى
فهل علمت ماذا يراد بسيرها ... ام اندفعت للحتف من حيث لا تدرى

وهى وقفة شاعر متأمل فى أسرار الحياة ، اعتراه ذهول وحيرة ، لفظ على الاثر نفسه بقوله ، كما لفظه المعرى فيما مضى :

نساق فلا ندرى لاية غاية ... نساق ولا ماذا يراد بذا السير
فلا راجع يبدى حقيقة ما راى ... ولا كاشف يجلو حقيقة ذا السر

وكذا نجد عبد الله كنون : المولود بفاس 1326 يتوق الى التجديد(1) ويجسده فى نفسه فيقول فى معهود تواضعه :

---

(1) صدر اخيرا « دوين » له عنوانه « ايقاعات الهموم » . وكعادته ، فقد حرص أن يسجل ما قيل فيه من تنويه ، ختمه بقوله : وقال « الكابتان كورليط » الانجليزى ، من سكان القصبة ؛ حيث سكنى الاستاذ كنون : أنا من رعايا الشاعر كنون ... هكذا قال « الكبطان الانجليزى » ! ويفهم من هذا الظرف « حيث سكنى الاستاذ كنون » أن غيره هو الذى سجل هذه القولة فيه ؛ لاهو ...

وسميت بالشاعر الاكتب وما انا بالشاعر الاكتب (1)
هل الشاعر الفذ الا الرهين و « هو جو » الذى بر بالادب
أو الكاتب الحر الا «ابن لطفى» و «فولتير» مفخرة الاجنبى

الى قوله :

وما الشعر الا حديث النفوس وسجع الحمام على القضب
وروح لافهام مغزى الحياة على السن الشعرا النجب
يجدد للشيخ عهد الصبا فيطرب باللهو واللعب
ويوقد فى القلب نار الحماس فيغدو على الموت والحرب
وكم من شعوب به نهضت ونالت به منتهى الارب
وكم من جبان تقوى به وتم له النصر بالغلب

ومن شعره التربوى قصيدة ، اثبتها فى « القدوة السامية » حول « العزيمة والثبات » ، مطلعها :

نجاح السعى فى حسن الثبات وعقبى الصابر النصر المواتى

وفى الكتاب المذكور ، مخمسة بعنوان « لسان حال الدولة الاسلامية » مطلعها :

دول الافرنج اعلت شانها وانا فى كل شيء دونها
وبنوها أحرزوا كيانها وبني الغفل نهب بينها
يا بني الاسلام ما هذا الجمود

ومن نظمه هذه القصيدة التى ختمها بمدح المرحوم يوسف وهبى ، بمناسبة حضوره الى طنجة مع فرقته :

اذا نطق الفن اصغى الجميع وحسبنا بالفن من ناطق
يصوغ الكلام فتحسبه جواهر بين يدى ناسق
ويحسن منك السكوت عليه وان كنت فى ادب اللاحقى
نكم من دروس يلقنها بأبلغ من دارس حاذق (2)

1) ولم اسمع انا بهذا « الاكتب » .
2) ونعوذ بالله من نطق هذه « الفرقة » لهذا الذال !!!

وكم من عظات يفصلها ... بأسلوبه المعجب الرائق
فهذى وقائع ماثلة ... وقد كن فى زمن سابق
وهذى عواقب مشهودة ... وما زان رهن الغد الطارق
فحى أبا الفن فى زمرة ... سمت بالفنون الى حالق
وحى الكنانة عن طنجة ... وعن شعبها الوامق التائق
وقل ان بعثت الينا رسولا ... فلا خير من يوسف الصادق

ولعبد الاحد بن عبد الحى الكتانى المولود بفاس فى نحو التاريخ او قبله بسنوات ، يخاطب شباب الجمعية المسلم بالقاهرة :

فى ذمة الاسلام ما ذللته ... صعبا وما عرفته متنكرا
والحر بالتاريخ اربح متجرا ... والحق بالاسلام امنع معشرا
واعز بالدستور فى أيامه ... وأجل بالشورى تراثا مدخرا

وهى قصيدة طويلة جزلة ، على تكلف بها ، ختمها بقوله :

هيا بنا للمجد نحمل عرشه ... والدين نخفر حوضه والكوثرا
اخلاقنا اعراضنا فلنصقلن ... اخلاقنا بالدين كيما تطهرا
ما ضائر عرض اليراع نحافة ... ما عرضنا ذام السمين الغندرا
كلا وليس بمدقع بيت العلى ... فقر اذا ما العلم فينا اعقرا
فانتخذ قس الضمير خطيبنا ... ولنجعل الفتح المبين المنورا
فى الفتح عند الله خير مشيئة ... والله يفعل ما يشاء وما يرى

وهو يقصد محب الدين الخطيب ومجلته الاسبوعية « الفتح » (1) .

وله دالية طويلة على نسق دالية عبد المحسن الكاظمى العراقى ، يقول فيها :

صدق العلم للحقيقة وعدا ... عقدته يد العدالة عقدا
انما العلم آية الصدق تتلى ... ومثال الكمال بالحق يحدا
أيها الغالبون دونكم العلـ ... ـم حريا بالحمد ان يستبدا
أيها العالمون دونكم العلـ ... نقص الطالبوه جدا وكدا

---

1) كانت هذه المجلة الاسبوعية تهدف للدفاع عن الدين وخدمة القضايا الوطنية فى العالم الاسلامى ، ومواقف هذه المجلة من التنديد بالظهير البربرى لن ننساها .

وحيـــاة الشعوب بالعلم والجهـــــل اليهـــا مـــن المنيـــة اهـــدى
ايهـــا النشئـــون ذودوا حمـــاكـــم نعم دوذ الحمـــى من الجهل ذودا
هكـــذا العلم شـــاء أن يتدانى المـــتنـــائـــى فكـــرا ودينـــا وودا
فحيـــاض القلـــوب اخصب مرعى وريـــاض الشعـــور ازهـــر وردا

ونختم هؤلاء بشاعر الحمراء محمد بن ابراهيم المولود عـــام 1918 والمتوفى عـــام 1358 .

وهو الشاعر الذى جمع بين سمات القديم فى الاغراض التى تناولها وبين الجديد منها . وهو الشاعر الذى ظهر فى شعره الوطنية والغيرة القومية والخنوع الى رجال الحماية الفرنسية وزبانيتهم . وهو الشاعر الذى ظهر فى شعره الايمان واللجوء الى الله وظهر فى شعره التحلل من مقومات الدين والجهر بما يخالفها ويهدم الاخلاق الفاضلة والسلـــوك القويم . وهو الشاعر الذى شعر بنفسه ، وعبر عن نوازعها وقلقهـــا فى كبريائها وضعفها وانهيارها وتوجسها .

من هذا كله نرى الشاعر يصور متناقضات عصره التى تقمصت فيه ويصور الحيرة التى كانت متسلطة على رؤوس رعيله ، ومهيمنة على ابناء جيله ، والفقراء منهم بالخصوص الذين كان العوز عاملا قويا فى حيرتهم وفى اضطرابهم ولو كان غيره يملك من القدرة على الافصاح بما يجول فىخاطره وعلى الصراحة فى تسجيل سلوكه لوجدنا هذا — كثيرا — فى وضعه وفى مكانته ولكن هؤلاء فعلوا ما فعلوا وسلكوا ما سلكوا واعتلج فى نفسهم ما اعتلج فسكتوا وانطووا على داخليتهم وتلونا فى حقهم « خلطوا عمـــلا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم » . وارتفعت الاقلام وجفت الصحف بأعمالهم .

كان شاعر الحمراء متأثرا بشعراء العراق وفى مقدمتهـــم الشاعـــر الفيلسوف جميل الزهاوى اكثر مما كان متأثرا بشعراء مصر .

وفى رثائـــه يقـــول عنـــه :

جميـــل الزهاوى ما تركت لشاعر دراكا علـــى بعـــد فانعمتـــه حبا
وكم شاعر قـــد جادنـــى بقريضه فأمعنت فيـــه ثـــم قلـــت له تبـــا

توسدت قلبــى ثــم نمت ولم تمت فما مات من صار الفؤاد له تربا

لقد وجدنا جل خصائص الاولين تتجلى فى شعره ووجدانه يذرف الدموع الحارة على الزهاوى اكثر مما ذرفها على غيرهم .

لنترك اشعاره العتيقة التى تتسم فى شكلها وموضوعها بالقديم ، وهى شعر الامداح التى توجه بها الى الجلاوى ، وفيها الاستجداء ، وشعر المراثى التى رثى بها بعض علماء عصره من المواطنين ، وجميع هذه أشعار الضرورة الحاجية أو الاجتماعية كما نترك ما قاله فى الاشادة بالفرنسيين وأعمالهم التى قاموا بها فى التربية والتهذيب وما قاله فى مهاجمة خصومهم وخصوم الحلفاء عامة وهم أصحاب المحور من الالمان والطليان التابعــين لهتلــر وموسولينى . كما نترك الاهاجى عامة لان هذا كله لا يصور الادب الذى نريده تصويرا للعصر فى أى شىء ، الا فى مساويه وتكفينا معرفة هــذه المساوى التى كانت أمراضا فى المجتمع المغربى والشرقى علــى السواء وربقة الاستعمار فى عنقه وقبضة العبودية خانقة لانفاسه وحرمان الاسياد الذين سلطوه عليه تعصره فتخرج منه كل خبيث وتفرز منه كــل قبيــح كــذلك لا نفــع فيه للفــن ولو كان صاحبه بارعا فى تصويره ولا لــوم علينا ان أسقطناه من حسابنا ، فى الدرس والعرض ، على منضدة التصنيف والتجليــة والتعــريف .

فبقيت بأيدينا نماذج فيها الخمريات وفيها الانسانيات وفيها الحيرة والحرية ، وفيها الوطنية والتضحية والدعوة اليها ، وفيها الشكوى ونحوها

فهذه كلها تصور المجتمع الذى عاش فيه وهو يصطخــب بالنزعــات والتيارات التى تهزه هزا عنيفا وتجرفه الى الهاوية أو ترفعه الى القمة كما فيه تصوير لحالته الخاصة من علاقته بالناس ورأيه فى الاصدقاء منهم والمراحل التى كانت تنقطع انفاسه فيها ، ويلهث لهثا حارا ، تتصعد فيه زفراته وتتعرق عظامه ؛ وقد فتك بها الضنى ، وحطمها الهرم المبكر ، والمداهم (1) لصاحبه وهو لما يسلخ العقد الرابع من عمره . ولم يتمتع من

(1) كل هذا نجده فى شعره ، ويمتاز به عن غيره من شعراء عصره .

الحياة ونعيمها الا بغيبوبة السكر ومضغ فتاة الموائد التى كان يجلسه حولها الاسياد وفى مقدمتم الكلاوى وينعى على نفسه وتخنقه عبرة الضعف البشرى ويؤنبه ضميره وينبعث فى داخله صوت الندم والحسرة ·

ويتجهم له وجه المجتمع فيقـول :

غريبا وان فى مسقط الراس مسكنى	وحيدا وان كانت أخـلاى كالنمل
وعربدتى فى الشرب ترغم مبصرى	ليخلد فى عينيه لى نظرة الـذل
وأغدو الى فعل المعاصى مهـرولا	وان اقصد الطاعات فالقيد فى رجلى
فلا عيشة ترضى ولا كسب طاعة	فلا أكثر الرحمن فى خلقـه مثلى

فهذه أبيات حارة بلواعجها لولا فتور فى البيت الثانى وضعـف فى تركيبـه وكلماتـه ·

وتصغر نفسه فى عينه فيقول :

وكم أدعى علما وحسـن ثقافـة	وما جاهل الا ومن فوقه جهلـى

فهذا تعبير وان كان متواضعا فى أسلوبه الا انه ينبىء عن صدق لهجة صاحبه وأنه لم يكن يستخفى بقناع الغرور والكبرياء أو الخجل ·

ويفت فى عضده ويسفر عن عجزه التام وانفلات الزمام من يده فيقول :

غلبت على أمرى وربى شاهـد	وما حيلة المغلوب منه على أمـر

وفى المصراع الثانى ضعف فى التركيب كذلك خصوصا موقع «منه» فيه

ومـن وطنيـاته قـولـه :

وحـدة مغـربيـة لـو عرفنـا	هـا لكنـا الاسيـاد والحكاما
وحـدة مغربيـة آه مـا أمـ	ـلأ منا لهـا النفوس احترامـا
وحـدة مغربيـة هـى مـا لـو	مد فى النفس من جواها اضطراما
وحـدة مغربيـة هى سـر الـ	ـفوز بالقصـد بالوئام الوئامـا
الوئـام الوئـام ترضى به اللـ	ـه وترضى الايمـان والاسلامـا

ثـم ينـادى الشبـاب بقولـه :

ياشبابا اضحى محل رجـاء	حققوا منـا فيكـم الاحلامـا
انه الوطن العزيـز دعاكـم	فاسمعوه ولا تكونوا نيامـا

وما أفتر لغة هذه الابيات وما أبرد تعابيرها المفككة مما يدل على انها صدرت منه لمجاراة القوم حتى يعد منهم والا فلا صدق فى لهجتها .

واقل من هذه فى الفتور والبرود هذه الابيات فى القضية الفلسطينية آنـــذاك :

عهدى ببيت القدس وهـــو مقدس ... والديـــن ديـــن والبـــراق بـــراق
كذب اليهـــود بوعـــده بلفورهـــا ... « بلفور » طعـــم المسلمين زعاق
هـــذا الوفـــاق وهـــذه آيـــاتـــه ... فـــاذا تخيـــب فالوفـــاق نفـــاق

ومثلهـــا قـــولـــه :

البشر بشر والســـرور ســـرور ... بالامـــس مـــات عدونـــا بلفـــور
يالعنـــة اللـــه اسكنـــن قبـــره ... فالروح رجس والفعـــال فجـــور

ومن شعره الانسانى قصيدة أنشأها بمناسبة افتتاح مأتم لايواء الايتام الفقراء بمراكش يقول فيها :

كيف المـــآل اذا تكـــون الحـــال ... بالجوع تقضى نســـوة ورجـــال
هذا الضعيف أمامكم مسترحمـــا ... يرجو النوال فهل لديكـــم نـــوال
فعساك تشفق من اليـــم عذابـــه ... واذا فعلـــت فربنـــا فعـــال

ومنهـــا :

عار علينا أن تمـــوت ضعافنـــا ... جوعا وتفضـــل عندنـــا الامـــوال
اللـــه فى البؤســـاء انـــت منهـــم ... لـــولا كريـــم واهـــب مفضـــال
لا فـــرق بينكـــم وبينهـــم ســـوى ... أنتـــم ذوو مـــال وهـــم لا مـــال
ولكم مقل قبل أصبـــح ذا غنـــى ... واخى غنى قـــد نابه الاقـــلال

وهى أبيات على صدق لهجتها واخلاصها لا بديع فى أسلوبها الذى هو اشبه بأساليب النظام منه بأساليب مصاقيع الشعراء .

ومن وطنياته هذه الاهابة التى يوجهها الى قومه فيقول :

بنـــى وطنى أن الشعوب واهلها ... قد استيقظت طـــرا وانتـــم نـــوم
هو الوطن المحبوب يرجو من اهله ... سمـــاعا لشكـــراه واهله انتـــم

مضى زمن الجهـل الذميـم زمانه وهـذا زمـان آن فيه التعلـم

ومنهـا :

اليكم بنـى الاوطان اشكو صنيعكم ولـم اشك الا منكـم واليكـم

وهى ابيات لا تختلف عن سابقتها الوطنية فى فتورها وقلق وضـع الكلمات فى محالها ولا أفهم مغزى لعطف الاهل على الشعوب فى البيت الاول « بنى وطنى ان الشعوب واهلها » فما يريد بأهل الشعوب هـؤلاء الا أن يكون قد وضع كلمة الشعوب فى غير محلها . فهى كلمة عصرية بالنسبة اليه ، أحييت من جديد فتلقفها مبهمة فى مدلولها . والا لما عطف عليها الاهل وفى البيت الاخير يقول « اليكم اشكـو » ثم يقول « ولم اشك الا اليكم » أفليس هذا تكرارا لا مبرر له ، الا كون الاخير مقابلا فيه الجار والمجرور هذا بآخر هو « منكم » وفيه شىء مما يشفع له الى جانب الحصر ، وان آذن به التقديم أو لا ومع هذا فشكوى صنيع الانسان هى الشكوى منه. فهو تكرار كذلك فى المعنى فقوله « أشكو اليكم صنيعكم » هو « اشكو منكم اليكم » وهو تعبير مطروق فى الآثار مثل قوله « أعوذ بك منك » وفى أقوال المتصوفة مثل « حسبنا أن نفر منكم اليكم » .

وفى نعيه على نفسه يلتمس لها عذرا فيقول :

وارمـى بنفسى فى صفوف أرا ذل ولست لهم شكلا وليسوا على شكلى
وقضيت عمرى هكذا فى تناقـض ففى الهزل ذو جد وفى الجد ذو هزل

وللشاعر ميل الى هذه المقابلات التى فيها قلب ما تتضمن الجمـل لقد قالت له أم كلثوم : « رأيت وجهك فى اللطائف » فقال لها « وانـا رأيت اللطائف فى وجهك » (1) وهكذا هنا « ففى الهزل ذو جد وفى الجد ذو هزل » وهو ما عهد له بكلمة « تناقض » .

وهذا شىء لا يكلف صاحبه الا أن يكون حاضر الذهن فيستغل ذلك

---

(1) كان معاصره الأديب الشيخ عبد العزيز البشرى ، مشهورا بين المصريين بهذه البوادر فى رد الصدور على الاعجاز .

فى الفرصة السانحة واللحظة الطارئة (1) ·

وكذا يصنع فى هذه الخمرية :

مر عام وأنت ياصاح صـــاح	ومن الراح لم تعد فى كفــاح
قد شربت المدام دهرا طويلا	فى صباحى وغدوتى ورواحى
واصطباح وصلتـــه باغتبـــاق	واغتباق وصلتـــه باصطبـــاح
من مدام كانهـــم عصروهـــا	من خدود الملاح وقت المـــزاح
وندامى كأنمـــا ندمـــوا عمـــ	ـا قضوه من عمرهم فى الصلاح
فرأو فى المبـــاح كـــل حـــرام	ورأو فى الحرام كـــل مبـــاح

وهذه الابيات خفيفة الظل ، بالرغم من تعلقها بتلاعب الالفاظ ، وفى نسبة أجراس حروفها ·

وكذلك نجد فى خمرية أخرى وان لم تتسم بهذه الخفة حيث يقول :

لما استقام ولم يفز بمرامـــه	اعوج كى تقضى له الاوطـــار
وكذا الزمان فمستقيم خائـــب	وأخو اعوجاج نـــال ما يختار
يختار من بين الزمان كواعبـــا	منهـــن أجيـــاد الظبـــاء تغار
وعليه فض ختامها فسروا وان	علقت بوصمة فعله الانظـــار

ففى هذا البيت من النشوز كون الراس يعلوه خمار من الحياة وكون أجياد الظباء تغار ثم البيت الاخير الا أن يكون واقعيا ·

ومن عامية الخمريات وسوقها قوله :

لئـــن فتكت سود العيون بمهجتى	فقد أوردتنى زرقها مورد الهلـــك
وكل صنوف الراح عاقرت كأسهـــا	فما اذهبتنسكى سوىخمرةالوسكى

فهـــذا كـــلام رجـــل الشارع ·

وأرق ماله فى الرثاء قوله فى رثاء هرة له :

هريرتـــى أو ما علمت بأن سهـــ	ـــم البيـــن يضنى صفحة المشتاق

---

1) ويعجبنى قولة لاستاذى الدكتور سليمان حزين اذ كان يقول « يعجببى النظام فى الفوضى ، والفوضى فى النظام » ·

لــــه ذيـــاك العنيـــق الملتـــوى	سبحـــان ربـــى المبـــدع الخلاق
هيهـــات بعد ان اراك مقبلة علـــ	ـــى بـــه فما بعد الحمـــام تـــلاق
كـــــم غضبة منى رأيت ونهـــرة	فيعـــود منك الـــراس فى اطراق
مـــا ضرنـــى الا ابتعادك حقبـــة	عنـــى لسقم مـــا لـه مـــن واق

فهذه أبيات على تضعضعها فريدة فى أدبنا وان لم تكن مثيلاتها بهذه الصفة فى الشرق منذ العصر العباسى الاول ثم فى أشعار المعاصرين وفى مقدمتهم العقاد الذى كتب فى رثاء كلبه صفحة ناصعة مؤثرة .

أما التضعضع فى هذه فبنحو « يضنى صفحة المشتـــاق » وبنحـــو « فيعود منك الرأس فى اطراق » و « لسقم ما له من واق » .

ومن آهاته ومآسيه فى النهاية من حياته قوله يخاطب اخوانه :

بمـــا بيننا من حرمـــة أيها الصحب	دعونـــى وما يقوى على حمله القلب
فانى مدهـــى بخطب يســـوءنـــى	وعيشى فى هذا الزمان هو الخطب
فلا تنكروا منى دموعا سكبتهــــا	تخفف احزانـــى دموع لها سكب

الـــى أن يقـــول :

ولى خير إخوان يودون عشرتـــى	ولى قد تصافى منهـــم الود والحب
يحبوننـــى حبـــا احبهـــم بـــــه	فمنـــى لهم قلب ولى منهـــم قلب

وقد لاحظنا فى هذه الابيات صنيعه فى تقليب الكلام على جمله رأسا علـــى عقب .

واغرب فى هذا ما قاله فى فار كان يتردد عليه ، ثم فارقه بعد أن انس به ، كما ادعى قائلا :

قلت والقلب مـــن القيـــــ	ـــظ يعـــانـــى مـــا يعانـــى
امـــن اجـــل المـــال ابقى	مفـــردا مـــن دون ثـــانـــى
وكـــذا حتـــى مـــن الفيـــ	ـــــران أرمـــى بهـــــوان

فأجابه هذا ـــ كمـــا قال ـــ :

قـال يـا خيـر اديـب دعك مـن ذا الهـذيـان
اكسـب المـال لتحظـى مـن رفاق بالتـدانـى
ووداعـا ان امـى وأبـى ينتـظـران

وأجمل ما فى الابيات آخرها

وله قطعة يندد فيها بالشعر وقوله وهى دون ما تقدم لنا من ابـن حبوس من حيث الاسلوب الشعرى والنفس الحار فيه اذ يستعمل هذا اسلوبا سوقيا فيه فيقول من أبيات :

صنعـة الشعر لقـد عـا فتـك نفسـى فاتركينـى
ادبـرى عنـى بـوجـه والقفـا منـك أرينـى

ومن هذا القبيل قوله فيه وفى نفسه :

واجعليـه ان تبـدى لـذوى الاثـراء قـالوا
شـاعـر بائـس حـظ شغلـه قيـل وقـالـوا
باهـت المـرأى كئيـب ساء مـن مـرآه فـال
ثـم غضوا عنـه طـرفا وبوجـه عنـه مالـوا

وبالجملة فان شعر هذا الرجل يكاد يخلو من عمل الخيال فيه وميزته أن صاحبه نطق بكل ما فيه وبما يسلكه فى الحياة وما صادف فيها .

وكل ذلك ينبىء عن أنه « شاعر بائس الحظ » لا تضحك له الدنيا الا لتعبس فى وجهـه مـن جديد . عـاش هائمـا ومـات هائمـا ، وهام أدبه معه وتشتت شمله ، وهضم حقه . فما ذكر الا ببعض النكت التى تدل على خفة روح ودعابة ، ولا تدل على عبقرية شاعرية ، أو موهبـة شاعرة ، بحق وعن حق ، اكتسبه فى فنه ، الذى هيمن عليه ، واخلد اليه .

خاتمة

نرى أولا ان الادب فى هذا الطور ظهر بمظهر خاص لم يكن رائجا ، فيما قبل ، فقد ظهر الفخر فيه بقوة ، كعنصر يحسب حسابه . وان كان له سابق عهد ، الا انه كان خافتا متقطعا . وغالبا ما كان لسان حال للملوك والامراء ، داخلا فى نطاقه الخاص من السياسة وصراماتها . فكان رجال الدولة وكتابها الناطقين بذلك .

أما فى العصر العلوى فقد خرج عن ذلك النطاق وتعدى حدوده الى الافراد . فنشط بين أدباء فاس ، خاصة ، أو فيمن اتصل بهم وكان على منافسة قوية معهم ، كما وجدنا فى ذلك بوادره بين اليوسى والفاسيين . واستمر هذا اللون فى نموه صعدا ، من النشوء الى الارتقاء ، حيث كان فى شعر عمر الفاسى وابن الونان والسكيرج ، وغير هؤلاء . ممن تقدم ذكر لهم .

ثانيا كان الهجاء ، يساك نفس السبيل ، وهو بطبيعة الحال ناشىء عن الاول ، أو أن الاول ناشىء عنه ، فهما مرتبطان بعضهما ببعض (1)

---

(1) مثلا ، نجد طرفة يفخر بقومه ، فيقول :

نحن فى المشتاة ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب فينا ينتقر

فهو فى شطره الاول مفتخر ، وفى شطره الثانى ، هاج لغيره بالعين ، أو بالتضمين ، حيث لا يدعو الضيوف جماعة ، بل ينتقى منها وعلى عكس هذا الترتيب ، نجد الحماسى يهجو الحجاج ، فيقول :

أبوك حباب سارق الضيف برده ... وجدى يا حجاج فارس شمرا

فانتقل من الهجو فى الاول ، الى الافتخار بجده فى الشطر الثانى .

وقد تضم الكلمة الواحدة ، فخرا وهجوا ، فى آن واحد ، وتلك ، كما نجد للفرزدق بقوله :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم ... اذا جمعتنا يا جرير المجامع

فاسم الاشارة للبعيد ، فيه تعظيم وتفخيم وافتخار هنا ، بآباء الفرزدق ، وفيه اهانة واستبعاد لمكانة جرير من مكانة قومه وآبائه والافتخار فى حد ذاته ، نزق وخيلاء ، ولهذا قال الله « ان الله لا يحب كل مختال فخور » وكذا الهجاء ، فى حد ذاته ، ولهذا لما تصدى حسان ، لقريش التى كانت تهجو النبي عليه الصلاة والسلام ، لم يكن تصديه هجاء ، بل دفاعا ومنافحة عنه ، كما قال :

هجوت محمدا فأجبت عنه ... وعند الله فى ذاك الجزاء

والهجو والفخر ، كلاهما من رواسب الحياة القبلية ، ومخلفات النعرة الجاهلية ، التى تؤرثها العصبية ، أو الظروف الحبية ؟ حيث تستغل هذه الطاقة ، حتى ولو كان العصر ، عصر الحضارة والمدنية الراقية . وقد نعى القرآن الكريم على حمية الجاهلية ، ونهى عن التنابز بالالقاب ووصفه بالفسوق .

وفيما يخص حظ الافراد من هذا اللون ، نجد سابق الحلبة فيه ، على العهد الموحدى الشاعر الجراوى ، كما تقدم ، وفى مقابله الاغماتى ، كما كان قبلهما بثلاثة قرون فى الاندلس ، الشاعر القلفاط ، يقابله ابن عبد ربه . اما فى العهد العلوى ، فقد كان يحمل لواءه ابن الونان ، يقابله السكريج (1) .

وليس معنى هذا ان نوازع الهجاء كانت خامدة ، كلا ، بل انها كانت فائرة بحكم المخاصمات والمنافسات بين المقاول والاقلام (2) وحتى فى عصرنا هذا الذى نعيشه ، وجدنا ملحمة فى الهجاء ، سماها صاحبها باسم « الالفية » لطولها وتنوع « أبوابها » وتعديد « فصولها » . وهى ان لم تكن بالفنية التى كان عليها الهجاء فى المشرق ، الا انها جارحة حازة ، تقض المضاجع بقعاقعها ومهاولها ، عفى الله عن صاحبها وموقظها .

ثالثا شيوع الخمريات ، فقد ظهرت هذه فيما مضى ، وفى شعر أبى الربيع الموحدى بصفة خاصة ، واختفت بعده الى أن ظهرت فى العهد المرينى ، عند الشعراء الذين كان لهم اتصال بالاندلس ، كما كان لابى الربيع قبلهم ، ثم اختفت ردحا من الزمان ، حتى كان القرن الحادى ، فانبعث من جديد ، وصدح الشعر بهما منذ العلمى .

رابعا الغزل الغلمانى ، ففى القديم لم نحفظ منه الا بيتين للجراوى، مجاريا للاندلسيين وهو بتونس ، ولكنه فى العهد المرينى صار يرفع عقيرته بين أولئك الذين كانوا على اتصال بالاندلس ، وفيهم حتى الفضلاء ، من نحو القاضى الشريف الغرناطى (3) وقوى بعض الشىء فى العهد

---

(1) وكلاهما كان فى الوقت نفسه يفخر بأصله العربى ؛ بخلاف الجراوى الذى كان كالحطيئة .

(2) واشدها ما كان بين مالك ابن المرحل وخصومه فى سبتة .

(3) وأبى العباس العزفى الذى نجد فى شعره الخمريات والغزل المذكور ، كما فى مطلع هذا المديح :

هذا الصباح فغادنى بصبوح ... وانهض براحك فهى راحة روحى
لا تكترث لخطوب دهرك واسقنى ... كاسا تحسن منه كل قبيح

الى أن يقول :

فى الراح والريحان شغل شاغل ... لى عن عيافة بارح وسنيح
وأهيم فى ورد الخدود وآسها ... لا فى عرار بالفلاة وشيح
وأصون سمعى عن مقالة عاذل ... لتذللى والحب عنى مشيح

الخ ما ورد بشعره ؛ من التعرض للغزل المذكر .

السعدى وطفح فى العلوى .

رابعا شيوع الشعر الشعبى المعروف باسم « الملحون » فمن قبل ، كانت بوادره فى أواخر العهد المرينى ، ونما بالعهد السعدى ، الى حد ما ، ثم استوى على سوقه واستغلظ فى العهد العلوى (1) .

ومهما يكن فقد ظهر الملحون فيما مضى واقدم نص للملحون وجدناه فى العهد الوطاسى وفى « قصيدة الحربى » الشاعر ابن عبود ، وهو من أهل فاس ، وكان أيام الوطاسيين ، وكان مع سيدى عمرو الوطاسى ... ثم عبد العزيز المغراوى أيام المنصور السعدى ، واصله من تافلالت ، كان يقيم بفاس وبعده المصمودى الفلالى كان أيام زيدان السعدى ، وبعده بقليل أبو الاطباق ، وسيدى عبد الاه بن حسين ، وسيدى الاخضر ، وسيدى محمد بن يخلف التلمسانى .

وكان أبو الاطباق واسمه سيدى مبارك ، من نواحى وهران ، الا ان قصائده الملحونة مشهورة بالمغرب ، كابن يخلف التلمسانى ثم كان سيدى سعيد أبو عثمان المنداسى ، وكان محمد بن عبد الله من شعراء الملحون ، فكان يشجعه ، ثم كان آخرون معاصرون لسيدى قدور العلمى وهو غير الازجال التى استظهرنا كونها بالعصر الموحدى فما بعده (2) .

خامسا شعر الحكم والامثال وهو شعر الكهولة الذى لا يبدو فى الادب الا لعوامل اجتماعية . ولم يكن لها انعكاس فى الادب العربى عندنا — والشعر منه بالخصوص — الا فى العهد العلوى ابتداء من اوله فى شعر اليوسى أما فيما قبل ، فقد كانت أبيات متناثرة ، ولثلة من الشعراء — فيهم متصوفة — من أوائلهم ابن حبوس ، حينما ساء ظنه بالناس ، ثم أبو حفص الاغماتى ، الذى ركن الى زهده ومكفراته ، كما كانت تتخلل تلك الحكم ، قصائد المراثى ، من اوائلها قصائد ابى الربيع سليمان الموحد ، ثم الميمونى وابن رشيد ، والجزنائى ومن أتى بعد هؤلاء ، فيمن قدمنا

---

1) مما جعل الدارسين ينكبون عليه ، وفى مقدمتهم الاستاذ الفاسى والدكتور عباس الجرارى ، الذى كان موضوع اطروحته وتخصصه فيه دون غيره .
2) وتقدم أن البهلول كان من الناظمين للازجال .

ذكرهم ، ونماذج لهم من ذلك الرثاء ، في العهد المريني ، ثم أوائل العهد السعدي .

والسبب في هذا أن شعرنا لم يلمس العقل ، بقدر ما لمس الوجدان ، او البصر ، فلم يتصل بالمنهج الفلسفي ، اتصال غيره ، في الشرق والاندلس ، وان كان هذا أيضا دون الشرق في ذلك .

وهناك ظاهرة عامة في الشعر ، أو الادب عامة ، منذ عصوره السابقة للعصر العلوي ، هذه الظاهرة ، ان الادب لم ينم نموا قويا ، الا في الشعر، اما النثر ، فقد انتكس ، وتأخر عما كان عليه ، فيما مضى .

نعم ، لم يعرف الادب ، مقامات بديعة ، ولا قصة ولو بسيطة ، ولا رسائل مطولة انيقة ، بل عرف المقامات المتواضعة ، في العهد المريني ، ثم في العهد السعدي ، مع اختلاف الموضوع ، فيها ، وقبول لصنيعها ، واختفت عن المسرح ، حتى كان العصر العلوي ، فظهرت على استحياء، ولم تجرؤ أن تؤدي الدور الذي كانت تؤديه ، في سابق الادوار ، كما نلحظ هذا عند عبد السلام العلوي .

ويبدو هذا عجيبا ، بالنسبة لهذا الادب وهو في ركاب القافلة التي كانت تسير بهدى ، من تراث الشرق وافريقية والاندلس ولكننا ان أمعنا النظر ، لا يطول عجبنا ، حيث أن الشرق نفسه اختفت منه المقامات ، وكذا افريقية منذ القرن الخامس ، ولا الاندلس منذ ابن الخطيب ، في القرن الثامن ، ثم كان السقوط في كل شيء ، والانحطاط في المقامات ، التي اقتحمها المغرب بالدرس دون الخلق .

اما القصة فكان حظها في جميع الاحوال ، دون حظها في الشرق والاندلس ، ولا نعني بالقصة ، ما هو معروف الآن ، بكل سماته الفنية ، بل نعني ما هو أبسط من ذلك كثيرا ، كقصة حي بن يقظان ، لابن طفيل، او قصص التوابع والزوابع ، لابن شهيد ، أو قصة المغررين ، التي اوردها الادريسي ، والغالب انه كان ناقلا عن الاندلسيين ، بدايل أدوارها التي ابتدات من لشبونة البرتغالية وحتى لو كان مخترعها ، فانها ، من

البساطة ، بحيث لا تستحق رعاية ملحوظة ، ولا عناية محظوظة ، وبذلك نضعها فى رفها ، الذى تعلوه رفوف الشرق والاندلس ، كما أشرنا اليه .

بعد هذا تبقى الرسائل السلطانية ، فلم نجد بيدنا فى العهدين الاخيرين ما كان على العهدين ، الموحدى والمرينى ، بل انما وجدنا العهد السعدى فيها ، أحسن حالا ، بكثير من العهد العلوى . والغالب ان ذلك حدث بالانغلاق الذى وجد المغرب نفسه فيه ، فالعلاقات التى كانت ، للموحدين مع الاندلس ، بادت ، والتى كانت للمرينيين مع الاندلس والشرق نعامتها قد شالت ، والتى كانت للسعديين ، مع الشرق من مصريين وأتراك ، لهم خطرهم ووزنهم ، قد نسخت وأصبح المغرب ، لا يجاور آلا الاعاجم ، بينه وبينهم البحر ، فى الشمال ، وبينه وبين الاتراك العداء فى الشرق . ثم كان الاتصال بهم أحسن منه الانفصال . لهذا كانت الرسائل السلطانية، ضعيفة ، لانها تنمو غالبا بالاتصال الخارجى أو الدبلوماسى المستعمل لنفس اللغة ، كما وجدنا فيما ضمه صبح الاعشى بخلافه ما كان بين السعديين وأمم لا تستعمل العربية ، ونعنى الاوربية خاصة ، كما نجد منهما امثلة كثيرة فى مجموعة « ديستر » .

اما الاتصال الداخلى ، فكان يكتفى بافعل ولا تفعل . وكفى بذلك شهيدا ، ويبقى ما بعد ذلك ترف ، نحن فى غنى عنه (1) .

ولم ترق الرسائل السلطانية ، وهى تخاطب الرعية ، الا فى العهد الخلفاء الاربعة الاول منهم خاصة .

وفيما يخص الرسائل الاخوانية ، فقد كانت مقتضبة ، ولم نر لها طولا الا قليلا ، فيما راج بين العلمى والشرقى وابن سليمان ، وابن ابراهيم الفاسى ، وهى لا تختلف عما كانت عليه ، أيام السعديين ، وغالبا ما تتضمن بعض الاشعار ، لاصحابها ولغيرهم ، ومسائل علمية .

(1) ذكر لى صديقى مصطفى بن عبد الوهاب ، ان بيده رسالة ، أو رسائل ، كانت تروج بين الفقيه السيد محمد بن تاويت وبين الامير مولاى العباس ، وان احدى هذه الرسائل ، كانت عبارة عن جواب مولاى العباس ، على ظهر الرسالة التى كان ابن تاويت قد وجهها اليه ولم يكن ذلك العهد عهد تخلف وانحطاط أدبى ، بل كان عهدا يساير ما قبله ، من المولى عبد الرحمن ، فابنه محمد ، وبعده كان الحسنى الذى سما به وارتقى بنشأته ، فأصبح من العصور الزاهرة لأدبنا .

ومما امتاز به العهد العلوى ، هذا اللون المزدحم بشتى المعارض العلمية والادبية والحضارية ، ويكفى ان نجد له مكانا ، فى الشمقمقية (1) :

كما امتاز بطول القصائد ، التى منها السابقة ، ثم اللاحقة ، فيما نظمه حمدون ، ابن الحاج ، فى السيرة ، وكان يستغرق اربعة آلاف بيت ، يفوق بذلك ، مقصورة المكودى فى السيرة ، بنحو عشر مرات ·

اما التأليف فى العلوم والفنون ، فلا جديد فيه ، الا ما تناول منه الموسيقى الاندلسية ، عرضا كالمطرب ، وأساسا كالحايك ، والا الموسوعات العلمية التى الف فيها اليوسى ومنافسه الفاسى · واختصت بتعاريف العلوم · وكان الشرق قد سبق الى ذلك ، ثم تونس · فكان من الشرق القرافى ، ومن تونس ابن خلدون ومعاصره ابن عرفة ·

ومن الجديد فى هذا العهد أدب التوسل بالاولياء والصالحين ، وهذا ربما اتانا من الاندلسيين المهاجرين ، كما نم عنه الدقون · على أن هذا ظهر قبيل قيام هذه الدولة ، وعلى أوائلها ، بفضل علماء جلة ، كان على رأسهم الحسن اليوسى ·

وهناك شىء آخر جديد تفوقت فيه الدراسات المغربية التى تتصل بالمعجمات ومفرداتها · حقيقة ، ان الاهتمام بذلك ، ظهر فى القرن السابع ، وفى سبتة بالخصوص ، ولكنه لم يكن يتخذ صفة مدرسية مستمرة بل كان دراسات شخصية ، متقطعة ، وكثيرا ما كانت منبثقة عن الاندلس ، لدرجة أن بعض رجالها عد فى الاندلسيين ، كابن هشام وابن المرحل وان كان هذا ما لقى المولد ·

اما فى العصر العلوى ، فيكفى أن نجد فيه ذلك العلم الفرد ، الذى انتشر اوائل القرن الثانى عشر ، او اواخر العهد الاسماعيلى ، وظل يرفرف على المغرب والمشرق ، طيلة نصف قرن تقريبا ، وهو محمد ابن

---

1) التى حملنى بيت منها على تعلم الشطرنج ، هذا البيت هو :

ولا تحارب ساقط القدر فكم ··· من شيهة قد غلبت بحذق

الطيب الفاسي الشركي نسبا والذى تعد مؤلفاته اللغوية بالعشرات ،منها الحاشية على القاموس ، التى اعتمد عليها صاحب تاج العروس . وفى عهده صرنا نجد فى تراجم الرجال ، ذكرا ادراسة القاموس او مقدمته ، وان كانت هذه المدرسة — مع الاسف — لم تعمر طويلا فى المغرب ، بل عمرت فى المشرق الذى هاجر اليه ابن الطيب .

وبعد هذا ، نقول مكررين القول : ان تلك العصور والابواب ، لم تكن بينهما فواصل حاتمة ، بل ان كثيرا من الرجال تعدى صفة الاديب ، كما أن كثيرا من الظواهر كان بعضها يتداخل فى الآخر او يغيم فيه ، ولهذا كانت تلك الفواصل تقريبية .

وبعد فان هذه جماعة ذكرنا أفرادها ، بأدبهم ، وجلهم عاشوا فـــى العهود السالفة والحاضرة ، لم نقصد الى الاستيعاب بل جعلنا منهم امثلة لهذه المرحلة ، ومن ادبهم نماذج لما كان يضطرب فى عهدنا ، وتتلقاه الاسماع بالقبول والانصات وتردده الاقوام ، على افواه التلاميـــذ ، وفى حفـــلات الاعـــراس بفـــاس وغيرهـــا .

ولم نذكر الا القليل من اعيانهم ومن آثارهم ، ولو حاولنا ذلك ، لقضينا فيه السنوات ، متقصين جامعين لمختلف الجرائد والمجلات ، وما كان اكثرها عددا وميولا ، فيها الرسمى الحكومـــى ، وفيها الحزبى الوطنى ، وفيها الثقافى الخالص ، وفيها المنحاز الى سياسة الحكم القائم ، وفيها المداهم له ، بشتى الاساليب .

كل هذا لم نحاول الخوض فيه ، ولم يسمح لنا الوقت باستيعابه ، حتى الآن ، ونحن على نية ذلك ، نخوض مع الخائضين فيـــه كلمتنـــا فى مضمونه ، صريحة هادفة للحق والحقيقة وحدهما .

اما ما بعد التخلص من حجر الحماية ، فحدث عن البحر ولا حرج ، لقد وقعت الانطلاقة من مضمار ، لم يكن طوله الا بضعا وعشرين سنة ،

ومع هـــذا راينـــا شلالا من الانتـــاج الادبى المتنوع ، يفخر به هذا البلد الامين المتوثب دائما التواق الى ابعد الغايات ، بحيث لو صنفنا نشاط هذا الجيل من ابنائنا ، لوجدنا فى كل صنف منه ، ما يتطلب تسجيله الاسفـــار الضخـــام .

فليبارك الله هؤلاء الابناء ، وليحفظ لهم حيويتهم الدفاقة ، وانتاجهم المستمر بدون توقف ولا تعثـــر ، وفكرهم المتفتـــح بلا تلبد ولا تبلـــد ، حتى يصبح أدبنا يشاهد أزهى عصوره ، وينعم بأينع ثماره .

تنبيـــــــه

اعتمدنا فى تأليفنا هذا على أزيد من مائة مصدر ومرجـــع جلها ذكرناها بصلب الكتاب وبتعاليقه .

باذلين الجهد أن يكون كاسمه وافيا بمهمته التى طالمـــا عملنا على تحقيقها ، فكان مـــن بواكيرها كتابنا فى الماضـــى « الأدب المغربى » ولسان الحال ينشد :

« علي نحت القوافي من معادنها   وما على اذا ... »

والله يعصمنا من الزلل ويوفقنا لصالح العمل .

فهرس الموضوعات

الباب السادس

الفصـــل الثانـــي

الباب السابع

الفصـــل الثانـــى

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضـاء



صــدر عــن :

الكتاب	المؤلف
روضة التعريف بالحب الشريف 1 – 2	تحقيق د. محمد الكتاني
محمد اقبال مفكرا اسلاميا	د. محمد الكتاني
الخوارج في بلاد المغرب	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
سوسيولوجية الفكر الاسلامي 1 – 2	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
تأملات في الأدب المعاصر	د. ابراهيم السولامي
كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الامارة	الحسن المرادي : تحقيق د. علي سامي النشار
الأصول : دراسة ابيتسيمولوجية	د. تمام حسان
مناهج البحث في اللغة	د. تمام حسان
اللغة العربية مبناها ومعناها	د. تمام حسان
اللغة العربية بين المعيارية والوصفية	د. تمام حسان
المدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين	د. محمد نجيب البهبيتي
المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ 1 – 2	د. محمد نجيب البهبيتي
تاريخ الشعر العربي	د. محمد نجيب البهبيتي
أبو تمام الطائي	د. محمد نجيب البهبيتي
أحاديث عن الأدب المغربي	العلامة عبد الله كنون
تفسير سور المفصل من القرآن الكريم	العلامة عبد الله كنون
رسائل ابن علي الحسن اليوسي 1 – 2	تحقيق الأستاذة فاطمة خليل
زهر الأكم في الامثال والحكم 1 – 3 لأبي علي الحسن اليوسي	تحقيق د. محمد حجي و د. محمد الأخضر
وقعة وادي المخازن	د. ابراهيم شحاتة حسن
فلسفة بيكون	د. الحبيب الشاروني
تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية	الدكتور لبيب يونان رزق
عالم شاعر الحمراء	الأستاذ عبد الكريم غلاب
دفنا الماضي	الأستاذ عبد الكريم غلاب

رقم الايداع بالخزانة العامة 384 / 1981

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الثمـن : 30.00 درهما



صـــدر عـــن :

• روضة التعريف بالحب الشريف 1 – 2	تحقيق د. محمد الكتاني
• محمد اقبال مفكرا اسلاميا	د. محمد الكتاني
• الخوارج في بلاد المغرب	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
• سوسيولوجية الفكر الاسلامي 1 – 2	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
• تأملات في الأدب المعاصر	د. ابراهيم السولامي
• كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الامارة	الحسن المرادي : تحقيق د. علي سامي النشار
• الأصول : دراسة ابيتسيمولوجية	د. تمام حسان
• مناهج البحث في اللغة	د. تمام حسان
• اللغة العربية مبناها ومعناها	د. تمام حسان
• اللغة العربية بين المعيارية والوصفية	د. تمام حسان
• المدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين	د. محمد نجيب البهبيتي
• المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ 1 – 2	د. محمد نجيب البهبيتي
• تاريخ الشعر العربي	د. محمد نجيب البهبيتي
• أبو تمام الطائي	د. محمد نجيب البهبيتي
• أحاديث عن الأدب المغربي	العلامة عبد الله كنون
• تفسير سور المفصل من القرآن الكريم	العلامة عبد الله كنون
• رسائل ابن علي الحسن اليوسي 1 – 2	تحقيق الأستاذة فاطمة خليل
• زهر الأكم في الامثال والحكم 1 – 3 لأبي علي الحسن اليوسي	تحقيق د. محمد حجي و د. محمد الأخضر
• وقعة وادي المخازن	د. ابراهيم شحاتة حسن
• فلسفة بيكون	د. الحبيب الشاروني
• تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية	الدكتور لبيب يونان رزق
• عالم شاعر الحمراء	الأستاذ عبد الكريم غلاب
• دفنا الماضي	الأستاذ عبد الكريم غلاب

رقم الايداع بالخزانة العامة 384 / 1981

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء

الثـمـن : 30،00 درهما



صدر عن :

روضة التعريف بالحب الشريف 1 – 2	تحقيق د. محمد الكتاني
محمد اقبال مفكرا اسلاميا	د. محمد الكتاني
الخوارج في بلاد المغرب	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
سوسيولوجية الفكر الاسلامي 1 – 2	د. محمود اسماعيل عبد الرازق
تأملات في الأدب المعاصر	د. ابراهيم السولامي
كتاب السياسة أو الاشارة في تدبير الامارة	الحسن المرادي : تحقيق د. علي سامي النشار
الأصول : دراسة ابيتسيمولوجية	د. تمام حسان
مناهج البحث في اللغة	د. تمام حسان
اللغة العربية مبناها ومعناها	د. تمام حسان
اللغة العربية بين المعيارية والوصفية	د. تمام حسان
المدخل لدراسة التاريخ والأدب العربيين	د. محمد نجيب البهبيتي
المعلقة العربية الأولى أو عند جذور التاريخ 1 – 2	د. محمد نجيب البهبيتي
تاريخ الشعر العربي	د. محمد نجيب البهبيتي
أبو تمام الطائي	د. محمد نجيب البهبيتي
أحاديث عن الأدب المغربي	العلامة عبد الله كنون
تفسير سور المفصل من القرآن الكريم	العلامة عبد الله كنون
رسائل ابن علي الحسن اليوسي 1 – 2	تحقيق الأستاذة فاطمة خليل
زهر الأكم في الامثال والحكم 1 – 3 لأبي علي الحسن اليوسي	تحقيق د. محمد حجي و د. محمد الأخضر
وقعة وادي المخازن	د. ابراهيم شحاتة حسن
فلسفة بيكون	د. الحبيب الشاروني
تاريخ العلاقات الانجليزية المغربية	الدكتور لبيب يونان رزق
عالم شاعر الحمراء	الأستاذ عبد الكريم غلاب
دفنا الماضي	الأستاذ عبد الكريم غلاب

رقم الايداع بالخزانة العامة 384 / 1981

مطبعة النجاح الجديدة
الدار البيضاء